الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

أعمال يوحنا ومانويل كومينوس

تأليف
يوحنا كينا موس
مع ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية

دمشق
١٤١٨ / ١٩٩٧

الجزء الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

تبين لي أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أنه على الرغم من الأهمية العظمى لمعركة حطين، ان اخفاق الحملة الثالثة، شكل الحدث الفيصل بالنسبة لجميع وقائع الحروب الصليبية، لأن الذي توفر لهذه الحملة لم يتوفر لسواها، لذلك سعيتُ نحو الحصول على كل ماكتب عنها في الأصول، لاسيما غير العربية، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وكان كل الذي توفر لي آنذاك حولها هو ذيل تاريخ وليم الصوري.

وقمت في شتاء العام الماضي برحلة بحث علمي أخذتني إلى عدد من المكتبات العالمية والعربية فحصلتُ من لندن على عدد من الأصول ومن مكتبة الكونغرس على خمسة أصول نادرة كنتُ بأمسّ الحاجة إليها، وهكذا توفر لدي ماكنت بحاجة إليه من مصادر غربية وعربية، منها مواد هذا المجلد الذي أقدم له، وتعلق جلّها بالحملة الثانية، ومواد نثرية وشعرية عملاقة تعلقت بالحملة الثالثة، ثم مواد أخرى عن بقية الحملات.

وقمتُ وأنا أتولى إعداد الفهارس للمجلدات التي طبعت وكان عددها خمس وعشرون والتي دعيتها باسم الحلقة الأولى من الموسوعة، بإعداد هذا المجلد، الذي يشكل الجزء الأول من الحلقة الثانية.

وقوام خطتي الآن أن أقدم أولاً الأصول الأوربية حتى نهاية الحملة

السابعة المخفقة، ثم سأعقب ذلك بتقديم أعمال الرحالة الذين جاءوا من أوروبا أثناء الحروب الصليبية، وسيأتي إثر هذا كل من كتابي: «الأسرار» و«استرداد الأراضي المقدسة» اللذان كتبا بعد تحرير عكا وانهاء الوجود الفرنجي في بلاد الشام.

وبعد الفراغ من هذا العمل سألتفت نحو المصادر العربية وكلها جديد وهام وغني لاسيما مواد البدر العيني في «عقد الجمان» التي جاءت في عدة آلاف من الصفحات، هذا وسألحق الموسوعة بعدد من الأجزاء حول تاريخ المغول والعلاقات المغولية الصليبية، وفي الحقيقة إن مجلد العلاقات جاهز للطباعة.

ويحوي المجلد الحالي كتاب «أعمال جون ومانويل كومينوس» الذي ألفه يوحنا كيناموس، وتكمل مواد هذا الكتاب مواد كتاب الألكسياد لآناكومينا، ولقد تمّ التعريف بالمؤلف وبعمله في المدخل المقبل، وبالاضافة إلى كتاب كيناموس انتزعت ماأورده أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية في كتابيه: «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا».

ويعدّ أوتو أسقف فريزنغ أعظم المؤرخين الألمان في العصور الوسطى، ثم إنه يتمتع بمكانة قومية ووطنية لدى الألمان، وقد كان عضواً في واحدة من أعظم الأسر الاقطاعية الحاكمة في ألمانيا، فأسرته هي أسرة بابنبيرغ Babenberg ، ووالده هو مارغريف ليبولد الثالث صاحب النمسا، وكان واحداً من المرشحين لعرش الامبراطورية الغربية أثناء الانتخابات الملكية لعام١١٢٥، وأمه هي أغنس ابنة الامبراطور هنري الرابع، وكان زوجها الأول هو فردريك هوهنزتوفن Hohenstaufen دوق سوابيا، وعلى هذا كان أوتو أخاً من جهة الأم لكونراد الثالث وعماً لفردريك بربروسا نفسه، وبذلك كان مؤهلاً ليؤرخ لأيامه وللمرحلة المبكرة من حياة بربروسا.

فلقد ولد أوتـو في حوالي سنة١١١٠، وتوفي عـام١١٥٨، أي قبل سنين طوال من وفاة فردريـك بربروسا، وغرقه الأمر الذي مـرت أخباره معنا من قبل أثناء التأريخ للحملة الثالثة.

والتحـق أوتو منـذ سنـواته الأولى بـالسلـك الكهنـوتي، وقاده هـذا إلى الدراسة في باريس حيث أمضى عـدة سنوات هناك، التقى خلالها بكبار علماء عصره ورجـال الـلاهـوت، كما أنـه نال بعـض الثقـافـة الفلسفيـة، ويـرجح أنـه كـان في بـاريس سنـة ١١٢٧أو١١٢٨، وقـد غـادرها سنـة ١١٣٣، وتوقف في طريقه في شامبين حيـث دخل في سلك كهنة أخوانية دير سيستيرشيان Cistercian ، وصار فيها بعـد راعياً لهذا الـديـر، لكن تظـل أهم مرحلة في حيـاته الكهنوتية، حينما أصبـح في سنة ١١٣٧ ومن خـلال نفوذ أسرته أسقفـاً لمدينة فريزنـغ، وظلّ يشغل هـذا المنصب حتى وفاته التي حدثت سنة ١١٥٨ كما أسلفنا أعلاه.

ونبعـت شهـرة أوتـو في ميـدان كتـابـة التـاريـخ مـن خـلال كتـابـه «المدينتـان»، وهو كتـاب أراد أن يـؤرخ به للعـالم حتـى سنة١١٤٦، وقـد جعلـه في ثمانية أقسـام [كتب] وتـأثر بكتـابته بمثـل القديـس أوغسطين وكتابه «مدينـة الرب»، ومدينة الرب لدى أوغسطين هي رومـا التي كـانت قبل المسيحيـة مدينـة الشيطان، ثمَ غـدت مدينـة الرب يحكمهـا «نائب الرب على الأرض، بابـا الكنيسة الكاثوليكيـة»، وظهرت في حقبة الحروب الصليبية مـدينة أخرى هـي مدينـة القدس السماوية، يضـاف إلى هذا أن روما غدت مـدينة الرب من خـلال الصراع الأبدي بين الخير والشر، فعلى فكرة الصراع هـذه دارت فلسفة أوتو التاريخيـة في كتابه، وهذا هـو الذي منحه شهرته في ميدان الفلسفة التاريخيـة، ومكانته القيادية في هذا الميدان خلال العصور الـوسطى الأوروبية ولأن كتابـه عن حياة فردريـك وأعماله يـدخل في فـن السيرة والتراجم فقـد انعـدمت في ثنـاياه فلسفـة الصراع هذه، وجاء بالتـالي كتاباً خلواً من المرارة وروح التراجيديـا، وأوتو في كتابه

عن فردريك مؤرخ عادي، وليس فيلسوفاً محلقاً حسبما شهدناه من قبل، فهو على هذا يشكل انتكاسة في حياته الفكرية.

ونظراً لوفاة أوتو قبل فردريك، هو على هذا لم يؤرخ لحياته كلها، ومع أنه جرت محاولات لإكمال عمله والتذييل عليه، الهام بالنسبة لنا من كتابيه ماجاء حول الحروب الصليبية، حيث يبدو أن أوتو كان مع كونراد الثالث أثناء الحملة الثانية وترك اخفاق هذه الحملة في نفسه مرارة قاسية جعلته يقلع عن الحديث عن تفاصيلها لاسيما حصارها لدمشق، ثم عن أسباب هذا الاخفاق.

ويوجد في كتابه «المدينتان» مادة مفيدة عن الحملة الصليبية الأولى تعلقت بتفصيل ماذكره وليم رئيس أساقفة صور، عن قدوم وفد أرسلته الخلافة الفاطمية للتفاوض، أو بالحري للتحالف مع الفرنجة أثناء حصارهم لأنطاكية، وكانت أهداف هذا التحالف موجهة ضد السلاجقة، ويضيف أوتو خبراً فيه أن وفداً من الفرنجة ذهب إلى القاهرة، ويومي إلى أن من نتائج المباحثات مع هذا الوفد هناك كان تجهيز حملة فاطمية ضد القدس، احتلت المدينة وطردت منها الأراتقة التركمان، ولاشك أن رجالات الوفد الفرنجي عرفوا أثناء رحلتهم في الذهاب والإياب طرق وأوضاع بلاد الشام، ومصر مع صورة وافية لأوضاع القدس ودفاعاتها، علماً بأن هذه المدينة —كما رأينا— ستسقط بعد أمد وجيز للحملة الأولى، التي تولى رجالها ذبح جميع سكانها.

واليوم وأنا أكتب هذه التوطئة أجدّد الشكر للقائد العربي الكبير الرئيس حافظ الأسد، الذي رعى هذا المشروع منذ البداية ووجّه محموداً بمتابعة العمل فيه ومن ثم طباعته ونشره.

هناك تشابه كبير بين أوضاع الأمة العربية الآن وأيام الحروب الصليبية، فحين تخاذل من تخاذل وكاع من كاع، وقف ساعة المحنة نور الدين في

دمشق، فكان بارقة الأمل التي مهدت السبل لبزوغ شمس التحرير يوم حطين، وفي يومنا هذا يقف الرئيس الأسد وحده متصدياً للهجمة الشرسة للاستعمار الأمريكي الصهيوني، ويسعى بدون كلل وبعبقرية عملاقة لجمع شمل العرب والمسلمين.

إن رجال الفكر في الوطن العربي مع موقف الرئيس الأسد، وكذلك الأحرار في جميع العالم، والعرب والمسلمون الواقفون في ظل رايته لايأبهون بمواقف الذين غلبتهم شهوة الحكم وحرفهم شبق السلطة، إنهم يقرأون وهم معه قوله تعالى:

﴿قل ياأيها الكافرون. لاأعبد ماتعبدون. ولاأنتم عابدون ماأعبد. ولاأنا عابد ماعبدتم. ولاأنتم عابدون ماأعبد. لكم دينكم ولي دين﴾.

التحرير مقبل لامحالة وسيزول العدوان الصهيوني كما زال العدوان الصليبي طال الزمن أم قصر، فالله تعالى وعد هذه الأمة ووعد رسالتها بالحفظ بقوله جلّ وعلا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

من الله أستمدُ العون، وأنشدُ السداد والتوفيق، وله جلّ شأنه الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيد البشر النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وكل من اتخذه مثلاً أعلى له.

سهيل زكار

دمشق ١٠/ ربيع الثاني١٤١٨

١٤/ آب١٩٩٧

مدخل

تمتع تطور تاريخ الامبراطورية البيزنطية، التي كانت بالنسبة لسكانها امبراطورية رومانية مسيحية، بسلسلة من المؤرخين البارزين، ولقي عصر آل كومنين وآل أنجيلوس ١٠٨١-١٢٠٤ اهتمام ثلاثة من المعاصرين تغطي كتاباتهم المدة بطولها، فبعد موت ألكسيوس الأول (١٠٨١-١١١٨) بأمد كتبت ابنته آنا ملحمة حياته، بكتاب حمل عنوان الألكسياد، بنغمة فيها حرارة وعاطفة قوية تجاه أبيها، وصحيح أنها ركزت الأضواء على انجازات أبيها العسكرية، فقد غطت خلال ذلك جوانب هامة من تقاليد وتفكير الامبراطورية البيزنطية وسلوكها، وقام يوحنا كيناموس بمتابعة التأريخ لبيزنطة من حيث توقفت آنا، فقد خطط لكتابة تاريخ عن حكم جون الثاني [١١١٨-١١٤٣] ومانويل الأول [١١٤٣-١١٨٠]، لكن النص الذي وصلنا يتوقف مع أحداث سنة١١٧٦، وكتاب كيناموس هو أيضاً كتاب اطراء وتمجيد للامبراطورين، لاسيما لمانويل، ومثل كيناموس بدأ نكيتاس كونياتس روايته منذ وصول جون الثاني إلى الحكم حتى سنة١٢٠٤ عندما استولى الفرنجة الغربيون على القسطنطينية، ثم أضاف بعض الأخبار حول بعض ماتلا ذلك من أحداث حيث توقف مع سنة١٢٠٦، وكتابه كتاب ازدراء متصنع للأباطرة الذين عاش في ظلهم، حيث استهدف تحديد الملامة عن مسؤولية سقوط القسطنطينية وانهيار الامبراطورية سنة١٢٠٤، وكان بحكم كونه مؤرخاً، وشخصيته رئيسية متألماً لما حدث، ومرعوباً من وقع مأساة أيامه، ولذلك كتب بقلم حاد مقيت يشبه أسلوب توسيدس، وكتابه الطويل، الذي يستحق عناية أفضل متوفر في ترجمة ألمانية(١).

لماذا على هذا نقوم بترجمة كيناموس، الذي هـو الأدنى مكانة وأهمية بين الثلاثة؟ لأننا بدونه ستكون معلوماتنـا عن التاريخ البيزنطي وعن العقلية البيزنطيـة هي الأفقر، فبالنسبـة للسنوات من ١١١٨ حتـى ١١٧٦ يغطي هو ونكيتاس كونياتس الأرضيـة نفسها، لكن وفق طريقتين مختلفتين كلياً، وهذا واضـح وحقيقي بـالنسبة لحكـم مانـويل، الـذي وصفه كينـاموس بشكل مطـول بينما عرضـه نكيتاس بـاختصار، غير أن نكيتـاس كشف في كثير من الأحيان أموراً جـرت تغطيتها من قبل كيناموس، لـذلك لايمكن قراءة أحدهما دون الآخر.

زد على ماتقـدم كان كل مـن آنا كـومينا ونكيتاس شخصين متميـزين بثقـافتهما التـي تفوقـت على ثقـافـة معظـم معـاصريهما، وكان بـالمقـابـل كينامـوس متعلماً بيزنطياً عـادياً، فهو قد قـرأ بشكل مفيد الكـلاسيكيات، وكـان متقبلاً بـلا جـدال للأشكـال العـامة للعقـائد المسيحيـة، وكانـت عقيدته وديانتـه هي ديانة الامبراطورية والامبراطور: الامبراطـورية كمركبة لتوحيـد بني البشر، والامبراطـور كقائد مختـار لأجل شعبـه، وجعلت هـذه المفاهيم التي شاركه فيها غالبية النـاس من عمله عرضاً رئيسياً للبساطة، والفهم المبـاشر لطبيعة التاريـخ وأهدافه حسبما رعـاها وتصورهـا الكتّاب البيزنطيون.

وولد كينـاموس حسبما ذكـر مراراً بعـد وفاة الامبراطـور جون الثـاني في نيسان١١٤٣، لكن كما يبدو ليس بعد هذا التـاريخ بوقت طويل(٢)، وفي الوقت الذي لانعرف فيه شيئاً عن أسرته، غير:

كـان باسيـل كينـاموس أسقفـاً لبـافـوس في قبرص عام١١٦٥ وبعـد ذلك(٣)، ويبدو أنـه تدرب منذ صغره على أسـاليب البلاغة، ممـا يعكس تأثير ونفـوذ نقفور بـاسيكلس عليه، وكـان هذا مـن الخطباء المشهـورين، وربما كـان أستاذه(٤)، ويـؤكـد عنـوان تاريـخ كينـامـوس أنه كـان مـن

العـاملين في البلاط الامبراطـوري(٥)، وبذلـك كـان واحداً مـن مجموعـة كبيرة مـن الكتّـاب الـذيـن ارتبطـوا بـالبـلاط الامبراطـوري وبشخـص الامبراطور، واستخـدم هؤلاء أحياناً في مهـام دبلوماسية أو أرسلـوا لمرافقة بعض الجيـوش(٦)، ويبدو أن بعـض العاملين مـن هؤلاء، مثـل نكيتاس كـونياتـس، قد ميـزوا أنفسهم، وتمكنـوا من الارتقـاء إلى مراكـز عاليـة في الادارة الاقليمية أو المركـزية، لكن يبدو أن كينـاموس لم يفعل ذلـك، وقد ذكر أنه دخل في خـدمة مانويل منذ أن كان صبيـاً: «حتى قبل أن أصبح يافعاً، رافقـت عدداً من حملاته في كل من القـارتين»(٧)، ونستخلص من اهتماماته العسكرية ومن القليل الذي نعـرفه عن حياته، أنه قضى معظم عمره خلال حقبـة حكم مانويـل مع الجند(٨)، ومن المحتمـل أنه شارك في الحملـة الايطاليـة لعامـي ١١٥٥-١١٥٦، فـوصفه لها فيـه حيويـة، وتحديـداته الجغـرافية دقيقـة تماماً، مـع أنه كـان آنذاك —كما يبـدو— لم يتجاوز الاثنتي عشر سنة(٩)، ومثل هذا لـدى حكايته أخبار السفارة التي أرسلـت إلى روما عـام١١٥٧، فهنا قـدم لنا بشكـل مفاجـىء معلومـات لامثيل لها عن سياسات مدينة روما، وعـن ممارسة البابوية لأعمال الحرمان (الذي كـان غير معروف في الكنيسة الشرقيـة) وأيضاً عـن سياسة الـرسل البيزنطيين، فلو لم يكن حاضراً، لما امتلك مثل هذه المعلومات الهامة، وقد غـدا أخيراً قريبـاً من الامبراطـور إلى حد أنـه —كما قال— تنـاقش معـه حول قضايا من فلسفة أرسطو(١٠).

وكانـت المناسبـة الأولى التي ذكـر أنه كـان شاهـد عيان فيهـا هي في عـام١١٦٥ لـدى حصـار مـانـويـل لـزيغمنـون (زيمـون الحاليـة) في يوغـوسلافيا(١١)، ولـدى جمعنا مـابين نصين منقولين عنه نتـوصل إلى أن كينـامـوس كـان حـاضراً سنـة١١٧٦ معـركـة ميريـوكيفـالـون My-riokphalon المأسـاوية، فقـد حكى النـص الأول شكـوك كينامـوس بشأن اقدام مانويل في المعركة:

«حتى وصلت حقائق الأمر إلى ادراكي، لأنه صدف أن كنت وسط العدو مطوقاً من قبله، أراقب عن قرب مقاومة الامبراطور لفرقة تركية كاملة، لكن التاريخ سيصف هذا في الوقت المناسب»(١٢)، ثم قال فيما بعد: «لأنه بعد كثير من السنين أصبح قلج أرسلان لايعبأ بارتباطاته نحو الامبراطور، وقد جعل هذا الرومان يقاتلون الترك بكامل القوات، وصدف أن وقع الجيش في منطقة صعبة، وفقد كثيراً من الأعيان، واقترب من المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور شوهد هناك أنه تفوق في فن الحرب وتجاوز البراعة البشرية، لكن كما سلف وقلت: هذه الأمور ستتم حكايتها فيما بعد من قبلي»(١٣)، ومما لاشك فيه أن النص الأخير يومي إلى ميريوكيفالون، والإحالة فيه تشير فقط إلى النص المتقدم، الذي ورد قبل عدة صفحات، ويبدو أن كيناموس كان واحداً من حفنة الرجال الذين نجوا من المأساة، والمؤسف أن نص تاريخه كما وصلنا ينقطع عند بداية الحملة قبل تلك المعركة.

وكانت المحطة التالية في حياة كيناموس مرتبطة عن قرب بتصنيف تاريخه، فقد كتب بعد موت مانويل يقول: «لقد هلك مخلفاً الامبراطورية إلى ولد في سن المراهقة» وأشار فيما بعد إلى ولادة هذا الوريث، أعني ألكسيوس الثاني بعبارات مسايرة محكمة، ووعد بتقديم وصف شامل له في اللحظة المناسبة(١٤)، وقدم رواية فيها اطراء زائد عن العلاقات بين لويس السابع ومانويل أثناء الحملة الصليبية الثانية، وهي رواية تجاهلت عدداً كبيراً من نقاط الخلاف والصراع بين الحاكمين(١٥)، ومن الممكن فهم هذه المعاملة عندما يقيم المرء التقدير لحقيقة أن لويس كان حمو ألكسيوس الثاني، هذا ولم يول كيناموس أسرة أنجيلوس المدح بشكل منفرد، وفي الحقيقة وصف قسطنطين أنجيلوس جد الأباطرة المقبلين بعدم الكفاءة بسبب فقدانه أسطولاً أمام النورمان(١٦)، وتلقى أندرونيكوس كومينوس معاملة فيها بعض التناقض: فقد تولى وصف

كراهيته الشديدة لمانويل وخيانته له بالتفصيل، لكن نجاته ببراعة من السجن نال اعجاب كيناموس، فهو لم يمدحه ولم يطريه وكأنه الامبراطور الحالي، ولم يشتمه على أنه طاغية ساقط، بل قدمه بمثابة منافس خطير للأسرة الحاكمة(١٧)، وتشير هذه التفاصيل جميعها إلى الحقبة فيما بين أيلول١١٨٠ إلى نيسان١١٨٢، وإلى وصاية ماري —اكسينا مع ألكسيوس كومينوس— البروتوسيباستوس— على الصبي ألكسيوس الثاني، وهي الحقبة التي صنف فيها كيناموس تاريخه، فوقتها كان ألكسيوس الثاني مازال حياً، وقد تلقت أمه تقديراً كبيراً، ثم عدّ أندرونيكوس عدواً خطيراً، ولم يكن نائباً للامبراطور أو امبراطوراً، فأسرة أنجيلوس لم تكن قد اعتلت العرش بعد(١٨).

لكن لماذا اختار كيناموس هذا الوقت للكتابة، هذا مايمكن استخراجه من بعض التفاصيل في تاريخه، فلقد كان هو شخصياً شديد العداء للاتين، ونادراً ماترك فرصة دون أن يهاجمهم، وهناك استثناء واحد هو ريموند أوف بواتيه ولويس السابع اللذان كانا الجد ثم الحمو لألكسيوس الثاني، ونال الألمانيان كونراد الثالث وفردريك بربروسا، والبنادقة والبابوية كل نصيبه من الشتائم، اللهم باستثناء بعض المناسبات عندما كان يصدف عملهم بالتوافق مع ارادة الامبراطور، حسب تعابير كيناموس، وكانت هيئة الوصاية على العرش، من جهة أخرى تؤثر اللاتين إلى أبعد الحدود، وموقف كيناموس العدواني من هؤلاء يومي بأنه أرغم على الانسحاب من الخدمة العامة، وهذا الافتراض يعلل اشارته في مطلع كتابه إلى متعته وراحته لكتابة التاريخ حيث قال:

«الفرصة المناسبة حالياً»(١٩)، ويعلل هذا أيضاً عدم تمكنه من الوصول إلى الوثائق الرسمية (أو على الأقل عدم تمكنه من استخدامها) أثناء كتابته (٢٠)، ثم حين حاول كيناموس اطراء الأسرة الحاكمة، كان

يسعى لاستعادة الحظوة الامبراطورية ونيل مكان في الحكومة.

وآخر مرة نلمح فيها كيناموس تؤكد هذا الرأي فيما يتعلق بتاريخ تصنيف الكتاب، فقد رآه نكيتاس كونياتس في ربيع ١١٨٤ يتناقش باللاهوت مع يوثيميوس مالاكس مطران نيا—باتري Neai-Patrai في خيمة الامبراطور في لوباديون، وكان وقتها أندرونيكوس كومينوس هو الامبراطور، وقد هدّد المتجادلين برميهما بالنهر إذا لم يتوقفا(٢١)، ويفيد هذا أن كيناموس قد استرجع مكانه في الادارة، وكسب ثقة الامبراطور، ورافقه في حملته ضد الثوار في بيثينيا، وكان يتردد على الخيمة الامبراطورية، ويبدو أن مواقفه العدوانية ضد اللاتين وطرده من قبل الوصاة على العرش قد ساعده ليتم تقبله من قبل مغتصب العرش.

ومعرفتنا عن نهاية مصيره بعض الشيء أكثر وضوحاً، فقد عاش حتى سقوط أندرونيكوس (أيلول١١٨٥)، وقد ألقى خطاباً —هو مفقود الآن— أمام واحد من أباطرة الأنجيلوسيين(٢٢)، ومع هذا يبدو أن الحاكم أرغمه الآن على التقاعد أو العيش في أحد الأديرة.

ومصادر كيناموس بعيدة عن الوضوح، فهو لم ينقل ولاوثيقة امبراطورية، مع أنه كان يعرف محتوى بعض هذه الوثائق، كما أنه لم يدون أخبار ومناقشات أياً من المجامع اللاهوتية(٢٣)، وذكر نكيتاس، الذي عالج الحقبة نفسها، أنه استعان بروايات شفوية استقاها من بعض الذين كانوا أحياء، وشاركوا في حروب الامبراطور، ولقد أشار كيناموس إلى مصاعب الكتابة حول تلك الحقبة، لذلك عزم أن يقدم عرضاً عاماً فقط «بشكل مختصر وكأنه موجز، لأنني كما ذكرتُ، لم أكن موجوداً في تلك الأوقات»(٢٤).

وقال في مكان آخر، فيما يتعلق باحتلال جون لكليكية: «لكن أن ندون هذه القضايا بالتفصيل، فأمر يتجاوز —كما أعتقد— مهمتنا

الحاليـة، فلقد كـانت غـايتي هـي الحديـث حول الأحـداث التي نحـن بصددهـا باختصـار، لأنني لم أكـن شاهـد عيان لهم، كما أنني لم أتسلم رواية مـوثوقة حـولهم»(٢٥)، ومن المؤكد أنه استقى مواده الأساسيـة من مصـادر شفويـة حصـل عليهـا من بعـض الأفـراد، لكـن يبدو أنـه مـن سنة١١٥٥ فصاعداً قد اعتمد على ملاحظاتـه، ثم إنه من الممكن أحياناً تعقب مصـدره من ذلـك مثلاً: كان جـون كومينـوس البروتوفستيـارويس والبروتوسيبـاستوز منـذ زمن مصـدره فيما يتعلق بمـؤامرات أنـدرونيكوس ضد الامبراطور في بيـلاغونيا (حوالي سنـة ١١٥٤)(٢٦)، وربما أعطاه جون كانتاكـوزينوس روايته حول الصراع مع الصرب والهنغـار على درينا وتارا، وكان جـون دوقاس مصدره عـن الحملة الايطـالية (إن لم يكن كينـاموس نفسـه قـد شـارك فيهـا)، ومـا يكـل بـرانـاس عـن الحملـة لاسترداد سيرميون(٢٧).

وذكرت آنـاكومينـا انها استطاعـت أن تدوّن أخبـارها ببسـاطة عظيمـة وبدون تصنع اعتماداً على واحـد كان من عساكـر والدها، كان قـد تقاعد فيما بعـد في أحد الأديـرة(٢٨)، ويمكن للمـرء أن يغرى بـالتفكير بوجـود روايـات مشابهة أقحمـت داخـل كتـاب كينامـوس، وسيكـون على رأس الاحتمالات روايـة حول هجـوم مـانويـل في ١١٤٦ على قـونية، والنتيجـة المأساوية والتراجـع(٢٩)، فهذه أول رواية طويلـة متواصلة حواهـا كتاب كينامـوس، والمعلومات الجغـرافية هنا صحيحة بشكـل مدهش، تسـاعد على إعادة بناء تفـاصيل معظم الطريـق، وما من شخص هنـا واضح أنه «البطل» (وربما المطلع) غير الامبراطور، هذا من جـانب ومن جـانب آخر كـان سوء قيـادة الجيـش البيزنطـي أثنـاء التراجـع قاسيـاً (وهـو بالنسبـة لكينامـوس قريـب بشكل فـريد) ومجرداً، وتـوحي هـذه المزايا أن الـرواية اعتمدت على واحـد من ضباط الجيـش المحترفين، ممن كانـت رتبته دون رتب الأرستقـراطية، وربما جاءت روايته عـن الحملة الصليبية الثانيـة من

المصدر نفسه أو من مصدر مشابه(٣٠).

ومع هذا لقد جمع كيناموس الكتلة العظمى من مادة تاريخه مما رآه ولاحظه ومن روايات شهود عيان.

وكان كيناموس مثل غيره من المثقفين العلمانيين البيزنطيين قد عرف واستفاد من كتابات الكتّاب الكلاسيكيين الاغريق، فقد أشار في مطلع كتابه إلى ماكتبه اكزنفون عن تربية قورش، وأناباسيس، وربما إلى هيرودوت، زد على هذا هناك ايماءات استغلها هذا الكاتب واستفاد منها(٣١)، ففي إحدى النقاط نشعر بوجودأصداء لتوسيدس وذلك في قوله: «لقد انتهت السنة بعدما أحدثت هذا التغيير»(٣٢)، ويبدو أن بروكوبيوس قد زوده بنمطه الأدبي، وعنه نقل رواية حول رومولوس أغطستولوس، وأودوفاكار، وثيودورك(٣٣)، ومن الممكن أن نتلمس بشيء من الضبابية آثار بعض الكتّاب الآخرين مثل بلوتارخ أو أرّيان، وليبانوس(٣٤) خلف صفحاته، وعلى كل حال لايمكن مقارنة كيناموس مع آناكومينا بالنسبة لسعته الثقافة والقراءة لكتابات الكتّاب القدماء، ولاحتى بنكيتاس، ذلك أن هذا تمثل كتاباتهم واستطاع بعد ذلك صنع أسلوب خاص به.

وبشكل عام ومقارنة له ببقية الكتّاب البيزنطيين الذين كتبوا بالتاريخ نلاحظ أنه بذل جهده لتغليف مواده وتمويهها بثوب قديم، وهكذا كان كلما استطاع يعطي شعوب العصور الوسطى أسماء قديمة، فلقد أطلق على جميع شعوب الدول الاسلامية في المشرق «الفرس»، وعلى القبائل المنتشرة من شمال البحر الأسود اسم «السكيزيين»، أما الهنغار فكانوا إما «بانونيين» (من هيرودوت) أو «هون» (من برسكوس وبروكوبيوس) ومزج بعض الأسماء فدعا الفرنسيين باسم «الجيرمان» والجيرمان باسم «ألمانيو»(٣٥)، وكان البيزنطيون عنده دوماً «رومان» اللهم إلاّ في بعض

المناسبات النادرة، عند الاشارة إلى سكان العاصمة، ويعكس هذا الاستخدام أصالة الشعور القوي بالهوية الرومانية التي آمن بها الشعب البيزنطي، فهم حتى بالاغريقية الشفوية «رومانيو».

وأخيراً استعار من توسيدس اختراع «الكلام الزائف» و«الرسالة المصطنعة»، فما من واحدة من الرسائل التي نقلها كيناموس يمكن عدّها أكثر من مجرد تركيب صنعه هو، وتختلف الوثائق الأصيلة التي وصلتنا (خاصة المراسلات فيما بين البيزنطيين والحكام الألمان) بمحتواها عما ادعاه كيناموس ورواه(٣٦)، والأفكار التي وردت لدى توسيدس وتصورها بمثابة مقدمات لتأتي في بداية مناقشات بعض الفرقاء قد انحدرت لدى كيناموس وتشوهت إلى عبارات مثل: «بضع كلمات مناسبة» و«تمارين طفل مدرسة ومسرح خطابات»، وأكثر الكلام احكاماً بالصنعة ذلك الذي وضع في فم جون الثاني وهو على فراش الموت، وهو الأكثر زيفاً، علماً بأن كيناموس كان في هذا المقام ضحية مؤامرة استهدفت اخفاء الحقائق المتعلقة بوفاة جون(٣٧)، هذا وينبغي ألاّ يغيب عنا أن مثل هذه الخطابات والرسائل المصطنعة غالباً ماجرى استخدامها لتغطية عملية انسحاب بيزنطية أو هزيمة(٣٨).

وبعيداً عن الخطابات والرسائل جاء أسلوب كيناموس على العموم أسلوباً واضحاً ومباشراً، وهذا هام بالنسبة لكاتب بيزنطي، ونادراً ماجاءت تراكيبه متداخلة، وجمله بالعادة جمل قصيرة، ومفرداته ليست غير اعتيادية خالية من التشدق، وهذه السمات التي تجعله مقبولاً بالنسبة للقارىء المعاصر، قد نظر إليها على أنها علامات تدل على نقص الثقافة من قبل أبناء جلدته من الكتّاب البيزنطيين، فاستخدام الأساليب المحكمة والمعقدة مع القدر الأكبر من الكلمات الكلاسيكية هو السمة التي تميز بها الكتّاب الأعلى ثقافة من معاصري كيناموس مثل نكيتاس كونياتس ويوتاثيوس السالونيكي، ونتيجة لهذا وجدنا أن روايته ما ان

وصلت حكم مانويل حتى تدفقت بسرعة لكن بنعومة غالبة، وكان قادراً على تقديم بعض المشاهد المشرقة والحية، من ذلك مثلاً: التراجع البيزنطي من قونية، والمعركة مع رتشارد أوف أندريا، والساحرة العجوز أثناء حصار زيمون(٣٩)، ولقد وصف ببراعة أندرونيكوس كومينوس، على أنه كان رجلاً صاحب قدرات عظيمة، وقد دُمّر بطموحه غير المستقر، وكراهيته الموروثة لمانويل، وشروره الشخصية التي لايمكن التخلص منها(٤٠).

وبالنسبة للقارىء المعاصر تشوه أسلوبه بمبالغته في مدح مانويل كومينوس ويدلل حديثه عن كل سمة من سمات مانويل مثل: شجاعته واقدامه في الحرب، وعبقريته في تصور وادراك الأوضاع الاستراتيجية للأعداء، وفروسيته، وبراعته في ميدان الطب، وثقافته العالية، ان هذا كله دفع كيناموس إلى اعجاب هائل به، وحماس منقطع النظير نحوه، وليس لما ادعاه من أنه كان يقوم فقط برواية أشياء رآها بنفسه أو رويت موثوقة له جاذبية، ومع أنه لاشك هناك بعض الحقيقة قائمة وراء رواياته عن انجازات مانويل —شابه الامبراطور الفرسان الغربيين في سعيهم نحو المبارزات الفردية واظهار براعتهم واقدامهم— إن الحقائق التي ليست لصالح مانويل هي الطاغية، لاسيما وأن نتائج مؤامرات البلاط، وأخبار الدسائس والاتهامات، لم تتم روايتها قط بطريقة معادية لمانويل، فعلى سبيل المثال وتبعاً لنكيتاس إن التهم حول محاولة اغتصاب العرش التي أثيرت ضد ألكسيوس اكسوكوس كانت كلها زائفة(٤١)، وعلى هذا إن تاريخ نكيتاس كونياتس وسيلة ثمينة لتصحيح روايات كيناموس.

ولم يشكل كيناموس، على كل حال، في أعمال اطرائه ومديحه، حالة استثنائية، فقد كان بكل بساطة يعمل في نطاق تقاليد مقبولة بالنسبة لآداب التاريخ والبلاط، ولابأس هنا بعرض بعض الأمثلة القليلة من كتابات سلفه المباشرين، فقد ختم ميخائيل بزللوس تاريخه المشهور

بمديح طويل لميخائيل السابع دوقاس، ووجّه ميخائيل أتاليايتس تاريخه وأهداه إلى نقفور الثالث بوتانياتس، لابل حتى أقحم فيه رواية ناشزة حول الاستيلاء على كريت من قبل بوتانياتس الذي زعم أنه جد لنقفور الثاني فوقاس، ولقد كتب كل من نقفور برينيوس وآناكومينا لتمجيد ألكسيوس الأول(٤٢)، فلقد كانت خطابات المتعلمين وأعمال الاطراء للحاكم المتسلط، جزءاً من الرسوم الاحتفالية للبلاط البيزنطي، ولقد كان جميع الأشخاص ذوي الثقافة العالية قادرين على كتابتهم، ولم يكن هناك من حاجة لا إلى الاخلاص ولا إلى الصدق في انشاء هذه الخطابات، ونكيتاس المعاصر كان في خطابه معاكساً تماماً وبشدة لما ضمنه في تاريخه الذي صنفه فيما بعد(٤٣)، وبالنسبة لكيناموس لم تكن مقاطع المديح هامة فقط بل أساسية لمقاصد كتابه، وذلك بسبب أمله باستعادة الحظوة ونيل وظيفة، وكانت اعلاناته المتكررة عن ايجابيته هي مجرد كلام للزينة ووسائل رخيصة(٤٤).

وتاريخ كيناموس بعيد عن الكمال، ولقد اتبع بالعادة خطاً زمنياً متتابعاً بشكل معقول، ونجم عن هذا في بعض الحالات تغييرات سريعة في المشاهد الجغرافية، واقحام مواد لاعلاقة لها بالموضوع أو شطائر من التاريخ اللاهوتي، وقادته في بعض الأحيان ضرورة تقديم خلفية، والميل لمتابعة التعايش مع بعض الأفكار، إلى تبدلات وتلونات لانهاية لها، ففي إحدى المرات، وبمناسبة حديثه عن ابرام معاهدة مع هنغاريا (١١٥٣) أشار كيناموس ضمن أربع جمل أو خمس، إلى حرب أثيرت (١١٥٤-١١٥٥) بسبب أعمال أندرونيكوس التآمرية، وإلى ارسال أندرونيكوس «في ذلك الحين» (١١٥٢) إلى كليكية لإخماد ثورة طوروس، ثم إلى هرب الأخير من القسطنطينية (حوالي١١٥٤)، والنشاطات التالية في كليكية، وكان أندرونيكوس —على كل حال— قد اصطحب معه القيصر جون روجر، الذي كان مرشحاً لخطبة كونستانس صاحبة

أنطاكيـة، وهنا جرى عـرض أسباب تـرملها (١١٤٩) باسهـاب، وعادت الحكاية بعـد عدة صفحات تالية إلى أنـدرونيكوس في كليكية (١١٥٢)، وكـان الرابـط هنا بين هـذا كله شخصيـة أندرونيكـوس وضرورة تقديـم ملخـص عـن حيـاتـه، غير أن كينامـوس لم يكـن يخشـى مـن التعقيـب والتذييل(٤٥).

وكـان مـن الممكـن لهذه الفـوضـى أن تتلطـف بعـض الشيء، لـو أن كينـامـوس قـام بمـراجعة عملـه، كما يفترض أنـه نـوى ذلـك، وتنقطـع المخطوطـة الفريدة لهذا الكتـاب والتي وصلتنـا من العصور الـوسطى في نهاية الوجه الخلفي للورقة وسط إحـدى الجمل، ويبدأ وجه الورقة التالية بكتاب آخر، ومـن غير المعروف فيها إذا كان المؤرخ قد أكمـل كتابه، أو أن هنـاك بعض الأوراق مفقـودة من المخطـوطـة، أو أن الناسـخ تعب مـن عملـه فتوقـف هنـا(٤٦)، والبينـة الرئيسيـة حـول عـدم قيام كينـامـوس بمراجعة عمله، هو توفر عدد من الاحالات مثل قوله:

«كما قلنا في الغالـب» أو عبارة مشابهة، وعدم توفـر الصفحات المحال عليها أو النصوص المشار إليها، ومن أهـم الأمثلة الصارخة على هذا ذكره للـزواج الذي تـمّ سنـة ١١٤٨ بين ثيودورا ابنـة أخـي الامبراطور وهنـري صاحب النمسا، فقد أسقطت هذه الرواية من مكانها الصحيح من قبل كينـاموس(٤٧)، ولـدى جمع هذه العيـوب مع بـداية عنـوان النص وهـو «ملخص للمتواليـات......» الذي يعكس بدوره العنوان الـلاتيني الذي أعطاه المحقـق وهو «ملخص للأعمال.....» يـؤكد أول تلميذ لكينـاموس أن النص المتوفر حـالياً هو مختصر تولاه أحدهم في وقـت تال، ولم يعد هذا الرأي مقبولاً الآن:

ذلـك أن المتولي لـلاختصار كـان مـن المفترض أن يقوم بحـذف المواد الخطـابية الفـائضـة، بينما في حال وجـود عيـب الاحـالات. هذا يمكـن

تعليله بأن المصنف أخفق في مراجعة نصه أي لم يقم بذلك، وبرهان آخر على أن كيناموس قد ترك كتابه ناقصاً هو الطبيعة الاختصارية المتوالية لأجزاء الأخبار المتعلقة بمانويل في عقد سنواته الأخيرة، وتعطي هذه الصفحات الانطباع بوجود ملاحظات كانت تنتظر عناية المؤلف وانتباهه في النهاية(٤٨).

وتأكد لدينا بشكل غير مباشر أن الكتاب لم ينشر من خلال إعلان نكيتاس كونياتس في مطلع كتابه أن ما من مؤرخ سواه قام بتغطية هذه الحقبة منذ وفاة ألكسيوس الأول(٤٩)، ومع هذا من المؤكد أن نكيتاس استفاد شخصياً من كتاب كيناموس (٥٠) واستقى منه، ولابدّ أن نجد تعليل هذا الأمر في حقيقة أن الكتاب لم يختم وبالتالي لم ينشر، ولم يتداول خارج وسط طائفة العاملين في البلاط الملكي، وطبعاً كلاهما انتمى إلى هذه الطائفة نفسها.

وجرى نسخ أصل النص في القرن الثالث عشر، وهكذا بقي لنا ووصلنا، وتفيد الاشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من كتابات مؤرخي تلك الحقبة كادت أن تضيع، فلقد وصلتنا نسخة وحيدة من تاريخ بزللوس، ونسختان (كلاهما من القرن الثاني عشر) فقط من النص الكامل لكتاب الألكسياد هما اللتان عاشتا حتى العصر الحديث(٥١)، ولدى عقد مقارنة بين كتابات المؤلفين الاغريق الكلاسيكيين وكتابات المؤرخين البيزنطيين، نجد أن نتاج البيزنطيين كانت له قيمة قليلة في أعين باعة الكتب والنساخ، وكانت نسخة تاريخ كيناموس العائدة للقرن الثالث عشر موجودة في القسطنطينية عام١٤٥٣، وقد وصلت بشكل ما إلى مكتبة الفاتيكان، حيث هي الآن، وقد أخذت عنها نسخة في القرن السادس عشر، ثم ثلاث نسخ أخرى في القرن السابع عشر، وقام اسحق فوسيوس بنسخ إحدى هذه الثلاث، وهذه استخدمها كورنيليوس توليوس أساساً لأول طبعة للكتاب في أوترخت عام١٦٥٢، مع نص

لاتيني مـرافق، وقـام الاختصاصي العظيـم بالبيـزنطيات شـارل دي فرزن Sieur Du Cange بنشر طبعـة أخرى في بـاريس عـام١٦٧٠ مع ترجمة لاتينية جـديدة، وحواشي ماتزال هامة، وبـالنسبة لطبعة أ.مينك التي نشرت في بـون عام١٨٣٦، فقد اعتمد على الطبعتين القـديمتين مع نسخة عـن مخطوطـة الفاتيكـان أعدّهـا ثيودورهـايس، ويبقـى إن هناك حـاجـات أسـاسيـة لإعـادة نشر هـذا الكتـاب مـن قبـل الاختصـاصيين بالبيزنطيات(٥٢).

مختصر عن نجاحات الامبراطور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يوحنا كومينوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطور والبرفيروغنتوس المولى مانويل كومينوس. [كتبت من قبل السكرتير الامبراطوري يوحنا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١- لم ينظر إلى كتابة التاريخ انه عمل غير مشرف من قبل القدماء الذين كانوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلوا على تقدير كبير لعملهم بالتأريخ، ويذكر انسان في التاريخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخر تدريبات قورش منذ طفولته، والأعمال التي أنجزها عندما بلغ مرحلة الرجولة.

وهناك خطر ان ماكشف عنه في وقت ما قد يتعرض للإخفاء ثانية، لكن الرجال الذين دونوا الأشياء في الكتب، كما لوأنها نقشت على أعمدة لن تفنى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هذه الأعمال هي ليست مما لايستحق القيام به أبداً، وهذه الأعمال يتوجب تزويدها بشكل جيد بالمعلومات عن الوقائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، وما من شيء من هذه الأمور، التي أراها ضرورية، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألاّ نلتزم بالصمت حيال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبالحري طالما توفرت فرصة مناسبة أمامنا، علينا

أن نلتزم بـالعناية حتى لانصدّ النـاس عن العودة إلينا ثـانية، ويمكن أن ننجح إذا ما نظـرنا نظرة عابـرة إلى أخبار جميع الأشياء العـائدة إلى الحياة العامة للبشريـة وقدمنا عرضاً لأعمال امبراطورين، واحـد منهما فارق هذه الحياة قبل قـدومنا إلى هذا العالم، وازدهـر الآخر في أيامنا، ثم هلك تـاركاً الامبراطـوريـة إلى ولـد في مقتبل العمـر، وهــذان هما يـوحنـا ومـانـويل كومينوس.

ولانحتـاج نحن الــذين تـولينـا القيـام بهذا العمل أن نحكـي ثـانيـة أصـولهما ومن أين جـاءا (لأن أحدهما عهـد إليـه بالمنصب الامبراطـوري بحكم علاقتـه بأبيه —ألكسيـوس الأول كومينوس— والثـاني بحكم أنه حفيـده)، ولاكيف أدارا الشــؤون الـرومـانيـة العــامـة، لأن ذلك —كما أعتقد— قد أشبع وصفاً من قبل الـذين دونوا هذه الأعمال، كما اننا لسنا حتى بحاجـة لأن نروي كيف ثار ضـدّ نقفور [الثـالث بوتانيتـاس] الذي حكم الامبراطوريـة آنذاك، وكـان رجلاً قـد تخطى كثيراً مرحلـة الشباب، وكـان في مرحلـة تقهقر الحيـاة، وكما قلت: لقد روي هـذا بشكل صحيح من قبل أشخاص كتبوا دون أن يحملوا مشاعر عداء نحوه(١).

وسأتـولى عرض أعمال يـوحنـا باختصـار، أو لأقل بـايجاز، بسبب أنني —كما قلت— لم أكن مـوجوداً في أيـامـه، ولاأعرف هل يمكن لأحـد أن يتـولى عـرض أعمال خليفته مـانـويل أفضل مني، بسبب أنني رافقتـه في عدد من حملاتـه في كلا القـارتين قبل أن أكون شـاباً، وقصـدي طالما أن المناسبة موائمة أن نعود بروايتنا إلى البداية، ومن هناك نبدأ تاريخنا.

٢- عندمـا ختم ألكسيـوس حياته [١١١٨] خلفـه يوحنـا في منصب الامبراطورية، الـذي سلف ووعد به من قبل والده، وبعـدما أوقف نفسه على الشؤون المدنيـة بقدر ماسمح الـوقت له، انطلق نحـو آسيا [١١١٩] وعلى مقــربـة من نهري ليكــوس Lykos [شـوروكســــــوشي]

وكابـروس Kapros [قاضي كـوي ديري] الفـريجية قـامت مـدينة لودقيا [قـرب دنزلي] ,وكان الترك قـد استولوا عليهـا فيما مضى منذ بعض الـوقت، وقد نـوى الامبراطور اعـادتها إلى الأراضي الرومـانية، وقـد وجّـه حملته الملحـوظة ضـدّهـا، وعندمـا كان على مقـربـة من فيلادلفيـا [علاشهـر] أقام سياجاً وعسكـر هناك، وبعث بواحـد من المحظيين عنده واسمه يوحنـا [أكسوكوس] وكان قريبـاً من الترك عن طريق أجداده(٢)، بعثـه مع قوة كي يحاول الاستيـلاء على المدينة، ثم قـام بعد قليل —بنـاء على رغبة جيشه كله— بالاستيلاء عليها بـدون مقاومة تقريباً. وكان هناك حشـد من البرابرة، ولايقل عن ثمانمائة من مشـاهير رجالهم، وكـان بينهم ألب—قـرا(٣)، وكان رجـلاً واسع التجربـة في عدد كبير من المعـارك، ثم قـام بترك حاميـة كافيـة في المدينة وشحنهـا بما يكفيها من مـؤن، ومن ثم انطلق يريد بيزنطة.

وبعـدمـا عسكـر لبعض الـوقت ضـد سـوزوبـولس Sozopolis (أولوبورلو)(٤) تمكن بسهولة من وضعهـا تحت السيطرة الرومانية، وأنا سأحكي كيف حدث ذلك، كـانت سوزوبـولس في الماضي إحدى المدن البـارزة في آسيا [الصغـرى] متمركـزة على منحـدر، وذات موقع مسيطـر، وكـانت صعبة الـوصول إليهـا من كل جـانب، باستثنـاء جانب واحـد، الـذي وفر ممـراً ضيقاً جـداً يوصل إليهـا، وكان من المحـال سحب آلات ورفعهـا إليهـا، كما لم يكن بإمكـان أيـاً من مـواد الحصـار الحربي أن تهيأ ضدها، وكان الوصول إليها من قبل الـرجال صعباً مالم يزحفوا ضدها في مجموعات صغيرة. لقد امتلكت المدينة هذه الأحوال.

وفي الحقيقـة جلب التفكير بـالاستيـلاء عليهـا في البـدايـة اليأس إلى الامبراطـور، لكـن تهيأ لـه خطـة جعلت من السهل اعطـاء المدينـة إلى الرومـان، وجعلته يحصل على شهـرة عظيمة بين النـاس جميعاً، وسأوضح ماهية هذه الخطة:

لقد قام باستدعاء اثنين من حملة الرماح لديه، وكان اسم أولهما باكتياريوس Paktiarios واسم الآخر ديكانوس Dekanos ، وأمرهما مع قوتهما بأن يمضيا مباشرة إلى أبواب المدينة، ومن ثم يتوليا رمي الذين كانوا متمركزين فوق الأسوار، وعندما يتقدم هؤلاء، توجب على [البيزنطيين] الفرار دونما خجل، حتى يتمكنوا من استدراج المطاردين لهم إلى أقصى مسافة ممكنة، وتوجب عليهم لدى تركهم للمكان الضيق، وقد امتلكوا التفوق، الانعطاف بشكل مفاجيء والهجوم من هناك، بغية احتلال منطقة الأبواب، وهكذا انطلقوا نحو المدينة، وعندما رآهم البرابرة يقتربون، فتحوا الأبواب واندفعوا مسرعين نحوهم بقدر ماامتلكوا من قوة، وما ان أدار [البيزنطيون] ظهورهم، حتى بدأت عملية المطاردة تأخذ أبعادها، ثم قام أحد الرجال بالانعطاف، فلحق به عدد كبير من الرومان، وعندما وصلوا إلى الأبواب، ترجلوا عن ظهور خيولهم ووقفوا هناك، وإثر ذلك عرف البقية من الجيش الروماني ماحدث، فزحفوا بسرعة كبيرة، ووقع العدو في الوسط، ففر في هذا الاتجاه، وفي ذاك نحو السهل المجاور، وتمّ الاستيلاء على المدينة.

٣- وانطلق الامبراطور من هناك، فاستولى على حصن هيراكوكوريفايت(٥) Hierakokoryphite وعلى عدد كبير آخر، كان معظمها قائماً في أحواز أطاليا [أنطاليا]، وهكذا عاد إلى بيزنطة، وبعد إقامة قصيرة هناك انطلق يؤم مقدونيا، فقد كان البشناق(٦) قد عبروا الدانوب مع جيش، وتولوا خرق الحدود الرومانية، لكن بحكم أن الشتاء [١١٢١-١١٢٢] فاجأه هناك، فقد أمضى الفصل في مكان حول مدينة برهويا Berrhoia [ستارازغورا] وكان يستهدف من بعض الجوانب الاستعداد للحرب، لكنه أراد بالدرجة الأولى أن يكسب إلى جانبة بعض مقدميهم، ذلك انه عندما كان سيمزقهم بهذه الصورة، كان سيسهل عليه التغلب على الآخرين،

وبعدما تمكن من اقناع كثير منهم بالالتحاق به، وذلك بوساطة الرسل، قام في الربيع بالزحف ضدّ البقية، راغباً في حسم الأمور عن طريق القتال.

وعندما اصطدم الجيشان ببعضهما بعضاً، بقيت المعركة متأرجحة لبعض الوقت، ثم أصيب الامبراطور نفسه بسهم في رجله، إنما بما أن الرومان قاتلوا بشجاعة فقد هزم البشناق هزيمة ساحقة، وقتل بعضهم، ووقع بعضهم الآخر بالأسر، وكان عدد البشناق الذين تراجعوا إلى معسكرهم معتبراً، وقد عدّ هؤلاء الفرار عملا ليس فيه جدوى، واختاروا تحمل المخاطرة هناك مع زوجاتهم وأولادهم، وقد قاتلوا أمام عرباتهم، التي كانوا قد غطوها بجلود الثيران، وربطوا بعضها مع بعض ووضعوا في هذه العربات زوجاتهم وأولادهم، وهكذا وقعت ثانية معركة حامية، وسقط القتلى من على الجانبين، واستخدم البشناق العربات بمثابة حصن وهكذا ألحقوا أذى عظيماً بالرومان، وعندما أدرك الامبراطور هذا الحال، رغب في أن يترجل عن ظهر حصانه، وأن يتابع القتال على الأقدام مع جنوده، وعندما لم يوافقه الرومان على ذلك، أمر حملة الفؤوس من حوله (وكان هؤلاء من الأمة البريطانية، داخلين في خدمة الامبراطور الروماني منذ زمن طويل) أن يقوموا بقطع [العربات](٧) المواجهة لهم بفؤوسهم، ونظراً لدخولهم المعترك على الفور، غدا الامبراطور بذلك سيداً مسيطراً على معسكر البشناق، وجاء عدد كبير من الذين طلبوا السلامة بالفرار طواعية إلى الامبراطور، راغبين في أن يؤخذوا أسرى، وقد جرى تدريبهم على طرائق الرومان، وبعدما جرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية، خدموا لزمن طويل.

٤- هكذا كان مرور البشناق في أراضي الرومان، لكن الامبراطور انشغل ثانية بشؤون آسيا، وحيث انه هاجم البرابرة بشكل غير متوقع في الشتاء هناك [١١٢٤؟] أخذهم أسرى تقريباً، وقام بتحويل عدد كبير

منهم إلى الايمان الصحيح، وبـذلك زاد من عدد القـوات الرومـانية، وبما انهم كـانـوا غير مدربين على الأعمال الـزراعيـة، بل يعتمـدون على شرب الحليب وأكل اللحـوم، مثلهم في ذلك مثل البشنـاق، وبما انهم كـانـوا يعسكرون متفرقين في السهل، كانوا فريسـة جاهزة لكل من كان يرغب في قتالهم، فعلى هذه الصورة عاش الأتراك من قبل.

واندلعت حـرب بين الرومان والهنغار الـذين سكنوا في المنطقة الـواقعة فيما وراء الدانوب، وذلك للأسباب التالية: كان للازلو الأول Laszlo ، ملك هنغاريـا ولدين هما ألموس وستيفن [اصطفان الثاني](٩)، وعنـدما تـوفي والـدهما تسلم ستيفن —الـذي كان هـو الأكبر— العـرش الملكي، والتجأ الآخر إلى الامبراطور، ذلك ان عادة الهنغار كـانت انه عندما يموت حاكمهم مخلفـاً أولاداً، فإن الذي يتسلم السيـادة عليهم مادام بـدون ولد ذكر، يتعايش الاخـوة مع بعضهم ويتمتعون بعلاقة طيبة أحـدهم بالآخر، لكن عندمـا يلد طفل لـه، فإنه [أي الملك] لن يمنحهم أيـة استمرار في البـلاد، إلا إذا اقتلعت أعينهم، ولهذا السبـب جـاء ألموس إلى بـلاط الامبراطور، وقد عامله الامبراطور برعاية، واستقبله بلطف، لأن الامبراطور جون كـان متزوجـاً من [بيروسكا Piroska] ايرين ابنـة لازلو، وكـانت امـرأة فاضلـة جـداً لم تـر العين مثلهـا أبداً، في درجـات السمـو الأخـلاقي التي امتلكتهـا، فكل مـاكـان يـزودهـا بـه زوجهـا الامبراطـور والامبراطـوريـة، لم تكن تدخـره على شكل حصص لأولادهـا، كما انها لم تنفقـه في زيادة زينتهـا وترفهـا، بل أمضت حيـاتها كلها تقـدم النفع لمن استجداهـا شيئاً، أو لمن طلـب منها عونـاً، وقد أسسـت ديراً كـرّسته على اسم البـانتوكـراتور Pantokrator [المسيح القادر](١٠) ،وكـان من أجل الأديرة وأكبرها حجماً، هكذا كانت هذه الامبراطورة.

وعنـدمـا سمـع الملك الهنغـاري أخبـار أخيـه، أرسل مبعـوثين إلى الامبراطـور وطالب بطـرد [ألموس] من الأراضي الرومـانية، وعنـدما وجـد

[اسطفان الثاني] نفسه غير قادر على فرض مطالبه على الامبراطور، عبر نهر الدانوب، وحاصر بلغراد [بيوغراد] وهي مدينة قائمة إلى جانبه، واستولى عليها [١١٢٨]، واجتثها هدماً حتى الأساسات، ونقل أحجارها بالقوارب، وبهم عمّر زيوغمي Zeugme [أو زيوغمنون وهي زيمون المعاصرة](١١) وهي مدينة باتجاه سيرميون Surmoin [سرمسكامتروفيكا] وقد عاشت لسنوات طوال، لكنها سويت بالأرض أيام حكم الامبراطور مانويل، وهكذا بتغير [السعد] استخدمت كلها في سبيل بناء أسوار مدينة بلغراد، غير أن هذا سأحكيه فيما بعد، عندما يصل سياق الرواية إلى هذه السنوات.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، اندفع عابراً للدانوب مع جيشه كله، آخذاً معه قوة حليفة [أي مرتزقة] من الترك(١٢)، وعسكر هناك إلى جانب ضفة الدانوب واستعد للمعركة، لكن حدث أن ستيفن كان مريضاً في بعض جسده، كما وكان مشغولاً بإعادة الاستيلاء على بعض الأماكن في وسط أراضيه، ومع ذلك لم يرغب بالظهور بعدم المبالاة، لذلك أرسل قواتاً بأقصى سرعة ممكنة، مع أوامر بالحيلولة بين الامبراطور وبين العبور، ونفذ الهنغار المهمة وقاموا بما أمرهم به، وحتى يجعل الامبراطور المواجهة غير فعّالة خطط كما يلي: فقد قام بفصل القوات الحليفة، وأمرها بأن تساير صعوداً مجرى النهر إلى منطقة اسمها تمبون Tempon، حيث هناك ربوة مرتفعة من الأرض الهنغارية وممتدة حتى النهر، فمن هناك توجب عليها الجواز، ومكث الامبراطور مع القوة الرومانية الأخرى في مواجهة مخاضه كرامون Kramon [كاما]، وتظاهر أنه سيعبر من هناك فوراً، وعندما تم تنفيذ ذلك، عبر الرومان بدون صعوبة، وكان الهنغار غير قادرين في البداية على مقاومتهم، فلاذوا بالفرار مسرعين، وتمت المطاردة ضاغطة باتجاه النهر حيث اندفع الهنغار في جماعات لعبور جسر قائم فوق مجرى النهر، وسقط الجسر، وجرف النهر

عـدداً كبيراً منهم، بعـدمـا فـارقـوا أرواحهم، غير أن كثيراً منهم سقط في أيـدي الـرومـان، وكـان من بينهم آكـوص Akus وكلدي Keledi (١٣)، وكانا من أبرز رجالات الهنغار.

وعنـدمـا نجح الامبراطـور بهذا، استحـوذ على حصن كـرمـون دون مقـاومـة، ثم قـام على الفـور بعبـور النهر عـائداً إلى الأراضي الـرومـانيـة، وبعدما قام بتقوية برانيتشيفو Branitshevo [قرب دوبرافيكا] بحامية من الجنـد، تحت إمرة كورتكيوس Kourtikios عاد إلى بيزنطة، وبعـد وقت قصير حاصر الهنغار برانيتشيفو واستولـوا عليها، وقتلوا بعضاً من الرومـان فيها، وأخذوا البقية أسرى، لكن كـان هناك بعضاً ممن طلب السـلامة بـوساطـة القتـال، وغضب الامبراطور ممـا حصل، وحكم على كـورتكيـوس بتهمـة الخيـانـة، وأنـزل على ظهـره عـدداً كبيراً من الضربـات، مع انـه لم يغادر الأسـوار [كما قـالوا] حتى انـدفع العـدو إلى داخل المدينة بكامل القوة، وجعل البيوت طعمة للنيران.

٥- وفي هـذه الآونـة (١١٢٩-١١٣٠) تـآمـر الصرب أيضـاً —وهم شعب دلماشي— وثـاروا وأخضعـوا حصن رهسـون Rhason [رصنج] ولهذا السبب انتقم الامبراطور من كريتوبلوس Kritoplos ، الذي كان مـوكلاً إليـه أمور الـدفاع عن ذلك الحصن، وأمـر فطيف به في الأسـواق، وقـد ارتـدى ثياب امـرأة، وهـو راكب على ظهـر أتان، ومضى ثـانيـة إلى برانيتشيفو، وأعـاد بناءها بسرعة، وكان الجيـش منذ وقت مضى يعاني من برد الشتاء ومن نقص بالضروريات، ولذلك كـان في حالة يائسة، وعندما علم الملك الهنغـاري بهذا، قـرر عبـور نهر الدانـوب بأقصى سرعـة ممكنـة ومهاجمة الجيش وهـو غير متوقع لذلك، وكان في بـلاد الهنغار، سيدة ذات منبت لاتيني، متميزة بثرائها وبـأشياء أخرى، فأرسلت إلى الامبراطور تخبره بما كان قـد خطط، وحيث انه لم يكـن قادراً على الاشتباك معهـم بقوات مكافئة، بسبب ماذكرنـاه عن معاناة جيشه من المرض ونقص الحاجيات،

قام بتحصين المدينة بالقدر الممكن وانسحب، وفي الحقيقة قام بغية تجنب الاصطدام بالجيش الهنغاري باتخاذ طريق وسط منطقه ذات شعاب وعرة، كانت تدعى محلياً باسم سلّم الشيطان، وانقض الجيش الهنغاري هناك بشكل غير متوقع على الوحدات الموكل إليها حماية الساقة، لكنه لم يلحق الأذى بالرومان، وانسحب الهنغار بعدما جمعوا بعضاً من الأشياء المعلقة التي شكلت الخيمة الامبراطورية، والتي كانت قد تركت لعدم توفر حيوانات الحمولة، ونجا الجيش الروماني دون أن يصاب بأذى.

وبعد وقت قصير، زحف الامبراطور إلى آسيا، وأسرع بغية الاستيلاء على مدينة قسطمون Kastamon [كاستامونو] التي هي مجاورة لمدينة بفلاغونيا Paphlagonia [١١٣٢](١٤). فقد اعتاد الأتراك الساكنين هناك على الاغارة على المنطقة المجاورة التي كانت خاضعة للامبراطور، وأساؤوا دوماً معاملة الرومان الذين كانوا هناك، وفاجأ الامبراطور الأعداء بضخامة استعداداته للحرب، وأرغمهم على التخلي عن المدينة وعن أنفسهم لصالح الرومان، وإثر عودته إلى بيزنطة أقام احتفالاً رائعاً بانتصاره، وعندما تمت صناعة عربة من الفضة محلاة بشكل كثيف بالذهب أعد نفسه لدخولها، ومع ذلك لم يركب بها، ولعل سبب ذلك تجنب العجرفة والغرور.

وعوضاً عن ذلك وضع فيها تمثالاً لأم الرب، وسار هو يحمل شارة الصليب وتبعته العربة، وكان منظراً رائعاً للبيزنطيين أن يروا شيئاً —كما أعتقد لم يروه من قبل— ولم يشهدوه منذ الأيام التي قاد فيها أباطرة أسرة هرقل وأسرة جستنيان المملكة الرومانية.

٦- وكان الشعب الروماني مشغولاً بهذه المسائل، لكن [كمشتكين غازي ابن دانشمند]، الذي كان وقتذاك حاكماً لكبادوكيا، قام بتطويق قسطمون Kastamon وحاصرها بجيش(١٥). وحال الحظ بين

الامبراطـور وبين شن الحرب، (لأن قـرينته ايـرين فـارقت الحيـاة الدنيـا، وكان هو نفسـه قد أصيب بمرض ثم شرع يتعافى منـه في بيزنطة)، وانهك [كمشتكين غازي] المدينة أولاً بـالتجويع، ثم استولى عليهـا بقوة الحصار [١١٣٢-١١٣٣]، واثرت هـذه الفاجعة كثيراً على معنويـات الامبراطور، وحدث آنـذاك أن توفي [ابن] دانشمند [١١٣٤-١١٣٥] واستحـوذ ابنه محمد على السلطة، وكان على عدم وفاق مع صـاحب مدينة قونية، الذي قـدره الأتـراك أكثر من سـواه، ودعـوه بـاسم السلطـان(١٦)، وأرسل الامبراطـور جـون رسـلاً من قبلـه إلى قـونيـة، وبعـد أن كسبـوا صـداقـة السلطـان، أقنعـوه أن يقـاتل إلى جانـب الرومـان وضـد محمـد، وقبل أن يمضي وقت طويل جـاء واحد من أعيانه إلى البـلاط ومعه جيش ليعطي رهائن ولينخرط بالقتال.

وجاء الامبراطور إلى غانغـرا [جنكيري] مع الرجال المذكورين، ونصب خيمتـه أمام السـور، بغيـة الإعـداد لهجوم على التحصينـات في الصبـاح، وتصور محمد نفسـه انه لن يكون قادراً على مواجهـة الامبراطور في القتال، وعرف ان عليه ان يكسب إلى جانبه السلطـان، الذي كان مثله من أصل واحد، وأزال الـرجلان خـلافاتهما واتحدا على مـواجهة الـرومان، وفي تلك الأثناء قامت القـوات الرديفة من الترك بالمغادرة والفـرار ليلاً وذلك بناء على دعـوة من السلطـان، ولـدى ادراك الامبراطـور لهذه الخيـانـة غضب غضبـاً شـديـداً، وخطط لـلانطـلاق من هنـاك على الفـور، لكن بعض الرهبان، الذين صدف أن كانوا مـوجودين، حالوا بينه وبين القيام بذلك، وأصروا أن الـذي يحتاجـه للاستيـلاء على غانغـرا هو أن يكـون شجاعـاً، ولاقتناعـه بما قالـوه قام في الصبـاح التالي بمهـاجمة الأسوار، غير أنـه صدّ عنهـا، فـانتقـل إلى رهينـديكن(١٧) Rhyndakene حيث أمضى الشتاء هنـاك مع الجيش كله، وعـانى الرومـان الذين أمضـوا وقتاً طويلاً هنـاك معاناة كبيرة من الجوع، حيث لم يوجد مكـان للحصول منه

على المؤن من أجل الشتاء.

وانطلق من هناك، ومضى إلى قسطمون Kastamon ، وبعدما استولى عليها بالاتفاق، قاد الجيش إلى غانغرا، وعرف الأتراك الذين كانوا مستولين على المدينة، أن قواتاً [تركية] قد احتشدت ثانية عند رهينديكن، وتردد هؤلاء في البداية بشأن تسليم المدينة إلى الامبراطور، حيث كانوا يأملون بالنجدات، ولكن بما أن تلك القوات، لم تكن قد اجتمعت بعد في المكان نفسه حتى تفرقت [لأنها لم تكن قادرة على القتال في فصل الشتاء، حسبما سلف وبينت فيما مضى] فقد أرغمتهم الحاجة فسلموا المدينة له، بشرط أن يغادروا هم والأتراك الذين أسرهم الرومان عندما كان [كمشتكين غازي بن] دانشمند مايزال حياً دونما أذى، ويتحرروا من السيطرة الرومانية، غير أن الأتراك آثروا على الحرية التي توفرت لهم، الخضوع عن طواعية للامبراطور والحصول على فضل رعايته، وشكلوا رديفاً هاماً للقوات الرومانية.

٧- وفيما يلي تبيان لأصول مسألة الحروب الرومانية الايزورية، ذلك ان ليون الأرمني«١٨»، استولى على عدد كبير من المدن الايزورية [أي الكليكية] التي كانت خاضعة للرومان، وشرع بشكل خاص بحصار سلوقية [سيليفكي]، وعندما علم الامبراطور بهذا، حشد قواته، واندفع بسرعة كبيرة نحوها [١١٣٦-١١٣٧]، ولهذا السبب، ولسبب آخر سأقوم بايضاحه، زحف الامبراطور إلى كليكية، فعندما غادر بوهيموند«١٩» حاكم انطاكية هذه الحياة الدنيا [١١٣٠] أرسل أعيان البلاد إلى الامبراطور يقولون: إنه إذا ما وافق على خطبة ابنة بوهيموند إلى مانويل، أصغر أولاده، فإن مملكة انطاكية ستؤول إلى سلطانه بعد الزواج مباشرة، لكن حتى قبل أن يصل إلى كليكية، غير [الأنطاكيون] نواياهم، وعوضاً على الصداقة والتحالف أصبحوا معادين جداً له، ولادراكهم انهم لايضارعون الجيش الروماني في قدراته، قرروا انه يتوجب عليهم كسب

ليون إلى أنفسهم، وهكذا قاموا باخراج هذا الرجل من السجن، وأطلقوا سراحه —ذلك أنهم كانوا من قبل قد قهروه بالحرب وأودعوه السجن لديهم— وحرروه بعدما أخذوا عليه العهود انه سيكون صديقهم وحليفهم ضدّ الامبراطور، وهكذا سرحوه بكل لطف، وعندما وصل الامبراطور إلى كليكية استولى على المصيصة، وكان ذلك بعد اخضاعه لطرسوس وأذنة، ثم عسكر أمام عين زربة جنوب سيس.

وحدثت في الوقت نفسه بعض الأشياء حسبما يلي:

كان لدوق بويتو Poitou ، القائمة دوقيته حول خليج ايسونيا [كذا] ولدين، وعندما توفي الأب، استقر واحد منهما على عرش آبائه، ووصل الآخر إلى كنيسة القيامة في القدس متخفياً على شكل رجل فقير، وعندما رآه المحافظ هناك، أثاره مظهره الجميل وحجمه، فاقترب منه وطلب منه أن يكشف عن هويته، وأجابه الآخر بأقل ما اعتقد انه يمكن توضيحه، لكنه كان غير قادر على اقناعه، لذلك قام هذا [الغريب] بإعلان جميع الحقائق حول هذا الرجل، وبعدما استدعى [الملك] ريموند (ذلك أن هذا الاسم أطلق عليه) إليه، أقنعه أن يخطب ابنة بوهيموند، التي لم تكن قد بلغت سن الزواج(٢٠).

وبناء عليه انطلق [ريموند] مسافراً نحو انطاكية، وبالصدفة وقع بين الكشافة الرومان، وكاد أن يؤسر من قبلهم، وقام واحد من الجند الذين تصدوا له بتوجيه ضربة له على الخوذة، لكنه لم يقع لأنه أمسك بكلتا يديه برقبة الحصان، ثم لحق به عدد كبير من أتباعه، فتمكن من العودة إلى ظهره، وهكذا تجنب الخطر، ووصل إلى انطاكية.

وعلى كل حال، كان الامبراطور مشغولاً بحصار عين زربة، وكان الذين في داخل المدينة يخططون لجعل الحصار مخفقاً، لذلك قاموا بتسخين قطع الحديد بوساطة النيران بمافيه الكفاية، ورموها بالآلات،

على رماة الحجارة، وكانت هذه عندما تصبح قريبة تشعل النيران في الأخشاب القائمة أمام الرماة، وأغضب هذا الذي حدث مراراً الامبراطور، وفي حالة الانزعاج اقترب منه ابنه اسحق [السيباستوكراتور Sebastokrator] وقال: «تعال ياأبي وأصدر أوامرك بتغليف المنشآت الخشبية بالقرميد».وعندما أنجز هذا، وجد الذين في داخل المدينة أنفسهم غير قادرين على مقاومة الهجمات المتوالية، ولهذا فتحوا الأبواب وقدموا الطاعة للقائد الروماني.

٨- ووقعت عين زربة، بهذه الطريقة تحت النير الروماني، غير أن ريموند وبلدوين، الذي كان آنذاك صاحب مرعش، وقد شعرا أن الخطر لم يقف بعد أمام أبوابها، جمعا مايكفي من القوات وسارعا نحو فلسطين لانقاذ الملك هناك من الخطر[١١٣٧]، ذلك أن المسلمين الذين عاشوا على مقربة من فلسطين هزموه بالحرب، وكانوا يحاصرونه في قلعة مونت فيراند Mont ferrand [بارين] التي كان قد التجأ إليها.

وبعدما استولى الامبراطور على عين زربة توجه إلى حصار حصن فهكا Vahka [فيكي] قرب انطاكية، وعاد لذلك ريموند وبلدوين مسرعين إليه، وغير في الوقت نفسه الجيش الروماني أوضاع حصار فهكا، ونصب معسكره حول النهر الذي يجري ماراً بالمدينة [أنطاكية]، وكان الانطاكيون في البداية غير خائفين، واثقين بمتانة أسوارهم وببقية الدفاعات، ولهذا عندما طال الحصار لوقت معتبر قام بعض المسجلين بين [المشاة البيزنطيين]، كما يحدث عادة في كل جيش كبير، بالاندفاع نحو الحدائق القائمة أمام المدينة لجمع الفواكه، وهاجمهم [الأنطاكيون] بشكل مفاجيء وقتلوا كثيراً منهم، وعندما انتشر هذا الخبر بين الجنود الرومان، اندفعوا بحماس للانقاذ، وهنا هرب [الأنطاكيون] نحو أبواب المدينة، وفقدوا عدداً كبيراً من رجالهم أثناء الفرار، وعندما استأنف الرومان عمليات الحصار بنشاط وفعالية، أصيب الانطاكيون برعب كبير،

ولهذا غالباً ماقصد ريموند الامبراطور ورجاه بحرارة أن يتخلى له عن المدينة، بشرط وجوب اعلان الامبراطور سيداً لها، واعلان ذلك، لكن على أساس أن يكون ريموند وصياً شرعياً عليها، بموجب سلطان الامبراطور جون، وعندما أخفق ريموند في الحصول على مطلبه، عاد بدون نجاح، لكن بعد مضي عدة أيام، عندما اتخذ المجلس الروماني قراراً حول هذا، استقبل ريموند على أساس الشروط المذكورة، ورضخ بقية اللاتين وسلموا للامبراطور، وكان منهم الذين عرفوا بالاخوان [الاسبتارية والداوية] والذين سكنوا في تلك المنطقة وهكذا جرت الأمور.

وكان الامبراطور جون يمقت أن يضيع الفرصة المناسبة التي تهيأت، فقام بوساطة القوات المذكورة بمهاجمة أعالي سورية، فاستولى بقوة السلاح على حصن بزاعة، وحصل على كميات وافرة من الغنائم منه [١١٣٨]، وأرسل هذه الغنائم مع حشد من الأسرى إلى انطاكية، وذلك بعدما أسند المسؤولية عنهم إلى توماس، الذي كان رجلاً من أصول غير هامة، لكنه دخل —كما أعتقد— منذ طفولته بين موظفي الامبراطور، وذهب الامبراطور نفسه نحو حلب، وهي مدينة قديمة وواسعة الشهرة، وبما أن توماس هوجم بشكل مفاجيء، فقدْ فقدَ الغنائم وقافلة الأسرى التي كان يقودها، ونجا بصعوبة بالغة من الخطر، وعندما وصل الامبراطور إلى حلب، تصور أن المنطقة من حولها كانت بدون ماء تماماً، ولذلك اجتازها دون توقف، وبعدما تغلب على حصني حماة وكفرطاب بالقتال، انتقل نحو شيزر، وهي مدينة مزدهرة وكثيرة السكان، وقد حاصر المدينة هذه واستولى عليها، لكنه عندما تقدم نحو القلعة صدّ خائباً، وفيما هو على وشك الاقلاع بهجوم جديد عليها، وصل إليه بعض الرسل ووعده بمال يدفع إليه فوراً، وأن يوظفوا عليهم مبلغاً يدفعونه سنوياً إلى الرومان، ولقد كان هذا محتوى عرضهم، ورفض الامبراطور هذا العرض، لأنه كان يأمل في أن يتغلب عليهم بالحرب، لكنه بعدما قام بعدة

هجمات مخففة ضدهم اقتنع انه كان يحاول المستحيل، لذلك استقبل رسولهم، وارتحل وفق شروط(٢١).

وقد زودوه بكثير من المال، وأضافوا إلى ذلك صليبا، وكان شيئاً مدهشاً، وهدية تليق بامبراطور، فقد كان عبارة عن حجر لونه أحمر، وبحجم معتبر، وعندما حفر على شكل صليب، فقدَ بالحفر شيئاً من لونه الطبيعي، وقالوا إن قسطنطين الأول، الذي هو الرسول بين الأباطرة، قد أمر بصنعه، وقد آل أمره إلى أيدي المسلمين بطريقة ما، وبعدما تسلم هذا، وأخذ العهود عليهم فيما يتعلق بالجزية المستقبلية، انطلق عائداً نحو كليكية ثانية، وما ان استولى على حصني فهكا وكابنسكيرتي -Kap niskerti ، بقي في تلك المنطقة، لكنه عزل قطعة من الجيش وأرسلها لنهب بقية الحصون، هذا وأن أقوم بتدوين هذه المسائل بالتفصيل، خارج كما أعتقد، عن المهمة التي نحن بصدد تأريخها، فقد كان هدفي الحديث عن الوقائع الحالية باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لها، كما انني لم أتلق رواية موثقة حولها، وعلى كل حال لقد رافقه الحظ، لذلك استطاع أن ينجز هذا القدر في عامين[١١٣٧-١١٣٨].

٩- لقد حاز الامبراطور على شهرة واسعة في الحروب في آسيا، باستثناء المسائل المتعلقة بنو—قيسارية [نكسار الحالية] فهي لم تسر وفق ماكان قد خططه، فقد كان الوقت بداية الانقلاب الشتوي [كانون أول١١٣٩] عندما عسكر ليس بعيداً عنها، وفكر باخضاعها بوساطة الحصار، لكن بما أن الترك الذين كانوا مستولين على المدينةذوي فعالية عظيمة في ممارسة الحرب والهجوم بعنف عليه، ولأن برد شتاء قارص غير معتاد ضغط بشدة على جنوده، غادر المدينة وابتعد عنها(٢٢)، وفي أثناء زحفه في المناطق المجاورة للترك، استحوذ على غنائم هائلة، وأعاد إلى الأراضي الرومانية حشداً من الرجال، كان الترك قد استرقوهم منذ زمن طويل.

وفي هـذه الحملـة، أعني عنـدما كـان مـايـزال يحتل منـاطق في نو—قيسـارية، حدث شيء يستحق الـذكر والسماع، فعندما وقع اشتباك عنيف بين الـرومـان والترك، صـدف أن نـال الترك اليـد العليـا، ولـدى ملاحظـة مانويل —الذي غـالباً [كذا] ماذكـرت أنه كان الولـد الأصغر للامبراطـور— ماكان يحدث، انقض على وسـط العدو —دون معرفـة أبيه بـذلـك— ومعـه حـاشيتـه، وتمكن من صـده ورده إلى الـوراء، وأنعش شجاعـة جنود الـرومان التي ضعفت، وغضـب أبوه —محقاً— مـن هذا ولامه وانتقد تهوره، لكنه في قرارة نفسه أعجـب به وتملكته الدهشة، لقيام مانـويل، الذي لم يكن قـد بلغ الثامنة عشرة من عمـره بعد، بـرمي نفسه وسط خطـر عظيم من هذا القبيل، ولهذا أطلـق عليه ودعـاه علناً بمنقـذ الجيش الرومـاني، وهكذا إن الشجاعة ليست مقصـورة على أي عمر أبداً، وفي هذه الحرب بالكاد استطاع أي من الرومان أن يعود على ظهر فرس.

١٠- وهكذا اختتمت قضية نو—قيسـارية، وما إن علـم الامبراطور أن الترك يشنون حـرباً ضدّ سـوزوبولس، حتى سـارع نحوها بكـامل القوى [١١٤٢]، وعندمـا أخفق في لقاء أي عـدو، (لأنهم ماإن علمـوا باقتراب الرومـان حتى انطلقوا فـارين)، قاد الجيش نحـو بحيرة تدعى بـوسغوس Pousgouse[بيشيرغولـو](٢٣)، وهي بحيرة تمتد طـولاً وعرضـاً بشكل عظيم، واستولى على الجزر القـائمة وسط الماء كل منها معـزول عن الآخر، وكان مبني عليها منذ القدم حصون، وعـدّ الناس الذين سكنوا فيها الماء بمثابـة خندق، وكان من الممكن بالنسبـة لهم الذهاب إلى قونيـة والعودة في يوم واحـد(٢٤)، ولهذا السبب بـالذات أولى الامبراطـور أهمية خـاصة للاستيلاء على البحيرة، وعنـدما رفض الرومـان الساكنين في الجزر الخضوع له والتسليم (لأنهم كـانوا منـذ وقت طويل وممارسـة مديـدة، متحدين في مواقفهم مع الأتراك) وضع خطة وفق مايلي:

بعـدما جمع أكبر قـدر ممكن من القـوارب والعـوامـات ربطها ببعضهـا

بعضاً بوساطة ألواح على ظهرها، ووضع آلات حربه عليها، وقادهم مباشرة نحو الحصون المذكورة، وعندما اضطربت البحيرة بالرياح الجافة، فُقد عدد كبير من الرومان، ومع هذا، وبعد عنف لامزيد عليه استولى عليهم.

وعندما علم أن ريموند أمير انطاكية قد ثار، زحف مباشرة عائداً إلى كليكية[١١٤٢]، وعزم على منح كليكية وانطاكية مع اطاليا وقبرص إلى مانويل، ليكونوا حصته، وسأروي لماذا عزم على هذه النية، فقد كان منذ وقت طويل مضى قد وعد الرومان باعطاء الصولجان إلى ألكسيوس، الذي كان أكبر أولاده(٢٥)، في حين كان مانويل آخر أولاده ولادة، وراجت حكايات واشارات تتعلق بالحكم قد ظهرت وأفشيت إلى الشاب، وبالنسبة لي هناك حكاية أو حكايتين ليستا غير مناسبتين للرواية:

مرة عندما كان مانويل نائماً، ظهرت له امرأة في الحلم، وكانت مبجلة المظهر، متدسرة بالسواد، وفي يدها الحذاء [اللؤلؤي] الذي يسمح به القانون للأباطرة، وقدمت الحذاء إلى مانويل حاثة إياه على استخدامه، وخلع هذا: مشيرة إلى حذائه العادي الأزرق اللون والخاص(٢٦) بـ[السباستوكراتور]، واستيقظ مليئاً بالخوف، وحيث انه لم يجد ماظهر له، انفجر باكياً مثل طفل، وظن انه أخذ من قبل شخص من أفراد بيته، هذا مايتعلق بهذا الأمر، لكن هناك شيء آخر لم يقلّ أهمية بالنسبة له:

كان هناك راهب من الرهبان بلاده هي طبرية، وكان طريق حياته بعيداً، وكان من سكان الجبال، وعندما وقف مرة أمام الامبراطور جون للوعظ، لاحظ اقتراب الأبناء منه، وقد عامل البقية مثل معاملة المواطنين العاديين، لكن عند اقتراب مانويل منه، خاطبه بتواضع، وعندما استوضح الامبراطور منه سبب صنيعه هذا، أجابه الراهب قائلاً:

«لأن من بينهم جميعاً يبدو لي مانويل امبراطوراً»، ومن هذا الأمر، ومن

أشياء أخرى مرت بالامبراطور بمثابة اشارات لا عدّ لها ولا حصر، وبما انه لم يكن قادراً على أن يغير مابدا له صحيحاً في البداية، تحول بانتباهه ونواياه نحو الخطة التي سلف ذكرها.

لكن يبدو أن مامن واحدة من هذه المسائل، كان متوقفاً على الخطط البشرية، فهو لم يكد يصل كليكية حتى حرم من ولديه الأكبر سناً [ألكسيوس وأندرونيكوس]، في حين عاد [اسحق]، أحد المتبقين الذي لم يكن صحياً بشكل جيد، إلى بيزنطة مرافقاً للجسدين(٢٧)، ثم تقدم إلى عرش الامبراطورية.

ومن المفيد التوقف هنا قليلاً لتبيان كيفية نهاية جون: فبينما كان يصطاد، غلبه خنزير بري، وكان كبيراً، ذلك أن كليكية وجبال طوروس تنتج أعداداً كبيرة من الخنازير، وقد قيل:

وجّه إليه الامبراطور طعنة بالرمح، غير أنه تغلب عليها أثناء اندفاعه وحين انغرس السنان في صدره، اشتعل غضباً بسبب الطعنة، فازداد ضغطاً واندفاعاً، ولذلك التوت ذراع الامبراطور، وسحبت جانباً بسبب شدة المقاومة، كما والتوت في الاتجاه الخاطىء جعبة كانت مليئة بالنشاب، كان الامبراطور مجهزاً بها، وكشط رسغه برؤوس النشاب، وتلا ذلك جرح أصابه فوراً، وفار الدم واندفع من الجرح، ووضع على الجرح رباط رقيق، يدعوه العامة ايكديرا Ekdera (٢٨)، بهدف الربط معاً لما انشطر، ولشفاء الجرح، لكنه ازداد التهاباً وتحرك الألم، وكان ذلك السبب لما نجم بعد ذلك من التهاب، لأنه نقل التسمم إلى بقية الجسد من رأس النشاب الذي كان قد انغرس عميقاً، لكن هذا كان فيما بعد.

وبينما كان مايزال لايشعر بالألم، مدت له طاولة، ووضعت له مساند ليتناول الطعام (٢٩)، وفي أثناء الأكل وقف الأطباء من حوله لمراقبة الرباط، وسألوا عن سبب الجرح، وعندما عرفوا ذلك، اشتكوا بشأن

الطاولـة، وطلبوا فك الـرباط ورفعـه مباشرة عن ذراعـه، وأصرّ هو —على كل حال— بشـدة على أن الجرح قد أغلق، وانه لايشعر بـوجود أي خطر فيما يتعلق بتورم الجرح والتهـابه في المستقبل، لكنـه بعدما تنـاول الطعام، وما ان استلقى لينـام، شعر فجأة بألم حاد قد اعتراه والـورم يهاجم ذراعه، وتمّ استدعـاء مجموعـة الأطباء، وقام نقـاش حول مـاينبغي صنعه، ورأى بعضهم أن الأفضل هو فتح التـورم، لكن عدم نضجه لم يـرض الآخرين، وفضلوا التخلص من الورم بطريقة أخـرى، لكن بما انه بدا مريضاً بشكل كبير انتصر يـومذاك رأي الجراحـة، وعندمـا فتح الجرح ازداد التورم أكثـر، وبات الذراع كله متورماً.

وبدأ الامبراطور يرتجف في قرارة نفسه لتـوقعه الموت، خاصة بسبب انه لم ينفـذ خطتـه التي نـاضل من قبل في سبيل تحقيقهـا، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين، فلهـذه الغاية كان قد صنع شمعدانـاً وزنه عشرين رطلاً من الذهب، أعده كتقـدمة للكنيسة هناك، وبما انه كان وقتـذاك في حالة مستعصية على الشفـاء، استدعى رجـلاً مقدساً، وكـان راهباً من بـامفيليا Pamphylia، وسألـه أن يطلب لـه الـرحمة الـربـانية بـالصـلاة طـوال الليل، ولقـد قيل انـه بينما كـان الـراهـب مكـرسـاً نفسـه للصـلاة سمع أصوات غنـاء، وانبعث ضوء رؤي مـن مكان مـرتفع، وكان هنـاك شاب رباني أوقف روحه المضطربة، وهكذا كانت هذه القضية.

ولدى شعور الامبراطـور انه في حالة ميؤوس منها، أمـر بحضور النبلاء، مع جميع من عدّ بين الأعيان وأمراء الجيش، وخاطبهم كما يلي:

«أيها الـرومان الـذين اجتمعتم للمشاركـة في هذا المجلس معي، لقـد رأى عدد من أباطرتنا مع كثيرين انه من المناسب نقل منصب الحاكم إلى ابنـائهم بمثابـة عمل توريثي، وأنـا نفسي أعلم انه لهذا تسلمت السلطـة من أبي الامبراطور، وكل واحـد منكم يعلم ان الشيء نفسه قـد تمّ صنعه

من قبلي في هذه الحالـة، وبناء عليه اعرفوا، انني أنـا الذي وصلت —كما ترون— إلى نهاية هذه الحياة الحاضرة، قد نقلت المنصب والعرش إلى أكبر أبنـائي البـاقين لي، وذلك تماشيـاً مع عــادات بني البشر، لكنني شـديـد الاهتمام بموقفكم، إذا كان الأمـر يتعلق بأي واحد من الاثنين، فيما يخص السمات الصحيحة، انني سأختار كل من لايبدو معـارضاً لرأيكم ولرأيي، لأنني أرى انـه لـن يكـون مفيـداً، لاللمعطي ولاللمتسلم، إذا مــا تـولى موجه الـدفة اغراق السفينة بالجهـل، حتى وإن كان سيهلك مع العطية، ولن يستطيع إقـامـة ادعـاء ضدّ المُعطي، انـنـي أقدر ان هـذا بـلا ادراك، وجهل في تقديم الأعطيات، وعمل غير سليم بالبتة.

لهذا انني شخصياً أعطي الأفضلية لما تقدرونه، وهاكم البرهان التالي:

انتبهوا، لفـائدتكم، بقدر مـايحتاج الأمر من سرعـة، انني جاهـز للقيام بعمل مضاد للطبيعـة، إن ولديّ كلاهما جيد، وأحـدهما متقدم على الآخر بالسن، لكن المنطق الصحيح يرفض الأسن، ويطـالب بالأحسن، ويقول إن الجودة تتـوافق مع الجودة، وهذا الصراع في جميـع الأشياء صعب، إنـه صعب أن تحصـل على الأفضل، وبما أن الانســـان يـــود أن يعين الجزء الأفضل للشخـص الأفضل (لأنـــه مـــا الـــذي هـــو أعلى من شرف الامبراطوريـة؟) إنني أرغب، ياجنـودي، أن تكون الجودة التـامة خـاصة بـالابن الأكبر، لكن القرار ينظـر نحـو الأصغر، ويشير معيـار الامبراطوريـة بـالحري نحـو الآخـر ولادة، إنـنـي لست مـرغماً على الخوف من أن مـا أراه متأثراً بالتفضيل، فأنا أحب ولديّ تمامـاً بالقدر نفسه، وما من واحد منهما متقـدم على الآخر بـالأفضليـة، ولهذا إن هذا القـرار فيما يخصهما ينبغي أن يوكل إليّ أكثر من أن يعهد به إليكم.

وما سأقوله ينبغي أن نتفحصه بكل دقة معاً، ماأعنيه هو:

يـاترى عنـدما يكـون ولـد أفضل من أخيه، ووضع على العـرش، هل

برهن قط على أنه أدنى، أنا نفسي لاأشعر بالثقة حول ان الإثرة قد أبعدت تماماً من خططي، كلما تعارضت مع الكفاءات، ذلك انها كافية لافساد كل قرار، وبناء عليه هل ترغبون في أن ألقي على مسامعكم سماته ومؤهلاته، ومن ثم أنتم تتخذون القرار؟ إنه لواضح لكل انسان كم يمتلك من القوة والقدرة والشجاعة في أعمال الحرب، إن في أحداث نو—قيسارية براهين على مصداق ماأقوله، فعندما كانت أوضاع الرومان آيلة بوضوح إلى التلاشي، قام باستردادها واعادتها، وإذا كان يكفي الاستشهاد عنه بما يعرفه والده فقط فاسمعوا: غالباً، عندما كان البقية في ضياع، كان يظهر لي متماسكاً وصحيح المشورة، وذلك كان كلما عانيت من مصاعب شؤون لاتعدّ ولاتحصى، ولقد كان دوماً قادراً على رؤية العاصفة المقبلة، وبارعاً في تجنب الزوابع وفي مواجهة الرياح العاتية، ويمكننا أن نسوغ أمر اعتبارنا له أمام الآخرين، بحكم أن قرار الرب قد وقع على الأصغر، خذوا بعين التقدير كيف أن ألكسيوس قد جرى استدعاؤه إلى العرش من قبلي، وأعلن القرار ونشر قبل عدة سنوات، لكن الرب قد كشف لي للتو، في اللحظة الأخيرة التي توفي فيها، وأخذ بعيداً ذلك الرجل الشاب من بيننا، وسأخبركم أيضاً ببعض المعطيات التي كشفت فيما يتعلق بقدرة [مانويل] الحالي، باستثناء انني متنبه إلى أن هذه الأشياء ينظر إليها بشكل غير معقول من قبل الجمهور، لأنه مامن شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل، وكل ماكنت قادراً على معرفته بالنسبة لابني قد رويته أنا نفسي. والآن جاء دوركم لاضافة ماترونه».

وما ان قال الامبراطور هذا، حتى وافقه الآخرون بالسرور، والبكاء، وقام الشاب (الذي أحب والده أكثر من أي شيء آخر) احتراماً منه لقوانين الطبيعة، بالانحناء ووضع رأسه على صدره، وغسل الأرض بدموعه، وبعدما لفّ برداء أمير الجيش، ووضع على رأسه اكليل من

الماس، تمّ إعلانه امبراطوراً من قبـل الجيش أجمع، وعاش الامبراطور جون بعد هـذا لعدة أيـام، ثم غادر هـذه الحياة، وكان قـد حكـم الـرومان لمدة خمس وعشرين سنة وسبعة أشهر (كذا) معاً، وقد توفي في اليوم الثامن من الشهـر الذي يـدعـوه الاغريـق Xanthikos ، أي نيسان عنـد الرومان [١١٤٣] (٣٠).

الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١- لندع روايتي عن أعمال الامبراطور جون تتوقف هناك، وكان الامبراطور مانويل الذي تسلم الصولجان مايزال شاباً، قد بدأت لحيته بالظهور، ولم يكن هياباً من تحمل أعباء السلطة، كما انه لم يسمح لأي شيء أن يكون متراخياً، وبما أن أخاه اسحق كان آنذاك في بيزنطة، راودت الحشود شكوك، انه لن يتمنع عن إحداث ثورة، وحيث انه كان بطبيعته ميالاً للخصام، تحركه الانفعالات وتقوده، فإنه لابدّ وأن يجد مسوغاً يتمسك به من أجل الثورة، ومع هذا لم يول مانويل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغادره حتى أكمل بشكل لائق الطقوس المتعلقة بأبيه (وذلك بالاضافة إلى أشياء أخرى منها تأسيس دير في البقعة التي أسلم فيها روحه)، وأعدّ مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكان قبل ذلك، أي بينما كان الامبراطور جون مايزال حياً، كان الانطاكيون قد شرعوا بالتملص من سلطته، وقد بعثوا إلى الامبراطور مانويل يطلبون منه مغادرة حدود الأراضي التي أعلنوا أنها تعود بملكيتها إلى مدينتهم، وهي الآن متملكة بالقوة وبشكل غير عادل من قبل الرومان، ولقد كان هذا ماقالوه غير ان الامبراطور تصدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الرسل، ان الانطاكيين لم يعانوا من أيّ ضرر صدر عنا، وإذا سرق الانسان شيئاً ما من الآخرين، عندها من العدل أن يعيد إلى الآخرين ممتلكاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلوا عن

انطاكية للرومان من قبل، بل استوليتم عليها بالعنف وسلبتموها من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندما كانت مملوكة من قبلنا، ثم ماهذا الذي تطلبون تسلم ملكيته منا؟ ألا تطلبون مدينة انطاكية؟ إنها أولاً كانت مملوكة من قبل دولتنا (١)، وإذا كنتم لاتستحون من خرق اتفاقاتكم، لماذا أتيتم لتتهمونا بالاعتداء على حقوقكم، في حين نحن الذين ينبغي أن نطالب بتصحيح الأمور منكم؟ لكن ستكون هناك فرصة مناسبة لعرض مانحن بصدده من مسائل، والآن آمركم بمغادرة ماليس عائداً إليكم، وإنني سأزيد —ولن أنقص— ماوصل إلى يدي من أبي».

لقد كان هذا ماقاله للرسل. وحمل جثة أبيه على كتفه، وقام يعاونه النبلاء بأخذها بوساطة مسيرة، إلى السفن التي كانت متوقفة في نهر بيراموس Pyramos [سيحان]، وكانت هذه السفن ستعبر من خلال موبسوستيا Mopsueistia ومن ثم تأخذ طريقها إلى البحر، وعندما انطلقت الدرمونات [سفن حربية] إلى البحر من هناك، أمر بإزالة المعسكر وتولى بنفسه قيادة الجيش، وزحف غير هياب في وسط أراضي الترك(٢)، واندهش الترك رعباً، وكانوا معجبين بسرعة اندفاعه الزائدة، ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للرومان، وسار الرومان وسط بلاد أجنبية كما ولو أنهم كانوا يعبرون أراضيهم الخاصة بهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى الأراضي الرومانية، ووصلت السفن التي حملت بقايا الامبراطور إلى أرض بيزنطة، وخرج أعيان(٣) الرومان لاستقبالها بشكل رائع، ونقلوا هذه البقايا إلى الدير المقدس، الذي —كما سلف القول— قد أقامته الامبراطورة ايرين من قبل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً برحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلق بالسيباتوكراتور [أخيه اسحق]، فإن الذين عهد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قـد أوقعوه في شراكهم بخداعه، وذلك على أسـاس انه كـان يخطـط لاغتصاب العـرش، ولـذلـك سجنوه في الأفنيـة الخاصة بالبـانتوكراتور، ولم تحصـل فائدة من هذه الخطـة وأخفقت، وحمل اسحق مشـاعر سيئة نحـو بعض الذيـن كانوا مـع مانويـل، ولاسيما نحو الذيـن كانوا يـديرون المراكز السـامية، وكـان من الممكن أن يقـوم بالحاق الضرر بأهليهم وحـواشيهم في بيزنطة، وفكـر مانويل في الحقيقـة في كيفية منعـه ببراعة مـن تلك المحـاولة، وهكـذا ارتأى أن مـن الصواب ارسـال مراسيـم إلى بيزنطـة يتهم فيها أولئـك الرجـال [مؤيدي مـانويـل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصـادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتـوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تـآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهـم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيّرة ، وبدون حـاجة إلى مـواجهة تقـديرات النـاس، لأن مـانويـل كان قـد نوى هـذه الأشياء، وقام بالكشـف عن خططه للذين من حوله، وبـالنسبة لكل من أخيـه اسحق، وعمـه، كان كما أسلفنـا القـول أولهما محافظ عليـه ومحروس داخـل الديـر، وكان الآخـر مقيداً بقيـود حديـدية، وكـان عم الامبراطـور مسجون من قبـل أبيه، أعني أنه كان مسجـوناً بأمرٍ من جـون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكـان اعتاد أن يعيش هناكً بشكـل لائق، وذلك بعدما كـان قد نفي من قبل أخيـه الامبراطور عندما كـان على قيد الحياة، وبسبب مؤامـراته ورغباته بالعـرش مابرح ينقل مـن هذا المكان إلى ذاك، إلى أن وصل إلى حالـة التعاسة هذه بالسجـن بقرار من قبل الذيـن كانوا مسؤولين آنـذاك عن بيزنطـة، وذلك بعدما عـرفوا أنه ينـوي الثورة مجدداً، ولكن —كما قلـت— جعلت الحكمة طـريق الامبراطور إلى السلطـة ليناً، فما ان وصـل مـانـويـل إلى بيـزنطـة، وعلـم بهذه الأشيـاء التـي تخص

السيباتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريرق، رفع إلى عرش البطرقية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها(٥)، وامتلك حسبما قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دنيوياً برأس اصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وبيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلفاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل انسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الاضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما انه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضدّ أبيه (ولأنه لم يقم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمور أعاقت زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسبيهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معهما برسق(٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتوستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا ماسأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ماوجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسينيين(٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن مامن أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل،فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقترابه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا باخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا مايزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالانسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل ماراه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردتهم وأوقعت بهم مذبحة كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحازية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطىء، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحنق، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلّت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملأوا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهو ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه(٩).

٤-وتزوج في هذه الآونة [كانون الثاني١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح(١٠)، وفيما يلي ماروي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة[١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للأخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلـم بشكل فيه أبهة عظيمة، وبدا أن هذه الاشارة ليست طيبة أبداً بـالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل(١١).

وشغلـت منطقـة آسيا القـائمـة عبر المضـائق [البوسفـور] الامبراطـور، الذي كان يبحـث عن كيفية جعل حـدود بيثينيا بإمكانها أن تتـوقف عن كونها نقـاط دخول بـالنسبة لأمة الترك، ذلـك انه بحكـم أن التحصينات التي كانت تصـد فيما مضى أعمال خرق البرابرة قد أهملت رعـايتها، فقد غدت تلك المنـاطق هناك منافـذ سهلة لوصول الترك، لكـن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحـة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هنـاك، وقرر في هـذه اللحظة انشاء حصـن في المنطقة المعـروفة باسم ميـلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريـــا شرقي ازنيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جـارياً، روي له أن مرضاً متقدمـاً يوحي انه وبـاء لايمكن التغلـب عليه قـد أصاب مـاريا الابنـة الأكبر للامبراطـور جـون، التـي كـان القيصر جـون روجـر(١٣) قد تـزوجهـا وبعـدمـا أقـام الامبراطور مـافيه الكفـاية في المكـان لإكمال الأعمال، أخذ الطـريق نحـو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قـدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكـانت ذات مظهـر معبر تمامـاً. وبـوصولي إلى هـذه النقطـة في روايتي، جئت إلى ذكـريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي مـاتزال تستحق الاعجـاب، لأنهم قالـوا إن القيصر روجر رنـا ببصره على الامبراطوريـة، في الساعـة التي تلـت وفاة الامبراطور جـون، فقبل أن تستقبـل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحـاط نفسه بعدد كبير من الميليشيـات الأخرى، وربح بشكل خاص إلى جانبـه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلدتـه من جانب أبيه، وذلـك مع أتباعـه الذين بلغ عـددهم أربعمائة، وكان هـذا الايطالي متميـزاً ومشهوراً بنسبـه، إنه روبـرت أمير كابـوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بها يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريا، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير[١١٤٦] في السهول القريبة من ريندا كوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أو لابات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة(١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد خرقوا هدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي(١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأخرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان، انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقـداً العزم على تـدميرهم من الشبـاب فصاعداً، وذلـك عندمـا ينقض عليهم بشكل مفـاجيء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكـن من أمر، لم يخفق تمامـاً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخـدم يديه في ذلـك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكـل سريع بميسيان أوليبموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas ⁽١٦⁾، حيث أنشأ حصناً قـوياً، زحـف أثناء الليـل خـلال الجبال هنـاك، التـي هي عـالية لا بـل بالحقيقـة شاهقة⁽١٧⁾، ونـامية أكثر مـن اللازم، وعنـدما امتلأ رأسـه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانيـة، وقد بقـي حتى حوالي منتصـف الليل بـدون وعي، غير أنـه تحسن بعـد ذلك قليـلاً، واستعاد وعيـة في اليوم التـالي، ومع ذلـك بقي هـادئاً، وأرسل شطراً منـاسباً من الجيش، أرسلـه على كل حال مع القـادة لتنفيذ واجباتـه، وعندما اصطـدموا بقوات العـدو على مقربـة من هناك، تفـوقوا عليه بالقتـال، ولذلك استحوذوا على كميـات هائلة من الغنـائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ماأنجزه الامبراطور.

وانقـض الترك، الـذيـن أعدوا حملـة كبيرة، آنـذاك على أراضي تـراقيـة [بندتراقية في وسط غربي آسيـا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كـونتوستيفانوس Kontostephanos ، الذي أرسل لهذه الغـاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكـن قد تمكن من جمع جيـش حتى يحافظ به عليـه)، ومضى الترك ينهبون وصـولاً حتى إحدى المنـاطق القريبة مـن البحر التي اسمها كلبيـانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] ⁽١٨⁾، وعـادوا وهم يسـوقـون أمامهـم أسـلاباً كثيرة،وعنـدمـا سمع الامبراطـور بهذا لم يستطـع أن يحبس نفسـه، فبعدمـا أجرى استعداداتـه بكل سرعة، وانطلق بسرعـة وافية نحو قـونية، قام بـاخبار السلطان (مسعود) صـاحبها برسالـة، وجاء نص الرسـالة كما يلي:

«نحن نرغب أن تعلم أنك اقترفت أشياء أثارت هجومنا عليك، فأنت نفسك الذي سلبت منا براكانا Prakana، التي ليست عائدة إليك، وأنت نفسك أغرت مؤخراً على الأراضي الرومانية، كما أنك لم تتمنع عن المقاتلة بالطريقة نفسها مع يغي —بسان [بن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليف الرومان، ومع عدد آخر كبير من المقدمين هناك، إنك رجل عاقل، وعليك أن تدرك أن الرومان لن يسمحوا لأنفسهم بالاغضاء عن هذا، ويبقى، أنك ينبغي —بعون الرب— أن تدفع الغرامة لهذا مرات عديدة، وعليك إما أن تتوقف عن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكل كانت الرسالة، وبعدما قرأ السلطان الرسالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسالتك أيها الامبراطور العظيم، وقد أعددنا أنفسنا حسبما أمرت، ثم يتوجب عليك أن تأمر زحفك ألا يؤخرنا بطول الاتصالات، ويبقى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحالية] المكان الذي سنتصادم به، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هذه الشاكلة، وبصورة عامية متدنية، ردّ السلطان على الامبراطور، وقد بقي السلطان مع الجزء الأكبر من الجيش التركي هناك في فيلوميلون، حيث كان معسكراً من قبل، وكان قد انتقى بعضاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مع الامبراطور، وكان ذلك قرب مدينة أكرنوس Akrounos [أفيون— قراحصار الحالية]، وكان الامبراطور معسكراً في مكان يدعى تل كالوغرايا Kalograia، وعانى الترك من هزيمة ساحقة، وعادوا مثل اللاجئين إلى السلطان، وكان بين الذين باتوا طعمة للسيف الحيري(٢٠)، وكانوا مشهورين بين الأتراك، وأصاب الرعب السلطان، بسبب الفاجعة، ولذلك لم يبق في

المكـان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غـادر فـاراً من هنـاك، ولدى معرفـة الامبراطور بذلـك عزم على الاستهزاء بـه، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبـب قحتك التي تقدمت ذلك، ثـم إن ذلك لم يمكـن رحضه مـن قبل الآخـرين في القتـال، وحيث بـدا وكـأنك نسيـت تماماً فخـارك المبكر، ولم تقـم وزنـاً لما كتبتـه مؤخـراً إلى امبراطـوريتنا [بيـزنطة التـي هي مصـدر جلالتنـا] بل هـربت إلى حيـث لاأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لـن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنـا يبقـى على ذاتـك الشريفة والكـريمـة أن تسرع وتتجـاوز دنـاءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلـوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحـرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذيـن كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤسـاء هؤلاء من أغلالهم، وسمح لهم أن يروا النـور والحرية، وكان الترك عنـدما اقترب الامبراطـور أولاً واثقين من قـوتهم، فقـرروا عدم نقـل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكـن عندما أرغمهـم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتبـاه، بل عدّوا أن ممتلكاتهم أقـلّ قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسـالة إلى السلطان، إما انه شعر بـالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلـك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يـدعى بالتركية أندرخمان(٢١)، وعسكر هناك وعندمـا سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسـم انتقل إلى ليكونيا Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يـدعى غيتا Gaita [أكيت] (٢٢)، وعبـأ في اليـوم التـالي قـواته [لأن الجيشين كـانـا معسكـريـن على

مقربـة] وزحف، وعندمـا اقترب من الترك، بدأ القتـال، ولم يستطع الترك الصمود أمـام هجوم الـرومان، فانعطفـوا للتراجع، وطـاردهم البيـزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتـوقف السلطـان عـن الفـرار حتى وصـل في فـوضـى إلى قونيـة، فاندفع إلى داخلهـا واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بـالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هـو لم يتجرأ على البقاء في الداخـل، خشية أن يصبح محاطـاً به مـن قبل المحـاصرين الـرومـان، فذلـك سيجعله عـاجزاً عـن الظهور، وبشكـل عام، وبـدون أن يعرف إلى أي نقطـة من الحظ ستصـل نهاية الحرب إليها، فقـد ارتأى انه غير مفيد لـه أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضـع قسماً مـن جيشـه شحنـة في المدينـة، ثـم شطـر المتبقـي إلى شطرين، حيـث مركز أحد الشطـرين على السفوح خلف المدينـة، وأبقى الشطـر الآخر معـه حيث قـاده صاعـداً نحو اليمين، فقـد اعتمد بشكـل خـاص على قـوة الجبـل الممتـد بين قونيـة وحصـن قبـالـه Kabalh (٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندمـا وصل الامبراطور إلى قباله، كان متحمسـاً حماساً عظيماً، وشـديد الـرغبة في مهـاجمة السلطان، ونظـراً لأنـه كـان في البدايـة غير قـادر على الفـور معـرفـة أين يمكـن أن يكـون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجـوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركـزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسـائل أبرع من أي واحـد آخر) وقام على الفـور بامساك حـامل الرايـة، وسحبه بـوساطـة المقود، وأداره نحـو تلك الفـرقة، وعنـدما تـردد الجيش الرومـاني، ونظر إلى الحركـة بدهشـة كبيرة، وتساءل لماذا عليـه أن يرغب بالمغـامرة بشكل غير حذق وضدّ مثل هـذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهـم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هـم مقدمة الفيلـق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كـان مختفياً في مخابىء

الجبـل)، ولأن الـرومان كـانـوا هكـذا منـدهشين، خفف الامبراطـور مـن انـدفـاعه قليـلاً وقـال: «أيها الـرومـان لاتـدعوا حيـل البرابـرة تحول قـوة انتباهكم إلى خـوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيـش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لاأعتقد بوجود فرقة أخرى من العسـاكر قد بقيت للأتراك،وأن راياتهم قد وضعـت بالخفـاء فوق هنـاك في الأماكـن الكثيفـة، وذلك بغيـة اخافتنـا بمظهر وجـود حشود، عليكـم ألا تحتاروا وتندهشـوا أمام البربـري لعدده، بـل عليكـم ازدراء ضعفـه، ولايتعـايـش الصـدق بشكـل طبيعـي مـع التخيـلات، وعلى كـل حال إنـني سـأنطلـق مـع أكبر عدد مـن الأتبـاع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعـدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كمائن العدو».

ومـا أن أنهى الامبراطور كـلامه هـذا، حتـى اندفـع للانقضـاض على العدو، وتـوضع هو نفسـه على اليسار، لأن ذلك كـان يواجه قلـب جيش الأعداء، وحيـث وجد أكبر عـدد من خيرة الترك، واعتقـد أن الترك فقدوا شجـاعتهم أثنـاء سير القتـال، فعنـدما رأوا سيـوف الـرومـان اضطربـت صفـوفهم وتفـرقـوا في فـوضى، وكـل واحـد كـان راغباً في أن يكـون أول النـاجين من هنـاك، وراجت اشـاعة أن السلطـان كان مـوجوداً هنـاك، وأضاع الـرومان وقتاً كبيراً بالانشغـال في مطاردة الفارين وهكـذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان —كما قلنا— موجوداً في السـاقـة فقد زحـف فـوقـع أثنـاء زحفـه بكمائن غير متوقعـة، فـانعطـف وأعطاهم ظهره، ثـم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعنـي بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقـد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليـات المطاردة بعيـداً عن قونيـة لذلك خـرجوا مهـاجمين) وفعل الشيء نفسه الترك الـذين كـانوا متمـركزيـن على السفوح خلـف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه إليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيما بعد برتبة أمين البلاط(٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور —الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ماينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبتزيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش مايشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعتها، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتفوقت هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدما أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدما نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك(٢٥).

وروي انه بينما كان كان الجيش الروماني يعيث فساداً في قبور الأتراك

خارج المدينة وينبشها ويخرج أكبر عدد من الجثث منها، لم يرغب الامبراطور، على الرغم من ضغط اللحظة بالاساءة إلى مكانة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعدم ذروه، وأعلن باختصار أنه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحياء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتابة رسالة لم تكن بعيدة عن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطان، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«نرغب إليك أن تعرفي أن ابن امبراطوريتنا(٢٦)، السلطان حي ومازال باقياً، ذلك انه فرّ من شدائد الحرب»، وكانت هي، على كل حال، قد أعدت حوالي الألفين من الأغنام وكميات كبيرة من الثيران، وأنواع أخرى كثيرة مما يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيب به،لكن بما أن الجيش الروماني قام —كما سلف الذكر— باحراق أماكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطور بالانسحاب، أرسل ثانية رسالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقد طلبناك مراراً، غير اننا لم نستطع التصادم معك، فقد فررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لانبدو كأننا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بالمغادرة، ونحن في طريقنا إلى الوطن، وسنعود إليك بالربيع باستعدادات أعظم، وعليك التنبه وعدم الفرار كلياً بطريقة غير لائقة بك».

٧- هكذا كانت الرسالة، ووصلت قوى كثيرة من الأتراك الذين سكنوا وراء قونية، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابن دانشمند(٢٧)، لقد وصلوا متحالفين مع السلطان، والتحقوا به، واعتماداً منه عليهم لم يرغب الآن بالفرار كما فعل من قبل، بل انه ما ان ضمّ صفوفه حتى سارع نحو قتال الرومان، الذين كانوا قد وصلوا إلى مكان اسمه بلسان

البرابرة زبـريلزمـاني Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكـــان كان الـوصول إليـه أصعب مـن أي مكان آخـر، ليس فقـط بالنسبـة للرجـال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهـل الجواز به للمسافرين على شكل جماعـات صغيرة، وكان الجيش يعـاني من مصاعـب جمة حول المعسكر، لكـن الامبراطور، مدفـوعاً بحداثـة سنه، وبما انه لم يمـض وقت طويل منـذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء مـا خلال القتال، وذلـك تماشياً مـع عادات الـلاتين، لأن الـلاتيني الـذي اتخذ زوجة منـذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لايجلـب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعـاب الجبلية من على يمينـه وشماله جماعـات على شكل كمينين، وتألـف أول الكمائن من الـذين كـانوا أقـرب الناس إليـه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته(٢٩)، وحوى الثاني على وحـدتين عسكريتين، قادهما نيكـولاس الذي كنيتـه أنجيلوس Angelus ، وكـان رجـلاً شجـاعـاً في العمـل ومـزوداً بكثير مـــن الشجاعة، وأمـرهما بالمكوث هناك هادئين حتـى يرياه يقوم بـالهجوم ضد العدو.

واستجـاب على غير رضى لطلبـات أخوه اسحـق وجـون [أكسوكـوس Axouchos]، دمستـق قوات الشرق والغـرب(٣١)، فمضـى معهما إلى بقعـة حيـث رأى بعـض الـرومـان ذاهبين على شكـل جماعـات لجمـع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت ردائه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعـوا به مـن سمات استطلاعية بـارزة، وانتظر قـدوم بعض الترك الذيـن قد يأتـون لإحداث بعض الأضرار، لكن حيـث مامن واحـد منهم كان باديـاً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحـداً من جنود الرومـان واسمه بوبكـس (أبو بكـر) (٣٢)، وكان تـركي المولـد، وامتلك شجـاعة عظيمـة ونشـاطاً كبيراً، وأمـره أن يتقـدم، ويفتش بحـذر علّـه يـرى أياً مـن الترك يقترب، وانطلق على هـذا الأساس، وعاد بعـد قليل ليـؤكد انه لم يـر أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستق نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، وذلك بعدما أراهم أبو بكر الطريق، وغضب ختنه زوج أخته -الذي تمّ تجاوزه- غضباً شديداً، لأن كل واحد منهم، لابل هم جميعاً ربطوا أنفسهم وأوثقوها بأيمان مخيفة، قضت انهم سيلتحقون عن صدق بالامبراطور (الذي لم يرغب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطور قد اشتبك مع الأتراك الذين شوهدوا، وقد تبين أن عددهم حوالي الثمانية عشر، وكان متشوقاً ومتحرقاً لقتالهم، لكن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كان مايزال واقفاً بعيداً عنهم لم يكن قادراً على الاشتباك بهم عن قرب) فقد بذل جهده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكون قريباً جداً منهم، وعندما يرى انه اقترب منهم، يفرّ بكل ما أوتيه من قوة حتى يصبح قريباً منه، وهكذا فعل أبو بكر ماأمر به، وعندما أخذ البرابرة يطاردونه، هرب، ولم يهرب هروباً كاملاً من العدو، بل راوغه وأعطاه بعض الأمل في أسره، ثم فرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غادروا راكضين بسرعة أكبر مما أظن، ولكن عندما التقوا بحوالي خمسين آخرين كانوا قادمين من خلفهم، تشجعوا بسبب عددهم، وقدروا ان بامكانهم التصدي له إذا هاجمهم، ومهما يكن الحال، فإن الذين كانوا مع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الوقت بل هجم بسرعة قصوى، ورافقه السيباتوكراتور [أخوه اسحق] وركب محازياً له، لكن عندما لم يعد قادراً على التقدم -لأن فرسه كان منهكاً- تخلف وراءه، ونظراً لخوفه الشديد على سلامة أخيه، رجاه بحرارة كبيرة، وذكّره بزوجته وأولاده، ووبخه مانويل وانتقد رأيه المستخف به قائلاً: «حسناً

ياأخي العزيز، هل تظن انني ماعشت سأتركك في أيدي العدو؟ ليس أنت؟ فكر ولاتتكلم باستخفاف عن نفسك»، وعندما أضاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنت تقاتل البرابرة»، قال مانويل: «إذا أعطاني الرب سأعود مسرعاً إليك بعد الاشتباك، والآن انني أنوي أشياء أخرى، ومتلهف إلى أفعال جريئة جذبتني تماماً إليها». وقال هذا لأخيه واندفع نحو العدو. وعلى هذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأما بالنسبة للذين ذكرناهم في الكمائن، فقد أرسلوا واحداً من نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف على أوضاع شؤون الامبراطور وليعلم الأحوال، وأعاده الامبراطور مصدراً أوامره إليهم للقدوم بأقصى سرعة ممكنة، وما ان وصل مانويل إلى تلة مجاورة حتى واجه قوة تركية كبيرة وصل عددها إلى حوالي الخمسمائة، وزحف ليس بعيداً عنها، من خلفها السلطان ومعه الجيش كله، وما ان رآهم حتى قام على الفور بتسديد رمحه، واندفع مسرعاً نحوهم، فطعن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقف الترك بلا حراك، وكأن ألسنتهم عقدت وأصيبوا بالخرس، وعندما حدث هذا ظهرت القوة الرومانية التي سلف ذكرها، وكانت تشكل الكمائن، ظهرت على مقربة من الامبراطور الذي أرسل —كما ذكرنا— يستدعي رجالها، أما الأتراك الذين فهموا هذا وأدركوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في الساقة بالتصدي للرومان، المقتربين، وظنوا انهم طوقوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولذلك عملوا كما يلي:

غير أنه وقف مستنداً على رمحه، منتصباً على الأرض، ووجه أبا بكر (لأنه كان مايزال مرافقاً له) أن يراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الـوصول إلى أقـرب التلال، وذلـك بوسـاطة الترك، فـوقتها يكـون قد أحيط به تمامـاً، ولكن أبا بكر وقـد أخذ يتصرف بطريقة معـاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كـم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتـك» وبعدمـا قال هـذا وأكثر، وكـان غير قادر على اقنـاعه، تصرف وفـق أوامره، ولم يبـال الامبراطـور ولم يصغ لما قـالـه (فقـد كان مـن غير الممكن بـالنسبة لـه الفرار إلاّ مـع عار مستقبلي) بـل شرع ثانيـة بحملات على العدو،وبعدما قتل واحداً منهـم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلـك اغتنم الفرصـة فمضى ووقـف على تلة صغيرة، حيث التحـق به بقية الـرومان، وكان أولهم جون، الـذي بسبب كونـه [مانويل] ابـن أخيه أدخـل فيها بعد في صفـوف الــ Protosebastoi ⁽٣٣⁾، وهكذا نجـا الامبراطوربهذه الطـريقة، مـن هناك، لأن فـرسه كـان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينها كـان الامبراطـور مشتبكـاً مـع العـدو، كـان الـدمستـق جـون [أكسوكـوس] قد ترك بالخلـف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعـداء، ذلك أن العدو استمـر بالظهـور هنا وهنـاك على شكل جماعـات، وكان هـو بلا عون، وألـف فيها بعد تسويغات ضعيفـة لصالحه، قائلاً إن المكـان الذي وقف بـه كان منـاسباً جـداً، وكان مـن المتوجـب عليهم التجمـع هناك، لاتخاذ نقطـة حشد لـلامبراطور، وبهذه الطـريقة كـان قادراً على أن يُبقـي على مقربة منـه عدداً كبيراً من الذيـن كانوا —كما ذكرنـا— خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدما أنقذ بـوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسـوكوس] نفسه وعدد كبير آخـر من بقية الرومـان شجاعة مـانويـل، وأصروا على أن مثـل هذه الأشيـاء ليسـت بعيـدة عن التهـور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثـل ذلك العـدد من المهـالك، ولم يصـب بجراحـة أو بضربة، ولاأجرؤ على القول فيها إذا كـان بسبب أعماله الجريئة المتكـررة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهـم بمعرفة أصالتـه ونبله، وأصبح من المتعـذر بالنسبة لهم الحاق الضرر بـه، أو أن مرد ذلـك كـان إلى عنـاية حكيمـة بـه حسبما بـات مفهومـاً، وأنا شخصيـاً لاأرى ماقـام به بين الأشيـاء التي تستحـق الادانة، كما لايمكنني تصديق شجاعـة الاسكندر، عندما أتفحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بـذلك الرجل، مالم يمنح المرء شيئـاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشبـاب لايقاوم، وإذا ماارتبـط بالقوة والقـدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول مايحب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعـرض الامبراطور —كما سلف بنا القول— إلى ملامـة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثـل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بـأحسن صيغـة ممكنة خشيـة فقدان المزيـد من الـرومان في هـذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تـركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعـب جبلي، لمساعدة الذين مازالـوا يتقاطرون، من حـاشيتـه، وأيضاً تـرك نيكـولاس أنجيلـوس —الذي تقـدم ذكـره— في الخلف في الكمين مـع الوحدتين العسكـريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندمـا قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سـار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشـاهد الأتراك يقتربون، وقـد تصرف وفق مايلي: فقد وقـف مع عـدد قليل مـن رجالـه على طرف الـوادي، وأمر الآخـرين الـذيـن كـانوا صـاعـديـن في أن يتـوجهـوا مباشرة نحـو العـدو، ومـا ان اصطدمـوا بالبرابرة، حتـى سمع ذلك الذيـن كانوا في الكمين، فخـرجوا مسرعين، وطعن نيكـولاس السالف الذكـر برمحه واحداً من الأتـراك، ومع ذلك لم يستطـع زحزحته مـن مقعده، ذلـك أن الطعن بقوة لم يكـن ممكناً بسبـب انحدار الأرض، وبـذل مانـويل أقصـى ماأمكنـه لدفـع الترك إلى الوراء بعيـداً، فأمـر أتباعـه بالـذهاب إلى الشعـب الجبلي فيما بدا بسرعـة قصوى، لكن تـوجب عليهم عدم صعـوده، وعندما لاحظ الأتـراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقـى النبالة الذين كانـوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطور، وكان هؤلاء —كما سلف القول— قد أرسلهم الامبراطور نفسه لتقديم العون للرومان الذين تركوا بالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بالفرار، وعندما رأى الامبراطور هذا، قال لأتباعه: «تشجعوا، هناك قوة قادمة إلينا من المعسكر»، وعندما أخفق الأتراك في الاقتراب، علّل بعضهم السبب بقوله: «لقد أدار الأتراك ظهورهم وغادروا فجأة، مع أنه لم يكن هناك خوف يدفعهم (ذلك أننا لم نكن معادلين لهم بالقوة) بسبب أنهم كانوا قادرين على رؤية شيء كان مايزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانوا ينظرون نحو الأسفل من مكان مرتفع»، وتبرهن أن هذا كان صحيحاً تماماً، فقد كان مارأوه هو الرومان من المعسكر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقد روي أنه حدث آنذاك ان قام السيباتوكراتور اسحق عم الامبراطور من جهة أبيه، الذي كان آنذاك في المعسكر، بالاقتراب من الخيمة الامبراطورية، وذلك عندما علم بأن الامبراطور كان في وضع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عازماً على اغتصاب العرش، الذي كان منذ زمن بعيد —كما سلف القول— الشوق إليه قد استولى عليه، وتنامى الأمر لديه، ولم يقف عند حد النمو، بل نظر إليه بمثابة ميراث من الآباء إلى الأبناء، وستتحدث الرواية المقبلة، —على كل حال— عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عندما —كما قلت— (انني عائد إلى حيث بدأتُ الاستطراد) التحقت القوات القادمة من المعسكر بالامبراطور، تشجع الامبراطور بعددهم، فقام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الذين كانوا معسكرين بالقرب كثيراً) القوة الرومانية، التي

كانت ثانية في أرض وعرة، لقد هاجموها من الجانبين وآلموها بشدة، وسقط كثير من وحدات الرجالة للسبب التالي: كان في الجيش الروماني مقاتل رائع، اسمه كريتوبلس Kritoples ، وكان هذا الرجل يقود قوات الرجالة، وعندما حرف جانباً تشكيلته، صار في قبضة الترك الذين كانوا يتبعونه عن قرب، ولدى تغلبهم عليه بأعدادهم الضخمة، تطلع نحو فرار علني، وبهده الطريقة، وبعدما فقد كثيراً ممن كانوا معه، نجا بصعوبة، وعندما علم الامبراطور بهذا، عهد بالوحدة التي معه إلى أخيه وإلى عدد كبير آخر من كبار الأعيان، وأسرع مع عدد صغير من الرجال لانقاذ الجزء الذي كان يعاني من تلك القوة، ووصل إلى وسطهم، فأمرهم بالوقوف بشجاعة، وقاتل بنفسه الأتراك، ولاحظه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يداً بيد.

وأعمل الامبراطور فكره، حول كيف يمكن للقوة الرومانية أن تسترد شجاعتها، فبسبب ماحدث لقوات الرجالة —كما ذكرنا— بدأت شجاعتهم تتلاشى، لأنه مامن شيء يؤثر على النفس مثل أن يرى الانسان عن قرب نزيف دم زميله، وسحب الامبراطور من جيبه مدرجاً كان مدوناً عليه أسماء كل واحدة من الفرق،وأعطى توجيهاته بما ينبغي على كل واحدة، أن تفعله في مثل هذه الظروف الدقيقة من الأزمة، ورفض عدد كبير من الوحدات طوال النهار مواجهة العدو، وتخلوا عن صفوفهم، وساروا نحو قافلة أثقال الجيش، ولم يقيموا وزناً لأوامر الامبراطور إلى حد أنه على الرغم من أن كثيراً منهم قد عوقبوا جسدياً ذلك اليوم من قبله، فإن البقية لم يبالوا تقريباً بكل ماكان يُفعل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظير ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتزجت على هذه الصورة قوات الساقة بالثقل، طوقت بقية قوات العدو بأكملها الامبراطور، وضغطت عليه بشدة بالغة، غير أنه تصدى للعدو بخبرته القيادية، وهكذا استطاع أن يبقى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا من المناسب لبعضهم العسكرة هناك، وعدم متابعة السير، غير أن هذا لم يرض الامبراطور، خشية انه إذا ما استمر الرومان في حالة الفوضى وعدم الانتظام التي كانوا فيها، فإنهم سيهزمون فوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قائمين بالتجهز للمغادرة(٣٤)، وقال عليهم بالحري القتال، فإذا ما تمكنوا بطريقة ما من ردّ العدو، فبإمكانهم زرع الحسك دونها اعاقة، والعسكرة حيثما أرادوا وليس في فسحة محدودة، وبعدما قال هذا، وعندما رأى أن غالبيتهم لم تقبل النصيحة عهد بالمسؤولية عن المعسكر إلى زيكانديلس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كريتوبلس Kritoples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطور الراية الامبراطورية، وقام بمهاجمة العدو بكل سرعة ومعه أتباعه، وقد اعترى العدو الدهشة بسبب الهجوم المفاجىء، وأرغمهم الامبراطور على التفكير بالفرار، ثم تبع ذلك مطاردة فخمة، وقتل الرومان الذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً من الأعداء، وأخذوا قليلاً منهم وهم أحياء، وكان بينهم بركوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثناء تناول الطعام، ويدعو الرومان هذه الشخصية «حامل الكأس»، وكان في الجيش الروماني واحداً له قرابة بالرومان من ناحية المولد، لكن بما أنه نشأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ له حظ تسلم امارة بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)،وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملوا رأسه وطافوا به حول المعسكر، وتوقف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيع طويل من الليل) وعاد مع علامات الظفر، ليجد الرومان مايزالون في فوضى عظيمة وعدم انتظام، (حتى أن حيوانات النقل لم تكن قد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورها) فقام بسرعة برسم دوائر المعسكر كله، وعين مساحة مناسبة لكل واحدة من القطع

العسكريـة، لكن عـدد الجنود الـذين أمضـوا الليل على ظهـور خيولهم لم يكن قليـلاً، فبسبب الجبن المتنـاهي، كانـوا غير قادرين على الترجـل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

ومـا ان أشرقت الشمـس، ورؤيـت على وجـه الأرض حتى مضـى إلى وسـط الجيش، ووقـف على ظهر فـرسه، كما هـي العـادة بالنسبـة للذيـن يتولون قيـادة الوحدات العسكريـة، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكـم على أن تكونوا شجعـاناً، بسبب ادراكـي لجبنكم أو أي جـانـب ضعف آخـر، إن الـرومـان لايتصرفـون بمثـل هذه الـدنـاءة ولايقودون أنفسهم بمثـل هذا الانحطاط، ولايلطخون هكذا بـالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أنفذ هذه العادة العسكرية بمخاطبتكم، لاأريد أيضاً اقناعكـم باتخاذ سبل أكثر أمـاناً للمستقبل، لأن هناك لحظـات تقع فيهـا مخاطر غير مـرئيـة أو متوقعـة وتلقـي بالحزم والشجـاعـة في فوضـى، وعليكم أيها الأتبـاع من الجند أن تعلمـوا اننا نـواجه اليوم صراعـاً أعظم من الصراعـات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتـوجب علينـا أن نكون على خير استعـداد، على أسـاس جهـودنا المتقـدمـة، وإلاّ سنلطخ بـالعار أفعالنا الـرائعة السالفـة، ونكون السبب في جلب تعـاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة مـن حسن الحظ تقوّم بشكل طبيعي مـاتقدم من سوء حـظ، كذلك تدمّـر المأساة اللاحقة النجـاحات المتقـدمـة، وخشيـة أن يقـع هذا لأنفسنـا، على كـل واحـد منـا، يـاخيرة الرجـال، أن يحافظ على النظام بقـدر ما هو ممكـن، ذلك اننا جميعـاً ندرك اننا إذا ماحافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ماأسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيبقـى لنا امكـانية أن نـربح وأن نبقـي لأنفسنا شهـرة سوف تعيـش للنـاس وللزمـن، وعلى كـل حـال، إذا ماحـدث العكـس، في أن افترقنـا عن بعضنـا بعضاً، اعلمـوا إننا سنكـون على الفور فـريسة سهلـة للأعـداء، وكما الحال عندمـا تكون هناك مـدينة محاصرة فتتـدمّر أسـوارها

وتنهـار، وبذلـك يسهل دخـول الأعداء إليهـا، يندرج كـذلك الأمـر على الجيـوش، وعلى هـذا الأسـاس، ولهذا السبب اخترع القـدمـاء: الفئـات، والـوحدات، والمقـدمـة والساقـة، والجنـاحين الأيمن والأيسر، والصفـوف المتناظرة، وأشكـال الزحف، لأن الجيش أيضـاً مدينة، إنه يتطلـب أبوابا، وأسواراً، وخنادق، وجميـع أنواع المستلزمات مثـل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنـا لأننا مـازلنا في وسـط بلاد العـدو، وتجولنا بعيـداً عن حـدود رومانيا»(٣٨).

وبعـدما قـال هذا، وعبـأ الجيـش ونظمه، انطلـق مباشرة نحـو البحيرة التـي كـان النـاس يـدعـونها مـن قبـل «سكلـروز Skleros »، ويسمونها الآن «بـوزغور(٣٩) Pousgouse » ، وعندمـا وصل السهـول مـن ذلـك المكـان الضيـق، وأصبـح في منبسـط مفتـوح، أمـر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مـرتفع جداً، ويستدعي واحداً مـن الأتراك، ونفذ الجنـدي ما أمـر به، وقال الامبراطـور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لـك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقـد جئنا إلى قونيـة نفسها، لقد دمـرنا أرضك، لأننا بشكـل خاص نرغـب في معاقبة جرائمـك ضد امبراطـوريتنـا [أي: جلالتنـا]، إنـك على كـل حـال، قد فـررت بشكـل مستمر، مثل عبد آبـق، تتنقل من مكان إلى آخر، ولذلـك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحـن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلـم جيداً انـه عندمـا يأتي الـربيـع سنعود إليـك ثانيـة باستعـدادات أعظم»، وبعدما أعطـى هذه الرسالة إلى التركي، وقـدم له درع واحد من النبـلاء، ليكـون دليـلاً على أنـه قـد أرسـل مـن قبـل الامبراطـور، أمـره بالانصراف.

وعندمـا سمع السلطان بهذا، بعـث بعد وقـت قصير برسل مـن عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحدداً حول الذين متوقع —كما قلنا— قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرز]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدوة، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريحة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأحراج، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد مارآه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحرش كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسماهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامان Raman كان مقدمهم، وانهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة(٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أثقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهتهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى ملاحظة الامبراطور ذلك (لأنه —كما قلنا— وقف على مكان مرتفع يراقب الأمور) توجه نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، بدون درعه، وعندما رأى الأتراك عدداً من الرومان قد لحقهم الإعياء، نتيجة المطاردة —حسبما ذكرنا— وانهم تفرقوا وابتعد أحدهم عن الآخر، ولدى ادراكهم تماماً كم كان عدد الآخرين قليلاً، هاجموا البيزنطيين من على الطرفين، وقاربوا أن يلحقوا بهم بالحال ايذاءً عظيماً، لولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكل غير متوقع وأنقذهم من الخطر، وأمضى وقتاً طويلاً في متابعة مطاردة الهاربين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصانه قد انهك، وقف هناك منتظراً أن يزود بحصان يكون من نوع الخيول السريعة المتميزة، والتي لسرعتها، دعيت بالخيول «البرية»، ووجه الرومان الذين كانوا يتقاطرون على شكل أفراد أو جماعات، وتمسكوا معه من الخلف بالمطاردة أبعد، وألا يتخلوا عن حماسهم، وقرر آخرون من الرومان انهم بعدما قاموا بمطاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادرين على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظوا ان المكان الذي جاؤوا مندفعين نحوه معظمه خلواً ومهجوراً، وفي الحقيقة يتعذر الوصول إليه، قرروا ادارة ظهورهم، وسُعد مانويل بابن عمه أندرونيكوس(٤١)، الذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والذي كان مندفعاً نحو العدو،وقد تخلى بعد الضغط عن حصان له [لمانويل]، وبعدما امتطاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسوماً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطيع الخيل كله، الذي تبعهم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما من أحد من الرومان ظهر في أي مكان، فقد تشجعوا للمستقبل، واتحدوا معاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بـدون سيطرة عليه، وعندمـا لاحظوا أن الامبراطور لوحـده من دون الرومان، يقـاتلهم بدون درعه، تقـاطروا نحوه بشكل حـاشد، مفوقين قسيهـم، ومشجعين بعضهـم بعضـاً، واتخذ الامبراطـور مـوقفاً فـوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه مـن قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفـاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضـاً وأرغم الباقين على طلب الفـرار، ثم إن واحداً من البرابـرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطـور، فانبطح على الأرض، ومـا ان لاحظ قيـام مانـويل بـالهجوم والتقـدم نحو الأمـام، حتى رمـاه بسهم أصاب بـه نهاية رجلـه من الخلف، أي أصـابه في الجزء الوحشي البـارز من كعبـه، ثم سـارع التركي ليرميـه ثانيـة، لكن قبـل أن يفعل ذلك أخذه الامبراطور أسيراً بامساكـه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجـه أندرونيكوس، ذلك أنـه عندما جلب لـه الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجـم الأتراك، وحاول مانويل بـالحاح أن يثنه عن الذهـاب بعيداً، ذلك انه كـان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنـه كان غير قادر على اقناعه (لأن أنـدرونيكوس تابع المطاردة بشجاعـة وبدون حدود، وشخر ونخـر شوقاً للحـرب، وكان يحمل رمحاً وتـرساً بشكل جيـد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل مـا أخذه من واحد من النبلاء) تركه يـذهب، وتابع مانـويل سيره على الطـريق والتحق ببقيـة الجيش الـروماني، ولم يجب على أسئلة الـذين استوضحـوا منه كيف تـدبر الأمـور في القتال عندمـا مضى لوحـده تماماً ضدّ العـدو، كما أنه لم يذكر شيئـاً عن الأعداء الـذين —كما ذكرنـا— تولى قتلهـم، متجنباً بـذلك شكـوك دناءة التبجـح، لأن الفعل الـذي لايقع على مشهـد مـن الناس ويعـرض لسماع الثنـاء عليه، يقـود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفـور بمعالجة جـرحه والعنـاية بـه خشية أن يلتهـب وتتعذر معالجتـه، ثم حـدث بعد ذلـك حدث يستحق الـذكر، فعنـدما لم يعـرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعزم على ازالة قطعة من لحمه، بغية وضعها وهي ساخنة على الجرح فلربما تمنع الالتهاب، وفي الوقت الذي تقبل فيه الامبراطور رغبة الرجل الطيبة، منع ذلك، وأمر بقطع قطعة من لحم واحد من الخيول التي هلكت على الطريق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعدما ثابر على الزحف خلال منتصف الليل وصل إلى المعسكر المنصوب قرب ينابيع نهر منادر، وكانت هناك كميات هائلة من المياه تتدفق من الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث من عشرات الألوف من الأفواه، وتغطي المنطقة المجاورة ثم تتجمع أولاً في بحيرة، بعدها تندفع حافرة قناة، ومشكلة نهراً من هناك(٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكوس الذي —كما ذكرنا— تابع سيره نحو الأمام، فإنه لم يحقق شيئاً، باستثناء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً من الخيول كانت ممتطاة من قبل الأعداء الذين قتلهم الامبراطور، وبعد الاكتفاء بهذا، ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى بيثينيا Bythynia أسكن الرومان الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبادل مع أحد الأديرة المقدسة، وأشاد هناك حصناً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠- في حوالي ذلك الوقت، جرى خلع كوزماس Kosmas —الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الشؤون اللاهوتية، وكان رجلاً أديباً [Kosmios] في الحياة والحديث— من العرش البطريركي للأسباب التالية(٤٤):

كان هناك رجلاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيوية، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتابات المقدسة، وبينما كان ميخائيل، وهو رجل مقدس،

ومتميز بصلاحه، يحتل العرش اللاهوتي، بشر نيفون هذا بأفكار غير مقبولة، نشرها بين كثيرين من حوله، تعلقت بالعقائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانته بقرار مجمع ديني مقدس، فقصت لحيته، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزماس العرش —كما ذكرنا من قبل— تلقى نيفون على الفور حرية أعظم للكلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسواق، وهو لم يفعل شيئاً تعدى توزيع أفكاره، ورفضه لرب العبرانيين(٤٥)، ورغب بالافادة من مثل هذه الأشياء، وأعجب به كوزماس اعجاباً عظيماً، وجعل من هذا الشخص خدينه، وأعلن أن ماصدر بحقه كان ظلماً، وسارع إلى إلغاء العقوبات التي صدرت من قبل بحق الرجل، وقد احترم فضائله، ومنح شيئاً ما إلى كلماته، لأنه كان في وقت مبكر قد تنبأ باعتلائه العرش البطريركي.

وكانت الجماهير غير راضية عن هذا، ولهذا تقدم بعض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منه، عندما كان مرتاحاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعي المقدس، عهدت بنفسك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الرعية انك مخدوع في هذا الجانب؟ انفصل عن صداقة الفاسد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلموا، أما الذين كانوا معادين للبطريرك فقد اشتكوا علناً ضده، واتهموه أمام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عابىء بأي شيء، وظل متعلقاً بقوة بنيفون، وكان غير راغب بالانفصال عنه، مهما حدث، وبسبب بساطته المتناهية ماكاد ينجو من العقوبة القاسية، وبعدما أمر الامبراطور بايداع هذا الشخص بالسجن، وعندما جاء الرجال لأخذ [نيفون]، أصيب كوزماس أولاً بالذهول إلى أبعد الحدود، ثم استرد وعيه، وجمع نفسه، وذهب ماشياً إلى صحن الكنيسة، حيث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذين كانوا آخذيه، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سأله كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولايوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجّه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، ماالذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالآراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سذاجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١- وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر ريندا كوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية وللعيث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد —على كل حال— الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان(٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما —كما رويت— واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطور براكانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه من قبل من الرومان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هناك سلام في المستقبل بين الترك والرومان، وقبل الامبراطور بهذه الشروط، وأوقف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانت في هذه الآونة بداية تحرك جديد في الغرب، للنورمان والفرنسيين، وأمم الغاليين، وكل من سكن حول روما، والبريطانيين والبريتون، وببساطة تحركت جميع صفوف الغربيين، وانطلقت بحجة ظاهرة هي أنهم سيجوزون من أوروبا إلى آسيا بقصد قتال الترك أثناء الزحف على الطريق، ولاسترداد الكنيسة في فلسطين، ولحماية الأماكن المقدسة، غير أنهم، كانوا في حقيقة الأمر يريدون الاستيلاء على بلاد الرومان، بوساطة الاغتصاب، وسحق كل شيء أمامهم(٤٧)، وكان جيشهم لايعد ولايحصى، وعندما علم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغارية بعث إليهم برسولين هما: ديمتروس ماكريمبولايتس De-metrioes Makrembolites ، والاسكندر، وكان ايطالي المولد، وكان كونتاً لمدينة غرافينا Gravina الايطالية، لكن قد تمّ طرده منذ زمن طويل مع عدد كبير آخر من المملكة، وذلك بوساطة طاغية صقلية [روجر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعية من رعايا الامبراطور(٤٨)، ووجههما الامبراطور للبحث في نوايا الغربيين، وإذا كانوا قد قدموا وهم لاينوون الحاق الأذى بالرومان، فليؤكدوا هذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثل الرسولان أمام قادة البرابرة قالا مايلي: «إن توجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقترفوا ذنباً، ليس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً برجال ذوي منزلة رفيعة من حيث الأصل وشدة البأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبما انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، ومالم تكونوا أديتم أيماناً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم مواثيقكم وآثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيمان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعقل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصليبيون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا لالحاق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يسانده في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجها من أجلها إلى البرابرة ونجحا، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لاأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وانها ماكانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطىء، وعندما نصب اكزرسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تمركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعدّ إلى تسعين عشرة آلاف [٩٠٠,٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر(٤٩).

١٣- هكذا كانت عظيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيش]، التي هي حاضرة داشيا(٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى ساردیکا [صوفيا] Sardika ، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سيباستوس، من أسرة باليولوغي Palaiologoi ، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفياً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أما الآخر فكان شخصاً اختاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفة كارتوليريوس Chartoularios [رئيس ديوان الانشاء]، ونال رعاية الامبراطور جون ونظر إليه نظرة تقدير، فعندما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعوة مانويل لاستلام صولجان الملك بعد موته وأن ينقل إليه المنصب الامبراطوري(٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى سارديكا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنه من نهر الدانوب إلى ساردیكا يرتفع عدد كبير من الجبال عالياً، وهي في الحقيقة متعذرة العبور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقة داشيا، بدأوا يظهرون نواياهم الشريرة، فقد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسواق، وإذا ماقاوم أحد سلبهم، جعلوه ضحية لسيوفهم، وكان الملك كونراد غير مبال تماماً بما كان يجري، وهو إما لم يهتم بالمتهمين، أو كان إذا ماأولى الاهتمام تولى عزو كل شيء إلى حماقة الحشود.

ولدى سماع الامبراطور بهذا، أرسل جيشاً تحت قيادة بروسوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدما قابلهم قرب أدرنة، تتبعهم لبعض الوقت على مسافة قريبة، ساعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فوضاهم، وعندما رآهم أصبحوا أكثر وقاحة، اشتبك معهم وقتها في مناوشات عسكرية مكشوفة، وذلك للسبب التالي:

حوى أحد الأديرة في أدرنة واحداً من الشخصيات الألمانية، وكان يعاني من مرض في جسده، وكان معه أمواله وتجهيزاته كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقر اقامته، وبعد

أن دمروا على هـذه الصورة الـرجل، استولوا على بضـائعه جميعـاً، وما ان وصل الخبر إلى مسـامع فـردريك، ابن أخي كـونـراد، وهـو رجل لايمكن السيطـرة على انفعالاتـه، وكـان بالفعل يتسـم بالـوقـاحة، بسبب غضبـه المفرط، فلقـد عاد سريعـاً، وبات بذلك عليـه امضاء يـومين على الطريق للحـاق بكونـراد، لقد عـاد مسرعـاً إلى أدرنة، وأحـرق الديـر حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجـد بهذه المناسبة فرصـة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأسـاس جاء بـروسوك للسيطـرة على الموقف، وصد فردريك وطـرده وأوقع مذبحـة كبيرة بين البرابرة، وكـان فردريك هـذا هو الذي تـولى حكم الألمان بعد كـونراد، للسبب الـذي سأحكيه في الـرواية التالية(٥٣)، وتخلى الألمان منـذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كـان هذا يحدث هنـاك، فإن أنـدرونيكوس، الـذي كانـوا يدعونـه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث بـه لهذا الغرض، ذكرهم بأيمانهم، وغـالباً مـا أوضح لهم الذي تعهـدوا به من قبل بعـدم الحاق أي أذى بـالـرومـان، ولامهم لغـدرهم، ونصحهم، انهم إذا مـاأرادوا تفـادي الوقـوع بالخطر، فما عليهم سـوى متابعة السير إلى العبّارات عنـد أبيدوس [جنق قلعـة] والجواز من هناك، وبعـدما كـرر قول هـذا ورده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفقاً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقـدير الأمر المعـروض أمامهم، وعندمـا بدا لهم أن الصـواب بـالتمسك بالطـريق إلى بيـزنطـة، انطلقوا نحـو الأمـام، وساروا على طـريقهم، وكانوا ثانيـة ليسوا أقل وقاحة وتبجحـاً، حتى بعد هزيمتهم، فقـد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلـوا كثيراً من الرومـان الذين قاوموهم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعنـدمـا علـم الامبراطـور بهذا، قـرر بأن عليـه هـو نفسـه القيـام

بالاستعدادات، وهكذا شحنت القسطنطينية على الفور بالعساكر، التي قام بعضها بالعسكرة أمام الأسوار، واتخذ آخرون مواقفهم داخل الأبواب، وبعث بباسيل الذي يكنيه قومه زيكاندلس(٥٤) Tzikandyles الذي كان قد حقق مجداً في كثير من الحروب في المناطق الواقعة عند مشرق الشمس، وفي القتال هناك مع البرابرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً ممن حظي بالتربية الرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواته عند مكان اسمه لونغيو Longoi ، وأمرهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في ردع الألمان إذا ماحاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، تعرفوا إلى أرقام الألمان، واستطلعوا بدقة كيف كانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كانت في فوضى أو في انتظام، وكان مما لاحظوه أن بنيتهم الجسدية كانت مفرطة الضخامة، ومغطاة تماماً بالسوابغ، لكن خيالتهم لم تكن خفيفة الحركة وسريعة أبداً، ولاحظوا أيضاً أنهم يمارسون فوضى عظيمة أثناء الزحف، وافترضوا أن قوتهم لهذا سوف تكون من السهل التغلب عليها من قبل الرومان، الذين يقاتلون بشكل علمي، وبعثوا إلى الامبراطور، بتقدير حوى هذه الأشياء، وسألوه ماالذي ينبغي صنعه، وكان حتى الآن مايزال حذراً بشأن الغرض الظاهري للبرابرة، وأعني حملتهم المزعومة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيام باجراء ضدهم، وآثر الانتظار حتى يقدموا على القيام مجدداً بمزيد من محاولات العنف، وهكذا تمسك الامبراطور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعندما زحفوا في السهول القائمة قرب كيوروباكيو(٥٥) Choirobacihoi (لأن المنطقة هناك واسعة الامتداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً من الأعشاب لرعاية الخيول) عسكروا هناك، وقد حلت بهم كارثة هناك بالتأكيد تفوق الوصف،

يمكن أن يستخلص منها بشكل منطقي أن الرب كان غاضباً عليهم، لأنهم أفسدوا أيمانهم وزيفوها، ومارسوا كثيراً من الأعمال اللاانسانية نحو أناس يدينون بالدين نفسه، ولم يقترفوا بحقهم أي خطأ، فحينما هبت عاصفة غير متوقعة، فاض النهران اللذان يمران بذلك المكان، وكان أولهما يعرف بين السكان المحليين باسم ميلاس Melas (قراسو) وثانيهما باسم أثيراس Athyras ، ولقد ازدادت مياههما بشكل تخطى بعيداً المستوى المعتاد، وغمرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفتها أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الرجال، وبعث بعدد من الأعيان إلى كونراد لمواساته بسبب النكبة التي حلت به، ودعوته للمشاركة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامة، وكان كونراد مايزال حتى الآن غير راغب بالتخلي عن كبريائه، وطالب أن يقابله الامبراطور عندما يقترب من بيزنطة، وقدّر أن محادثاته جديرة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غروره لاحدّ له، تركه وشأنه يخلد إلى الراحة، وسارع كونراد ومعه جميع قواته، إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى المقر الامبراطوري مقابل الأسوار، والذي يدعوه الناس فيلوباشن Philopation ، ولاأدري هل الاشارة بهذه التسمية إلى لطافة المكان، (لأنه يوفر الراحة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فراراً من صخب المدينة) أو لأن أشجاره وارفة الظلال، وأرضه تنتج نباتات خضراء غنية (وكان المكان واسعاً جداً، ويحمل من كل جانب مظهر الخضار) (٥٦)، ومن هناك أولى كونراد انتباهه إلى أسوار المدينة، وعندما رأى الأبراج المرتفعة إلى علو شاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الذي يحيط بها، أصيب بالذهول، وعندما رأى حشداً من النساء والسكان يقفون بدون سلاح وبدون عمل، على الأبنية

الخارجية، (لأن جميع الذين كانوا يستخدمون في الأعمال العسكرية الصعبة، وقف بعضهم للحراسة فوق الأسوار الداخلية، ووقف الباقون أمام تحصينات المدينة، ينتظرون شروع الألمان بالقتال)، وعندما لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة مابرحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كانت حقيقية، ولهذا انطلق من هناك بسرعة، وعبر الجسر، الذي يقوم على كتفي مايمكن للمرء أن يدعوه وصلة النهر البحري [القرن الذهبي] ووصل إلى واحد من الأرباض المواجهة لبيزنطة، التي كانت تدعى بيكريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هناك المجاز الطبيعي المعقول، ويكوّن بحر يوكسين Euxine [البحر الأسود] هناك خلفية من المياه، وذلك بدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عالياً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسافة قليلة من بيزنطة، ثم إلى المكان الذي يقوم عليه الجسر.

١٥- هكذا كان الحال هناك، وعندما وصل كونراد إلى هناك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتوجب على الامبراطور المتملك للذكاء، ألا يتفحص المشكلة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً مايخفق في اصلاح ما هو جيد، ولايلوم بالطبع مايبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الرائج، يقابل الانسان أحياناً ببعض الترحاب من قبل الأعداء، غير أنه قد يعاني مجدداً من بعض سوء المعاملة من الأصدقاء، لاتعزو إلينا أسباب المضار التي أنزلت بأرضك من قبل بعض العامة في جيشنا، ولاتغضب لهذا السبب، حيث أننا أنفسنا لم نسبب مثل هذه الأشياء، لكن الغوغاء كانوا قادرين على فعل

ذلك بارادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهواتهم، ثم إنه عندما يكون هناك جيشاً أجنبياً خارج بلاده يطوف ويتجول في كل مكان، جزئياً لاستطلاع الأرض، وجزئياً لجمع الحاجيات الضرورية، وقتها ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطوريتنا مسألة أن أهواء العامة يصعب دوماً التحكم بها وقيادتها، وفي الحقيقة إن ماكان موضع اهتمامنا هو وجوب جوازكم أنتم أيها الأجانب الغرباء لمملكتنا دون أذى، ودون شكوى، أو بالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنا، خشية أن نكسب سمعة سيئة بين الناس بالتصرف بما هو مضاد لكرم الضيافة،وعلى كل حال، بما أن مثل هذه الأشياء واضح انها لاتستحق الملامة بالنسبة لك، ونظراً لأنك بارع جداً، وعظيم المهارة في البحث في طبيعة الأشياء على الوجه الصحيح، فنحن مدينون لك بالشكر، ذلك أننا سوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفية وجوب كبح جماح العامة من شعبنا واندفاعها ضدكم، بل سوف نعزو ذلك إلى حماقة الغوغاء، طبقاً لما تعطفت ووجهتنا إليه، وعليه لن يكون من الآن فصاعداً نافعاً بالنسبة لك أن تأخذ الطريق مع الجيش بشكل جماعي، ولا التجول أيضاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسموح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقرر، لابدّ أن الأجانب سيكونون عرضة للمعاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الروماني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القادة الرومان، أن يقودوا قوة كافية، وأن يتخذوا مواقع تواجه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فرق، وجاء بعدهم الجند الأفضل تسليحاً والدارعين، ثم الذين امتطوا خيولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هذا حتى استولت عليهم شدة الرغبة والفوضى، وزحفوا مسرعين، وأعقب ذلك معركة حادة، ووقع قتلى كثر بين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطرساً، ذلك انه لم يكن عالماً بما حدث، وكان مقوداً بآمال عظيمة، ورغب الامبراطور بالسخرية من رعونته السالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتوجب علينا أن ندرك تمام الادراك، أن الفرس الذي لايحتمل اللجام لايفيد راكبه، لابل حتى ربما لن يحمله فوق منحدر صخري، وهذا الجيش الذي أخفق في الاصغاء إلى آمريه، غالباً مايورط قادته في المهالك، وعلى هؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسب أهوائها، غير انني لاأعرف ماالذي اعتراك من آلام، فلقد ازدريت هذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على موقفك نفسه، قدّر الآن إلى أين قادك السماح للغوغاء من مصاعب، ذلك انني عرفت أن قطعة صغيرة جداً من الجيش الروماني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكون متفوقاً على الغرباء الأجانب، وإذا لم يكن لدينا رغبة في معاقبة العامة لعدم التزامها، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا ماارتأيت، أن علينا معاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمي، وأن نوقف نزوات الجند

نفعل، أما إذا كان هذا لايروق لك، فدع الأمور تبقى على ماهي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه بيّن لنا بوضوح ماالذي ينبغي صنعه».

١٦ – لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجواز، وهدّد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بآلاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان مايزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لايحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لايتفوق على الجيش الوطني إلاّ قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطيع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الأغنام، تزهو بعشرات ألوفها، إذا ماصادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا مارغبنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدّروا أيضاً أنكم لن تعلو متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ماتسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطريق نفسه، ويجب ألا تلومونا إذا ماجعلنامن أنفسنا غير لطفاء جداً مع الذين رغبوا باقتراف الاثم والعدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخذ بالثأر والانتقام، فالأول يصدر عن تقدير خاطىء، بينما يقود الحذر إلى الآخر، ويعطينا تملكنا الماضي الحق باستحواذ أي أرض سوف تسترد من الأتراك المجاورين، وفي الحقيقة سوف يتملك الرومان هذه الأراضي بدون صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعندما سمع كونراد بهذا، وعلم بالوقت نفسه بالبلايا التي نزلت مؤخراً بالألمان، اعتلى ظهر عبارة بائسة كانت مربوطة هناك على الشاطىء، وجاز مضيق داماليس(٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل إلى الشاطىء المقابل، ذلك أن واحداً من البرابرة المعاندين قاد الرجل وأرشده، ومع أن البربري يتباهى ويتفاخر بلا حدود في حالات الرخاء، لكنه يتواضع ويتذلل في حالات النكبة أكثر من اللازم، فقد فكر الامبراطور في اذلاله أكثر، ففعل مايلي: لقد أرسل عدداً من الرومان إلى ساقة الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشوة عدداً لايحصى من أعيانه ليسحبوا ولاءهم لكونراد.

وما ان لاحظ كونراد هذا، لم يعد كما كان من قبل الرجل الفائق المهارة، فكتب إلى الامبراطور يسأله أن يبعث إليه بواحد من الرومان ليقوده على الطريق، ويوجهه بأمان، وجرى ارسال الذي كان يشغل وظيفة أكولاوثوس(٥٩) Akolouthos ، ووجه للبحث في اقامة حلف مع كونراد، وبعدما دخل الرومان والألمان في نقاش طويل، توجب على كونراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطور، لكن مقابل ثمن كبير جداً، إذا ماتوجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتال ضدّ الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكولاوثوس) كونراد أن أمامه طريقين، والذي

عليه هو أن يختار أيهما ليتابع سيره عليه، وبعدما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهر] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز(٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهاك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجموا بأسلوب وحشي لايمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب باللذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيباتوس ميخائيل باليولوغوس، وميخائيل الذي كنيته براناس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولوحظ انه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولاأستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخـــلاق الـــرجل كـــانت بشكل طبيعي هكـــذا! ولهذا أنهى حـديثـة مع الـرسولين معبّراً عن بهجتـه لـلاستقبـال العظيم من جـانب الامبراطـور، وعندمـا بات قـريبـاً من بيزنطـة، أرسل رسلاً إلى الامبراطـور واعـداً بمزيـد من الصداقـة، ووافق على التعاون معـه في المسائل الهامـة، وإذا كـــان من المفيـــد لهما الالتقـــاء مع بعضهما والاشتراك في بحث في القصر، لم يـــرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطـــور بـاهتمام إلى هـــذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجـال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلـون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطـور في أبهة، ومنحه التشريف الـلائق به، وعنـدما بـات في داخل القصر، كـان الامبراطور جـالساً على عـرش مرتفع، وقـدم للويس مقعـداً منخفضاً، وهـو الذي يسميه النـاطقون باللاتينيـة كرسياً، وبعـدما جلس عليـه تكلم وسمع ماهـو مناسـب، ثم غادر إلى الـربض خارج الأسـوار، الذي تسميـه العامـة —كما قلنا— فيلـوباشن، ليقيم هنـاك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطـــور إلى قصر بـــلاشرين في جنـوب المدينـــة(٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديـرية بالتفحص، وليشاهد الآثـار المقدسة في الكنيسة هنـاك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقـة بجسد المسيح، والتي هي علامات حمايـة ربانية للمسيحيين، وبعدما أنجـز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهـود بالأيمان أن يكون صديقاً للامبراطـور وحليفاً مادام حياً، عبر هو بدوره إلى آسيا(٦٢).

١٨ - لقـد كان هـذا ماحصل، وقـام الامبراطـور بترقية شخص اسمـه نيقولا وكنيته مـوزالون Mouzalon إلى عرش البطريـــركية(٦٣)، وكـان منتميـاً من قبل إلى النظـام الـرهبـاني، لكنـه بعـدمـا تسلم عـرش الكنيســة القبرصية، استقـال عن طـواعية منهـا، لكنـه ما ان تـولى الادارة حتى انفتح كل فم ضـده، وادعـوا انـه اعتلى العـرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنـه تخلى من قبل عن الـرهبنة وعن الكنيسـة المعينـة له، وكـان في البداية عنيداً وغير راغب بـالتخلي عن العرش، لكن ماإن اتخذ الامبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثـانية، تخلى عن العرش، وتابع العيش بمثابـة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي(٦٤).

وكما ذكـرنـا من قبل، كـان الألمان قد هـزمـوا مـراراً من قبل الأتـراك، وفقدوا كثيراً من رجـالهم، وما ان تخلوا عن المرور خلال فيلـوميلون، حتى سارعوا بـالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هنـاك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريـق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معهما قواتاً كبيرة:

وكـان واحد منهما يحكم أمـة التشيك، وكان فيما يبـدو، قد عين ملكـاً من قبل كـونـراد، وكـان الآخـر ملـك البـوليسيين، الـذين كـانـوا شعبـاً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين(٦٥).

وعندمـا اتحد الجيشان معـاً، تردد بشكـل مكشوف كلمـة عابـرة اعتاد الفرنسيون على استخـدامها وتلفظها واطلاقهـا على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقـاعة الألمانيـة» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصلـه الصادر عنـه، فسأبينُ ذلك على الفور:

إن أسلوب هـاتين الأمتين في القتال ليـس نفسه، فـالفرنسيـون قادرون بشكل خـاص على امتطاء ظهور الخيـل في نظام جيـد، والقتال بالـرمح، وخيالتهم متفـوقة على الألمان بالسرعة، والألمان —على كل حـال— أقدر على القتال على الأقـدام وأفضل من الفرنسيين، وهـم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفـرنسيين، فإنهم كانـوا يـرتابـون بقـدرة خيالتهم، ويصرّون على خـوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمونها، وبعدما كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسيرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبارة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً(٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخرية منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم لأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لاأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ماكان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ماقد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ما الذي بقي ممكناً لنا، وما الذي لم تخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغيّر المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادته ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بما هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقته، ولكن بما أنه لم يعرف ماالذي ينبغي فعله، تبع بدون ارادته الفرنسيين، ولدى وصول رسالة الامبراطور إليه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصائحه بالسرور وعاد مسرعاً، ولدى وصوله إلى الهالسبونت، جاز إلى تراقيا بالعبّارة من هناك، وقابل الامبراطور الذي كان مقيماً هناك، وعاد إلى بيزنطة معه [شتاء١١٤٧-١١٤٨]، وتتابعت هناك أعمال التسلية الواحد تلو الآخر: مساكن امبراطورية، ومشاهد متنوعة، وسباق خيل، واستقبالات فخمة، وبذلك زال ارهاقه الجسدي ونقه.

وبعدما زود بما يكفي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عدد من السفن الحربية، وقاد سفينته نقفور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمات، والتقى هناك ببقية الملوك، وأدى طقوسه المطلوبة عند ضريح المسيح المانح للحياة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحو وطنه بخير مايمكن، رحل هو من هناك مع السفن المشار إليها، ورسا عند سالونيك، ورأى الامبراطور هناك للمرة الثانية، واشترك مجدداً معه في مناقشات ومحادثات، وذكره الامبراطور بما جرى الاتفاق عليه من قبل، وكان هذا قد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليا وكالبيرا] إلى الامبراطورة [بيرثا] ايرين، لتكون هدية زواجها [بائنة] لأنها كانت قريبة [كونراد] وهو الذي خطبها إلى الامبراطور، وبعدما وثق هو وفردريك اتفاقهما بالأيمان الاضافية، غادرا الأراضي الرومانية، ذلك أن أعمال كونراد واجهت نهايتها هناك [شتاء١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقـع شيء —كما يلي— للملك الفـرنسي أثنـاء عـودته مـن فلسطين [١١٤٩] مع سفن رسـت هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقـل بالأجرة إلى اوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانـت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانـت هذه السفن قد قامت مـن قبل بالاغارة على الأراضي الرومـانية، وكـان هناك أسطـول روماني يقـوده كوروب Chouroup ، قـد قـابـل هـذه السفـن وقـام بمهـاجمتهـا، وبينما الأسطـولان يتحاربـان، حدث أن أبحـرت سفينة الملـك إلى وسطهما، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندمـا —كما ذكرنا— التقى بـالسفن الصقلية، نزل مـن سفينته، وصعد إلى ظهر مركـب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطـر، تمّ رفع علم واحد من حلفاء الـرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القـوات الرومانية، وبعدما فقد عـدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحـوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفسـه بصعوبـة، وما ان قـام بتقديـم شكوى إلى الامبراطـور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ماكان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية(٦٩).

٢٠- وبعد عودة كـونراد إلى بلاده مالبثت أن وافتـه منيته، وذلك دون اكمال انجـاز أي شيء مما وعـد به الامبراطـور، ووصـل إلى السلطة بعـده فردريك(٧٠)، لكـن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فـردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملـك الألماني هنري [الخامـس] بسجن أبيه [هنـري الرابـع] وهو على قيد الحياة، وهو الـذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابـا باسكال الثـاني]، وهو أيضـاً استولى على الملـك بشكـل غيرشرعي، ولهذا السبـب انتقم الألمان منـه، عندمـا مات، حيث قـرروا عدم منـح السلطة لأولاده، (كان أولاده كـونراد هذا ووالد فـردريك) (٧١)، بل استدعـوا إلى السلطة

رجلاً عجـوزاً هو لـوثر (٧٢)[الثـاني]، ومنحوه السيـادة على الألمان، ولكن بما أن الآخريـن [كونراد وفردريـك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمـانهما من ملكهما الموروث، قـررا محاولـة الثـورة، وعنـدمـا عـرف لـوثـر بهذا، وكـان بـالحقيقة عجـوزاً، ومتقدمـاً بالسـن كثيراً، كما كان يمتلـك طبيعة نبيلـة، ولايعرف كيـف يتكلم ويعمل إلاّ ببساطـة، وافق على نقل الملـك منه لهما عندما يتوفى، وإثـر وفاته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخويـن، وأعني به والد فردريك، مـع ذلك بما أنه كان مصاباً بـالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كـونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندمـا توافيه المنيـة سينقل السلطة إلى فـردريك الأصغـر، لذلك عنـدما كان ـــكما ذكـرناـــ على فراش الموت، وضـع التاج على رأس فـردريك، ومضت هـذه الأمور على هـذه الصورة تقـريباً، وإثـر ذلك كـانت بـداية الحروب الصقلية.

الكتاب الثالث

١- كان روجر في البداية كونتاً بين الكونتات(١)، غير انه كان رجلاً فعالاً ونشطاً، بارعاً في التصدي للمشاكل، وماهراً في تحريك ماكان مستقراً، وأقرض مالاً إلى وليم دوق لومبارديا [أي أبوليا] الذي كان هو تحت سلطته، وكان منطلقاً إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس تسلم حكم لومبارديا بالضمان(٢)، وبعدما مارس الطرد ضدّ أسقف روماء بطريقة أنا مقبل على حكايتها، تمّ تكريسه ملكاً من قبله.

وعندما سمع الجالس على العرش [البابوي] في روما أن روجر قد تملك لومبارديا، امتلأ حنقاً تجاه هذا العمل الوقح، وادعى أن هذه البلاد تعود ملكيتها منذ زمن طويل إلى كنيسته(٣)، وقام لوثر بغزو لومبارديا بجيش كبير، وذلك بعدما ادعى أنه تعرض للتهديد، وانه يعارض سلب البابوية واهانتها، وقد احتل جزءاً عظيماً من البلاد، وبات على مقربة من طرد روجر من جميع البلاد، لكن روجر نسج —كما هي العادة— خططاً تآمرية، وطرد لوثر بلا قتال من هناك، وأنا سأحكي فيما يلي كيف حدث هذا:

كان للوثر قريب عن طريق الزواج، وكان صاحب سلطان عظيم في بلاطه، وعدّ من قبل الألمان الثاني بعد لوثر، ودون معرفة من لوثر، اتصل به روجر، فأفسده بالمال، وأقنعه أن يعطي اشارة انتهاء الحرب إلى الجيش الألماني، ولم يكن هذا بنفخ البوق أو أي شيء مشابه بل وفق عادة البرابرة وحماقتهم، وكان وفقاً للتقاليد يجري عزف نغمة محددة في المعسكر، بعدها يكون غير مسموح للعساكر بالبقاء، ولكن بمجرد سماع ذلك، يفترقون ويقوم كل واحد بالاستعداد للعودة، وسعى قريب لوثر خيانة إلى أن يتم عزف هذه النغمة بشكل مفاجىء، وبذلك سبب ارفضاض الجيش

وتبعثره مباشرة، وغضب لوثر مما حدث، وحاول ايقاف عملية اندفاع الحشود هذه، بايقاف خمسمائة رجل للقيام بذلك، لكنه لم ينجح، وتسلل الألمان وتبددوا، متجاهلين العقوبات والحرمان معاً، واستولى اليأس والرعب على لوثر، ومالبث أن أصابته حمى حادة، فارق بسببها الحياة، وطبقاً لما ذكرناه من قبل خلفه على الحكم كونراد(٤).

٢- وما ان حدث هذا حتى شدد روجر من قبضته على لومبارديا مرة ثانية، وقام أسقف روما، الذي لم يستطع تحمل هذا، بإقامة تحالف بينه وبين الألمان، وسارع بالعمل ضد روجر بحماس شديد[١١٣٩]، غير ان روجر ظهر بشكل مفاجىء، وعسكر أمامه، فهزم أتباعه، وأخذه أسيراً، وعندما أصبح في قبضة يده، أمر بنصب خيمة من الكتان، وجعل الأسقف يجلس فيها، وألقى بنفسه أرضاً ووجهه نحو الأسفل، ثم زحف على قدميه ويديه نحوه متظاهراً بطلب المغفرة لجريمته، وسائلاً تكريسه ملكاً، واستقبله الرجل الآخر عندمااقترب منه (ماذا كان بامكانه أن يفعل غير هذا؟) وعندها سماه ملكاً، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات حاكم لومبارديا يحمل لقب ملك(٥).

وعندما نجح روجر في خطته، أرسل رسلاً إلى الامبراطور جون —وكان مايزال على قيد الحياة— يسأله الحصول على عروس ذات دم امبراطوري، لابنه، ولم تحقق السفارة هدفها عندما توفى جون، واتصل بعد مرور بعض الوقت بمانويل، الذي كان حاكماً للامبراطورية آنذاك، وصنع الطلب نفسه [حوالي١١٤٣-١١٤٤]، وبناء عليه توجه باسيل الذي كنيته اكسروس Xeros إلى صقلية للبحث في هذه المسألة مع روجر، وبعدما أغواه بالذهب، وعده ببعض الأشياء غير المرغوبة، كان على رأسها أن يكون في المستقبل كل من الامبراطور وروجر على سوية واحدة بالعظمة، وتلا ذلك قيام صراعات كبيرة، وعاد اكسروس إلى بيزنطة ليموت مباشرة، وبذلك لم يدفع عقوبة عمله المتسرع، وعالج

الامبراطور مسألة سفارته بمثابة عمل عابث، وأزاح روجر نفسه من تفكيره(٦) ،وغضب روجر، وعدّ المسألة مسألة خداع وغش، فأمر ببناء اسطول، ووضعه على أهبة الاستعداد، ينتظر لحظة مناسبة يتمكن فيها بطريقة مامن الانتقام من الرومان.

ونجح البربري في خططه، وفي ذروة تدخل أمم الغرب وخرقها للأراضي الرومانية، قام بنهب: كورنثا، ويوبيا Euboea ، وبيتين Boeotionفي طيبة [١١٤٧-١١٤٨]، وبما أن الجيش الروماني كان مشغولاً بالمشاكل التي يواجهها أمامه، فقد قام البرابرة بمهاجمة المدن المذكورة، دون أن يعترض سبيلهم أحد مطلقاً، وشحنوا سفنهم بالأسلاب، وعبر من هناك إلى كيركيرا Kerkyra (كورفو)، فاستولى عليها عنوة، مدعياً أنها ملكاً له، ثم حكمها حكماً مطلقاً(٧)، ولدى سماع الامبراطور بذلك غضب غضباً شديداً، وأعمل فكره في كيفية تمكنه من الانتقام من روجر، وأن يفرض عليه العقوبة التي يتطلبها مثل هذا العمل الوقح، وأمر على الفور باعداد اسطول فيه خمسمائة سفينة حربية، مع ألف ناقلة للخيول، وقام بشحن الاسطول، وفي الوقت الذي أخذ فيه الطريق البري، أبحر الأسطول وتجول هناك بأقصى سرعة ممكنة.

٣- وما ان وصل الامبراطور إلى فيلبه [بولفديف] حتى ذاعت اشاعة وعمت أفادت ان جيوش الكومان قد عبرت الدانوب، وكانت تقوم بنهب وسلب كل ما كان أمامها، حتى ان هذه الجيوش قد استولت على مدينة بارزة، قائمة على شاطىء الدانوب [١١٤٨]، وبهذا القدر والنوع كانت فحوى محتويات الاشاعة، لهذا غيّر الامبراطور اتجاهه، وخف نحو الدانوب من خلال أنكيالوس Anekialos [بوموري Pomorie]، وبما أنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى هناك، فقد شغل نفسه بالتجوال بالسهول هناك صائداً، لأن كميات هائلة من الوحوش قطنت على شكل قطعان في تلك السهول، ذلك انها كانت مهجورة تماماً وغير

مسكونة منذ زمن طويل.

وفيما هو مشغول هكذا، نقل إليه خبر أن الكومان كانوا يسوقون أمامهم في طريق عودتهم غنائم من الأراضي الرومانية، وأنهم عبروا للتو نهر الدانوب، وكانوا معسكرين على مقربة منه،وعندما سمع بذلك، بادر مسرعاً بالقدر الممكن نحو الدانوب، وصدف أن وجد هناك قارباً، من النوع الذي يصنع من جذع واحد، ويترك بالعادة على الشواطىء هناك، وأمر باحضار القارب إليه، غير أن الملاح كان عنيداً، وعندما سمع بأن الامبراطور يدعوه قال: «لو كان الامبراطور مهتماً بشؤوننا، لما سقطت ديمنزيكوس(٨) Demnitzikos (فهكذا كان اسم الحصن الذي استولى عليه الكومان كما سلف بنا الذكر) ولم تنهب ممتلكاتنا وتحمل ثم تؤخذ بعيداً من قبل الكومان دونما اعاقة»، ولدى سماع الامبراطور هذا الكلام، غضب غضباً شديداً، وأعلن: «تأكدوا، انني لن أكون الرجل الذي عهد الرب إليه بشؤون الرومان، إذا لم يدفع الكومان الغرامة عن عملهم الطائش».

وعلى هذا ترك بقية الجيش يقوم ببناء المعسكر هناك على الشواطىء، ولما كانت السفن لم تصل بعد —كما ذكرنا من قبل— قام بجمع القوارب وربطها مع بعضها، وعبر الدانوب مع خمسمائة من الأتباع، وواجه هناك نهرين كبيرين، ولعدم رؤية قوارب هناك يمكن استخدامها للعبور، أمر الذين كانوا معه أن يربطوا القوارب التي كانت على سطح الدانوب إلى ذيول خيولهم، ومن ثم نقلهم إلى النهرين المذكورين، ولدى انجاز هذا العمل، تمكنوا من العبور بسهولة، وجالوا بعد ذلك في طول المنطقة إلى أن وصلوا إلى جبل تلي—أورمان(٩) Teli-orman، الذي امتد على مقربة من حدود روسيا، ووجد معسكر الكومان خالياً تماماً من الرجال، (لأنهم انطلقوا راحلين منذ وقت قصير) ولذلك تابعوا تقدمهم.

وبما أن النهار كان قد شارف على الانتصاف، وما من أحد من العدو قد ظهر، اختار الامبراطور الكومان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الرومان، مع قائدهم جفردوس Giphardos ، وكان رجلاً مجرباً في عدد كبير من المعارك، وأرسلهم لملاحقة الأعداء، ولتتبع آثارهم، والاشتباك معهم عندما يكون ذلك ممكناً، وسار خلفهم بخطوات واسعة، لذلك لم يمض وقت طويل حتى اصطدم جفردوس مع العدو، ونظراً لعدم جرأته على الاشتباك معه (لأن عدد العدو قد ظهر له لايعدّ ولايحصى) أرسل إلى الامبراطور ورجاه أن يقدم بأقصى سرعة ممكنة، وعندما سمع الامبراطور بهذا، بادر إلى حمل سلاحه، وحملت القوة كلها أسلحتها، وانطلقت نحو مطاردة الكومان، ووصل الرومان إليهم ودنوا منهم، وفي البداية وقف الكومان صامدين لاستقبالهم، وعبأوا صفوفهم، ورغبوا في القتال للدفاع عن أنفسهم، وعن الغنائم التي ساقوها معهم، وتطور الصراع، من حملات كرّ وفرّ إلى اشتباك عنيف على كلا الجانبين، وكان عدد من الرومان شجعاناً يومذاك، غير أن الامبراطور كان أشجعهم، وعندما رصّ العدو صفوفه، انقض عليه بكل قوة وحمل برمحه فخرق سور دروعه، وقتل عدداً كبيراً من الأعداء ليس بشكل فردي، بل ازدواجي، وعندما تمّ صدّ العدو بحملة الامبراطور التي لاتقاوم، اندفع الرومان نحوهم بكامل القوى، وحققوا حملة رائعة، حيث سقط عدد كبير من البرابرة قتلى، وتمّ أسر مائة منهم، كان بينهم لازاروس Lazaros ، وهو رجل احتل مرتبة عالية في الشجاعة، وكان محترماً من قبل المقدمين بينهم، وحفظ باقيهم سرعة خيولهم، وانتشار أحراش الجبال، التي توفرت وامتدت بأعداد كبيرة، واسترد الرومان منهم جميع الأسلاب وعادوا، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن تم تحرير سوتاس Sotas ، الذي كان —كما ذكرنا من قبل— [كذا] واسع الثراء عالي الأسرة، وكان قد وقع في أسر الكومان، وقد عاد إلى معسكر الرومان بمثابة لاجىء.

٤- بعدما حقق الامبراطور هذا النصر السريع والحكيم. تقدم الامبراطور نحو الأمام، ليعد العدة للحرب مع الصقليين، وبالنسبة لمسألة التعب العسكري، كان لايظهر عليه التعب، مع أنه —كما اعتقد— لم يكن أدنى من أي عسكري عادي، وليس حتى من الأباطرة أو القادة، وتقدم يفكر ببراعة حول صقلية وجميع ايطاليا، لكن بدا أن القدر رفض توقعاته المخلصة، وفهم بشكل جيد كيف ينهي قيادة علمية بشكل مضاد تماماً، بدون جهود، لأنه مع أن الكومان عادوا في الوقت نفسه، وكان هو نفسه قد وصل في موسم مناسب إلى المنطقة التي منها يتم الابحار إلى [كيركيرا]، لكن الأسطول قد تأخر، على كل حال إما بسبب ريح غير مواتية أو بسبب جهل أميراله بالأمور، ثم وصل متأخراً عن الوقت المناسب، فقد كان قد أقلع من موانىء بيزنطة في الربيع، غير أنه وصل إلى الامبراطور في الخريف، لذلك باتت أمور الرومان في وضع سيء، وصعد الامبراطور ظهر إحدى السفن الحربية، وأقلع الأسطول كله للعبور فوراً، لكن وقوع عاصفة غير متوقعة مع رياح شديدة أعاقت مشروعه، وكان البحر واسع الامتداد هناك، والابحار في الحقيقة خطير، لاسيما في الشتاء، ولهذا توجه إلى مكان قريب من بيرهويا Berrhoia [فيرويا إلى الغرب من سالونيك] وأمضى الشتاء هناك [١١٤٨-١١٤٩].

وأرسل قريبه بالمصاهرة ستيفن الذي ينبذه الناس بلقب كونتوستيفانوس [ستيفن القصير] [لأنه كان قصير الحجم]، أرسله مع الأسطول كله إلى كيركيرا، التي —كما ذكرنا— كانت آنذاك بأيدي الصقليين، وذلك بغية استردادها إلى الرومان، وبعدما وصل إلى المدينة وجرب كل نوع من القتال ضد أسوارها، وبينما كانت الأمور ماتزال متأرجحة، فقد حياته بطريقة أنا مقبل على حكايتها، فقد أنشأ سلماً طويلاً جداً، امتد أعلى من الأسوار الخارجية، وبوساطته قاد الجيش ضد

المدينة، وتساقطت مجموعات هائلة من الحجار المقذوفة من المجانيق في المدينة فوق السلم، وحطمته بالضربات، ونشرت شظاياه في كل مكان، ووصلت إحدى هذه الشظايا إلى الدوق، وأصابته إصابة قاتلة.

وشعر أن منيته قد دنت، وفكر في عقابيل هذا الأمر، مقدراً أن الخبر عندما يصل إلى الطرفين، سيسبب ربما الاحباط إلى الرومان، لكنه سيشجع الصقليين الذين كانوا يتقهقرون، لذلك أمر بتمديده بهدوء على ظهر سفينة، وأن يعودوا إلى القتال، وقام باستدعاء ابنه أندرونيكوس، الذي كان أصغر أولاده، والذي كان مقدم حملة البلطات، وأشار عليه أنه ينبغي على الرومان عدم التخلي عن الشجاعة، بل عليهم الآن النشاط بشكل خاص، لأنهم وقفوا غير بعيدين عن تحقيق آمالهم بالاستيلاء على المدينة، وكان هذا —كما أعتقد— تعبيراً عن روح الرجولة والشجاعة الحربية والوطنية، لكن ما ان كمل العمل وانتشر الخبر وعمّ بين الجميع، حتى سارت الأمور جميعها بالاتجاه المعاكس، فقد صدّ الصقليون الرومان، مع أنهم كانوا قد اعتلوا فوق الأسوار، وسادت الفوضى واستولى الاضطراب على كل شيء.

٥- وكانت أحوال الرومان كما يلي: كان الامبراطور حزيناً لدى سماعه بهذا، وعين أميرالاً مكانه، وأمره بالحفاظ على الحصار دون انقطاع، وبما أنه لم ينتج شيئاً يستحق الملاحظة، (لأن خصاماً تفجر فجأة بين الرومان والبنادقة، الذين قاتلوا كحلفاء لهم، وقد حرم هذا الخصام الجيش الروماني من النجاح) صمم الامبراطور نفسه أخيراً على الذهاب إلى هناك والانشغال بالحصار، وقام أولاً بانهاء الخصام فيما بين البنادقةوالقوات الرومانية، بايقاعه العقوبات المناسبة بحق المجرمين على كلا الطرفين، وإثر هذا هاجم بقوة الأسوار، وهكذا كان مشغولاً[١١٤٩].

غير أنه ما إن علم روجر طاغية الصقليين أن الامبراطور يصرف وقته

في كيركيرا حتى أرسل اسطولاً ضد الأراضي الرومانية، عازماً على ارغام الامبراطور على ترك الحصار، بإعماله العيث هناك، وقام الامبراطور، بفصل جزء من السفن التي كانت معه، وسارع بارسالها تحت قيادة كوروب، لمواجهة الصقليين، عندما —كما قلت— يهاجمون الأراضي الرومانية، وقام هو نفسه بتشديد الحصار على الصقليين بحدة أعظم، وأوقف أمام الأسوار سلالم عملاقة امتدت من السفن، وقاد الجيش صعوداً بصعوبة ومشقة، وانكسر أحد السلالم تحت ضغط ثقل الذين صعدوا عليه، وقذف بكثيرين إلى البحر، حيث لفظ هؤلاء التعساء أرواحهم، مخلفين إلى الرومان كمية كبيرة من الشجاعة، ومع أن الصقليين رأوا الرومان قد صاروا فوق الأسوار وفيها، كانوا على غير استعداد للتخلي عن المدينة للامبراطور، وسارعوا نحو الحصن بأقصى ماأمكنهم، ومن هناك كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وأخذوا يسقطون على الرومان الحجارة والنشاب وأي شيء طالته أيديهم، مثل زخات المطر الساقطة من السماء، ذلك أن القلعة كانت ذات ارتفاع شاهق، وكان من المتعذر اصابتها بحجارة المنجنيق.

ثم إن الامبراطور قام وهو يغلي غضباً، بسبب سوء الحظ الشرير هذا، فوقف عالياً فوق ظهر السفينة التي كانت تحمله، وأمر المجذفين بالاندفاع بالسفينة نحو الأسوار، في محاولة منه —كما أعتقد(١٠)— للهجوم بنفسه، لكن بعضاً من القادة ومن أقربائه بالدم، بذلوا جهد طاقتهم، لايقافه والحيلولة بينه وبين تنفيذ رغباته، إن هذا ماأعتقده، لأنه كان على درجة عالية من الاقدام والشجاعة، ولقد سمعت بعض الناس يتهمه بالتهور، لكن المسألة انه امتلك إقداماً رائعاً وشجاعة فوق الشجاعة العادية، وفي الحقيقة، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، أمسك بيديه بكثير من البرابرة وجعلهم أسرى، ولهذا قالت السيدة الألمانية التي تزوج منها [بيرثا—ايرين]٠ بادراك كامل بأنها انحدرت

من عرق محب للحـرب كثيراً جداً، لكنها لم تر بينهم، ولم تسمـع عن أحد قط قام بالتفاخر بمثل ماأنجزه في عام واحد.

ثم دنـت إحدى سفن الاسطول الـروماني من أسـوار كيركيرا، ولم تكن مـن السفـن الكبيرة الحمـولـة، كما أنها لم تكـن مـن السفـن المنخفضـة والطويلـة، بل كـانت مـن السفن التـي امتلكت ارتفـاعاً كـافياً وعـرضاً مناسبـاً، وكانـت مشحونـة كلياً بالخيـول، ومليئة بـالسلاح، وحملتهـا قوة الريح إلى مكـان خاص من السور، كـانت أكوام الحجارة تغطـي أطراف أرض الشاطـيء هناك، مما جعـل المكان شديد الصعـوبة للوصـول إليه، وفي الحقيقة مخيفـاً، وصب عليها صخـور كل منهـا بحجم عربـة ونشاب وكل شيء كان متوفراً، ولهذا تخلى عنها الذيـن كانوا فيها بسبب ماحدث، وأصابهم رعب عظيم، وزحفوا مرعـوبين تحت ظهر السفينة، وما ان لاحظ الامبراطور هـذا حتى بادر فحمل بـإحدى يديـه ترساً لم يكن مـن الأنواع العادية التي تتخذ لحماية فرد واحـد، لكنه كان من الترسة العراض، التي لم يكن من السهل على الرجل حمله، وأمسـك باليد الأخرى وحرك بمهارة الآلة التي تزود بها بالعادة السفينـة الامبراطورية، واستهدف من ذلك درأ نفسه من الرمايات التي كانـت تأتي من الأسوار، حتى لاتصيبه احداهن، وأسرع نحـو السفينـة، وبعدمـا ربطهـا بـالحبـال، كـان قادراً على جـرهـا وانقاذها من المخاطر.

وروي أن الرجـل الذي كـان معهوداً إليـه من قبـل روجر بتسيير أمـور كيركيرا والـدفاع عنهـا، قـال وقتهـا، وهو يـرى النـاس مـن المدينة وهـم يقومون بقذف الحجارة نحو الامبراطور:

بحق خلاصكـم، توقفوا أيها الجنود عـن رمي أي سهم آخر نحـو مثل هذا البطـل، وإذا مالـزم الأمر في تقـديم تسـويغ لهذا، فـأنا نفسي سـوف أتحمل غضب [الملك].

على هذه الشاكلـة مضت الأمور هناك، وكان الأسطـول الصقلي عندما اصطـدم مع كـوروب، هزم معظمـه، ولم ينـج من المخـاطر سـوى أربعين سفينة، وصلت إلى بيزنطة، وبعدمـا حاولوا النزول إلى البر هناك، لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، وعندما بـذلوا جهودم في اشعال النار في المستودعات المنتشرة حـول منطقة دامـاليس [جـزء مـن أوسكودار] عبر القسطنطينيـة، غادروا المكـان والعار يجللهم، وقد فقـدوا كثيراً من رجالهم، ثم إن الـذين هربوا من المخـاطر لم ينجوا تماماً، لأنهم واجهوا سفناً كـانت تنقل الخراج العام من كريت، وغدا كثير منهم أسلاباً للقتال.

وتمكن الامبراطـور من الاستيلاء على مـدينة كيركيرا بـوساطة التجـويع ووسـائل الحصـار، ثـم انطلــق مـن هنـاك، وفيما يخص صقليـة والأرض الايطالية، وضع الخطط لاستردادهما في المستقبل لصالح الرومان.

٦- واكتشف أنه عنـدما كان يستعد للحـرب في صقلية، عرف الألمان والصرب والهنغـار بهذا وانضموا إلى تحالـف مع بعضهـم بعضاً في سبيـل قتال الرومان من الغرب، كما وعرف أن يغـي—باسان، الزعيم التركي، قد قرر نهب آسيـا بالتعاون مـع سلطان قونيـة، وسارع هنا الامبراطـور بنفسه بالتـوجه ضد الصرب، وكان متشـوقاً لازاحة زعيمهـم زوبان الكبير(١١)، الذي كان وقتـذاك قد شرع بالنشاط، وأوكل الامبراطور أمـر الأسطول كله إلى جون أكسوكوس Axouchos دمستق الجيوش الشرقيـة والغربية، وأمره أن يقـف في أنكونـا Ancona (أنكونـا جزء مـن ايطاليـــا) وأن يتخذهـا قاعدة ينهب منهـا ايطاليا، وعلى كـل حال، عندما وصـل جون إلى نهر فيجوسي Vijose [في ألبانيـا] قرر عدم التقـدم أكثر، وفعـل ذلك إما لأن هذا الـدمستق أخفق في مجال الخبرة البحرية، أو أن قـادة البنادقة أشاروا عليـه بهذا خشية منهم أن يستـولي الرومـان على ايطاليا، وبـذلك يتمركـزون بمثابـة جيران لبلادهـم، وبذلـك يستخفون بهم ويقللـون من الرغبـة بالتحـالف معهـم، وهكذا فـإنه إمـا لهذا السبب أو ذاك لم ينجـز

الدمستق شيئاً مما أمره به الامبراطور، لكن عبثاً أضاع وقته، ولهذا عندما هبت عاصفة مفاجئة (لأن الوقت كان قريباً من الاعتدال الخريفي) فإن كثيراً من السفن التي كانت متروكة ومهملة من قبل الأميرال تحطمت، وفي حين أن السفن التي كانت راسية عند النهر، كان من الممكن سحبها من أحد الطرفين، وتركها واقفة على شاطىء البحر(١٢).

وهاجم الامبراطور بلاد الصرب، وأخضع حصن راسون Rhason، ونهب كل شيء في جواره [١١٤٩](١٣) وبعدما وضع حشداً لايحصى من الناس في فوج الأسرى، تركهم هناك مع العساكر تحت قيادة قسطنطين الـ Sebastohypertatos ، الذي يكنيه الناس أنجيلوس(١٤).

وزاد الامبراطور من تقدمه، واستولى على منطقة نيكافا Nikava، التي كانت من ممتلكات زوبان العظيم، وأخضع جميع بقية الحصون التي كان قد بناها هناك، بدون جهد، ووصل إلى غاليتزا(١٥) Galitza، فوجد البرابرة يثقون بأعدادهم الكبيرة وبوعورة الأرض، ولذلك كانوا على غير استعداد للتخلي عن الحصن الذي كان هناك، وأقام الامبراطور معسكره، وأمر رجاله —دون أن يفقد وقتاً— برمي التحصينات بالسهام والحجارة من العرادات، وهكذا تمكن في اليوم الثالث من الاستيلاء عليه عنوة، فوجد فيه حشداً من البرابرة، عاد جزء منهم إلى طبقة الفرسان، والبقية كانوا من العامة، وقد اقتادهم جميعاً بمثابة أسرى.

وعندما وصل في طريق عودته إلى راسون، بعث بهم لاسكانهم في ساريدكا Sardika وفي بقية الأراضي الرومانية، وقد أخبره أنجيلوس أن زوبان كان ينتظر الفرصة بعد انسحابه، ليبدأ بقتال الرومان، ولم يلق مانويل سلاحه، وظل مشغولاً بالحرب، لذلك عاد بأقصى سرعة ممكنة، متشوقاً لمفاجئته، لكن زوبان، ما ان سمع باقتراب

الـرومان، حتـى اندفـع نحو الممـرات الجبليـة، وهرب مـن الخطر بسرعـة هـائلة، ودخـل الامبراطـور إلى المنطقة، وقـام في غياب مـن يـدافع عنهـا بنهبها، وفي أثنـاء عبوره ألقـى النار في أمـاكن الاستقـرار التي أقـامها على حذه زوبان العظيم من أجل بناء قصر له، وأحرقها.

٧- ومـا ان حـلّ الشتـاء القـاسي [١١٤٩-١١٥٠)] ولأن الحرارة الجسديـة تتمركز في المخلوقـات الحية حول القلـب، وفي كثير من الحالات يهاجم الجرح الأطراف، رأى مانـويل أنه بات من المناسـب التفكير بأخذ الطريق إلى بيـزنطة، وقام في السنة التـالية [١١٥٠]، عندما بـات الفصل هو فصـل الخريف، في ذلـك الوقـت الذي تغـدو فيه الطـرقات في بـلاد الصرب بشكل خاص في متناول العـدو، ولأن الاخضرار قد غادر الأشجار آنذاك، قام بحشـد جيش في نيسوز Naissos ، وعندما عرف هناك أن قـواتاً أرسلـت مـن هنغاريـا إلى الصرب، تنفيـذاً للتحالـف، أسرع في قيـادة جيشـه خلال المنطقـة المعـروفـة بـاسم لـونغـوميروس(١٦) -Lon gomeros وذلـك بهدف تمكين الجيـش الرومـاني مـن الاشتبـاك مـع الهنغـاريين، الذيـن كانـوا يزحفـون على اليمين، ولـدى وصولـه إلى سافـا Sava عبر مـن هنـاك إلى نهر آخـر اسمـه درينـا Drina الموجـــــودة ينابيعه في مناطـق أعلى بعض الشيء، وهو الذي يفصل البوسنـة عن بقية بلاد الصرب، والبـوسنة نفسها غيرخـاضعة لصرب زوبان العظيـم، لكنها قبيلة قائمة بذاتها، وتحكم بشكل منفصل.

وسأبين على الفور لماذا اصطدم الهنغار بالرومان:

كان بين الصرب شخص بـارز، لا أعرف اسمه، وكان أخـوه هو بيلوس Belus ، وكانا معـاً بارزين بين الصرب، وكان هذا الشخـص متزوجاً مـن أخت زوبـان العظيم، لكـن لما حدث أن أصيـب في إحدى عينيـه، بطريقة أنـا غير قادر على حكايتها، سـافر إلى هنغاريا، وبعـد امضائه وقتاً

طويلاً هناك بات عالي المكانة عندالملك غيزا(١٧) Geza بشكل خاص، ذلك انه أسهم في تربيته وتعليمه منذ الطفولة.

وبسبب هذه العلاقات الطيبة، سعى إلى جعل بلاد الصرب خاضعة بالتحالف إلى غيزا، وقد عرض هذا الأمر وناقشه في كل مناسبة ممكنة، وبذلك استطاع اقناع الرجل، بوساطة الطلبات الملحة، وبناء عليه عندما سمع غيزا أن الرومان كانوا يهاجمون بلاد الصرب، بعث بقوات من عنده تنفيذاً لتحالفه مع الصرب، وكانت هذه هي المناسبة التي جعلت الرومان يبدون مشاعر سيئة نحو الهنغار.

وبينما كان الجيش الروماني يتقدم، اصطدم الرومان الذين كانوا يتجولون لجمع المؤن، بالهنغار، وهم على الطريق نحو هدفهم، وجاؤوا وجهاً لوجه معهم، وما ان وصلت الأخبار عن هذا إلى الامبراطور، حتى بادر بارسال جون [كومينوس] (١٨) البروتوسيباستوس، وأرفقه بقوة لمساعدته، وما ان وقع الاشتباك حتى انهزم الهنغار من قبل الرومان، وفروا إلى أن وصلوا مجرى نهر ستريمون(١٩) Strymon [كذا] فتخلوا عن أثقالهم وجدّوا فارين بدون توقف، لكن الرومان تابعوا اللحاق بظهور الفارين إلى أن وصلوا إلى نهر تارا(٢٠) Tara ، وعندما لم يعد الرومان يلاحظون وجود من يقاومهم، فكروا بالعودة، وأقام الامبراطور معسكراً في وسط الطريق المؤدي إلى سيتزينيتزا(٢١) Setzenitza ، ولم يكن قادراً على معرفة مكان وجود زوبان العظيم، ولهذا مكث بعض الوقت متوجساً، وعندما سمع من الأسرى الصرب أن قواتهم كانت تنتظر وصول الحلفاء الهنغار، الذين دنا وقت وصولهم، حرك جيشه نحو الأمام، ولم يظهر أي خصم أمام الرومان من أي اتجاه حتى وصلوا إلى نهر تارا.

وعندما وصلوا إلى هناك، وبينما كانت الشمس ماتزال تمر بالأفق الغربي، رؤي حشد من الصرب شاكي السلاح، واستولى على الرومان

التعب والرعب، فعادوا لاخبار الامبراطور بما رأوه، وحكم الامبراطور بشكل صحيح أن القوة المشاهدة كانت قوة الهنغار المتوقع وصولهم إلى الصرب، وعلى الفور أعلم كشافة كوروب بما كان يتوقعه قائلاً: «ينوي الصرب الآن الانقضاض بشكل مفاجيء على الرومان» لأنهم كانوا معسكرين غير بعيد عن هاهنا، وبما أن الليل بادر إلى السقوط، فقد وضع خطة هي كما يلي:

لقد كان من عادة الرومان أثناء ذهابهم إلى الحرب، إذا ما أراد الجيش أن يتخذ موقفاً في أحد الأماكن، أن ينفخ بالبوق في أواخر النهار، وكان صوت البوق بالنسبة للحشود اشارة تعني أن عليهم منذ تلك الساعة البقاء في تلك البقعة، وبناءً عليه ولكي يتمكن من خداع الذين يعرفون العادة الرومانية، أمر بالنفخ بالبوق فوراً، غير أنه أفشى بشكل سري إلى القادة على انفراد بما كان قد خطط له: عندما تشرق الشمس، على كل واحد منهم أن ينتقي من الوحدة التي تحت قيادته كل من كان كامل التسليح، وأهلاً لأن يكون بين عناصر قوات النخبة، وأن يقف هؤلاء بكل هدوء بانتظار الأوامر منه، وخشية منه أن يتمّ كشفهم، أمر بلف الأسلحة بقطع من الأقمشة الرخيصة.

٨- وهكذا فعلوا، وعندما اقترب النهار، غادروهم برفقة المعسكر، وكأنهم ذاهبون لجمع المؤن، ولهذا الغرض أمر بعض الرجال المجردين تماماً من السلاح أن يسيروا في الطليعة ومعهم الكلاليب والمذاري، التي اعتاد أن يستخدمها الذين يجمعون المؤن للجيش في البحث عن الأطعمة في مخازن ماتحت الأرض، وأمرهم أنهم عندما يرون العدو زاحفاً ضدهم، أن يفروا حتى يلتحقوا بالرومان القادمين من خلفهم، وبذلك يكونوا آمنين، ومن أجل وصول المعلومات حول ماكان يحدث بالسرعة المتوجبة إلى القادة، أمر قائدين أن يمضيا في المقدمة، وأن يتبعهما على مسافة قريبة أربعة، ثم من بعدهم ستة، وإثر ذلك عشرة، وبعدها عدد

أكبر، وأمر بعدها بمركـزة فرقة أخرى من النبالة، وأمرهـا بمحاربة الأعداء مـن جـانـب آخـر، وتـوجب انـه إذا مـابـدأ الصرب بـالقتـال، أن تقـوم الوحـدات الأقل عدداً بـالفرار، لكـن إذا لم يهاجمها أحد، عليهـا أن تلتزم بالوقـوف هادئة أمام المعسكر، وفعل هـذا بغية أنه في الوقـت الذي يبقى هـو فيه مـع القوة الأخـرى، سيتمكنون مـن الحاق الهزيمة بـالصرب أولاً، وبـالوقـت نفسه مـن الممكـن قتل المهـزومين بـوساطـة القوات الخفيفـة التسليح.

وهكـذا زحفـوا نحـو الأمـام، وقبـل أن يبتعـدوا كثيراً، وصـل بعـض الكشـافة يـركضون نحـو الامبراطور، وهـم يولـولون بصـوت مرتفـع، وفي الحقيقة كـانت وجوههـم مصفرة من الرعـب تمام الاصفرار، وقالـوا هناك جيش لايعد ولايحصى واقف ومعبأ على الطـرف الآخر من النهر، ولم يكن جيشاً محلياً، بل فيه قوات لاتعد ولاتحصـى من الحلفاء من فرسان الهنغار وكذلك كـان بينهم قوة من الهراطقـة الـ «الخاليسونيين Chalisioi » [الخزر اليهـود]، لأنه في الـوقت الـذي كـان فيه الهنغـار يبجلون العقيـدة المسيحية، كانـوا يتبعون الشرائع الموسوية، حتى وإن كـانت هذه الشرائع ليسـت جميعها نقيـة، وقـال الكشـافة: إن هـؤلاء سيقـاتلـون إلى جانـب الصرب ومعهم البشناق، وعندما سمـع الامبراطور بهذا، احتاط خشية أن يتم تطـويق الرومـان الذين سـاروا في الطليعة، ومن ثـم قهرهم بـالقوات المتفوقـة عددياً، لهذا سار وهـو شديد الانـدفاع، وحثهم على اتباع حـامل الراية، وبما أن ذلـك الشخص اضطر إلى السير ببطء، لأن فرسـه قد أعياه الزحـف، فقد تناول الامبراطـور نفسه الراية منـه وتابع الطـراد إلى الأمام، ولدى وصـوله إلى نقطة بـارزة هناك، جعل العـدو يعرف من هـو ويعرف الراية.

وفي الوقـت نفسه وقف الرمـاة الذين وصلـوا إلى النهر وجهاً لوجـه مع الصرب، وبما أن أياً من الفـريقين لم يبدأ القتال، وقفوا هـادئين بلا حراك

تقريباً، وعنـدما ظهر العلم الامبراطوري ورآه الصرب، قامـوا بالتخلي عن الجسر، وبذلـك أعطوا الرومـان الفرصة مـن أجل التناوش، ولـدى ابصار الامبراطـور هذا (لأنـه وقـف —كما ذكرنـا— فوق مكـان مـرتفع بعـض الشيء، يراقب ما كان يحدث) تقدم ليعبر الجسر بنفسه معهم، لأنه —كما ذكـرت مراراً مـن قبـل— كان يتحـرك دوماً في المعـركـة على شكل فـوق الطاقة البشرية، لابل حتى أعلى بكثير من مجرد الشجاعة.

ومـع أن الذيـن تبعوه تـألفـوا من عـدد قليـل من الجنـد، فقد هـرب الصرب حتـى وصلوا إلى أرض وعـرة، وانعطفوا مـن هنـاك، واقتربوا مـن الرومان، وعنـدما اشتبك الطرفان بـالقتال، سقط قليل مـن كلا الطرفين، ولـدى معرفـة الصرب بـوجود الامبراطـور هـربوا مجدداً، وتـابـع الرومـان مطاردتهم فقتلوا عـدداً كبيراً من الهنغار ومن الصرب أنفسهـم، وسقط في ذلك الوقـت في أيدي الرومان غـرديشا Grdesa وفلسين(٢٣) Vlcin، وكـان مـن أبـرز الشخصيـات بين الصرب، وبـالنسبـة للبقيـة، فقـد رأى الامبراطور أنه من المهم جداً أن يصب عليـه دروعه، وعندما أضاع بعض الوقت في هذا السبيـل (لأن الذين كانوا يحملون الـدروع لم يكونوا قريبين منـه) كـان بعـض القـادة الـرومـان، وكـان مـن بينهـم غيفـاردوس Gi-phardos وميخائيل الذي كنيته براناس، بين آخـرين كثر من القادرين على العمل على انفـراد، وبارعين في القيـادة، كانوا قـد وصلوا إلى أمـاكن مستعصية وكثيفـة الانحدار على طريق المطـاردة، وكانوا في وضـع يائس، لأنهم زحفوا نحو خطـر واضح، وحيث أن الصرب قد تصـوروا أنهم باتوا بعيدين جداً عن الرومان الآخرين انعطفوا ووقفوا مواجهين لهم.

٩- وفيما الرومان في هذه المآزق، كان الامبراطـور قد أكمل لبس لأمته، فقام باللحاق بهم بسرعـة كاملة، وعندما وصل إليهم وجـدهم قد تجمعوا ووقفوا إلى جـانب بعضهـم بعضاً في بقعـة منفردة، فتـوجه إليهـم باللـوم والتوبيخ بكـل حدة وبشكل علني، وأهـانهم بأن وجّه إليهم تهمـة الجبن

وجهل التكتيكات العسكرية، وعندما أومأوا إلى طبيعة الموقع وكثافة الثلوج، ركب بذاته الطريق بعد اختياره له، وأمرهم باتباعه، وفي تلك الأثناء وصل حشد من الرومان وانضموا إليهم، وفيما هم سائرون على طريقهم، خرج عليهم كمين للعدو كان مختبئاً، وقاتل الرومان من على الطرف الأيسر، ونظراً لادراك الامبراطور أن حجم الكمين كان صغيراً جداً، ارتأى عدم وجود حاجة للدوران والعودة، واستمر بالمطاردة دون راحة بغية إلقاء القبض إما على زوبان الكبير نفسه، أو على الذي تولى ذلك اليوم القيادة بين الهنغار، أو على واحد ممن شهر بالشجاعة، وبما أن الذين كانوا في الكمين لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، فقد تملصوا وابتعدوا من جديد.

وبعدما استأنف المطاردة لمسافة قصيرة، لاحظ الامبراطور أن أتباعه كانوا في مأزق حاد، فقام بتخليصهم، مستعيناً باثنين من أقربائه، كان أحدهما جون دوكاس(٢٤)، وكان اسم الآخر أيضاً جون ويحمل كنية كانتاكوزينوس Kantakouzenos الذي كان متزوجاً من [ماريا] ابنة أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل](٢٥)، فقد زحف معهما ضد الأعداء، الذين عرفوه من خلال لأمته (لأنها كانت مزينة بالذهب)، وعرفوه بسموه وبرشاقة جسده وبقوامه الذي لانظير له (كان في الحقيقة يشبه الأبطال [القدماء] وذلك بقدر ما كان متميزاً بفروسية لاشبه لها أبداً، وبقدرته على التعامل مع السلاح واستخدامه بكلتا يديه)، ولم يكن عاراً بالنسبة لهم ادارة ظهورهم فراراً، وفيما هو يقاتل ضد الفارين، روي أنه ألقى أرضاً بخمسة عشر واحداً من الأعداء بطعنة واحدة برمحه، ولأنهم سيقوا إلى حالة من الفوضى والاضطراب ضرب أحدهم الآخر لدى اختلال الصفوف، وبعدما رمى على الأرض بأربعين منهم ساق البقية وطاردهم، وأعمل الطعن والضرب باستمرار في الهاربين، مستخدماً السيف والرمح معاً.

ثم حدث شيء هو كما يلي:

كان واحـداً ممن طعنه بـرمحه من قبـل (لم تكن طعنته مميتـة) قد استرد وعيه بعـد سقوطه، ونظـراً لاعتقاده أنه قـد انتهى أمره، تحامـل على نفسه وخرج مـن بين الجرحى، وعندما شـاهد الامبراطور يقترب، سحـب سيفه واندفـع نحوه ليطعنـه، لكن الامبراطـور لبطه بقـدمه على صـدره، فألقـاه أرضاً، وتجاوزه بعدما لاحظ أنه مصاب بجرح مرئي حول إحدى عينيه.

وفي تلك الأثنـاء شعر مـانويـل أن الإعياء لحق بحصـانه بسبب ثقل السـلاح، ومـع هـذا لم يرغـب بـالعـودة، فـأمـر كانتـاكـوزينـوس Kan-takouzenos (صدف أن كـان وحده من بين رجـال الامبراطور مشـابراً إلى جانبـه) بالتقدم نحو الأمـام والاشتباك مع البرابـرة، ذلك أنه بوسـاطة انشغاله معـه، سيكون من الممكن له الايقاع بهم، ولقـد نجح في مقصده هـذا، فعندمـا اقترب جون [كـانتاكـوزينوس] بسرعـة من الأعـداء ضرب بـاكشينـوس Bakchinos [باغين Bagin] (٢٦) على ظهره، وكان متشوقـاً لتمرير الرمح فيه، ومع ذلـك هو لم ينجح لأن الدرع قاومه، واستدار هـذا الرجل فرأى أنه مطارد مـن قبل رجلين، لأننا —كما أسلفنا القول— كـان جون الآخر مصاحبـاً للامبراطور، فجمع سبعـة من أتباعه واشتبك مـع كانتاكوزينوس، وصار القتال يـداً بيد، وفي هذه الآونة عندما كان واحـداً من البرابرة قادماً من أحد الاتجاهات، وآخـر قادماً من اتجاه آخر، بـات كانتاكوزينـوس في خطر عظيم، ولولا أن الامبراطـور ظهر إلى جانبه، وأنقذه من الخطر، أظن أن الـرجل، ماكان لينجو من أن يصبح ضحية لسيـف البرابرة، كما أن الامبراطـور نفسه لم يكـن بعيداً بـالمرة عن المخاطر، لأنه عندما لاحظ أنه إذا ماتصـدى للسبعة الذين كانوا يطوقون جون، سيكون بـإمكان الآخرين الـذين يصل عددهـم إلى ثلاثمائة القتال على الجانبين، لذلك قرر ان عليه الاشتباك مـع القوة الرئيسية أولاً، وعندما تخلى هؤلاء عن القتال وهـربوا، بات من المتصور أن الذين كـانوا يطوقون

جون سيقومـون أيضاً بالانسحاب، فقـام بغمز حصانه، وانـدفع فكان في وسطهم، وعزم على طعـن واحد منهم برمحه، غير أنه لم يصبه، لأنـه عندما استدار البربري على ظهـر حصانه، مرّ الـرمح إلى طرفه دون أن يصبـه، ثم اشتبك معه يداً بيد.

ولدى مـلاحظة بـاكشينوس هـذا قام بنفسـه ومعه أتبـاعه بترك جـون هناك، وحملوا بكل سرعـة على الامبراطور، وكانـت الحادثة محشوة بـالرعب، وقام الامبراطور بإلقاء رمحه والتخلي عنه، وجـرد السيف الذي كان يحمله، وشرع يضرب ويتلقى الضربـات وهو يدور حولهم وبينهـم، وإلى أن تفرق البقية، تطـورت نتيجة المعـركة وتمحورت حـوله نفسـه وحول بـاكشينوس الذي كـان مشهوراً بشجاعتـه، ويمتلك بنية بدنيـة هائلة، وبعـد اشتباك طويـل، وجّه باكشينـوس ضربة أوصلـت سيفه إلى فك الامبراطـور، ومع هذا لم يستطـع قطع واقية [سلسلـة اللأمة] التـي تدلت مـن الخوذة فوق العينين، وكانـت الضربة —على كـل حال— مـن القوة بما يكفـي لجعل الحلقـات الموضـوعـة فـوق الجلـد تضغـط بعمـق عليـه، وبعـدمـا حـرم الامبراطور البربري من إحدى يديه بوسـاطة سيفه، سلمه بسرعة إلى قريبه [جون كـانتاكـوزينوس]، وفي الـوقت الذي كـان فيه عـديم الصبر يـريد مهاجمة العـدو ثانيـة، بذل كـل من جـون والبربري بـاكشينوس جهـدهما لايقافـه عن الحملة، لأن هـذا الأخير كان قد أعلن عـن طاعته، وتظـاهر بـالصـداقـة، فعنـدمـا كشـف عـن شعـر رأسـه، أعطـى بـذلـك شـارة [استسلامه] للغوغاء الـذين كانوا قادمين للقاء به، وحرم كـانتاكوزينوس في هـذا الصراع مـن اصبعين مـن إحـدى يديـه، وعـاد الامبراطـور نحـو المعسكر، وهو يـدفع أمامه حـوالي أربعين أسيراً من الأعداء، وتذكـر هناك الرجـل الذي رماه أرضـاً وخلّفه وراءه، وذلك بعدمـا حفظ العلامـة فوق عينه، وطلـب البحث عنـه في المعسكر، ذاكـراً علامتـه الفارقـة، وبذلـك وقف عليه، وعرف الرجل المهزوم، وعُرف من قبله.

ووصـل قبل مضي وقـت طـويل إلى المعسكـر رسـول مـن عند زوبـان العظيم، هو [بيرفوسلاف أوروش الثاني Pervoslav Uros] يطلب العفو عن جميـع ماقترفه من أعمال، وبناء على طلب مـن الامبراطور جاء الـرجـل بعـد وقـت قصير، وقـدم نفسه بمثـابـة تـائب متـواضـع، وقبـل الامبراطور توبته، وعفـا عن ذنوبه، وبعدما نهض [زوبـان العظيم] قليلاً، وارتفـع عـن سطـح الأرض، وذلـك بعـدمـا رمـى بنفسـه على قـدمـي الامبراطـور، تعهـد بالأيمان بها وافـق عليـه، وأعلـن أمام العـالم أجمع أنـه سيكون خاضعاً للرومان، وإذا ماأراد [مـانويل] القيام بحملة في الغرب، وافق على أن يلتحق به ومعه ألفين من رجالـه، أما بالنسبة للقتال في آسيا فلسـوف يبعث بمائتين مـن الرجـال وذلك بـالاضافـة إلى الثلاثمائة التـي اعتاد من قبل على ارسالهم.

أما وقـد نجح في هذه الأشيـاء، فقد عاد الامبراطـور إلى القسطنطينية، وعاد في الوقت نفسه الاسطول الذي لم ينجـز شيئاً في ايطاليا، إلى بيزنطة، وحـافـظ الصرب إثر هـذا على خضـوعهـم للـرومان، وبعـد مضي عـدة سنوات، وبعدمـا طردوا من الملك أوروش الثـالـث، قاموا بـدون رضا من الامبراطور بمنـح الملك لواحـد من اخـوانه، وكان واضحـاً أن الامبراطور سيغضب منهم لما حدث، وخشية منهم أن يقوم بـاستدعاء كل من ديسا Desa وأوروش إلى حضرته، قائلاً بـوجوب اطاعتهم لمن سيعينـه عليهم، حاولوا ايجاد حل للقضية بأنفسهـم، فأخفقوا، ثم كان أن عاد أوروش إلى منصبه ثانية، كمنحـة له من الامبراطور لكن هذا حـدث بعد مضي بعض الوقت [حوالي ١١٥٥].

١٠ - وزحف الامبراطـور على هنغاريـا، عاداً تحالفهم السـالف الـذكر مع الصرب، حجة لاعـلان الحرب عليهم، ولم يفـاجئهم بـالقتال، لكنـه راسلهم أولا مبينا لهم سوء تصرفهم نحوه، وحذرهم من الهجـوم الروماني الوشيك، وعنـدما وصل إلى شاطـىء الدانوب [خريـف ١١٥١] لم تكن

السفن التـي تمّ اعدادهـا في بيزنطة قد تـوفرت وحضرت أمامـه، وخشية منه أن تذهـب الفرصة التي تهيـأت سدى، وبحثاً منه عـن شيء يفيد في مثـل هـذه الحالات ويسـاعـد على النجاح، أمـر بصـف قـوارب جـذوع الأشجار التـي كانت ملقـاة على الشاطـىء هناك، وأسرع نحو الشـاطىء الآخر لنهر [السافا Sava] ، حيث قام بجر فــرسه بمقوده ولجامه، وبعـدما عبر الجيـش الـروماني على هـذه الشاكلـة، وضـع هنغاريـا تحت قدميه، وبينما كـان هذا الجيش يتقدم نهب بدون رحمة كـل شيء عثر عليه في طريقه.

وكان يـوجد على إحـدى ضفتي النهـر هناك قلعـة اسمها زيـوغمينون Zeugminon [أو زيوغمي—زيوم الحالية]، وكانت مجهزة بأسوار قويـة وبدفـاعات أخرى، ولما وجـد استحالة الاستيـلاء عليها فـوراً، ترك هناك ختنه ثيـودور باتاتزس مع جيـش، وقام باجتياح جميـع القرى هناك، وحمل تقريباً كل من كان فيهـا أسرى، ووقتها جاء جيش هنغاري لمواجهة الرومان، ولدى ادراك هذا الجيـش أنه كان يحاول المستحيلات، ذهب إلى الامبراطور، وإثـر ذلك تدبـر الأمر وحمل كـل شيء دون تدخل مـن أحد، وبعد هذا بات مـن الممكن رؤية أجيال بكاملها تزحف مـأسورة مع أمم تتحرك مهـاجرة، وفـرغت الجزيرة بكـاملها [كذا]، وأعنـي بذلـك الجزيرة التي يشكلهـا كل من نهري الـدانوب والسافا، فـأثناء تدفقهما وجـريانهما مـن الألب إلى هنغـاريا ينفصـلان عن بعضهما في الأعـالي، وبعد عمليـة دوران كبيرة يجتمعان معاً ثانيـة، لقد فرغت هذه الجزيرة مـن سكانها، ثم قام الرومـان بتمزيق المساكن الملكية، وهـو أمر جدير بالتـدوين بين أعظم انجازات الرومان ونجاحاتهم.

ونجـح الامبراطور في هـذا، وإثـره عـاد إلى زيوغمنـون، حيـث —كما ذكرنا— كـان قد ترك باتاتـزس الذي حافظ على الحصـار، غير أن الذين كانـوا يديـرونها من الـداخل بـإحكام حـافظوا عليهـا وظلوا متملكين لها

ماداموا يأملون بأن الملك سيصل إلى عونهم بعد وقت قصير، لكن بما أنه لم يرد في الأخبار حديث عن وجوده في أي مكان قريب، وكان الرومان على أهبة الهجوم على الأسوار، ولكراهيتهم البقاء تحت المخاطر، فقد سألوا الامبراطور عما إذا كان يمكنهم تسليم القلعة إليه، بشرط مغادرتهم لها وأجسادهم سليمة حرة، وعندما رفض هذا ربطوا رقابهم بحبال، وجاؤوا كاشفين عن رؤوسهم، وبذلك أخضعوا أنفسهم إلى الامبراطور بكل خنوع، ومنع الامبراطور الرومان من التعرض لأي منهم بالقتل، غير أنه نهب القلعة وكانت مشحونة بمؤن لاتعدّ ولاتحصى.

١١- وبعدما حقق الرومان هذا، بادروا إلى جواز السافا، وهم يقودون أجيالاً من الهنغار أسرى، وكان عددهم أكبر بكثير من تعداد جيشهم، لكنهم ماكادوا يعبرون حتى وصلتهم أخبار قالت بأن ملك الهنغار، قد نجح للتو في إنهاء حرب في غاليشيا Galicia ، التي كانت مقاطعة روسية، وهو قادم بسرعة عظيمة لمواجهة الرومان، وتحت امرته قوات عظيمة.

وإنه بشكل خاص بسبب حربه لغاليشيا كان الامبراطور يعاقبه، لأنه [غيزا] قام نكاية بمانويل بمحاربة فلادميركو (لأن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على أمير غاليشيا) الذي كان حليفاً للرومان(٢٧).

ولدى سماع الامبراطور بهذا أمر بقية الجيش، والذين كانوا في قطار الأثقال وحشود الأسرى التي كانت فوق الحصر، والتي كانت قد عبرت النهر، بالبقاء على الطرف الآخر من النهر، وبعدما أخذ النخبة من جيشه، بادر نحو الاصطدام به [غيزا]وسعى إلى ذلك بأعظم سرعة ممكنة، ومع أن القادة عارضوا خططه بكل قوة، فقد أوضح مانويل لهم أن الهجوم على قطيع من الماشية هو عمل الذئاب وليس الأسود، لكن عندما يظهر الرعاة أو الكلاب من أي مكان لايشعرون بالعار إذا مافروا،

ويعنون بذلك فقط أنهم نادراً ماكانوا قادرين بكل صعوبة على الحفاظ على فريستهم.

ثم كان أن حدث أمر، إذا ماكان قد بدا له لدى اختياره له صحيحاً، فأنا لاأوافق عليه، لكن إذا كان الاختيار قد تمّ بناء على تبصر أو بعد نظر حتى يبذل الرومان غاية جهدهم ليكونوا على درجة عالية من الشجاعة، فأنا أرى في ذلك مثلاً رائعاً من أمثلة الابداع العسكري، ذلك أنه عندما كان يعد العدة للانطلاق من السافا إلى مواجهة الهنغار، وجه الأوامر إلى الشخص الذي عهد إليه بقيادة الأسطول بالبقاء راسياً مع سفنه على الطرف الآخر من النهر، حتى إذا ماجاء أي واحد من الرومان طالباً الالتجاء، إلى الضفة الأخرى من النهر ونقله إليها، عليه أن يتظاهر بعدم رؤية ذلك الشخص، وقال: «إذا ماجئت أنا نفسي الامبراطور إلى هناك ورغبت إليك بشيء يتعدى الأوامر الحالية، عليك أن ترفض ذلك، وإذا لم تفعل هذا لن تنجو من عقابي المباشر»، وهكذا أعدّ الأمور، فاتحاً بذلك باب الشجاعة —كما أعتقد— لجنوده، وذلك حسبما ذكرت من قبل، لأنه عندما تنعدم الفائدة من الخوف، يبات من الضروري أن يكون الانسان شجاعاً حقاً.

وفيما هو على نية الانطلاق، جاء إليه واحد من الأسرى الرومان، ملتجئاً إليه بعد فراره من عند الهنغار، وأخبره أن ملك الهنغار قريب الوصول، وعندما سمع الامبراطور هذا، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، خشية أن تصل القوات الهنغارية فوراً، وأن تبدو وكأنها تقاتل الفارين الرومان، لذلك عبأ قواته ونظم صفوفها، وانسحب، وبما أن ملك الهنغار —على كل حال— لم يكن هو الواصل، بل بيلوش `Belus الذي شغل أعلى مرتبة بينهم (دعا الهنغار هذه المرتبة باسم«بان»)(٢٨) وكان قد دنا وصوله، أسرع مانويل نحوه، ونظراً لحلول الظلام، ترجل من على ظهر حصانه ونام بسلاحه، فوق ترسه المقلوب، وأمضى الجيش كله الليل على

هذه الحال نفسها، وفي اليوم التالي علم بيلوش باقتراب الامبراطور، فقام بالمغادرة ومعه قواته كلها، بعدما فبرك بعض الأعذار الواهية، وبذل بيلوش غاية جهده لتعليل فراره، فأعلن أنه مأمور من قبل الملك بالتحول عن الطريق المرسوم، والذهاب إلى مدينة برانيتشيفو -Bra nitshevo وبذلك يتمكن من محاربة الرومان بشكل أفضل هناك.

وتمنع الامبراطور عن مطاردته، وعبر نهر [السافا] وتوجه إلى برانيتشيفو، وعسكر هناك، وبعد مضي بعض الوقت عزم على نهب جزء آخر من هنغاريا، حيث الجبال التي يطلق عليها المحليون اسم تيميسس(٢٩) Temises فبعث بالقائد بوريس Boris مع جيش، وبوريس هذا نفسه قيل إنه جاء من الأبوين نفسيهما مثل غيزا، ولكن بسبب بعض الخصومات التي وقعت منذ زمن طويل مضى، جاء إلى عند الامبراطور جون ملتجئاً(٣٠)، وقدم له جون ما يكفي من التشريف، ووحده معه عن طريق القران بزوجة من أسرته الخاصة، وعندما وصل بوريس هذا إلى المنطقة، قام بالاغارة على البلدات هناك، التي كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السكان، وكانت مثقلة بكل نوع من الأشياء الثمينة، ثم إنه اصطدم بثلاث فرق هنغارية، وأوقع هزيمة قاسية بهؤلاء الذين تصوروا أن الامبراطور كان موجوداً، ولدى انسحابه، عاد إلى المعسكر الروماني محملاً بالأسلاب من هناك، وبعدما عرف الملك أن بوريس هو الذي صنع هذه الأفاعيل المرعبة في هنغاريا، قام بملاحقته، متشوقاً إلى قتاله، ومع ذلك لم يتمكن من الالتقاء ببوريس، الذي كان قد عبر الدانوب ليلاً، معتمداً ضوء المشاعل، التي كان الامبراطور قد أشعلها له بأعداد كبيرة من المعسكر، ثم إن اثنين من أفراد فرقة الرجالة، اللذين خلفا على الضفة الأخرى، اختبئا هناك تحت الأحراش، بعد وصول الهنغار، ونجحا بالنجاة.

ومكث الامبراطور بعد هذا النجاح هناك ليقوي بقدر الامكان المدن

الباريسترينية Paristrian [القائمة على امتداد الدانوب أو «ايستر Ister»]، وكان في نيته عبور الدانوب مجدداً والاصطدام بالملك، الذي كان هو نفسه معسكراً على الدانوب على الضفة المقابلة، ولدى معرفته بهذا، وخوفاً منه فيما يمكن أن يأتي به الحظ، وخشية منه (غيزا) أنه إذا ماهزم هذه المرة، فإن هذا سيورط الباقي من القوات الهنغارية ويقودها إلى الدمار، لهذا كله قام بالاتصال بالامبراطور، وبحث شروط السلام، وإثر هذا وبناء عليه، عاد الامبراطور إلى بيزنطة واحتفل بالنصر، وقدّم للرب شكراً عظيماً.

وفي هذه الآونة، ولد له أول مولود، وكان ابنة رائعة الجمال من الأوغسطه [بيرثا] ايرين، وأطلق عليها اسم ماريا، واحتفي بها بمثابة امبراطورة(٣١).

١٢- وفيما الرومان منشغلين بهذه الأحداث، وصل روجر [الثاني] طاغية صقلية إلى نهاية حياته[١١٥٤]، وكان ابنه وليم [الأول] الذي تسلم الحكم واعياً تمام الوعي وعارفاً بجرائم أبيه ضدّ المملكة الرومانية، فارتأى أن عليه ارسال رسل إلى الامبراطور لتسوية خلافاتها، وبناء عليه جاء رجال، قام كل واحد منهم بالبحث مع دائرة من الدوائر الكنسية، وكانت مقترحات السفارة كما يلي:

لقد وعد بإعادة جميع الأملاك والأشخاص —الذين كما سلف في الرواية— كان روجر قد حملهم [في سنة١١٤٧] بالسفن من يوبويا Eu-boea وطيبة في بلاد الاغريق ومن كورنثا، ووافق على أن يخدم الامبراطور، وأن يكون جاهزاً حيثما أراد(٣٢).

غير أن الامبراطور رفض السفراء، وقام بإعداد اسطول من السفن، حمل عليه جيشاً تحت قيادة قسطنطين الذي كنيته أنجيلوس، والذي هو خاله، وأمره أن يرسو في مكان ما حول لاكونيا Laconia، وأن ينتظر

بقية الاسطول الذي كان وشيك الوصول، وبناء عليه أقلع من بيزنطة ووافته ريح طيبة، لذلك رسا عند رأس لاكونيا، الذي يعرف بشكل عام باسم مونبمباسيا (أي المدخل الوحيد) وذلك صدوراً من شكل المكان.

وعلى كل حال، علم الامبراطور، أن غيزا ملك الهنغار، الذي كان منزعجاً لما حدث من قبل، قد عزم على مهاجمة المدن الباريسترينية بشكل غير متوقع، وبادر الامبراطور مسرعاً ليصل قبل المحاولة [١١٥٢]، وهكذا عاد إلى شواطىء الدانوب بأقصى سرعة ممكنة له، ووقف أمام الجيش الهنغاري الذي كان معسكراً على الطرف الآخر، ولم يرغب أي واحد من الطرفين —لبعض الوقت— بالدخول في المعركة، خاصة وأن الرومان لم تكن سفنهم قد توفرت بعد، وتمكن الرومان بعد مضي عدة أيام من بناء أكبر عدد ممكن من القوارب الخفيفة، اعتماداً على المواد التي كانت متوفرة، وسحبوها إلى النهر، ولاحظ الملك الهنغاري ماكان يحدث، وكما ذكرنا، خشي أن يهزم للمرة الثانية فتدمّر مملكته، لذلك لجأ إلى طريق المفاوضات، وقام بارسال سفراء من عنده طلبوا ألا تعاقب هنغاريا بحرمانها من أكثر من عشرة آلاف شخص، وأن يسترد البقية من حشد الأسرى، وبموجب ذلك أعلن أنه سيبقى صديقاً إلى الرومان طوال حياته، وأنه سينتظم بين حلفائهم إلى الأبد، وبعدما عقد اتفاق السلام طبقاً لهذه الشروط، شرع الجيش الروماني بالعودة من هناك(٣٣).

١٣- هكذا كانت أحوال الأوضاع على الأرض، لكنها انتهت على البحر بالطريق المعاكس بسبب حماقة القائد [١١٥٤]، فقد علم أنجيلوس، أن أسطول وليم كان عائداً من الأراضي المصرية ونهر النيل، مشحوناً بالغنائم والثروات من هناك، فعزم على تحقيق انجاز كبير، ولهذا أقلع نحو البحر بقدر ماأوتي من سرعة، ليلتقي به، وذلك دون أن ينتظر وصول بقية الأسطول من بيزنطة، ومع أن الامبراطور قد اعترض مراراً على هذا، ونصحه بوساطة الرسائل وبين له أنه لاينبغي لقوة صغيرة أن

تدخل في صراع مع قوة أكبر منهـا بكثير، وأكد أن مامن شيء سيحول بين أنجيلوس نفسه وبين أن يؤسر من قبل البرابرة، وتقع الواقعة، ولايعود من هنـاك —كما يقــول النـاس— مخبر [Angelos] يخبر بما حــــدث، وأصغى أنجيلـوس إلى هذا قليلاً، ولـذلك دخـل في معركة مـع الأسطول الصقلي لحظة ظهوره.

واستدار الصقليـون في البداية وانسحبوا في نظـام جيد، لكنهم عنـدما أدركوا أن الـرومان كـانوا في فوضـى عظيمة، وأنه مـن الواضـح أن عدد سفنهم أقل عدداً مما لديهم، استـداروا مسرعين، وعادوا مندفعين نحوهم، وحدث آنـذاك أن الريـح التي كـانت سـاكنة فـوق السواري الـرومانيـة، تحركت فجـأة إلى زوبعة عاتية، وهنـا قامت بقيـة السفن الرومانيـة، التي هـي تحت امرة أنجيلـوس آخر، كـان أخـاً للأميرال الـرئيسي (كان يقـود عدداً ضئيلاً من السفـن) بالفرار بشكل فوضوي، أمـا بالنسبة لقسطنطين [أنجيلـوس] الذي بقـي في وسط الأعـداء، فقد وقـع في أيديهم، وهكـذا نال جزاء حماقته، وبعدما فعلت السنة هذه الأفاعيل المغيرة، انتهت(٣٤).

١٤- وسمع الامبراطور أن الحاكم الهنغـاري قد أعلن العصيان مجدداً، (كـان لايستطيع تحمـل مثل هـذه المواجهات العـدوانية) لـذلك ركـب الطـريق عـائداً إلى الدانـوب، وبما أن الطرف الآخـر كـان مرعـوباً لـدى اقترابه، لذلك فتح باب المفاوضـات حول السلام، وهكذا انتهت حربهما، وأشرقت ابتسامـة منافع السلام [١١٥٣](٣٥)، وبعـد وقت قصير —على كل حـال— عندما هيـأ ابن عمه أندرونيكـوس مناسبة، قـام غيزا مجدداً بمقاتلة الرومان، غير أن هذا حدث فيما بعد.

ففـي ذلك الـوقت [١١٥٢] أرسـل الامبراطور أنـدرونيكوس هـذا إلى كليكيـة وايـزوريـا، وذلـك بعدمـا سماه قـائداً أعلى للحـرب هنـاك، لأن طوروس الأرمنـي، وكان رجـلاً عالي المكـانة، قـد وقع في أسر الامبراطـور

ـرين، وعندما قام الامبراطور بحملة على الحدود الايزورية [أي الأرمنية] عاد طوروس إلى كليكية هارباً من بيزنطة [حوالي١١٤٥]، وحاول إثر اعلانه العصيان أن يجعل المدن هناك تثور لتتخلص من السلطة الرومانية(٣٦)، ولهذا السبب أرسل الامبراطور أندرونيكوس، وبعث أيضاً بالقيصر [جون روجر] بغية الاقتران عن طريق الزواج بكونستانس، زوجة الأمير ريموند [صاحب انطاكية] الذي كان قد فارق الحياة،بطريقة أنا مقبل على حكايتها:

حاول البرابرة الذين يقطنون في تلك الأحواز احتلال إحدى القلاع بعد حصارها، وهذه القلعة قائمة على مقربة من حلب، وكانت تدفع الجزية إلى الانطاكيين، وقد حاولوا ذلك بعدما علموا بقلة المؤن فيها [١١٤٩]، وكان ريموند متفوقاً بالنشاط العسكري وفعالاً أكثر من أي انسان آخر، لذلك ما ان سمع بذلك حتى بادر على رأس القوات المتوفرة لديه نحو القلعة، ونظراً لانسحاب الأعداء ولعدم انتظارهم له، اكتفى بتزويد القلعة بالمؤن والعتاد، ثم كرّ راجعاً، وكان الوقت عصراً، ولذلك بدا له أن الأفضل هو متابعة السير، لأنه لم يكن هناك مكان قريب، يمكنهم بأمان الترجل والعسكرة فيه، وكان الذين معه قد أصيبوا بالانهاك الشديد بسبب الرحلة، فقد أرادوا العسكرة في أي مكان هناك، وقد أروه مكاناً محاطاً غالبيته بالمستنقعات، وبقيته مغلق بالتلال والشعاب البارزة هناك، ومع أنه كان عنيداً، فقد أعلن، وهو يشير إلى التل، «انه يخشى أن الأعداء إذا ماقاموا بهجوم ليلي، فسيجدون المكان مغلقاً ليس فيه منفذ للخروج لنا، ووقت ذاك سنكون غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا، وسنذبح مثل الشياة المحصورة في حظيرة»، وهنا قام واحد من الذين كانوا معه فألقى متسرعاً نحو الرجل بكلمات قاسية، وأعلن أن هذا التردد مصدره الجبن، وليس الحكمة، وسمح ريموند لغضبه وعناده أن يسيطر عليه فقال: «إنني أعرف أيها السيد النبيل، أننا

إذا مارحلنـا من هنـا وغادرنـا هذا المكان، أنـك لن تتـوقف مطلقـاً عن اتهامنا بهذا، لـذلك سـوف نعسكر هناك، مـادام ذلك يبـدو مناسبـاً لك، لكن انتبـه لنفسك، ولاتكـن عاجزاً عـن التعبير بالأفعـال عن الشجـاعة التي أعلنتهـا هنا بـدون حاجة إليهـا، ولاتخف ولاترتعـب عندمـا تنقض الأعداء علينـا من المكـان الذي قمت أنـا بذكـره»، وما ان أنهى ريمـوند كـلامه هـذا حتـى دخـل إلى ذلك المكـان، الـذي كـان مناسبـاً لفصلـه والاحاطـة به كلياً، وبعـد مضي قسم طويل مـن الليل، هاجمهـم الأتراك مـن الاتجاه الـذي ذكره وقتلـوا خيـولهم وقتلـوهم هـم أنفسهـم، دون أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، أو حفظ ذواتهم(٣٧).

إنه في ظـلّ هذه الظروف، وضمـن هذه المعطيات ذهـب القيصر جون إلى انطاكيـة[١١٥٢]، لكنه لم يحقق شيئـاً مما جـاء من أجله، (لأنـه كان مسنـاً، ونظرت كـونستـانـس إليه بـدون سرور ورغبـة) وعـاد إلى بيزنطـة، وعنـدما نـزل به المرض، حلـق شعر رأسـه، ولبس اللبـاس الأسود الـذي يرتديه [الرهبان](٣٨).

١٥ - وعندما جـاء أندرونيكوس إلى كليكية[١١٥٢]، ووجـد طوروس مقيماً في المصيصة، شرع بحصـارها ومعه الجيـش كله، وكان مـن الممكن له أن ينجـز بسرعة شيئـاً مفيداً، وأن يلقـي القبض على المتمـرد، بسهولـة كبيرة، لولا أنـه كرّس نفسه وأوقفهـا على اللهو واللعب في خيمتـه، وهكذا حبطـت شؤون الـرومـان وهوت، لأن طـوروس عنـدمـا تعرف إلى عجـز أندرونيكـوس، ولاحظ التـوافه التـي شغلته بـلا فائدة، انتظـر قدوم ليلـة ظلماء بدون قمر، فـرمى بأجزاء كبيرة من سور المصيصـة، وقاد بشكل غير متوقـع جميع قـواته، وهـاجم الرومـان الذيـن كانـوا غير مستعديـن تماماً، وألحق بهم هزيمـة شنعاء، وبعـد مضي وقت طويـل، علم أنـدرونيكوس بهذا، (لأنه كما ذكرت مارس اهمالاً كبيراً جـداً)، فما كان منه إلاّ أن امتطى ظهر حصـانه، وحمل وبيده رمحه، وأظهر أفعـالا رائعة وقدرة عظيمـة (لأنه

كـان كما ذكرت مـراراً [كذا] متفـوقاً على غيره بـالشجاعـة ولا ندّ لـه في ميدانها) غير أنـه عندمـا وجد نفسـه غير قادر على انجـاز أي شيء، انهزم بصعـوبة كبيرة، ووصـل إلى انطاكيـة، وفي أثناء ذلـك القتال، حـدث أن تعرض ثيـودور كونتـوستيفانـوس، الذي وصـل إلى مرتبـة سيباستيـو Se-bastoi ، لفقدان فـرسه برمية سهـم، وحرمانـه من رأسه بوسـاطة أحد المرتزقـة الرومان، الذي كان يكـن له عداوة قديمـة، لأن ثيودور كان —كما قيل— قـد طرد هـذا الشقي مـن البلاط الامبراطـوري منذ وقـت طويل انقضى بسبب سوء أخلاقه(٣٩).

١٦- لقد كـان هذا مـاوقع في كليكية في ذلـك الوقـت، وعندمـا عاد أنـدرونيكوس مـن انطاكيـة إلى بيزنطـة، لم تتأثـر مكانتـه في القصر، وعلى عكـس ماكـان متـوقعاً تمتـع بحقوق خطـابتـه السالفـة، وقـد قيل، بـأن الامبراطور قد استقبله على انفراد، ووبخه بمرارة، ووجه اللوم إليه لإهماله للشؤون العسكـرية، وأدان تهاونـه وتراخيـه غير المسوغ، وكـان —على كل حال— يبـدي نحوه في العلـن تشريفاً وتقـديراً فـوق الآخريـن، ويتحفه بأعطيـات فخمة، وبالفعـل قام فيما بعد بتعيينـه حاكماً لكل مـن نيسوس وبرانيتشيفـو Branitshevo ، وإضـافة إلى هـذا منحـه كـاستوريـــا Kastoria [١١٥٣].

هل كـان أندرونيكـوس يسعى جاهـداً للثورة منـذ البدايـة، وأن ذلك كان حبيسـاً في نفسه؟!، فهذا مـا لاأستطيع تأكيـده، ولكن انطلاقـاً من الساعـة التي وضحـت فيها نـواياه السيئـة سوف أحكـي: عندمـا احتل الامبراطور مانـويل العرش الامبراطوري، أصبح أندرونيكـوس مسؤولاً عن كيف يمكن للرومـان تطويرتسليحهم من أجل المستقبـل، وكانت العادة بالنسبة لهم مـن قبل التسلح بترسة مستديرة، وأن يحمـل معظمهم جعباً، وتقديـر مصير المعركـة بالقسي، وقد علمهـم حمل [ترس] واحـد يصل إلى أقـدامهم، كما وعلمهـم استخـدام الرمـاح الطـويلة، وممـارسـة الفروسيـة

ببراعة، راغباً في جعلهم ينتقلون من الاستعداد لحرب إلى حرب، وغالباً ماا عتاد على ممارسة الفروسية، وتطبيق مايشبه المعركة، وذلك بوضع تشكيلة أمام أخرى، والقيام بحملات برماح بدون أسنة، وأقاموا مناورات بالسلاح، وهكذا برع الرومان في حقبة قصيرة في الأسلحة الفرنسية والايطالية، ولم يعش الامبراطور نفسه نائياً عن هذه الصراعات والتدريبات، بل كان يصطف في الصفوف الأولى، يستخدم رمحاً لا قرين له في الطول والحجم، ثم إنه بالاضافة لما قيل ربطت راية ذات طول عظيم إلى رمحه هذا، ونظراً لأنها كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام أطلق عليها بالعادة اسم «أقدام ثمانية»، وقد قيل في الحقيقة انه عندما جاء ريموند إلى بيزنطة اندهش وظن أن في المسألة خدعة ما، علماً بأن ريموند هذا كان رجلاً يشبه هرقل الأسطوري، ولذلك اقترب من الامبراطور وسأل أن يرى الرمح نفسه والترس، ولدى حمله لهما، أدرك الحقيقة، وأعلن عن دهشته لما اكتشفه.

١٧- وعندما كان الامبراطور مرة مشغولاً في هذه الصراعات [الوهمية] في هرقلية السالفة في منطقة مسينا [بيلاغونيا —بيتولا الحالية](٤٠) أصيب جون بن أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل] مباشرة بجرح في إحدى عينيه، وذلك بطعنة من رمح ايطالي، وكان شاباً وسيماً ورشيقاً، وقام مانويل بترقيته إلى Protovestiarios ، ثم رفعه إلى رتبة الـ Protosebastoi (٤١)، وقيل أثر هذا كثيراً على نفسية أندرونيكوس، فعمل منذ ذلك الحين بلا انقطاع بالتآمر والنشاط الخياني، وعندما كان بعد ذلك في القيادة في كليكية، ربح إلى جانبه ملك فلسطين وسلطان الترك، وبعدما عهد إليه بحكم نيسوس وبرانيتشيفو، كما ذكرنا من قبل، تعهد في رسالة بعث بها إلى الملك الهنغاري، أنه إذا ما أسهم في مساعدته على تنفيذ نيته باغتصاب العرش، سيتنازل في حال نجاحه في أغراضه، عن كل ادعاء بكل من برانيتشيفو ونيسوس، وذلك اعترافاً

بفضله، واحتياطاً منه أنه إذا ما تمّ كشف هذه الأشياء، ولكي لايكون موضع شك في المستقبل، قرر التحول إلى اتجاه آخر، وبناء عليه أفشى إلى الامبراطور عن وجود مؤامرة خيانية يدبرها بعض الشخصيات القوية في هنغاريا، فهؤلاء اتصلوا به ليتملكوا علاقات صداقة معه، والذي قصده من ذلك أنه يمكن وضعهم تحت سلطته بكل سهولة، وكان الامبراطور —على كل حال— على دراية بما يدبر، فقد وصلت إلى يده الرسالة التي وافق فيها أندرونيكوس على التعهدات السالفة الذكر مع الحاكم الهنغاري، ورغب مانويل في امتحانه، فسمح له أن يفعل هذا دون تستر، وتصور أندرونيكوس مقتنعاً أن كلّ نوع من الريبة قد زال من حوله بالنسبة للمستقبل، فبعث برسل من عنده إلى كل من ملكي الهنغار والألمان ليجذبهما نحوه ليقدما حتى إلى تقديم العون له في اللحظة المناسبة.

وبعدما دبر أندرونيكوس هذا، عاد إلى بيزنطة [١١٥٤] متظاهراً بأنه أتم ابرام المعاهدة بين الرومان والهنغار، وظل الامبراطور متمنعاً عن الحاق الأذى به، ولاأدري هل كان سبب هذا حبه له وعنايته به (ذلك أنه كان معجباً به إلى أبعد الحدود، لأنه كان من العمر نفسه مثله، وتشارك معه في النشأة والتعليم، لابل في الحقيقة تدرب معه على السباق والمصارعة ورياضات أخرى كثيرة) أو كان في ذهنه شيئاً آخر.

عندما كان أيضاً مرة في هرقلية المسينية —والتي يدعوها الرومان الآن باسم بيلاغونيا متبعين بذلك إحدى اللغات المحلية— ذهب الامبراطور في إحدى رحلات الصيد الليلية، حسبما كانت عادته مراراً [١١٥٤]، وبعث به النبلاء المشرفون على تدريباته الجسدية ضد دب، وسلحوه بكل ماهو محتاج لمنازلة دب متوحش على الأقدام بوساطة الرمح، وروي أنه كان بالدرجة الأولى واضعاً على صدره درعه، وكان بالوقت نفسه شاكي السلاح تماماً، محترساً —كما قيل— ضد مؤامرة يدبرها اسحق

(أخوه) (٤٢) السيباتوكراتور، والـ Stratarchos الأكبر، علماً بأن اسحق لم ينجح بالنهاية في أكثر من الاستيلاء على الأختام الامبراطورية، التي كان الامبراطور يصدق بها عادة على المنح، هذا وهو لم يأخذهم بدون تسويغ، بل أخذهم لسبب، أنا مقبل على قصه:

بينما كان مقيماً في ميلانغيا في موضع اسمه ميتابول Metabole ، ألقيت أثناء إحدى الولائم خطب أمام الامبراطور، وفي الوقت الذي أجمع فيه الخطباء على الثناء على أفعال الامبراطور، آثر اسحق مدح أبيه وتفضيل أعماله على أعمال أخيه، وكان الامبراطور مسروراً لما قاله، فقد كان يعجبه أن يكون أدنى من أبيه، وفي الوقت الذي بدت فيه كلمة اسحق مملة بالنسبة للآخرين، لم يقف في خطابه عند هذا الحد، ولئن كان معقولاً التفوه بمثل هذه الأشياء اظهاراً للاخلاص للامبراطور الراحل، وهذا شيء، أعتقد أن كثيراً من الرجال يعرف كيف يقوم به، ثم إن تقديم المديح من قبل الأحياء إلى الذين ليسوا على قيد الحياة، هو بالتأكيد برهان على المشاعر الطيبة نحوهم، غير أن اسحق أضاف إلى هذا أشياء من قوارص الكلام، وتكلم بمشاعر بغيضة نحو الابن، مما أدى إلى نشوب شجار واحتدامه، واندفع أندرونيكوس هذا يشتم السيباتوكراتور، وكان على وشك حرمانه من رأسه، لولا أن الامبراطور مدّ ذراعه، وقام ابن خاله جون دوكاس بادخال السوط الذي يغمز به بالعادة فرسه، تحت السيف الهاوي، فأنقص بذلك من تأثير الضربة وأضعفها وجعلها تصيب حنك أندرونيكوس، وأنقذ بهذه الطريقة، وذكرنا أن الامبراطور مدّ يده فوق أندرونيكوس، ولذلك أصيب، ولم تكن اصابته في الحقيقة اصابة قاتلة، بل جرح قطع اللحم قليلاً، وخلف ندبة على رسغه طوال الحياة، وعلى هذا أطفئت هذه الخصومة التي اشتد أوارها، وأبعده الامبراطور، وطرده من حضرته لبضعة أيام، واستجابة منه لما حكم به جون، فرض عليه غرامة أدنى مما تحدد بالقانون(٤٣).

ودعونا الآن نعود إلى حيث كنا من سياق الخبر.

١٨- وبما أن أنـدرونيكوس كـان يعرف أن الامبراطـور ذاهب في حملـة صيد تستمر طـوال الليل، قام بتسليح عـدد كاف من أتباعـه الايزوريين، الذين تقـدم لهم أن حلفوا له أنهم سيقاتلـون إلى جانبه ضد كـل انسان، وبعدمـا أخذ أسرع فـرس بين خيولـه، ذهب معهـم إلى البقعة المحـددة، ومركـزهم هناك بعيـداً قليلاً في المكان الأكثـر كثافة في الأشجـار، وأوقف فرسـه، واقترب من خيمـة الامبراطور وهـو على ظهر بغـل، وهناك تـرجل، وتوجه يجري متقـدماً سيراً على الأقدام بكل هدوء وقد حمل مـدية في يده اليمنـى، وخشيـة منه أن يجري تعقبـه مـن قبـل أي انسان، فقـد ارتـدى معطفاً ايطالياً عوضاً عن معطفه العـادي، ولكن عندما لاحظ أنه شوهد، (لأن الذيـن كانـوا يحيطون بالامبراطـور النائم قد شهـروا سيوفهـم، وكان بينهم ابن اخت الامبراطور جون [الـ Protosebastos] فهو كان أول مـن رأى اقبال أنـدرونيكوس) وأدرك أنـدرونيكوس تمامـاً ذلك، فجلس فـوق الأرض، وتظاهـر بالقيام بـافراغ مـافي أحشائه، وبعـد وقت قصير انسحب، وبذلك أخفقت هذه المؤامرة هناك.

ولكن بعد مضي بعـض الوقت، جاء مـع مزيد من الايـزوريين، وأقبل في الليـل وهو شـاكي السـلاح لمهـاجمة الامبراطور، وعنـدما رفـع الخبر إلى الامبراطورة [بيرثا—ايرين] من قبل ألكسيوس، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الاستقرار في القصر (يـدعو الرومان هـذا المنصب Protostrator) (٤٤)، ذهب واحد مـن رجال الحرس مباشرة نحو الامبراطـور ليحذره من المؤامرة، ثـم أرسل اسحـق(٤٥) —وكان مـن أصل بـربري، ومحط الثقـة الخاصة والعنايـة من قبل الامبراطور— مع ثلاثمائة رجـل مسلح، لكن لم يكد اسحـق يصل إلى البقعـة حتى كـان الامبراطور قـد علم بمجـريات الأحداث، وبينما كـان البقية قلقين وحائريـن حول أنفسهم (لأنـه حدث أن كان معظمهـم ممتطين البغال) بين أن عليهـم تجنب الطـريق المبـاشر

الذي يقود إلى المعسكر والخيمة الامبراطورية، بل أشار بيده ليسيروا على الطريق غير العادي وغير المطروق، كما وتوجب عليهم عدم السير بشكل معلن، بل على شكل أفراد موزعين، وقال: «بهذه الصورة نبدو وكأننا بعض الأشخاص العائدين من جمع المؤن ومتوجهين نحو الخيم المرئية هناك»، وذهب الامبراطور على هذه الحالة غير هياب إلى خيمته، لكن حدث أن دباً متوحشاً قد اصطدم بجون السالف الذكر (البروتوسيباستوس) وعضه بأنيابه، وما ان علم الامبراطور بهذا حتى عاد نحوه، واتخذ الاجراءات المناسبة للعناية به، ثم غادر،وتصرف بذاته بشكل كريم كبير تجاه هذه القضية إلى حد أنه لم ينتقد أندرونيكوس حتى بنظرة، وتظاهر أندرونيكوس أنه لايعرف شيئاً عن المسألة، واعتنى عناية فائقة بالفرس الذي سلف وذكرته، وكان واضح التحامل بحديثه وآرائه ضد جون، وعندما سأله الامبراطور لماذا يفضل العناية بهذه الفرس قال: «من أجل انني عندما أحرم أشد أعدائي مرارة من رأسه، سوف أهرب عليه وأنجو»، وظهر بذلك وكأنه يشير إلى البروتوسيباستوس [جون]، وأعتقد [مانويل] أن الرجل كان مصاباً بعقله، ولهذا السبب فصله وأبعده عن حاشيته وأتباعه وأودعه السجن في القصر. [حوالي١١٥٥-١١٥٦](٤٦).

١٩- وهكذا أزيح من الطريق، لكن بالنسبة لملك الهنغار الذي لم يسمع شيئاً عما حلّ بأندرونيكوس، فقد قام بحشد قوى من التشيك، والساكسون ومن أمم أخرى، وتهيأ لحصار برانيتشيفو [١١٥٥]، وأعتقد أن الذي أثاره وحركه ماكان أندرونيكوس قد وعده به، ولدى سماع الامبراطور بذلك استطار دهشة تجاه ماسمعه، وتساءل حول مصداقية الهنغار، وعن السبب الذي حدا بهم إلى عدم مراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم مؤخراً، وتقرر لديه أن المسألة لابدّ وأن تثير بسرعتها الخوف، لهذا بادر على الفور بالذهاب نحو الدانوب، وإدراكاً منه أن أتباعه لن

يكونـوا مكافئين في القتال للجيش الهنغـاري (لأن القوات الرومانيـة كان كل منها باقيـاً في منطقته بسبب أن الدولة لم تواجه عدوانـاً من قبل أحد من أي اتجاه منذ زمن بعيد) قرر أن يعمل كما يلي: كان هناك مكاناً اسمه سميلس(٤٧) Smeles يمتلك خصـائص دفاعية معتبرة، لذلـك قرر الاستيلاء عليه، واتخاذه قاعدة لحملته ضد الهنغار.

ومن أجـل أن يقوم أهـل برانيتشيفـو بالوقـت نفسه بحـراسة مـدينتهم لصالحه، كتـب إليهم رسـالة أخبرهـم فيها أنـه سيصل إليهـم بعد وقـت قصير، وعهد بالرسـالة إلى واحد من جنوده، وأمره أن يـرمي بها إلى المدينة بعد ربطها على سهم، ونفـذ الجندي ماأمر به، غير أن الرميـة ذهبت أبعد مما هـو محتاج، ووقـع السهم في أيـدي الهنغار،فـاستولى عليهـم الانزعـاج ودبـت بين صفوفهـم الفوضـى، فـألقوا النـار في آلات دك الأسوار، وكـل ماكـانوا أعـدوه للحصار، وتـوجهوا نحـو نقطة عبـور الدانـوب، فوجـدوه فائضـاً (ذلك أن عـاصفة قد أوصلـت مياهـه إلى أعلى ارتفاع) فـأسرعوا بالتوجه نحو بلغراد.

وعرف الامبراطور بهذا، وعلـم أن بورج `Boric ، حاكم البـوسنة، وهي منطقة صربية(٤٨) —وكان قد التحـق بحلفاء الحكام الهنغار— قد عـاد إلى أراضيه، فـاختار الجزء الأعظـم شجـاعة بين الجيـش الذي كـان معه، وأرسلـه للاشتبـاك مع بـورج، وقاد هـذا الجيش بـاسيل، الـذي ورد ذكـره من قبـل، والـذي جاء مـن أسرة متواضعـة، لكـن الامبراطور عينـه Chartoularios (٤٩)، وذهـب الامبراطور مع بقيـة الجيش، وتبعه لكن على مهـل، وكان بـاسيل، على كـل حـال، ناسيـاً، كما أظن، لماذا أرسلـه الامبراطور وليتحارب مـع من، وفيما هو زاحف بـالسرعة القصوى، اقترب من الجيـش الهنغاري، واصطـدم بطلائعه، وردهـا إلى الخلف، ثـم انقض على وسـط القـوة الهنغـاريـة، وخطط لنيـل نجـاح كبير، وقـاتلهـم وهـم مذعـورين ورمى بهم في لجة الفوضـى، وهكذا حقق بسرعة شيئـاً لم يكن

مطلقاً في حسبانه.

ذلك أنـه خيّل للهنغار في البـداية أن الامبراطور، كـان هو الذي يـدير دفة هـذه المعركة، فهـربوا بشكل فوضـوي، وغرق كثير منهم في النهـر من الـذيـن تكاثـروا فـوق القـوارب أثنـاء جـوازه، لكنهم مـا ان لاحظـوا أن الامبراطور من خلفهـم ولم يصل بعد، وأن باسيل هو الـذي يقود الجيش، حتى تشجعـوا، واستداروا، وواقفوا الـرومان، وصحيـح أن الرومان كـانوا أقـل بكثير عدداً مـن الأعداء، مـع ذلك قـاوموهـم، وسقط العـديد مـن القتلى على الطرفين، واستمر الحال كذلك حتى بدأ البلغار —الذين كانوا بخـدمة ستيفـن بن غيـزا(٥٠)، وكـانوا حلفـاء مـع الرومـان يقاتلـون إلى جانبهم— بالفرار، وسقط أثناء المطـاردة على الطريق التي تلت عن قرب جميع الهنغـار الذين كانـوا مع ستيفن مـع كثير من الرومان، وأنقـذ آخرون حياتهم بالهرب وكان من بينهم القائد باسيل.

وعنـدما حملـت هذه الأخبـار إلى الامبراطـور، وذلك، بـالاضافـة إلى أن سكان بلغـراد كانـوا يفكرون بالثـورة والتخلص من الـرومان، شعـر بقلق عظيـم، فبعث بجـون كـانتـاكوزينـوس Kantakouzenos ليقوم أولاً بالاستقـرار بالمدينة التي اضطـربت بمشاعـر العصيان، وثانياً ليتـولى دفن أجساد القتلى الرومان، وليـدعو البقية من الفرار من حيـث كانوا منتشرين في المنطقة ومختبئين فيهـا، وكان مـانويـل على كل حـال غاضبـاً إلى أبعد الحدود بسبب ماحدث، وكان متحرقاً ومتشـوقاً للحاق بالهنغار، وعندما لم يـوافقه الـرومـان على هـذا قال: «لكـن أيها السـادة، إنـه عار عليّ، وأنـا أناضل في سبيل رفـاه الرومان، أن أتراجع أمام المصـائب»، وعندما سمع أن قوات الهنغار لم تكـن بعيدة عنه، تخلى عن المحاولة، وفي الـوقت نفسه كان كـانتازينوس قـد أكمل الأعمال التي أرسـل من أجلها، وعـاد، ومعه مربوط بـالسلاسل الناس من بلغـراد الذين كانـوا —كما قيل— يحاولون العصيـان، ثم تحرك مـانويـل من هنـاك وأمضـى الشتاء على مقـربة مـن

مدينة بيرهويا Berrhoia [ستارازاغورا Starazagora].

وفي الربيع[١١٥٦] عاد إلى هنغاريا، وذلك بعدما جمع قواتاً من كل اتجاه، ذلك أنه كان متشوقاً ومليئاً بالرغبة ليخترق البلاد إلى أقصى أجزائها، وفي هذا المقصد أقام معسكراً على شواطىء الدانوب مباشرة ومعه جميع قواته، ورست السفن التي جاءت من بيزنطة، هناك في أعداد كبيرة، وأقامت تنتظر القيام بحمل القوات المسلحة أثناء الجواز، ولدى ادراك الملك الهنغاري أن أموره كانت بالفعل في حالة صعبة، تحول نحو الرسل، فبعث إلى الامبراطور برجال كانوا ذوي مناصب عالية في بلاطه، ووعد باعادة الأسرى الرومان على الفور، وأنه من الآن فصاعداً سيطيعه في كل شيء يرغب به، وبدا الامبراطور في البداية ميالاً تماماً لرد الرسل ورفض عروض السلام، ثم تراجع نحو قبول مطالبهم، وأنهى السفارة بالاتفاق على الشروط المذكورة، وعلى هذا الأساس تمت إعادة جميع الأسرى الذين أخذوا —كما ذكرنا— في المعركة المتقدمة، ولقد أعيدوا إلى المعسكر الروماني، وأعيد معهم أيضاً الأسلحة والخيول وكل شيء كان من أسلاب المعركة، أما بالنسبة لما هلك من خيول وثيران، فلقد تمّ التعويض عنهم ببدائل حيوانية جمعت من السكان المحليين بين الهنغار، وبإنهاء الحرب على هذه الصورة، عادوا إلى الوطن.

ومن هذه اللحظة بدأت الحرب الايطالية وتحركت بشكل كبير، وهي الحرب التي كنتُ قد تحدثتُ عن بداياتها، وإذا ماعدنا قليلاً إلى الوراء ننتقل للحديث عنها.

الكتاب الرابع

١ – شغل فردريك —ابن أخي كونراد— منصب حكم الألمان، بعدما واجه كونراد منيته(١)، وكونراد هو الحاكم الألماني الذي سلف وذكرناه بما فيه الكفاية في روايتنا المتقدمة، وبما أن فردريك قدّر النبالة تقديراً عالياً، (بالنسبة للزواج كان أهم الأشياء لديه أصالة العروس، فالعروس الأصيلة كانت لديه مفضلة على كل شيء آخر) وقد سمع أن ماريا ابنة السيباتوكراتور اسحق [أخو مانويل] كانت متميزة بالمولد، ومتفوقة بالجمال، وقد بلغت سن الشباب في بيزنطة، فوقع على الفور في أسر الفتاة، وبعث بالرسل إلى الامبراطور، وطلب أن تخطب إليه لتكون زوجته، ووعد بالوفاء بكل ماوعد به عمه كونراد وهو معه، عندما كانا عائدين من فلسطين، ووعد كذلك بتقديم العون للرومان في الاستيلاء على ايطاليا، ولقد حملت سفارة فردريك هذه الشروط وطلبت الموافقة عليها(٢).

وقبل الامبراطور هذه العروض، وقام نفسه بارسال رسل إلى فردريك، وأمرهم بتأكيد الاتفاقات، وعندما جاء هؤلاء السفراء للحديث مع فردريك لاحظوا عدم وجود أي شيء صلب في نواياه، فعادوا دونما نجاح، وذلك بعدما أقنعوه بارسال سفارة ثانية إلى الامبراطور، وعندما رفضت أيضاً من قبل الامبراطور، أرسل الامبراطور رجالاً من الارستقراطية [١١٥٥] فيهم ميخائيل باليولوغوس، وجون دوكاس، وكلاهما قد وصل إلى مرتبة سيباستيو Sebastoi، وكان بينهم أيضاً الاسكندر صاحب [كونفيرسانو Conversano] الذي كان يحكم غرافينا Gravina فيما مضى، وهي مدينة ايطالية، لكن

عندما طرده روجر جاء ملتجئاً إلى الامبراطور(٣)، وعهد إليهم بكمية كبيرة من المال من الامبراطور عند سفرهم، وقد توجب عليهم أنهم إذا عرفوا أن فردريك مقيم في جنوب الألب أن يذهبوا جميعاً لمقابلته، أما إذا كان موجوداً في مكان أبعد، فعلى ميخائيل الذهاب إلى ايطاليا مع المال، وأن يذهب البقية إلى فردريك، وإذا ماعبر عن عدم اعتراف بالاتفاقية، فالمتوجب عليهم آنذاك أن يتقدموا بأنفسهم باعلان الادعاء بامتلاك ايطاليا،وكان هذا ماحدث بالفعل.

٢- كان لروجر [الثاني] طاغية صقلية ابن اخت اسمه [روبرت أوف] بازونفيل(٤) Bassonville ، وفي أثناء حياة روجر، كان يتولى ادارة حكومة ايطاليا [أي أبوليا]، وبعدما مات وانتقلت السلطة إلى ابنه وليم [الأول]، أنزل بازونفيل إلى مرتبة معاون لحاكم ايطاليا، حيث تولى رجل آخر حكومة ايطاليا، ورفض بازونفيل تحمل هذه الاهانة، فعزم على الثورة، وبناء عليه كتب إلى فردريك، ووعده بوضع ايطاليا كلها مع صقلية بين يديه، وفي الوقت الذي كان فيه فردريك أسير التردد والمصاعب عاد رسل بازونفيل مخفقين، وفيما هم على الطريق صدف أن التقوا بالاسكندر، وكان الاسكندر بدوره عائداً من بلاط فردريك بعد اخفاقه في تحقيق أي شيء كان قد قصد ذلك البلاط من أجله، وكان أثناء عودته من هناك برفقته [جون] دوكاس، وعندما تحدث رسل بازونفيل مع الاسكندر، وعلم الاسكندر السبب الذي توجهوا من أجله إلى بلاط فردريك، توجه إليهم بالخطاب يقول: «أيها الأصدقاء الأعزاء، على مقربة منا شخص يمكنه منح النجاح لسفارتكم»، وعندما رغبوا إليه في معرفة من هو، أجابهم قائلاً: «امبراطور الرومان»، وحدثهم عن كل شيء بانتظام، وأضاف بأن باليولوغوس، الذي كان عضواً من المجلس الروماني، والذي تمت [ترقيته](٥) إلى مرتبة الـ Sebastoi، كان موجوداً ومعه مبلغ كبير من المال، وقد جاء إلى هاهنا لاخضاع

ايطاليا لصالح الامبراطور.

وعندما سمع رسل بازونفيل هذا، أوصلوا إليه هذه الحقائق برسالة، فأبدى رغبته في مناقشة المسائل مع الرومان في بيسكارا Pescara ، ولدى اطلاع باليولوغوس على هذه المستجدات، قام بدون تأخير بالابحار إلى بيسكارا ومعه عشرة سفن، واستولى وهو في طريقه على فيستي Vies-ti ، وآلت ملكية هذه المدينة إلى الامبراطور، وهنا بدا لبازونفيل أنه من المفيد اللقاء معه في فيستي، لذلك أبحر عائداً إليها، فالتقيا هناك، وبعدما تبادلا الأيمان حول المسألة قيد البحث بينهما، انضم وقتها إلى عمليه الصراع(٦).

وكان دوكاس قد جمع قوة، قادها إلى خصار قلعة كانت حسنة التحصين، يتولى قيادتها ايطالي اسمه براونتزوس Prountzos، وعندما هاجمها الرومان، دفعوا بالأعداء من وراء الأسوار، وانقضوا على الفارين، وهرب البقية إلى داخل الحصن، لكن عندما أخذ الرومان بإلقاء النار في أماكن السكنى، وبنهب الممتلكات والمقتنيات في البيوت، شرع الناس بالنزول وهم يهتفون بحياة الامبراطور وينادون به سيداً لهم، وهكذا بات الرومان متملكين لها، وعندما وصلوا إلى مدينة تحمل اسم القديس المبجل هناك، وهو القديس(٧) Flaviano ، اندفع السكان جميعاً عبر الحقول، يسألون ويرجون عدم تعرضهم للأذى، أو أي ضرر من الجنود الرومان، ووافقوا على أن يدينوا بالطاعة إلى الامبراطور وأن يفعلوا كل شيء يرغب به الرومان، واستجاب لهم القائد الروماني بكل لطف، ثم زحف من هناك وكأنه يسير وسط بلد صديق، وفيما هو على نية الانطلاق من هناك، جاء وليم أخو بازونفيل، وكان صديقاً للرومان منذ القديم، جاء يحمل رسالة من أخيه يحث فيها دوكاس أن يطمئن نحو المستقبل، لأن المنطقة الواقعة آنذاك أمامه باتت تدين بالطاعة له نفسه(٨).

٣- وكما ذكرنا من قبل بعدما استولى باليولوغوس على فيستي بموجب معاهدة، تابع زحفه نحو تراني Trani ، وعندما رأى شعب تراني الجيش الروماني، أرسلوا رسلاً إلى القائد الروماني وطلبوا منه المغادرة، ذلك أنهم كانوا لايرغبون في تسليم المدينة له، وأعلموه انه من غير الممكن له الاستيلاء على تراني إذا لم يحتل باري Bari أولاً، وبناءً عليه غادر من هناك مصطحباً معه ليس من أقل من عشرة سفن، وقصد باري، وذلك على الرغم من معارضة جنوده، (ذلك أنه كان بارعاً جداً، ولم يكن أدنى من أي انسان في الخبرة العسكرية) فهو كان مدركاً تماماً أنه لم يكن من السهل الاستيلاء على تراني، ولذلك رأى عدم اضاعة الوقت فيما لايفيد.

ومع هذا بدت باري مدينة مستعصية على الفتح، فقد أحاطت بها أسوار عملاقة، كما كان فيها جيشاً من البرابرة، وقف بعضهم بأسلحتهم فوق ووراء الدفاعات واندفع البقية، وكانوا حشداً لايحصى، من الأبواب نحوه، وتألفوا من المشاة والفرسان، في كامل السلاح، وكان البحر هائجاً بفعل عاصفة عنيفة هددت بجرف السفن، ومع أن أموره كانت محاطه بالمصاعب من كل اتجاه، هو لم يفقد الأمل، وبعدما تدبر أمره ونجا من الأمواج خلال عدة أيام، أبدى رغبته بانشاب القتال، ولأن الأمور لم تتيسر له كما كان يأمل فقد أرغم على التراجع فوراً (ذلك أن بعض الأعداء رماه بالحجارة والأخشاب وأي شيء كان متوفراً من فوق الأسوار، وغطى آخرون، كانوا على الأرض، السماء بزخات من النشاب) وابتعد عن مدى رماياتهم، وجرب أن يتخاطب معهم بلغة الكلام، فأخبرهم عن الأشياء الجيدة التي سيصنعها لهم على الفور إذا ماقاموا بتقديم مدينتهم إلى الامبراطور العظيم بدون قتال، وضمن لهم آمالاً عظيمة بالنسبة للمستقبل، وعندما سمع الذين كانوا بالمدينة هذا، اندفع بعضهم نحوه على ظهور خيولهم، وبعضهم على متن الطوافات، ودعوه

إلى الاقتراب من المدينـة مشيرين إلى الأبـواب المفتوحـة، وخشية منـه أن تكـون المسـألـة —كما ثبـت— خدعـة، لجأ أولاً إلى الاختبـار، فـأمـر لهذا الغرض إحـدى السفن التي كـانت معـه إن تقترب من الشاطـىء وكأنها تريد الرسو، لكن مـا إن رآها الأعداء تقترب حتى صعد حوالي الخمسمائة منهم فوق الأسوار، ووقفوا وراء الدفاعات.

ولاحظ هـذا الاكسندر [أوف كـوفير سانـو]، وخشية منـه أن يلجأوا إلى السلاح ، خـرج ذهباً من حـافظته، واعتلى بسرعـة ظهر السفينة، عـارضاً الذهب أمـام الذين كانوا في المدينـة، وصاح بأعلى صوتـه: «على كل من يـريد الثـروة والحرية، أن يقـدم إلى هنا ليتمتـع بهم فوراً» ومـا كاد ينتهـي كلامه حتى اندفع عدد كبير منهم نحوه من داخل المدينة، والتحقوا فوراً بجانب الامبراطور، وفور استقبال القائد الـروماني واقسامهم يمين الطاعة، قام بـدون تردد بقيـادة الجيش ضـد المدينة، وعلى هـذا مامـن شيء يخدع الناس أكثر من جاذبيـة الذهب، وعنـدما عـرف بقية السكان مـاحدث، وكانـوا غير راضين عما وقع، بادروا مسرعين نحـو القلعة، ومـا ان أصبحوا وراء أسوارها، حتى شرعوا بالقتـال في سبيل [ممتلكاتهم]، وكان ما حدث بـالفعل شيئـاً يبعـث على الدهشـة، فمثير أن تـرى الناس الـذيـن كانـوا متحديـن منذ قليـل بالأصـل والهدف ينقسمون اليـوم بوسـاطة الـذهب، وينفصلـون عن بعضهـم كما وكـأن بينهم أسـوار، ومشاعـر كـراهية نحـو بعضهم بعضاً. على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك.

وكان هنـاك قلعة أخـرى عبر المدينة، قـام في داخلها كنيسـة القديـس نيقولا، وفكر القـائد بالاستيلاء عليها، فعمل كما يلي: وشح رجـالاً بالأردية السوداء، وأمـرهـم بـالنهوض عند الفجـر والذهـاب إلى الكنيسة، وعنـدما صاروا في داخلها أشهروا سيوفهم وقاتلـوا، وبذلك اقتربوا من القلعة عند الفجـر، وقرعـوا على البـاب، وافترض الذيـن كـانوا بـالـداخل أنهم مـن الرهبان، فرفعـوا مغاليق الأبواب، وسمحوا لهم بالـدخول، وبهذه الطريقة

باتت القلعة بأيدي الرومان.

وصحيح أن هذه القلعة قد احتلت، فإن الذين كانوا بالقلعة الأخرى ظلوا صامدين، لقد وقفوا حتى اليوم السابع يواجه أحدهم الآخر، لكن عندما وصل بازونفيل إلى هناك على رأس جيش كبير جداً، سلموا القلعة إلى الرومان، وحدث إثر هذا أنهم لكراهيتهم نحو روجر ولحقدهم عليه تولوا هدم القلعة حتى الأساسات، وتخلصوا منها، مع أن القائد عارض ذلك بشدة، وعرض شراءها مقابل مبلغ كبير من المال، ومرد كراهيتهم لروجر، هو أنه تصرف نحوهم بشكل غير انساني، وذلك وفق عادة كل طاغية.

٤- على هذه الصورة جرت الأمور في باري، وبعدما استحوذ باليولوغوس عليها، عاد مبحراً نحو تراني، فاستولى عليها صلحاً، ثم استولى على جيوفينازو Giovinazzo ، وهي مدينة مشهورة وكان هناك واحداً اسمه رتشارد [صاحب أندريا Andria] وكان رجلاً مجرماً متوحشاً، كان يذبح الناس كذبح قرابين الضحايا، فإذا ما اختلف مع انسان حول أي شيء تافه، كان إما أن يأمر بتوسيطه، أو بحرمانه من يديه أو قدميه، وكانت مثل هذه العقوبات عادية جداً بالنسبة له، ولقد كان آمراً لقلعة أندريا، وعندما سمع أن الرومان يريدون الاستيلاء على جيوفينازو، حذرهم أولاً من فعل ذلك، ثم هددهم بأنه سيمنعهم من القيام بذلك، ولكن كما هو معلوم تجاهلوا تهديداته، واستولوا صلحاً على جيوفينازو، وخططوا للزحف على أماكن أخرى، ولذلك اتحد مع عدد آخر من الكونتات، ومع [أثكلتين Asclettin] حاجب وليم، الذي يقال له بالاغريقية لوغوثيت Logothete ، وقد ذهب معهم إلى تراني لاسترداد هذه المدينة بدون مقاومة، ولحق به جيش، تألف من ألفين من الفرسان، وحشد هائل من الرجّالة المسلحين.

وكـان الرومـان الـذين خلفـوا في داخـل تراني عـددهـم قليل وقـوتهم صغيرة جداً، ولـذلك كانوا مـرعوبين كثيراً، خوفاً منهـم على المدينة وعلى أمورهم، ولهذا بـادروا مسرعين إلى استدعاء دوكاس، موضحين له بـرسالة القدر الذي حاق بهم، وعندما تسلم الـرسالة تهيأ، وانطلق في اليوم نفسه، وأخذ الطريـق إلى تراني، ولدى وصوله إلى بقعـة اسمها روفو (٩) Ruvo، تقدم الناس الـذين كانوا هناك نحـوه، وقاموا بحث الجيـش الروماني على تملك مدينتهم بدون قتال، ورأى دوكـاس —على كل حال— أن التوقف هنـاك عديـم الفائدة، وخشي مـن أن ذلك سيسمـح لرتشـارد بالاخـلال بموازين القتال بدون معيق، ولذلـك تجاوز المدينة مؤقتاً، ومرّ دون وقوف، طالما أنـه سيكون بـإمكانـه الاستيلاء عليها مـؤخراً في الـوقت المنـاسب، وبادر ضد رتشارد بأقصى سرعة ممكنة.

وكان على الطريق مدينة ساحلية اسمها بارليتا Barletta، صدف أن كان القنصـل بها، وفيما دوكاس يتقدم نحوهـا، كان هناك قوة مـن جيش [أسكلتـون] قوامهـا ثلاثمائة فـارس مع فـرقـة من الـرجالـة تقوم بـأعمال الدوريـة، واصطدم دوكـاس فجأة بهذه القوة، فقـام بدون أن يفقـد وعيه تجاه الحادثة غير المتـوقعة، بكـل سرعة بتعبئـة رجالـه وصفهم على شكـل كتلة صلبة، وانقض عليهـم بهجوم فعّال، وبعدما قاومـوا لبعض الوقت، لحقت بهم الهزيمـة، وأنا غير قادر على وصف كيـف قاتل الرومـان هناك، وأظهركـل واحد منهـم أفاعيـل شجاعـة، فقد حمل دوكـاس وبيده رمحه، فطـرح أرضاً —كما قيـل— بطعنة واحـدة ثـلاثين رجلاً منهـم، وبعدمـا فقـدوا كثيراً من رجـالهم، هـربوا حتـى غـدوا وراء أبـواب بلدتهم، وقـام الرومـان الذيـن طاردوهـم، بالعـودة إلى المعسكر، وكـان النهار قـد مضى أكثره، وكانوا لم يعانـوا من أية خسائر باستثناء واحد من المرتـزقة الخيالة، وصحيح أنهم عسكروا هنـاك لإمضاء الليل، فقد ركبوا الطـريق مجدداً مع انبلاج الصباح.

وعندما علم رتشارد بالذي حدث، هرب من هناك بأقصى سرعة ممكنة، خشية أن يطوقه الرومان، ويحصل له كسر لايمكن جبره، وما ان وصل إلى أندريا، حتى مكث هناك، وبعدما أنقذ دوكاس الجيش الذي كان مع باليولوغوس، قام بالزحف خلف رتشارد، مع أن القوات التي كانت من حوله متفوقة على قوات الرومان بأعداد كبيرة، فقد كان الرومان ستمائة بلازيادة، وذلك فيما عدا الرجالة، الذين كانوا هم أنفسهم أدنى كثيراً من الأعداد الهائلة لقوى الرجالة التي كانت مع رتشارد. فقد تبع رتشارد ألف وثمانمائة من الفرسان مع جيش لايحصى عدداً من الرجالة.

وعندما سمع رتشارد أن الرومان يقتربون، قام بنفسه بقيادة جيشه والتقدم نحوهم، ولدى اقترابهم من بعضهم بعضاً، انقسم الرومان إلى ثلاثة أقسام، تعبأوا كما يلي:

وقف الكومان وحملة الأقواس من الرجالة في الأمام بصف متلاحم، ووقف دوكاس مع نصف الخيالة، وخاصة جماعة من الكومان في الساقة، بينما احتل بازونفيل مع الكونتات الآخرين وبقية الفرسان الأرض المتوسطة، وكان رتشارد غاضباً جداً، وغير قادر على تأدية أية براعة لها علاقة بالعلم الحربي، لذلك حمل والفرسان من حوله حتى وصل إلى مركز الجيش الروماني نفسه، وبذلك عطل حركة القتال وكاد يوقفها، ذلك أن الصف الأمامي للجيش الروماني الذي تألف من النبالة لم يستطع الصمود أمامه حتى ولا لمدة قصيرة، ثم مارس الضغط على بازونفيل، فأرغمه على التراجع نحو الخلف، ثم قاتل بعد ذلك الذين كانوا حول دوكاس، وهنا تطور قتال عنيد، وقتل عدد كبير ممن مع رتشارد، ولكن بما أنهم سقطوا وسط الضغط العظيم لم يعرف بذلك الجيش، وكان القتال عنيفاً جداً، وما كنت تسمع سوى أصوات قعقعة السلاح والضربات العنيفة على الترسة، وتطايرت أعداد لاتحصى من

النشاب في كل مكان، وأحاقت المخاطر بكل مكان، حتى حملت قوات رتشارد حملة عنيفة وضغطت بشدة فأرغمت الرومان على ادارة ظهورهم، فدوكاس نفسه، سقط أرضاً بفعل طعنة رمح، وكاد أن يقع بالأسر.

ولكن العناية الربانية تقود وتوجه جميع الشؤون البشرية وفق ماتريد، فصحيح أن الرومان وصلوا إلى هذه الحالة من سوء الحظ، غير أنهم نجحوا في النهاية، ذلك أن دوكاس نجا فراراً إلى واحد من الأسوار المقامة من الحجارة، بدون ملاط أو إكساء، فلقد كان من النوع الذي يقف خارج أبواب المدينة ليكون بمثابة علامة فارقة للمروج، ولقد كان آمناً هناك، ثم جاء الرجالة الرومان إلى عونه، وقذفوا بالحجارة على الذين كانوا من حول رتشارد، وهكذا تجمع هناك معاً كثير من الذين فروا من قبل، ولدى ملاحظة رتشارد لذلك، اندفع نحوهم مع ستة وثلاثين فارساً، وقام واحد من أهل تراني، وكان صاحب مرتبة بين رجال الدين، بالوقوف فوق مكان مرتفع، وقذف بكمية كبيرة من الحجارة نحوه، فأصابه على إحدى ركبتيه، فألقاه أرضاً، وفيما هو منبطح على الأرض يئن من الألم، قام رجل الدين هذا بتوجيه قذيفة نحو رقبته، ولشعور رتشارد بالهزيمة بدأ يستعطف بحرارة ليرحم ويبقى حياً، لكن رجل الدين ألقاه على ظهره، وطعن بمدية في بطنه، فشقها وأخرج منها أحشاؤه، مثل اخراج الطعام من الفم، وقدم رتشارد بذلك مثالاً على وحشيته تجاه الأسرى التعساء، ثم خرج أهل أندريا وجاؤوا ومعهم القوات المسلحة إلى الرومان وتصالحوا معهم، وعاد الرومان، الذين كانوا لايتوقعون النجاة من المخاطر، إلى باري، تخفق فوق رؤوسهم علامات النصر، فوجدوا هناك كميات وافرة من المؤن، فنقهوا فيها واستراحوا مما عانوه من المتاعب العسكرية.

٥- وبعد مضي بعض الوقت، بدا مفيداً قسمة الجيش إلى شطرين، شطر يبقى هناك مع واحد من القادة، ويمضي القسم الآخر مع

القـائدالآخر ليقـوم بـالاغارة على القـلاع المجـاورة، ووقـع اختيار القتـال الخارجي على دوكـاس، وكان هنـاك مدينـة، يحكمها رجـل عالي المكـانة اسمـه كاسترو، فقـام دوكـاس بتطـويقها وحصـارهـا بكـل نشاط، لكنـه مالبـث أن لاحظ أنه كـان يحاول المستحيل، وذلـك بسبب أنه قـام بعدة محاولات متكـررة لـلاستيـلاء على الأسـوار (فتبرهن لـديـه انعـدام الأمـل بخرقها بالحجارة مع أنها ضربت مـراراً بآلات الحصار)، فانطلق من هناك ساعـة حلول الظـلام، وبادر مسرعاً نحـو مونـوبولي Monopoli، عازماً على مهاجمتهـا بشكل مفاجـىء، وصدف آنذاك أن كـان شعب مونـوبولي مـرسلين جيشـاً ضـد الـرومـان، ليكتشـف أولاً مـاذا كـان يجري هنـاك، وليصطدم بهم حيثما يكون ذلـك ممكناً، وصدف أن التقى رجال مـونوبولي بطلائع الجيش الرومـاني، ووقفوا وجهاً لوجه معهم، وعنـدما وصلت هذه المعلومـات إلى الذين كـانوا في الساقـة، هرب غـالبية الفرسـان، وركضوا نحو المدينة، وحدثوا أهل المدينة وأخبروهـم، بأن الجيش الروماني قد حان وصولـه، ووقع كثير مـن الرجالـة بالأسر، واضطـربت المدينـة لسماع هذا، ومع هذا قرر أهلها مقاومة الأعداء وهـم على الحالة التي كانوا فيها، وبناءً عليه تقدم مايـزيد على مائتي فارس ومعهم أكثر مـن ألف من المشاة، في حين لحق بهم حشد لايحصى عدده من حملة المقاليع، ووقفوا أمام المدينة.

وعندمـا كان الوقـت مايزال نهاراً، تـوقف دوكاس، واحتفـظ لنفسه بما يزيد على نصف الجنـود، وأرسل البقية للقيام بنهب المناطـق المجاورة، ثم استأنف زحفه بعـدما قسم الجيش إلى نصفين، غير أنه بالـواقع لم يشتبك مع رجال مونـوبولي مباشرة، بل تظاهر أنه يقوم بـالتجسس حول الأسوار، ثم تقدم قليلاً، مظهراً أنه يقوم بتفحص المدينـة بالتفاصيل، ثم قام بدون سابق انذار، فأمر ثلاثين من رجـاله بالانقضاض على الأعداء، واندفع هو إلى وسطهم، وأذهلتهم المفـاجأة، فأداروا ظهورهم هـاربين، وطاردهم، ولم يتخـل عن ذلـك حتى وصـل خلفهم حتـى أبواب المدينـة، وقام بطعـن

أحدهم بنفسه فألقاه أرضاً داخل الأبـواب، وبعدما قام باسترداد من كان وقـع من أصحـابه بـالأسر، غادر المكـان، وفي تلـك الأثناء كـانت القـوة الأخرى قـد قامت بالطـواف في المنطقة وعادت ومعها الأسـلاب، ثم انها عادت أيضاً مع دوكاس إلى باري.

وأثناء حدوث هذه الأشياء، جاء رسـل إلى القائدين الرومانيين مرسلين مـن قبل أسقـف روما، الـذي اعتاد الـلاتين على منحه لقـب بابـا(١٠)، ورغبـت السفـارة أن يـذهبا كـلاهما أو واحـد منهما إلى رومـا للبحـث في مسائل هـامة مـع الأسقف، ذلـك أنهما قالا بأنـه قد حشـد ماأمكنـه من قـوات وكـان يستعد للقتـال إلى جـانـب الـرومان، واستجـاب القـائدان الرومانيان لهذا المطلـب برسالة، كما أرسلا رجلاً اسمـه باسيلكوس، وكان من موظفـي ديوان الامبراطور، لكنه كـان آنذاك مرافقاً لهما، وأعطيـاه ذهباً لاستئجار فرسان من هناك.

وقام القـائدان الرومانيـان بالإعداد للحرب ضـد مونوبـولي، وحيث أن سكـان مونـوبـولي لم يمتلكوا الشجـاعـة للتصدي للـرومـان، فقد طلبـوا منحهم وقتاً محدداً، إذا لم يـأتهم خلاله أية مساعدة مـن أي مكان، فإنهم سيسلمون المدينة طواعية وبدون قتال، وتـمّ هذا، وقامت هدنة لمدة شهر منحت إلى أهالي مونوبولي.

٦- وفيما الـرومـان منشغلين بهذه المسـائل، كانـت القـوات الصقليـة تقاتل بـازونفيل، فقام هذا باستدعـاء القائدين الرومانيين برسـالة وطلب منهما القـدوم إلى مساعـدتـه بأقصـى سرعة ممكنـة، وعنـدما لم يلتفتـا إلى طلباته، كرر مـراسلته لهما، وتساءل عن المسألة نفسهـا، ورد عليه القائدان الرومـانيان في البدايـة أنهما لم يقدما إلى هناك مـن عند الامبراطور ليقـاتلا لصالـح بازونفيل (ثـم ان المعاهدة بينهما وبين بـازونفيل ليس فيهـا هذا) بل قدما بشكل محدد للاستيلاء على ايطـاليا لصالـح الامبراطور، وأن ينالا

المساعـدة منه، لقد أجـابا بازونفيل على هـذه الصورة، غير أنه لم يتـوقف عن حثهما قـائلاً بأنـه مطوق بالمخـاطر، وبعـد تقدير للمسـألة ذهبـا من باري إلى مـدينة بيتيتـو Bitetto ، وكـان الطريـق يحتاج يـوماً واحـــداً للـرجل المسلـح، هـذا وكانـت قد راجـت شـائعة تقـول قبـل هذا بـأن بازونفيل قد خطط لخيانة الرومان لصـالح رتشارد صاحب أندريا، عندما كان مايـزال حياً، ولهذا السبب قرر الـرومان أنه كان مـن الضروري ربطه بمزيد من الأيمان، وعندما تمّ تنفيذ هذا، عاملوه بدون المزيد من الريبة.

وأرسل الامبراطور في الوقت نفسه اسطولاً إلى ايطـاليا، مشحوناً بفرسان من الـلان(١١)، والفرنجة والرومـان، وكان ايانـاكيوس Ioannakios الذي كنيته كريتوبلس Kritoples يقود اللان، أما الفـرنسيون فكان يقودهم الاسكندر [أوف كونفيرسانو Conversano] وهو لـومباردي [أي أبـولي] المولد، لكنـه كان مـوقفـاً نفسه تمامـاً على خدمـة الـرومان وشـؤون الامبراطـور، وكان لجون الـذي كنيتـه أنجيلوس القيـادة العامة(١٢)، وعندما سمع قائد قـوات وليم بهذا، وبأن جيشاً رومانياً كان يقترب منه، وهـو يقوم بحصـار أندريا وبنهـب الأراضي هناك، ذهـب مع جيشه كله إلى مدينـة مولفيتا Molfetta ، التي كانت حصينة بما فيه الكفاية.

وعزم الـرومان على اخضاع بـوسكو Bosco ، وهي قلعة كـــانت تخضع إلى رتشارد المتـوفى، وهي أقوى من أي قلعة أخـرى، ومن الصعب جداً الـوصول إليهـا، وكان هنـاك معرضـاً هائلاً فيـه كل نـوع من أنـواع الـوحوش النـادرة، لكل منهـا مقـرّ خاص بـه، وذلك بهدف تيسر الصيـد بالنسبة له كلما أراد، وقـاد دوكاس عدداً قليلاً من رجالـه وجاء ليتفحص المكان، وعندما اقترب منه، تشجع الذيـن كانوا في داخله، وتقدموا حيث انقضوا على وسـط الرومـان، فأوقعـوا فيهم أربعـة قتلى، غير أن اثنان مـن رجـالهم سقطا، وتحول القتـال إلى اشتبـاك بالأيـدي، وبعـدما اجتمعـت

القوات الرومانية، تمكنت من دفع الأعداء إلى داخل موقعهم، وعبّر كثير من الرومان مع اثنين من اللان في هذا القتال عن شجاعة ونبل، وانتهى القتال هناك، وقام دوكاس، عندما جاءت بقية القوات باقامة معسكر أمضى الليل فيه، حيث قام في الفجر بتعبئة رجاله، وزحف بشكل نظامي، وفيما الهجوم مستمر، قام الرومان بازعاج الذين كانوا في الداخل بالنشاب والمقذوفات من آلات الحرب، ودافع الآخرون عن أنفسهم بفعالية ونشاط من وراء الشرافات.

وحدث آنذاك حدث جدير بالذكر، فقد رأى اثنان من حرس دوكاس القلعة وقد تضررت من رميها بالحجارة وتهدمت، ومع ذلك لم تستسلم، لذلك سترا رأسيهما بالترسة، وحمل كل منهما بيده الأخرى مشعلاً وقصدا الأبواب لاحراقها، ولكن بما أن المواد كانت غير قابلة للاحتراق، فقد تراجعا مخفقين، وتجنبا —خلافاً لجميع التوقعات— الأشياء التي قذفت نحوهما من فوق الأسوار مثل زخات المطر. وبعدما استمرت المعركة حتى غياب الشمس، تراجع الرومان إلى المعسكر، وذلك لأنهم لم يحققوا شيئاً.

وعلم قادة وليم بهذا، فعقدوا اجتماعاً للتداول حول امكانية القتال ضد الرومان، وكان رأيهم أن يجمعوا قواتهم، ويزحفوا على المعسكر الروماني، وعلم الرومان بذلك فاستعدوا للتصدي لهم، وكان تسعة من القادة يتولون قيادة الايطاليين، وكان الحاجب هو القائد العام، وكان جيشهم كامل التسليح، وكانوا يمتطون خيولاً قوية، ويحملون رماحاً طويلة، ولدى وقوف الرومان على هذه الأشياء، استولى عليهم الرعب، وتساءلوا كيف يمكنهم بجيش صغير القتال ضد قوة جيدة التسليح وهي لاتعدّ ولاتحصى، ومع هذا وقفوا مصطفين على شكل جماعات، في حين اقترح عليهم القادة أشياء كثيرة أوصلتهم إلى الشجاعة، ووقف الجيشان لوهلة دون مباشرة القتال، ولكن عندما صدحت الأبواق من الجانبين، وأعطيت شارة الهجوم، انقض الفريقان على بعضهما، وأخذا

يقاتلان يداً بيد، وكان بإمكانك أن تقول إنه لا أشعة الشمس ولاضوء النهار كانا مشاهدين، فقد امتدت سحابة من الغبار فوق كل شيء وصعدت نحو عنان السماء، وارتفعت أصوات الضربات وتصاعدت رنة السلاح.

وظل القتال حتى منتصف النهار متكافئاً، لكن الطليان شقوا بعد ذلك طريقهم وذلك بفضل تفوقهم العددي، وضغطوا على الذين كانوا حول دوكاس، ولاحظ دوكاس بسرعة المشكلة، فاندفع إلى وسط تشكيلات العدو، وهو يطعن فيه على الجانبين، وتبعه الرومان بالهجوم وهم يصرخون، وهكذا اشتبكت القوات ثانية، واحتدم القتال واشتد كثيراً حتى تمكن الرومان بشجاعتهم من دفع العدو إلى الخلف، وفقد العدو أثناء الفرار مالايقل عن ثلاثمائة من فرسانه، وحشد لايحصى عدده من المشاة، غيرأن البقية نجوا فراراً، وبعدما نجح الرومان في هذا، تحولوا عائدين نحو قلعة بوسكو، وبعدما تغلبوا عليها، وجدوا فيها كميات وافرة من المؤن، وبعدما زودوا أنفسهم بمختلف الأنواع الجيدة، عادوا إلى باري.

٧-وبعد مدة وجيزة صاروا متملكين لـ «مونتبيلوسو Montepelo-so» وهي مدينة واسعة الشهرة، واستولوا على «غرافينا Gravina»، التي كان الاسكندر صاحب كونفيرسانو يحكمها من قبل، كما واستولوا على عدد كبيرآخر من البلدات والحصون، ويضاف إلى هذا أنهم استحوذوا على خمسين قرية، وهكذا ازدهرت شؤون الامبراطور من كل جانب بشكل عظيم، لكن قواته كانت تتجنب وليم وتبتعد عنه باستمرار، وكان هو في الحقيقة، في وضع صعب، وراجت في ايطاليا كلها أقاويل تعلن عن أن الرومان لايقهرون، ثم إن الايطاليين لاحظوا أن الرومان، الذين لم يعانوا من فنون القتال لديهم منذ حقبة طويلة من الزمن، كانوا ينتزعون كل مايمتلكون تقريباً ويحملون معهم جميع مقتنياتهم.

كانت الشؤون الرومانية تتحرك حتى الساعة مع التيار، لكن منذ ذلك الحين بدأ القدر يحسد بعض الشيء حسن حظهم، وحل مرض على باليولوغوس، ألهب الرجل بحمى حارقة، ولم يتوقف عن امتصاص نضارته الطبيعية وقواه، حتى تم ارغامه على أن يصبح أولاً بلا شعر(١٣)، ثم بعد مضي وقت حمله هذا المرض بعيداً عن بني البشر، وقبل وفاته لبس شعراً مستعاراً، وبدا وكأنه يتحسن، فقام بتوجيه دوكاس للهجوم على بقية المدن التي لم تكن قد دخلت في حوزة الرومان، وبعد هذا بثلاثة أيام، ساء وضعه كثيراً، وعندما علم دوكاس بذلك عاد إلى باري، فوجده قد مات، فأمر بوضع جسده داخل تابوت، وذلك بعدما جهزه وفقاً لما سمحت به العادات المسيحية والطقوس المتبعة، وإثر هذا قام بترتيب الأمور بشكل جيد في باري، وبذلك بات صاحب السلطة، والمشرف على القضايا بالنسبة للمستقبل.

٨- وهكذا فارق باليولوغوس الحياة، وكان رجلاً فطناً وبارعاً جداً في التعامل مع المسائل العسكرية، وقاد دوكاس جيشه وتوجه مباشرة إلى برانديزي، فقد كان متشوقاً بشكل خاص لأن يلحق بازونفيل به، ذلك أنه كان قد انفصل وابتعد للسبب التالي:

فهو قد ابتعد —إما كما أظن— ليعطي نفسه حجة للحصول على المرابح، أو كان بالواقع يعاني من قلة المال، فقد كان قد سأل باليولوغوس —عندما كان حياً— أن يقرضه عشرة آلاف قطعة ذهبية، فاقترح عليه على الفور أن يمنحه أربعة آلاف بمثابة أعطية من الامبراطور وليس ديناً، ورفض تماماً امداده بالباقي، فغضب بازونفيل لهذا، وانفصل عن الجيش الروماني، ولكن ما ان توفي باليولوغوس، وحل محله دوكاس في المسؤولية عن الأمور، حتى جاء بازونفيل إليه، فحصل على مبلغ المال الذي أراده، وشارك من جديد في الجهود العسكرية الرومانية.

وأخذه دوكاس معه وتوجـه نحو مسافرا Massafra وبرفقته بقية الجيش، وكان هناك مدينـة اسمها بوليميلون(١٤) Polymilion ، وكان فيها واحد مـن أتباع وليم اسمه فـلامنغ Flameng، وعندما سمع هذا بـاقتراب الجيش الـرومـاني، غادر المكـان وذهـب إلى تارنتـو Taranto ، واستولى الرومان على بوليميلون ونهبوا أحـوازها، فأثقلوا جيشهم بالغنائم، وذهبوا من هناك إلى مدينة موتولا Mottola ، التي كانت قائمة فوق مكان مرتفع، وكـانت قوية وجيدة التحصين من جميـع الجوانب، فقد قام على طـرف منهـا شعاب ووديـان جبليـة حقـاً يستحيـل الوصـول إليهـا، وأحاط بها من جانـب آخر نهر عميق يصلح للملاحة، لكـن بدا أن مامن شيء يمكنه أن يعيق الذين يبحرون بريـح طيبة، ومع أن موتولا بدت آمنة محصنة مـن جميع الجوانـب، فقد استـولى عليها الـرومان دون بـذل جهود كبيرة وفي وقت قصير، وذلك وفق طريقة سأتولى حكايتها:

لقد كانـت معنويات الرومـان عالية جداً نتيجـة لانتصاراتهم الماضية، وعندما شاهـدوا أهل المدينة ومصدر شجاعتهم هو طبيعـة المكان، وكانوا واقفين خارج الأبواب التـي كانت هناك وهـي مفتوحة من أجـل القتال، وقتـذاك حمل الرومـان وصعدوا الـرابيـة مسرعين، وتملكت الـدهشة أهـل المدينة لما رأوه من جـرأة، واندفعوا يقاتلـون قرب أبوابهم، وعندمـا انقض الجيش الـروماني عليهـم، لم تكن هـذه الأبواب قـد أوصدت، وهكـذا تمّ الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعدما أنجز الرومان هذا، انطلقوا من هناك.

وبعد وقت قصير، التقى بهم فلامنغ وهـم يـزحفون، وقفز بعض الرومان أمام وحداتهم واصطدمـوا بالأعداء، وأظهروا براعة ومهـارات رائعة، لكن بما أنهم كانوا أقـل عدداً من خصومهـم فقد تراجعوا، وفي تلـك اللحظة اشتبك دوكاس ومعـه جميع قواته بقـوات فلامنغ وأرغموهـا على التراجع، ثم هاجموا مسافـرا فاحتلوها عنوة، واكتشف دوكاس وجـود كميات هائلة من المؤن والعتـاد مخزنة في القلعـة، وكان بينها سـلاح كثير ومالايقـل عن

مائتـي فرس، ولدى سماع أهالي تـارنتو بذلـك قام رجالهم بعدمـا جمعهم الحرفيون ومعهـم جيرانهم بتوجيه الاهانـات بشكل مكشوف إلى فـلامنغ، واتهموه أنـه بجبنه الشخصي سبب شجاعـة الرومان، ولم يستطع فـلامنغ تحمل هـذه الاهانـات، لذلـك أعاد جمع عسـاكره، ووقـف ينتظر الجيـش الرومـاني، لكن مـا ان أصبح هـذا الجيش مـرئياً مـن قبله، حتـى أصيب بالرعب، ولم يستطـع تمالك نفسه أو يسترد شيئاً من شجاعتـه، وقامت ثلة من الرومان بقتال أتباعه وهم منهزمون فقتلوا بعضهم.

وعنـدما أصبـح الـرومان على مقـربـة من تـارنتـو، تصوروا أن المدينـة لاترام، ولـذلك تـركوهـا عازمين على الوصـول إلى مونـوبولي، ونظـراً لقلة مـاكان بحـوزتهم من أسلحـة الحصـار، استدعـوا —بـوساطـة رسالـة— الأسطول الـراسي في باري، للقدوم بـأقصى سرعـة ممكنة، وبذلـك يمكنه أن يحمل منهـا الكثير من الأشيـاء، وعبر الرومـان في الوقـت نفسه خـلال منطقة خصبـة، مليئة بأنواع كثيرة مـن المنتجات، لذلك أشبعـوا أنفسهم بـأشيـاء جيدة، فقـد قيـل كـان بـإمكان الجنـدي شراء عشرة رؤوس مـن الماشية بقطعـة ذهب واحدة، وأن يشتري بالمبلـغ نفسه مائة وثـلاثين من الأغنام، ووجدوا هناك أيضاً بعض الرومان الـذين كانوا مودعين بالسجن منذ زمن طويل، فأطلقوا سراح هؤلاء المساكين وفكوا أغلالهم.

٩- ولـدى وصـولهم إلى مـونـوبـولي في اليـوم الخامـس، لم يخرج أحـد للتصدي لهم، (لأن الأقـاويل التـي راجت حـولهم أرعبت أهـل المدينة، وألجأتهم لـلاختبـاء وراء الأسـوار) لكنهـم وقفـوا شـاكـي السـلاح فـوق أبراجهـم، مستعدين للـدفاع عـن أنفسهم، إذا ما وصلـت الحملات إلى الأسـوار، ونصب البيـزنطيون معسكـرهـم، ومكثوا في مكـان موائم ليـس بعيداً جـداً عن المدينـة، وبما أن دوكاس كان قـد استدعـى الاسطول إلى مونـوبولي، فقد جـاء من باري، وأمـد عمليـة الحصار بما يكفـي من المؤن، ثم هاجموا الأسـوار بالقوى كاملـة، لكن بما أن السكان كانـوا يصبون على

أعدائهم أشياء كثيرة، فقد تمكنوا من ردّ المهاجمين الرومان وقتل بعضهم، وكان القتال قد بدأ بالصباح، وقد استمر حتى الليل، وبسبب حلول الظلام عاد الرومان إلى معسكرهم، وعين أهالي مونوبولي حراساً لحماية الأبراج وجعلوهم يتناوبون ذلك خشية أن يطمع الرومان فيلحقون الأضرار بالمدينة أثناء الليل، ولهذا أشعلوا الآلاف من النيران في كل جهة، وكانت الأبواب وأدوات النفير تزعق.

وعندما أخذت الشمس طريقها نحو الأفق الشرقي، وبدأ نورها يشع فوق سطح الأرض، خرج الرومان من المعسكر، وعادوا إلى القتال، وفي الوقت نفسه اندفع رجال مونوبولي إلى مواقفهم، وحملوا أسلحتهم، ومرة أخرى جرى صراع عنيف واشتباكات مع الرومان الذين كانوا يحاولون جاهدين شق طريق للوصول إلى الأسوار، لكن العدو المهاجم أمكن صده من قبل رجال مونوبولي، وبذل الرومان غاية جهدهم في هذه الظروف، ثم قام جيشهم فيما بعد بإلقاء النار في سفن أهالي مونوبولي التي كانت راسية هناك، وسببوا بذلك صعود لهيب عظيم.

وقام واحد من الجنود الرومان، واسمه هيكانتوس Hikantos بعمل رائع يستحق الحكاية والسماع:

كان يحيط بمدينة مونوبولي سور مزدوج، وكان السور الداخلي مرتفعاً جداً، وكان من غير الممكن ادراكه برماح الأعداء، في حين كان السور الآخر الذي استدار حول قاعدة الأول يساوي بالارتفاع ثلثه، وتسلق اثنان من رجال مونوبولي فوق هذا السور، وأخذوا يرمون نحو الأعداء ويحثون الآخرين للالتحاق بهم، ولاحظ هيكانتوس هذا، فقام بالهجوم برمحه فأمكنه اصابة واحد من الرجلين، فوقع فوراً على الأرض، وتبع هذا صدور صوت عظيم عن الجيش الروماني، وصار الصراخ هائلاً، ولايمكن تحمل سماعه، وأدهش ذلك الواقفين فوق الأبراج، وخيل إليهم أن

المدينة قد سقطت، فتخلوا عن الدفاعات وركضوا نحو مركز البلدة، ولولا أنهم أدركوا الوضع بسرعة، وعادوا فاعتلوا الدفاعات لسقطت المدينة على الفور بيد الرومان، وعلى هذه الصورة انتهى الهجوم الثاني على مونوبولي.

وبسبب معرفة شعب مونوبولي أنهم باتوا في مآزق مؤلمة، بعثوا برسالة إلى فلامنغ وسألوه أن يقدم إليهم بما أمكنه من سرعة، فأجابهم بأنه سيلحق بهم بعد وقت قصير مع جيش كبير، ليتولى طرد الرومان وابعادهم، وظلّ الرعب ساكناً داخل فلامنغ، وامتلأ بجبن لاحدود له عندما قدّر من سيقاتل، وضد من ستكون المعركة، وبناءً عليه عندما حلّ اليوم السابع، ولم يظهر فلامنغ من أي جهة من الجهات، وقتها استولى اليأس على شعب مونوبولي، وقنطوا من وصول المساعدة إليهم من أي اتجاه، لذلك بعثوا برسلهم إلى الجيش الروماني، مع عرض بتسليم المدينة وأنفسهم إلى الامبراطور العظيم، وأخبرهم دوكاس أن تعهداتهم لاتكفي في هذه الاتفاقية، مالم يقبلوا بوضع حامية فوقهم من قبل الامبراطور، وعندما وافقوا على هذا، جرى تحديد تاريخ لعقد الاتفاق [وابرامه وتنفيذه].

وقام بعض سكان مونوبولي (ممن كان غير راضٍ بما تمّ صنعه) باخبار فلامنغ بهذه الأشياء، وذلك دون معرفة الآخرين، وأثارت فلامنغ هذه الأخبار، فاختار مالايقل عن مائة من الفرسان المسلحين من بين أتباعه، وبعث بهم على الفور، وقال إنه سيلحق بهم بعد قليل، وتحت لوائه قوة معتبرة، وانتظر الذين وافقوا على هذه الأفعال وصول هؤلاء الجنود في ليلة استمر فيها هطول الأمطار من فوق، وأدخلوهم إلى المدينة من خلال باب جانبي، وبناءً عليه خططوا لحمل السلاح ثانية، وما ان وصلت هذه الأخبار إلى مسامع دوكاس حتى عدّ السفارة التي جاءته من مونوبولي خدعة، وقام على الفور بالتقدم على رأس جيشه زاحفاً من

المعسكر، لكن ما ان أدرك أهل مونوبولي أن المائة فارس لايكفون لعونهم، وبما أن الجيش الروماني كان في حالة استعداد للقتال وحماسة أكثر من قبل، قاموا وراسلوا دوكاس ودعوه إلى المدينة ثانية عازين المشكلة إلى آخرين، سارعوا إلى اقتراف الأعمال الحالية بدون موافقة جماعية، وأظهر دوكاس رفضه في البداية، وتمسك بوجود خداع كبير، وتعجرف معلناً أن المسألة قد تقرر البت فيها بواسطة الحرب، ولكن عندما ضغط عليه السكان أكثر، ورجوه أن يعفو عنهم مااقترفوه من إثم، استجاب مؤخراً وقاد قواته إلى داخل المدينة.

وساعة استيلاء الرومان على المدينة، وصلت تقارير تحدثت أن فلامنغ بات على مسافة قرابة عشرين غلوة من المدينة [ميلان ونصف الميل]، وما ان علم دوكاس بهذا حتى بادر إلى اختيار فرسان من أتباعه على أساس براعتهم، وبعث بهم لاعتراض سبيل فلامنغ، وبقي هو نفسه بالمدينة للاشراف عليها، غير أنه عندما رأى فلامنغ عن بعد أعلام الامبراطور مرفوعة فوق الأسوار، أدار ظهره وعاد قبل أن يتلاقى مع الفرسان الرومان، الذين كانوا قد باتوا على مقربة منه، ثم طارده الرومان وقتلوا كثيراً من أتباعه، وأسروا مائة من فرسانه كاملي السلاح، وحفظ فلامنغ من المخاطر سرعة حصانه، فقد كاد أن يقع بالأسر، وبعدما حقق الرومان هذا النجاح عادوا إلى مونوبولي.

١٠- ولم يكن دوكاس، الذي لاحظ أن الحظ يبتسم يومياً للرومان قادراً على الوثوق به كثيراً، بل كان حذراً بشكل معقول من انقلابه، وكان يقول إنه مثل شخص ساذج متقلب يتبع قوماً مسافرين لابدّ من أن يعود أدراجه، ويدعهم في وسط الطريق، ولهذا كتب رسالة بعث بها إلى الامبراطور، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«أيها الامبراطور العظيم، إذا لم يكن قد بقي أمامنا المزيد من الصراع

في ايطاليا، فلن يكون هناك حاجة لجيش آخر أو أي شيء آخر، وتعلمون أن كل شيء قد سار بالنسبة لنا حتى هذا اليوم وفقاً لما نبتغيه، حيث سيطرنا على معظم المدن الموجودة، في ايطاليا [أي أبوليا] مع الموجود على خليج ايونيا [البحر الأدرياتيكي]، ولقد كنا نحن المنتصرين في معارك عظيمة بطريقة تليق بعظمة امبراطوريتك والعرق الروماني، وبما أنه مازال أمامنا صراعاً أعظم، (لأن وليم الذي يتولى نهب صقلية، لاشك منزعج جداً بسبب تدمير أتباعه، وهو يقوم الآن بحشد العساكر من كل مكان، وقد قام بانزال أسطول فيه عدد هائل من السفن، على سطح البحر، وهو عازم على حربنا براً وبحراً) علينا ألاّ نستخف باستعدادات الجزري [وليم]، وألاّ نواجه هذه الحرب بسذاجة، خشية أن نخسر سمعتنا ونستعيض عنها بالعار، ثم إنه من المتفق عليه أن النجاحات التي تحققت على أيدي عدد قليل من الرجال، لابدّ من أن تكون أعظم بكثير على أيدي عدد أكبر، ومع هذا إن الاخفاق يجلب أضعافاً مضاعفة من العار، لأنه كما علمتنا ياصاحب الجلالة إن الهزيمة تدلل على جهل بالاستراتيجية لدى المهزوم، ولذلك ينبغي حتى لايقع شيء من هذا القبيل لنا، نطلب ارسال قوة بحرية أكبر مع جيش بري إلى هاهنا». هكذا كانت محتويات الرسالة.

وبما أن الأمور سارت بشكل طيب لدوكاس في مونوبولي، فقد انطلق من هناك بصحبة قواته كلها، وبعدما استولى صلحاً على أوستيني Os-tuni، هي مدينة واسعة الشهرة بقوتها، سارع بالزحف نحو بلدة أخرى، هي برنديزي، التي كان اسمها القديم تيميسي، فلقد غير مضي الوقت معظم الأسماء القديمة وعسكها، وغيرها إلى أسماء تختلف عن سالفتها تماماً، أو تختلف بعض الشيء(١٥)، وعندما وصل الرومان إليها [١٤نيسان١١٥٦] مكثوا هادئين (لأن اليوم التالي كان يوم عيد الفصح المسيحي) وخيّل للذين كانوا في المدينة أن مرد هذا هو الخوف، لذلك

قـاموا بحمـلات متـواليـة ووصلوا إلى المعسكـر، ووقتهـا انقـض الرومـان عليهـم بدون ارادة منهـم، لكن عنـدمـا دفعوهـم إلى الخلف، عـادوا إلى المعسكر.

وهكذا عاد الرومان إلى انشغالاتهم المتقدمـة، يقدمون التبجيل للموسم المقدس، لكن واحداً منهم، واسمه تومـاس، أصله من أنطاكية، كان منذ زمن طـويل قـد أصبح مـن المتعلقين عن قـرب بالامبراطـور(١٦)، وضع عليه سلاحه، وتقـدم من المعسكر على ظهر حصانه نحـو السهل، وعندما بات قـريباً من المدينة استـدعى سادة القـوم للنزول للقيام بمبارزة فـردية معه، وكـان هناك واحداً اسمـه أنجيلو، مشهـوراً بشجاعته، فعنـدما رأى توماس يطلب مبـارزة فردية، صب سلاحه على نفسـه وخرج إلى السهل، وسار حتـى بات وجهاً لوجـه مع تومـاس، ثم استولت الحيرة على الـذين وقفـوا على الجانبين ينظـرون نحـــو رجلين متسلحين بشكـل كثيـف وعلى درجة عـالية من الشجاعـة، استعدا للمبارزة في ذلك المكـان، كما لو أنهما في حلبة للصراع، وهمزا فرسيهما، بعدمـا شرعا رمحيهما نحو بعضهما، وخرق رمح توماس ترس ودرع خصمه ووصـل حتى الجلد، في حين دفع أنجيلو برمحه فنفذ من خـلال ترس توماس، وهو رافع إياه فـوق رأسه، وكان هذا العسكري آنذاك قـد رفع ترسه ليحمـي المنطقة التي حول رأسـه، وهكذا خرق الرمح البيضة وجرح جلـدة الرأس، وإثر هاتين الضربتين المتبادلتين افترق أحدهما عـن الآخر، فعـاد واحد منهما إلى معسكـر الرومـان، ومضى الآخر عائداً إلى المدينة.

وعندما أكمل الـرومان الاحتفال بعيدهم، زحفوا ضـد المدينة، وعندما تقـرر لـديهم أنهم عبثاً يفعلـون بقـذف الأسـوار بـالحجارة (لأن الـرجـال القدمـاء الذين أبـدعوا وسائل العنـاية بأعمالهم العـامة، ربما كانـوا أكثر تفوقاً في بناء المدن) توقفوا عن ذلك، وشرعوا برماية الحجارة مثل صحون طائرة، تحلق عاليـاً من فوق الأسوار، لتسقط بعد ذلـك داخل المدينة، ولما

أطلقوا الرمية االأولى، كان في المدينة عجوز تعول وتولول جيئة وذهاباً، فأصابتها على رأسها، فشطرت الرأس، وحطمت كل عظم من عظام أطرافها، وارتفع العويل والصراخ، واستولى على الناس مظهر من جرى الاستيلاء على مدينتهم، ونال هذا حتى الذين لم يمتلكوا الشجاعة للذهاب لرؤية تلك المرأة التعيسة، ولدى متابعة الرومان برماية أخرى ثم رمايات، اعتقد كل واحد من السكان الخائفين أن الحجارة باتت فوق رأسه، لكن ليس وفق الطريقة المحكية في الرواية المتعلقة بـ«تانتالوس(١٧) Tantalus» ، وشعر الجنود الواقفين للحراسة في الأبراج أن أهل المدينة يخططون لادخال الرومان، ولذلك ذهبوا راكضين نحو القلعة، وفتح السكان الأبواب، وأدخلوا الرومان.

وإثر استيلاء دوكاس على برنديزي باستثناء القلعة، قسم جيشه إلى قسمين، احتفظ بقسم في المدينة لقتال الذين كانوا في القلعة، وأرسل القسم الثاني للقيام بأعمال جمع المؤن والغلال، وهكذا عملوا، وقام سكان المنطقة الخصبة المسماة هاليتزيون(١٨) Halitzion بتقدير ماحدث في برنديزي، فقرروا الالتحاق بالامبراطور، والاعتراف بسلطانه لكن قوة صغيرة من الأعداء (كانوا من النورمان)(١٩) كانت تنتظر داخل الأحراش وتتربص بالفرسان الرومان الذين يرعون الخيول، وعندما رأت هذه القوة الرومان قد توقفوا وناموا، قاموا بسرقة خيولهم وسوقها بعيداً، ووصلت الأخبار إلى الذين كانوا عائدين من جمع المؤن، فبادر هؤلاء الرومان مسرعين وقاموا بمطاردتهم، فاستردوا الخيول، وأسروا معظم الأعداء، وكان وقتها بينهم رجل ايطالي عالي المقام اسمه سيكيرين Sycheren [سيغر Siger ؟] قد وقع بالأسر، غير أنه بسبب عدم معرفته استطاع أن يخدع آسره فأطلق سراحه مقابل منحة من الذهب.

١١- وراجت بين صفوف الرومان اشاعات تحدثت عن اقتراب

وصول وليم وهو يقـود قوى عسكرية كبيرة برية وبحريـة، وبناءً عليه أعدّ الرومـان أنفسهم بقـدر الامكان، ومكثـوا من دون حـركة، ولم يـأت اليوم الخامس حتى وصـل واحد من الفاريـن من جيش العدو، وأنـذر الرومان وأعلمهم بأن وليم بـات على مقربة منهم، ومن الممكن ايقـاعه بالشباك، وعندما سمع القـادة الرومان بهذا، عبأوا قواتهم وأعدوهـا للقتال، وارتؤي أن من المنـاسب أن يتولى بازونفيـل وجون أنجيلوس اللذان كـان برفقتهما مجمـل قـوات المرتـزقـة، القيـام بـالقتـال البري على أن يـرافقهما أيضـاً الايطـاليون الـذين انضمـوا إلى صف الامبراطـور، وبـالوقـت نفسه يقـوم دوكاس بالقتال ضد الأعداء بحراً، وقـالوا بهذا يمكنهم التعاون ومساعدة بعضهـم بعضـاً، وعنـد الفجـر زحـف دوكـاس بخطـوات سريعـة نحـو الشاطىء مـع الفرسان المسلحين الذيـن يحيطون به، وجعل السفـن تبحر على صـف واحد، في حين كـانت بقيـة القوات جـاهزة للقتـال براً، وقـد تقدمـت هذه القوات على تعبئـة، ولم تكن السفـن الصقلية، التي كـانت على مقربة مـن المدينة، قادرة على دخول الميناء دفعة واحـدة (فهذا الميناء كـان عريضـاً بما فيه الكفـاية بـالداخـل، لكنه انتهـى بما يشبه المضيـق) ولذلـك دخلت بالتعاقـب، وانقسمت إلى مجموعـات كل مجموعة مـؤلفة من عشرة سفن.

ثـم إن دوكـاس خـاف مـن عـدد السفـن الصقليـة، بعـدمـا رأى أن الاسطول الرومـاني كان صغيراً جداً بالمقـارنة (لأنه تألـف من أربع عشرة سفينة فقط) ولذلك خطط لشيء كان حسبما يلي:

لقد تدبـر صنع رسالة كأنها قـدمت من الامبراطور، تـذكر بشكل محدد وشوك وصول قوة كبيرة برية وبحريـة، وأن هذه القوات ستصل بالتحديد حوالي منتصف النهار، وعنـدما رفع من معنويات الجنـد وآمالهم خاطبهم قـائلاً: «أيها الجنـود، لقـد تعهـدت أننـا سنحـوذ النصر أولاً، خشيـة أن نتشـارك ببركـات النصر مـع الـذيـن سيلتحقـون بنـا مـؤخـراً ليشـاركـوا

بالصراع»، ومـع انهائه لكلامـه لاحظ هـذا القائد أن سفـن العدو بـدأت بالـوصول إلى داخل الميناء، فـأمر بانشـاب القتال، وهكذا بدأت المعـركة على الفـور، ولم يستطع الصقليـون تحمـل الـرمايـات الـرومـانية مـن البر والبحـر، ذلـك أنهم كانـوا عـرضـة للنشـاب من على الجانبين، ولـذلـك تراجعوا، وطاردهـم الرومان وقتلوا الكثير منهم، واستولـوا على أربعة سفن مع مـلاحيها، بعـدما اصطدمـت بالأرض، ومـرد هذا أن المجـذفين فيهم كانوا أكثر سرعة مـن اللازم، ولذلك اصطدموا بالشاطـىء، فكانوا فريسة جاهزة للقـوات البرية،وقتل في المعركـة مايزيد على الألفين مـن الأعداء، وسقـط أيضاً مـن الـرومان عـدد كبير، ولاسيما واحـد مـن الأعيان اسمـه سكارامـانكاس Skaramankas ، وكان مـــن الخاضعين مباشرة لإمرة دوكـاس فهو عندما شـاهد العدو يفكـر بالفرار، همز فرسـه، وأمسك بدفة مؤخـرة إحدى السفن التي كانت تحاول المغـادرة، وحاول بالقوة أن يمنـع مغادرتها، وبـذلك قـام بعمـل أوسع شهـرة من عمـل كينيغيروس القديم(٢٠) Kynegeiros ، ولدى تأثره بضربـات صدرت نحوه مـن داخل السفينـة، اضطر إلى تـركها تغـادر، لكن بها أنـه أعاق نجـاتها لبعض الوقت، فقد سبب أسرها من قبل الـرومان الآخرين الذين اندفعوا وقتئذ نحوها.

وما ان حقـق الرومـان هذا النجاح حتـى زحفوا ضد قلعـة برنـديزي، وذلك بعدمـا اخترعوا آلة اعتادوا على تسميتها «السلحفاة»، وقـد دفعوها حتـى القلعة، وعنـدما رآهـا الذيـن كـانوا واقفين فـوق الأسوار ضحكـوا بصوت مرتفع، ظـانين أن المقصود من هذه الآلة تدمير جـزء من منشآت السـور، وكان هـذا شيئـاً غير ممكن التحقيـق تمامـاً، لأن الأحجـار كانـت شديدة التلاصق حتى أن السور بدا وكـأنه مؤلف من قطعة حجر واحدة، لكن عنـدما أوصـل الرومـان هذه الآلـة إلى الأسوار وألصقـوها بها، ولجوا إليها خـلال الليل، وحفروا على مقربـة من الأساسات، وأخـذوا الأوساخ

بعيداً، بعدما وضعت فيها ثم أفرغت من الجانب الآخر، وظلوا متابعين لعملهم حتى تجاوزوا آخر حجرة في الأساسات، ووصلوا إلى الأرض دونها، وهنا أزاحوا الآلة، فأوجدوا بهذا ثغرة واسعة، فشحنوها بالأخشاب حتى امتلأت، ودعموا بذلك جزء السور الذي صار معلقاً، وبعدما لاحظوا أن المدافعين من الداخل ظلوا متشبثين بمواقعهم، ألقوا النار في ذلك المكان، والتهمت النيران جميع المواد، وسببت انهيار السور هناك حتى الأساسات، وأدت إلى سقوط الذين كانوا وراء الشرافات، لكن البرابرة تراجعوا إلى السور الداخلي، ولم تضعف مقاومتهم.

١٢- وبينما كان الرومان مشغولين في هذه المسائل، حشد الامبراطور اسطولاً من السفن وبعث به إلى ايطاليا مع جيش بري، وتولى ألكسيوس ابن بنت الامبراطور ألكسيوس الأول(٢١)، قيادة هاتين القوتين، وكان آنذاك يشغل منصب الدوق الأعظم، [الأميرال الأعلى]، وأمره الامبراطور بحشد قوة أخرى ومن ثم الابحار إلى ايطاليا، لكنه أبحر إلى برنديزي دون أن يفعل ذلك، ومرد ذلك أن مجريات الأحداث كانت مخيفة للقيام بمثل هذه الرحلة، وكذلك خشية من المخاطر التي قد تحيق بهم من العدو.

وبدأ السعد منذ الآن فصاعداً باشاحة وجهه علناً عن الرومان، لأن روبرت صاحب [بازونفيل] بدأ بالتخلي عنهم، وذلك بعدما حارب حتى الآن إلى جانبهم، فهو عندما سمع بأن وليم قادم مع قوة كبيرة، وشهد أن الرومان عجزوا حتى الآن عن اخضاع قلعة برنديزي، تظاهر أنه ذاهب لجمع قوات تساعده في القتال هناك، لكنه لم يعد، يضاف إلى هذا أن الفرسان الذين جاؤوا من تخوم أنكونا Ancona ، طالبوا بأن يُدفع لهم في المستقبل ضعف ايجارهم السالف، وعندما أخفقوا في تحقيق مطلبهم غادروا، ولدى سماع وليم بهذا حشد قواته وزحف مباشرة ضد الرومان.

وشرع الرومان يخططون بشـأن كيفية ادارة الحرب، فقد رأى بعضهم أن الصحيح هـو الذهاب إلى باري، ومـن ثم الحصول على الأمن بـالتحصن بها، لكن هـذا لم يحز على رضا الآخرين، الـذين أعلنوا أنه سيكـون عملاً جبانـاً إذا ماانسحبوا، وتخلوا عما كـان في أيديهم، وبما أن هذا الـرأي بدا هو الصحيـح، ومن أجـل عدم ترك الـوقت يـذهب سدى، قـاموا ثـانية بمهاجمة أسـوار قلعة بـرنديـزي،وهدمـوا قسماً كبيراً منها بـوساطـة الآلات الحربيـة، ومع هـذا لم يستطيعـوا اقتلاع البرابـرة، فهـؤلاء قد تشجعـوا في البداية، وأقلعـوا بهجوم على الرومان، لكـن عندما ضغط الـرومان عليهم بشدة هربوا عائدين إلى الأسوار، ولـولا وقوع حادث عرضي أعاق الرومان، لأمكن الاستيـلاء على برنديـزي عنوة وبكل سرعة، فقـد كان الرومـان قد اعتلوا فـوق الأسوار، وأخـذوا يقاتلون الـذين داخـل المدينة مـن الأبراج، لكن عدداً كبيراً من الأبـراج التي كانت قد تضررت كثيراً من قبـل لرميها بآلاف الحجـارة، تساقطـت إلى الأرض وأوقعت معهـا كثيراً من الـرومان، ولهذا اضطر جيشهم إلى الانسحاب خائباً.

ولاعتقاد الصقليين أن وليم كان بعيداً، وضعوا خطة لتسليم القلعة إلى الرومـان وفق شروط، ولكن بما أن السعـد قد وعد بخدمـة الرومان لـوقت محدد، ولشعـوره أن هـذا الـوقـت قد انتهـى، فقـد تخلى عنهـم في وسـط المدينة، لأنه بينما كان الصقليون يخططون هكـذا جاءتهم الأخبار بأن وليم وصل، وبـات قاب قوسين أو أدنـى مع جيش كبير، ولـدى سماعهم بهذا تخلوا عما عـزموا عليـه، وصعدوا فـوق الأسوار، ورفعـوا أصوات سرورهـم عالياً، وأخذوا يحتفلون وكأنهم قد حققوا فعلاً طرد الرومان.

١٣- لقد كان هذا ماتحقق هناك، وزحـف وليم، الذي أقلع من مسينا مع كـامل جيشه، مبـاشرة نحو برنـديزي، وفي ذلك الـوقت كان اسطـوله راسيـاً قرب جـزيـرة على مسافـة جـد قصيرة مقـابل بـرنـديزي، وخطـط الصقليون لمهاجمة الرومان من الجانبين في وقـت واحد، وحال سوء التدبير

—كما أعتقد— مع ماقدر للرومان من هزيمة، بينهم وبين الهجوم البحري فوراً، وقبل أن يظهر وليم لهم ويقف ضدهم، فعندما قاتلوا ضد الطرفين، جلبوا الدمار للمصالح الامبراطورية، وكانوا قد انتظروا آنذاك وصول جيش من بيزنطة، وهكذا أجلوا الهجوم حتى وصوله المنتظر بسرعة، لكن عندما وصلت الأخبار باقتراب وليم، أرغموا وقتها على خوض المعركة ضد الطرفين معاً.

واختار الرومان رجلين مجربين بالقتال هما: يواناكيوس كريتوبلس Ioannakios Kritoples وبيرم(٢٢)، الذي كان من أصل تركي، وبعثوا بهما مع جورجيين ولانيين لمناوشة الأعداء عندما يلتقون بهم، وكان هؤلاء الأعداء قد أقاموا معسكرهم على بعد خمس وأربعين غلوة [خمسة أميال ونصف الميل]، وبعد ذهابهم إلى هناك هاجموا العدو وقاتلوه في الساقة، واشتبكوا عن قرب به وقتلوا بعض رجال المؤخرة، وساقوا أمامهم عدداً كبيراً من الخيول من قطار الأثقال، وبعدما انتزعوا منهم واحداً من أعلامهم، عادوا إلى برنديزي، غير أن الصقليين لم يأبهوا بهذا (بسبب أعدادهم الهائلة، لم تصلهم أخبار ماحصل)، وعسكروا بالفعل على مقربة من الرومان، حتى أن الذين كانوا يبحثون عن الأعلاف من الطرفين غالباً ماتصادموا مع بعضهم بعضاً، وخطط الصقليون للمعركة، وكان أسطولهم راسياً في الميناء على مقربة منهم، واقفاً بانتظارهم، إذن على هذه الشاكلة انشغل الصقليون.

وكان الرومان أقل عدداً من جيش العدو، وذلك بسبب الذين تخلوا عنهم من قبل، ثم لاستمرار تناقص قواهم لكثرة حالات الفرار، ولأن عدداً كبيراً من حلفائهم الآخرين قد هجروهم، وبشكل خاص قيام جماعة معتبرة من النورمان كانت مستأجرة من قبل الرومان بالالتحاق سراً بوليم، ولاحظ وليم ماكان يجري فقرر الامساك بالفرصة التي توفرت له تلك الساعة خشية أن تفوته بعد وقت، بسبب أنه إما أن يأتي روبرت

صاحب بـازونفيل لمساعدتهم (لأنه روي أنه جمع جيشـاً وكان عائداً) أو ان نجـدة بحريـة ستصل إليهـم مـن عند الامبراطـور، ولهذا صف وليـم جيشه على شكـل وحدات وتقدم، ونظـراً لأن روبرت قـد تأخر، إمـا عن قصد أو صـدفة، قام الـرومان بإعـداد أنفسهم والتهيـؤ بقدر ماهـو ممكن، ووقفوا في وجـه العدو، وكان مثيراً آنذاك أن تـرى قوة صغيرة من الـرومان استعـدت للقتـال مـع جميـع القـوات الصقليـة [٢٨-أيـار١١٥٦](٢٣) ووقف الجيشـان لبعض الوقـت دون التحام، ثم قفـز واحد من الفـرسان المرتزقة من بين صفوف الرومـان، ووقف بين الصفين، ودعا إلى من يبارزه وينازله بشكـل فردي، وهكذا بدأ القتال، وانـدفع كل فريق ضـد الفريق الآخر، وكان النزال قد بدأ عند الفجـر، واستمر القتال متوازناً لمدة طويلة، قاتـل فيها الـرومان بشجـاعة، ثـم إن الصقليين شقوا طـريقهم لتفـوقهم العـددي، ودفعوا بـالرومـان إلى الخلف، ووقـع كثير من الفـارين وأخـذوا أسرى، وشـق البقية طـريقهـم إلى المدينة بعـد كثير مـن الجهد والعنـف، وكان بينهم القـائد ألكسيوس [كومينوس]، أما دوكاس الـذي ترك خارج الأسوار، فلـم يتوقف عـن الضرب وتلقي الضربـات حتى جرى تطـويقه من قبـل الأعداء، وأخـذه أسيراً، لكن بعـد صراع طويـل، وعندمـا أسره الصقليون بات من السهولة بمكان إلقـاء الذين داخل المدينة في الشبكة، وكأنهم وقعوا في فخ.

إلى هذه النهـاية جلـب الأحمقان كومينـوس ودوكاس شهـرتهما المبكرة، وهكذا رجال هـذه الأيام: عاش بعضهم وهو مجرد مـن العلم العسكري، فقـاد المصالـح إلى الـدمـار، وعرف آخـرون بـالصـدفة قسماً مـن العلـوم العسكـرية، لكنهـم أخطأوا في الجزء الأهـم، ذلـك أن الاستراتيجية فـن، وينبغـي على من يمارسهـا أن يكون مـرناً ومـاهراً، وأن يعـرف كيف يقـوم بالتغيير بـالوقـت المناسـب أثناء كل مـرحلة مـن المراحل، فهنـاك أوقات ليـس من العـار فيها الفـرار، إذا سمحت المنـاسبـة بذلـك، ومرة أخـرى

المطاردة بدون توقف، كل ذلك حسب منفعة الفرد، وعندما يبدو أن النجاح مضمون بالبراعة أكثر منه بالقوة، المخاطرة وقتها بكل شيء أمر مأسوف عليه، وبما أن عدداً كبيراً ومتنوعاً من المسائل يستهدف غاية واحدة هي النصر، فالمسألة هي مسألة خلاف حول الطريقة التي يستخدمها المرء للوصول إليه.

وبما أن ألكسيوس لم تكن لديه القوات التي أمره الامبراطور بجلبها، ولو أن الرومان لاحظوا أنهم ليسوا مساوين للصقليين، فحملوا جيشهم على ظهر سفنهم، واشتبكوا مع الأسطول أولاً، لكانوا حققوا النصر عليه بالقوة، ولكانوا أيضاً سوغوا بانتصاراتهم في البحر عملية انسحابهم من البر، حتى إذا ماحانت الفرصة، نزلوا ثانية على الأرض وربحوا المعركة في ايطاليا بقوات أكبر، لكن بما أنهم احتفظوا بأذهانهم بفكرة التراجع الخسيسة، سقطوا في حمأة العار لتعرضهم للدمار مع جميع قواتهم.

١٤- لقد كان هذا ماوقع هناك، وعندما سمع الامبراطور بذلك ظهرت عليه علامات الغضب، خاصة بسبب أن هذا حصل بعد عدد كبير من النجاحات المتقدمة، لأن الفاجعة التي تقع بعد الأعمال المجيدة تجلب العار، وتسبب هذه الأمور بالعادة الحزن الشديد بشكل خاص، لأنها تفتقر كلياً حتى إلى قليل من النجاح، ثم يعقب ذلك دمار لكل شيء، ولهذا كان حزيناً جداً، ومع هذا لم يقهره الحزن، فبعث بألكسيوس [أكسوكوس Axouchos] الذي شغل انذاك منصب بروتوستراتور، إلى أنكونا، ليعمل ثانية في سبيل الاستيلاء على ايطاليا، ولو من البداية، لأن الناس هناك كانوا قد أقسموا للامبراطور، أنهم مع عدم رغبتهم في قتال الملك الألماني، سيتولون حماية أموال الامبراطور والرومان الذين سيبعثهم إلى هناك مثل حمايتهم لأنفسهم، لكن لماذا اقتنع الامبراطور بالقيام بهذا، هذا ماسوف أحكيه، فعندما كان من قبل قائماً بحملة على كيركيرا، لاحظ أن أمة البنادقة كانت مخادعة وعنيدة، ولهذا

ارتأى أنـه من الأهميـة بمكان الاستيـلاء على أنكونـا، فبذلـك يمكنه أن يقلل إلى حدّ بعيد مـن عجرفة البنادقة، ويصبح سهلاً لـه من هناك شن الحروب في ايطاليـا، ولذلـك توجه ألكسيـوس إلى أنكونـا وحمل معه كثيراً من المال [١١٥٧]، وأرسـل من هناك إلى ايطـاليا [أي أبـوليا] قسطنطين أوتو، وأنـدريه كـونت إحدى المدن الايطـالية [روبي كـانينا Rupe Ca-nina] وكـان شجاعـاً جباراً، وممتلئـاً بـالاقدام، وحشـد ألكسيوس قـوة كبيرة من المرتزقة، فأخضع عدداً كبيراً من المدن للرومان(٢٤).

ثم حدث شيء كان كما يلي:

بما أن أسقف روما [البابا هادريان الـرابع] سلف له ووافق على تحالف مع وليـم، فعندمـا لاحظ هذيـن الرجلين [قسطنطين وأنـدريه] مـاضيان خلال منطقة روما، عارض ذلك بشـدة، غير أن بعض أعيان روما، الذين تقدم لهم الموافقة على اقـامة صداقة مـع الرومان (لأن الامبراطور مـانويل اعتـاد على التحـالف مـع عـدد كبير مـن هـؤلاء) أثاروا الشعـب ضـده، وطلبوا رايـة امبراطورية،وتلقـوها بتشريف عظيـم، وسمحوا عن طـواعية لكونتـوستيفانوس بتجنيـد كل من يـرغب بـذلك، ولغضب الأسقـف مما حدث وضـع الناس تحت الحرمـان [الكنسي]، وهو الشيء الـوحيد الـذي كـان بإمكـانه أن يفعلـه، قائلاً إنـه لايوجـد ما يجمـع بين روما الجديـدة [القسطنطينية] وروما القديمـة، ذلك أنهما انفصـلاعن بعضهما منـذ زمن قديم، «وبالحري علينا أن نقاتـل إلى جانب أمير الصقليين، وإنه لإثم إذا لم نذهب إلى عون الـرجل الذي هو عضو في جماعتنا، فضـلاً عن ذلك إنه الرجـل الذي يناضـل بصعوبة ضـد واحد أقـوى منه نفسه»، وقـام واحد ممن تـدبر شؤون الامبراطـور، بعدما خـاف من العقـوبة، بعكس مـواقفه، ومضى لـلانضمام إلى جانـب الأسقف، لكـن القائدان الـرومانيـان شداه بكـل عنف، وشهـرا به لخرقـه عهوده، وعلقـاه بطـريقة وحشيـة معدومـة المثال، فقـد علقا سلاحه وسـابغته وحصانه بـوساطة حبال، ربطـوها إلى

شجرة، وحشـدا قوة بشكـل علني ضـد الأسقف حتـى أرغماه على اعفاء الناس مـن العقـوبـات، وهكـذا حظيت شـؤون الـرومـان ثـانيـة بحـظ عظيم(٢٥).

واستولى الرومان حرباً على مدينة نالـت اسمها من القديس جرمانوس [سان جرمانو، كازينو الحالية]، ووضعوا أيضاً ثلاثمائة آخرين تحت حكم الامبراطور، ومـن الممكن قـراءة اسم كـل واحد مـن هؤلاء مـن قبل كـل راغـب، لأنهم مثبتين خـارج القصر القـائم جنوب [كـذا] المدينـة، وهـو القصر الذي بنـاه هذا الامبراطـور، وذلك بـالاضافـة إلى القصور القـديمة [أي بـلاشرين](٢٦)، وإذا كـان قـد دون هنـاك أكثر مـن أسماء هـؤلاء، فتلك مبـالغة فيها ادعـاء باطل بطريقـة مفضوحة مـن قبل الذيـن ادعوا مثل هذه الأعمال، كما هـي الحال عادة مع العامة، وبسبـب هذا سمعت أنا مرة الامبراطـور نفسه يعبّر عن غضبه تجاه ذلـك، هذا وأنا الآن لاأدري هل أزيلت هذه الأسماء أم ماتزال باقية.

١٥- وهكذا بـدت الأراضي الايطاليـة وقد دنت مـن أن تصبح ثـانية خـاضعة للـرومـان، لكـن ألكسيوس كـومينـوس ودوكـاس وبقية القـادة الرومان، الذيـن سيقعون أسرى في قبضة صاحب صقلية، دمـروا القضايا ثـانيـة[١١٥٨]، ذلـك أنهم تعهدوا بـأشيـاء كثيرة إلى الصقليين، لم تكـن برضى الامبراطور، وبذلك استلبوا من الرومان أعظم الانتصارات وأكثرها نبلاً، فما الـذي يمكن لـلانسان أن يـوافق عليـه، عندمـا تكون الأغـلال ممسكـة به، وهـو سجين في زنزانـات تحت الأرض؟ لقـد فعل الصقليـون هذا، وهكـذا قام الرجـال الذين كـانوا هناك —وكـانوا يتوقعـون أن يقوم الامبراطور بصنع سـلام مع وليم— بانتـزاع المدن من الرومان وحـرمانهم منها بكل سرعة.

وعندمـا سمع الامبراطـور بهذا، وفهم الذي حـدث، بعث بـرسائل إلى

صقلية، وكتب مايلي إلى الرومان الذين كانوا بالسجن:

«إنني أتساءل أيها السادة كيف يمكنكم متابعة ممارسة الدناءات في الأعمال، لأنكم هكذا قمتم من قبل بتدمير الانتصارات السالفة والرائعة، وجلبتم إلى أنفسكم القدر الذي أنتم الآن فيه، والآن، عندما كان آخرون متلهفون إلى أن يعالجوا بالحرب وبعون من الرب، ماقمتم من قبل بافساده، تقفون في الطريق، ألم يخطر ببالكم أن الصقليين يريدون بهذا إعاقة تقدمنا نحو الأمام؟ لأنه من هو الذي بين الايطاليين، سيسمع أن الأرض التي نمتلكها اليوم سوف ترد إلى وليم من قبلنا، من هو هذا الذي عندما يسمع بذلك، لن يثور علينا ويمضي مباشرة إلى التحالف مع وليم؟ لن يكون هناك من أحد، باستثناء الحمقى والذين بدون عقل، وهم كما يحدث كثر، أسألكم، أخبروني بحق الرب، متى بدت أرض آباءكم أكثر نبلاً بالنسبة لكم؟ متى، بعدما أصبحت ايطاليا وجزيرة صقلية موضوعة تحت سلطانكم، أم عندما كنتم أبطالاً متميزين تمّ انقاذهم بعبقرية من قبل أبناء قومهم، أم عندما تعودون إلى بيزنطة أبطالاً شجعاناً للرومان، ويكون ذلك بمثابة مشهد ترحيب بالنسبة لزملائكم؟ أو متى عندما نكون تخلينا عن لاشيء، وربحنا لاشيء، فقط حسبما تحدد أيمانكم لوليم، أو عندما نستدعيكم إلى هاهنا؟».

لقد كان هذا ماكتبه للرومان، أما ماكتبه إلى وليم فكان مايلي:

«لاتظن أيها السيد النبيل، أننا سوف لن نلاحظ لماذا تمّ تدبير هذا من قبلك، مادام ليس من الضروري تقديم أعذار لما تمّ صنعه تحت الاكراه، وعلى هذا إن ماتعهد به هؤلاء المكبلين، والرجال المسجونين مرفوض من قبلنا كلياً ولانرضى به البتة، ولن يتوقف الرومان عن الحرب في ايطاليا حتى يضعوها مع الجزيرة كلها تحت سلطاننا كما كانت من قبل».

وعندما تسلم الذين كانوا يحيطون بوليم الرسالة، ردّوا عليها كما يلي:

«إذا ما كنتُ ترغب، أيها الامبراطور الجليل، أن تفرض عقوبات علينا بسبب الأخطاء التي اقترفت بحق جلالتك من قبل، فلقد عذبت ايطاليا فوق ماهو ضروري، فلقد استوليت على مالايقل عن ثلاثمائة مدينة في وسطها، بعضها لم يكن داخلاً في المملكة الرومانية منذ زمن طويل مضى، ولقد نلت شهرة لم ينلها غير جلالتك منذ أيام جستنيان، الامبراطور السالف للرومان، نحن نطلب منكم مقارنة ذنبنا (نعني عندما استولينا على كورنثا ويوبويا) مع الانتصارات الرومانية في ايطاليا، التي استولت منذ زمن طويل على ممتلكات كثيرة هناك ونقلت كثيراً من المقتنيات، وغالباً ما ملأت الأرض بثلاثة أضعاف من الدماء، ثم إنكم لم تقتصروا في عملكم على مجرد نهب الكثير من المدن بل حولتوها إلى رعية لكم. أيها أعظم بالنسبة لكم؟.

وإذا لم ترغب بقياس هذه الأشياء ضدنا، نحن الذين أدنى كثيراً النسبة لجلالتكم، إلتفت وعد بالذاكرة إلى الأباطرة القدماء، وقدّر معي إعات الرومان في الأيام الماضية، أم أنه لم يحدث أن قام أحد بتسبيب الاضطراب للمملكة الرومانية؟ أو لم تكن دولتك هي التي عانت كثيراً على أيدي شعوب الترك والهون [البشناق]، وفيما بعد على أيدي روبرت [غويسكارد] الذي عبر من ايطاليا إلى إيبيدامنوس Epidamnos [دورازو، حالياً دوريس] وناهض جدك [ألكسيوس الأول] بعدد كبير من المعارك؟ فلقد تمكن جدك بكل صعوبة، لابل نادراً ماتمكن من دفع روبرت من الأراضي الرومانية، غير أنك استطعت أن تسيطر تقريباً على كل مالدينا، وإذا ماكنت قد فعلت هذا انتقاماً لنفسك منا، فلقد حصلت على مافيه الكفاية من انتصارات، ولقد عاقبتنا بما فيه الكفاية.

وبما أنك أنت الذي دست ترابنا، ليس من العار أبداً قبول عروض السلم، كما أن ذلك لايتخطى الفخار أبداً، وإنك —في حال القبول— سوف تتسلم على الفور جميع الرومان، الذين وقعوا في أسرنا، مادام القدر

هـو الذي أعطـانـا مثـل هؤلاء الـرجـال العظماء، مـع أنك لسـت محقـاً بغضبك علينـا، لأنه ليـس من المعيـب للانسـان الذي يخوض الحرب أن يتخذ اجراءات ضـد أعدائه، هذا ويبقى أنك محق في اثـارة الحرب ضدنا ولسبب واحد، لكن مـاالذي اقترفناه من ذنب تجاه يوبـويا؟ لأنك —كما قلنـا— تجاوزت التوزيـع العادل، وعلى هـذا إذا ماكنـت راغباً في فـرض عقوبـات علينا بسبـب ماقمنا بـه في أراضيك، فلقد فعلنـا مايسـاويه في الدفاع ضد جلالتك، إنما إذا مـاأردت اثارة الحرب دوماً ضد شعبنا، لقد حان الـوقت لتقـدير هذا الأمـر فيما إذا كان مناهضـاً للقوانين الانسـانية، لأنه انسـانياً أن تقوم بقياس الحروب بـأسبابها، وربما يقول انسـان آخر ان تمضي أبعد فذلك عمل وحشي، لكن هذا لن يقال من قبلنا، نحن نطلب منك إبرام معاهدة وإنهاء هذه الحرب».

وبعدما استعرض الامبراطور هذه الرسـالة عدة مرات، وافق على ماقيل فيها، وعندمـا تسلم مانويل الأسرى الرومـان واسترد أسلاب الحرب التي كانت هناك، وحصل بالاضافـة إلى ذلك على أيمان أداها وليم أنه سيكون حليفه فيما يتعلق بقضايا الغرب، عنـد ذلك أنهى الحرب، وقام بعد وقت قصير بتشريف وليم بأن جعله ملكاً، حيث أنـه لم يكن قبل ذلك كذلك، واحتفظ نحـوه بعواطف جيدة، حتـى انه عندمـا استفرغ وليم ماكتـب له من حياة، واتصل أخـوه به [مانويل] وطلب تقديم المسـاعدة له ليحكم صقلية، لم يستقبله أبداً(٢٧).

١٦- وهكذا وصلـت الانشغالات الـرومانيـة في الحروب الايطاليـة إلى نهايتها هناك، وبما أن الشـؤون في آسيا كانت متحركة منـذ أمد، بينما كان الامبراطور مـا يزال يتـابع الصراع في ايطـاليا، ولـذلك كـان مهمومـاً كثيراً بشأن المسائل هنـاك، لكنه كان مستغرقـاً كلياً بمشاكل ايطـاليا، ذلك أن سلطان الأتـراك(٢٨) كان قد استولى على كـل من مدينتي بـونورا Pou-noura وسبيلا(٢٩) Sibyla وكانتـا من قبل خاضعتين للـرومان، كما

أن طوروس السالف الذكر كان قد استولى على عدد كبير من مدن كليكية، وقام في الوقت نفسه يغي—باسان، الذي كان مقدماً للأتراك وحاكماً لمنطقة كبدوكية، بالاستيلاء على أونايون Oinaion [أوني] وبوري Pourae [بافرا]، وكلتاهما من مدن بحر بنطش(٣٠)، وقام الامبراطور بإرسال ألكسيوس غيفاردوس [حوالي١١٥٨] ضد السلطان، فاستطاع استرداد المدينتين المذكورتين، ونجح الامبراطور في الوقت نفسه في جهوده في جعل يغي—باسان يتخلى عن حملة ضد الأراضي الرومانية، وأن يغدو حليفه المخلص، ومن ثم خطط ليقوم بنفسه بحملة إلى كليكية.

وحدثت آنذاك في بيزنطة الحوادث التالية: كان هناك لاوياً، من الذين ندعوهم قسس، كان اسمه باسيل، كان معهودا إليه القيام بنشر وتفسير الكتابات المقدسة للجماهير في أوقات الاجتماعات الدينية في كل مكان، وقد أراد أن يقوم بشكل علني بذيء بالاساءة أثناء الطقوس إلى بعض الذين تخاصم معهم مؤخراً، لاسيما ميخائيل السالونيكي ونقفور الذي كنيته باسيلاكيوس (أوباسيلاكس)، وكان واحداً من هذين الذي اسمه ميخائيل آنذاك أستاذاً للبلاغة يتولى شرح وعرض الكلمات المقدسة للأناجيل في كنيسة آيا صوفيا، ونظر إلى الآخر نظرة تقدير من قبل رجال الأدب، خاصة لبراعته في تأليف الخطابات، وفي الحقيقة كان مدرباً بشكل بارع في كثير من أقسام البلاغة، وعمل هذان الرجلان في هذه الأشياء، وكانا ينزعجان إذا مارأيا انساناً متقدماً في المعارف العلمية، ومن ثم يقومان بالدس ضدّ مثل هذا الانسان، وبذلك أصبحا الأسباب لمضار بالغة لحقت بهما وبكثير غيرهما.

لأنه عندما كان باسيل يؤدي قداسه العادي في كنيسة الرسول يوحنا اللاهوتي خارج المدينة، ذهبا للاصغاء إليه، وبنوايا تآمرية عدوانية مليئة بالشرور، لأنه عندما كان ماضياً في القراءة لواحد من نصوص الانجيل،

يخيل أنـه أعلن أن ابن الـرب والروح كانـا واحداً، بدون تمييـز وأنهما تلقيا أضحية قـربان التعميـد مع الأب«٣٠»، وقامـا على الفور بـالتمسك بهذه العبـارة، وصارا يصعـدان وينزلان وهما يستهـزئان بها، قـائلين إن باسيـل أعطى طبيعتين [تتعلقان بحال المسيح]، إذا كـان واحد قد ضحى وتلقى الآخر الأضحيـة، ووافق آخرون ممـن احتلوا مكانة ونـالوا تقديـراً لعلمهم على هذا التفسير، وخاصة سـوتريكوس Soterichos الذي كنيته بـانتيـوجينـوس Panteugenos ، وكـان رجـلاً قـد تفـــوق على الآخريـن في تلك الحقبـة في المعرفة وفي البراعـة الخطابيـة، وكان قـد نال عرش البطـركية في انطاكيـة، لكنه لم يكن رسم بعـد، ودافع سوتـريكوس عن عقيـدتها ليس فقـط باللسان والفـم، ولكن بحشد كميـة هائلـة من الأدلة المنطقيـة، التي إذا عـرضت على شكـل حوار، تتملـك شبهاً عظيماً بـأفلاطـون، ووحد في تصنيفـه بين كثير مـن الأشياء المتنـاقضة، وبسبـب ذلك خضـع للخلع من العـرش البطركي هـو وكل الـذين تعاونـوا معه، وكـان ذلك عنـدما تـولى الامبراطـور الحكم على المسـائل موضـع الخلاف، واسترد باسيل مرتبته ثانية، ذلك أنه كـان قد فقدها من قبل، ومع هذا لقد خسرها ثانية في وقت متأخر، عندما اتهم أنه غير أرثوذكسي العقيدة «٣٢».

١٧ - وما ان وصل هذا الخلاف اللاهـوتي إلى هذه الخاتمة حتى انطلق الامبراطور ضـد طوروس، ذلك أنـه عندما كـان مشغولاً —كما ذكرنـا من قبل— بشؤون الغـرب، قام هذا البربري الـذي كان ينتظر هذه الفـرصة، بالاستيلاء تقريباً على مجمل مدن كليكيـة، ذلك أنه كان أعظم مهارة من أي انسان في الامساك باللحظة المناسبة، وقادراً على تحريك القضايا.

لهذا السبـب ذهب الامبراطـور إلى آسيا، وكـذلك لأسبـاب أخرى أنـا مقبل على حكايتهـا: عندما كان ريمونـد صاحب أنطاكية قـد انتقل من بين الأحيـاء، أقدمـت زوجته كـونستـانس على منـح نفسها والممتلكـات الأنطاكيـة إلى الامبراطور، لكـن —كما سلف بنـا القول— عنـدما أرسـل

الامبراطور القيصر جون روجر للزواج منها، غيرت رأيها بموافقة عامة من الأنطاكيين، وارتبطت بالزواج[١١٥٣] بواحد اسمه رينودي شاتلون [أرناط]، ذلك أن الانطاكيين كانوا يخشون أنه عندما تتزوج المرأة من روجر سيصبحون تابعين للرومان ومن رعاياهم يدفعون الضرائب لهم، وعندما لم يستجب الامبراطور لما طلبه أرناط منه، حاول هذا أن يخيفه، وعرض كثيراً من التهديدات، وأكّد أنه يريد المال، وهنا قام بما يلي[١١٥٦]:

بعدما قام ببناء عدد من السفن، أبحر بها نحو قبرص، وقاتل الذين فيها بطريقة القراصنة، وحمل من هناك كميات هائلة من الثروات، وفي البداية تمكن ابن أخت الامبراطور جون (كومينوس البروتوسيباستوس) الذي كان آنذاك حاكماً للأرض ومعه ميخائيل براناس والذين كانوا متمركزون هناك للدفاع عنها، من رده والتعامل معه برجولة، ثم إنه عندما كان براناس يتولى مطاردته باندفاع لم يكن ضرورياً عند ليكوسيا (نيقوسيا)، تقدم جون للالتحاق به، فوقع الاثنان بالأسر بأيدي أرناط، وبناءً على هذه الأحداث زحف الامبراطور إلى كليكية(٣٣).

وعندما وصل إلى فريجيا الصغرى(٣٤)، اصطدم بالأتراك هناك، فهزمهم بالقتال، وقتل منهم كثيراً، وعاث فساداً بالمنطقة المجاورة التي كانت عائدة للترك، وفعل ذلك وهو مسرع نحو كليكية، متظاهراً بالحرب ضدّ الأتراك، فقد ارتأى أنه بهذا الأسلوب يمكنه أن يفاجأ طوروس وهو غافل، ومن أجل أن يصل بشكل غير متوقع، قام زيادة على ذلك بالعمل كما يلي:

أمر ألكسيوس كاسيانوس Kasianos ، الذي كان يحكم آنذاك منطقة سلوقية بأن يقوم بحشد القوات المحلية وأن يكون مستعداً، ثم اختار الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه وبادر مسرعاً إلى سلوقية، وأمر

بقية الجيش الروماني الذي بقي في بعض الأماكن حول أضاليا، أن يعتني بخيوله، لانتشار مرض كان مؤثراً بشكل خاص على المخلوقات النادرة، فقد هاجم حوافر الخيول وسبب لها قروحاً مؤلمة.

وعندما وصل إلى سهول سلوقية(١١٥٨) لم تكن القوات جاهزة حسبما كان قد أمر (لأن ذلك كان قد أهمل من قبل ألكسيوس) فتحول نحو شيء آخر، ذلك أنه كان متشوقاً لالقاء القبض على طوروس بكامل قواه، وقام بارسال ألكسيوس أمامه حتى يتمكن بشكل ما من اعاقة طوروس، الذي التقى به هناك، في حين قام هو [مانويل] بالزحف خلفه وهو يقود قوة لم تزد على خمسمائة رجل مسلح، وكان هذا الطاغية سيقع بسرعة أسيراً بأيدي الرومان، لولا أن القدر تدخل بشكل غير متوقع وأنقذه، ذلك أن واحداً من المتسولين [الحجاج] الذين كانوا بأعداد كبيرة من الأجناس اللاتينية، ذاهبين إلى فلسطين، وكانوا قد عانوا أثناء تجوالهم بالجبال والحصون ولم يدعوا شيئاً لم يحتاجوه بحشودهم، وقد التقى هذا اللاتيني بالامبراطور، وحصل منه على قطعة ذهبية، ثم بادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى طوروس وحذره من دنو الامبراطور، ولدى سماع طوروس بهذا اندهش، غير أنه لم يفش الأخبار إلى أحد من الناس باستثناء توماس وكوركيس اللذان كانا مقربين منه، وسارع بالفرار ملتجئاً من مكان إلى آخر.

ودخل الامبراطور إلى كليكية، غير أنه لم يعثر على طوروس في أي مكان، وقد تمكن من الاستيلاء على حصن لاموس [على اللاموس جي]، وكان جيد التحصين، ومع ذلك أخذه بدون قتال، ثم استولى على كستراموس وعين زربة،وهي مدينةواسعة الشهرة، وزحف نحو الأمام فعاث فساداً في المنطقة وأخضع لونغينياس Longinias وجميع المنطقة المحيطة بها، وعبر يريد طرسوس التي كانت حاضرة تلك الدولة، فاستولى عليها بسهولة، وقام بارسال بعض عساكره إلى تلي [توبراكل

Toprakkale تل حمدون] وهو حصن حصين جداً، فوضعه تحت سلطة الرومان(٣٥)، لكن كيف استولى على طرسوس التي لم يكن من السهل الاستيلاء عليها بآلاف الحملات، كيف فعل ذلك في يوم واحد، هذا ما أنا مقبل على حكايته:

لم يرغب الامبراطور بالإقامة طويلاً هناك، لذلك توجه نحو مدن أخرى، غير أنه أرسل ختنه ثيودور باتاتزس Batatzes ليتولى حصارها، وقبل أن يصل ثيودور إلى المدينة، تخيل الذين وقفوا فوق الأسوار أن الامبراطور هو الذي يقترب منهم فأصابهم رعب منقطع النظير، حتى أنهم ألقوا بأنفسهم من الأبراج، فمات هؤلاء الأشقياء ميتة تعيسة، وبهذه الطريقة تمّ على الفور الاستيلاء على المدينة.

١٨ - وهكذا تمّ الاستيلاء على طرسوس، ولاحظ طوروس وأرناط هذا، فلم يتجاسرا على التوجه نحو الامبراطور رسلاً لنفسيهما، لأنهما كانا يعرفان عظيم مااقترفاه من ذنوب، ولهذا آثرا بعث بعض الرسل من بين الأعيان(٣٦) إليه، مع أمل أن يصالحهما الامبراطور ويغفر لهما، ونظراً لاخفاقهما فيما ابتغياه، وافق أرناط، الذي طوقته المصاعب من كل الجهات، على تسليم قلعة أنطاكية إلى الامبراطور، إذا ماعفي عن جرائمه، وكان من حيث المبدأ مدركاً لسوء مشاعر أسقف أنطاكية نحوه، وهو رجل من بني قومهم أقاموه راعياً لأنفسهم، وأعطوه لقب بطريرك، وكان قد نشب نزاع بينه وبين أرناط للسبب التالي:

لقد شعر أرناط —كما ذكرنا من قبل— بفقر شديد، فقرر نهب قبرص، والتقى أرناط بالبطريرك على انفراد، وحيث أنه كان يعلم أنه ثري جداً، فقد طلب منه منحه بعض المال، وبما أنه لم يكن قادراً على الحصول على أي مبلغ منه، قام بانتزاع ثياب البطريرك وأخذ منه أرديته، ثم قام بضربه بالعصا مراراً، وبما أن الموسم كان فصل الصيف في ذروته، قام بدهن

جروح البطريرك بالعسل، وتركه يحترق بالشمس، وهكذا استقر الذباب والبعوض والدبابير والنحل وكل حشرة ماصة للدماء، حول جسده العاري تماماً، ومصت دمه، وأمام هذا العذاب استسلم الرجل، ووافق على التنازل عن جميع ثروته إلى أرناط، وقام أرناط حتى ينال رضا [البطريرك] بجعله يرتدي جميع ملابسه المعتادة، ثم أركبه على ظهر حصانه وقاده خلال المدينة، وقد سار إلى جانبه وهو ممسك بالحزام المتدلي من سرجه، ومع أنه فعل هذا، فقد كان البطريرك أكثر غضباً على أرناط، وبات ينتظر الفرصة لينتقم منه، وقد كتب مراراً وتكراراً إلى الامبراطور وعرض عليه القيام بخيانة أرناط لصالحه، وعندما رفض الامبراطور هذا العرض (ولأنه كان يؤثر الربح بوساطة الحرب لا بوساطة الخيانة) تخلى عن هذه المحاولة.

ولدى معرفة أرناط بهذا، قام بالوعد بالأشياء السالفة الذكر إلى الامبراطور، وعندما لم يأذن الامبراطور بقبول ذلك، تصرف أرناط وفق الأسلوب التالي:

رفع الغطاء عن رأسه.. وشمر عن ذراعيه حتى المرفقين، وسار داخل المدينة حافياً مع حشد من الرهبان، ثم ظهر أمام الامبراطور، وقد لف حبلاً حول عنقه، وحمل سيفاً بيده الأخرى، وأقيمت دكة رائعة هناك، ووقف أرناط بعيداً عن الخيمة الامبراطورية، وكأنه غير متجاسر على الاقتراب منها، بينما اقترب من الامبراطور حشد من الرهبان —الذين لم يكونوا رهباناً— وكلهم حفاة، ورؤوسهم عارية، وجثوا على ركبهم، وهم يبكون والدموع تنحدر من مآقيهم، وقدموا نحوه أذرعتهم، وفي البداية رفض الامبراطور، لكن فيما بعد استجاب لكثرة الرجاءات، فأمر الأمير أن يتحرك نحوه، فمشى نحوه بالأسلوب الموضح من قبل، فغفر له ذنوبه وتجاوز عن آثامه العظيمة، وفي الوقت نفسه ربط أرناط نفسه بعدد كبير من الأيمان تعهد بها بأشياء كثيرة، منها أنه سيعمل وفقاً لارادة

الامبراطور، وسيقبل بشكـل خاص بالعادة القديمـة في ارسال أسقف إلى أنطاكية من بيزنطة.

وفي الحقيقة استولـت الدهشة على الذين كانـوا حضوراً، لاسيما هؤلاء الذيـن جاؤوا رسـلاً من دول آسيا: مـن خوارزم، وزوزن، وأقبـاط، وجميع ميديا وبابـل، اللتان يعرف حاكمها باسـم السلطان الكبير(٣٨)، ومن نور الدين أتابك حلب، ويغي—باسان مقدم الترك، ومن أباسغاي -Abas gai ومـن الايبيريين [الجورجيين] لابـل حتـى مـن الفلسطينيين [الـدول الصليبيـة] ومن أرمـن ماوراء ايـزوريـا [أي مملكة أرمينيـا السالفـة شمالي بحيرة وان].

١٩- لقـد كان هـذا مـاوقـع هناك، وقـام بلـدويـن [الثالـث] ملـك فلسطين بمراسلـة الامبراطور وطلـب الالتقاء للتبـاحث في بعـض الأمور الهامة كما قال، لكن العمل هو المسوغ والمطلـب، فقد كانت عينه متمركزة على إمارة انطـاكية، التي وقعـت على مقربة منـه، ومع ذلك هـو لم يعرف كيف يمكنه نيلها، وبما أنه لم يكن قـد عرف بعد شيئاً عما حدث لأرناط، فقـد أشار على الامبراطـور ألا يطلـق سراح أرناط أبـداً، فعنـدما لايكـون أرناط مـوجوداً يمكنـه التعامل مـع الانطاكيين وجعلهم بمثـابة رعيـة له، لاسيما وأنهم كـانوا قـد أنقذوا مـن قبله، أو على الأقـل يمكنه أن يفـرض نفسـه على الذيـن كانـوا يرفضـون أن يحكمـوا من قبـل الفريقين [أرنـاط ومانويل](٣٩).

ومـا ان فـرغ بلـدويـن من التخطيـط لهذه الأشيـاء، حتـى وصـل إلى أنطـاكية، وخـاطـب الانطـاكيين مخادعاً لهم بتـذكيرهـم كيـف جاء مـن فلسطين مـن أجل منفعتهـم، وأنهم مـدينين له بفضـل عظيـم، وعندمـا وافقـوا على ذلـك، طلبوا مـرة ثـانيـة مـن الامبراطور استقبـالـه، ولادراك مانويل لنوايـا الرجل، فقد رفض في البداية، مدعيـاً أن بلدوين لن يتلقى

التحيات الرسمية المناسبة، ولاالترحيب، إذا كان سيتباحث معه بينما هو غارق في وسط الأعمال العسكرية، لكن مانويل وقد رأى بلدوين قد ازداد اصراراً والحاحاً بالرجاء حول المواضيع نفسها يومياً، وافق أخيراً، وأمره بالقدوم، وعندما توجه للقاء الامبراطور، وخرج من المدينة أحاط به الانطاكيون، ورجوه أن يبذل المستطاع من أجل مصالحتهم مع الامبراطور ورضاه عنهم.

وحدثت في الوقت نفسه أشياء كانت كما يلي في معسكر الامبراطور:

كان هناك واحداً من أمناء سر الامبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستيبيوتس Stypeiotes ، وكان ستيفن هذا من المقربين بشكل خاص من الامبراطور ومعهود إليه بوظيفة الدوادار، وهي وظيفة رئيسية، ولكن عندما برهن هذا التعيس أنه سيء النوايا نحوه ومختل فقد لسانه مع عينيه، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل مايفعله الأنبياء، أن مدة حياة الامبراطور قد شارفت على الانتهاء، وأعلن أنه يتوجب على الشيوخ الرومان إعطاء السلطة إلى واحد ليس في شرخ الشباب وممتلىء بالفخار، بل إلى رجل مسن أصيل، قد تجاوز مرحلة الشباب، من أجل أنه عندما تجري مناقشته، أن يتولى توجيه أعمال الدولة بشكل ديموقراطي، وهكذا انقضت الأمور بالنسبة لثيودور، وحدث أيضاً بعد ذلك أن رجلاً اسمه جورج وكنيته بيرهوجرجس Pyr-rhogeorgios ، وكان مسؤولاً عن الأبواق الامبراطورية، وكان يدعى عادة بـ Primikerios البلاط(٤٠)، هذا الرجل اختلف مع الامبراطور حول مسائل هامة وكبيرة، ومع أنه تمتع ثانية برضاه عنه، ولم يعان من أية أضرار، لكنه فقد وظيفته فقط.

٢٠- ولدى معرفة الامبراطو باقتراب الملك أرسل بعض الأعيان إلى أحد الأماكن، وأرسل البقية لاستقباله، والسير خلفه بأفضل طريقة مميزة،

كما وبعث ابن ختنه لتقديم التحيات له ولتشريفه بالشكل اللائق حتى يصل إلى حضرة الامبراطور، ثم شرّفه مانويل ورحب به بطريقة تليق بعرش داوود، لكن بلدوين تصرف بشكل آخر فيه عجرفة مردها إلى شعوره بأهميته، أو لما جبل عليه من رعونة، ذلك أنه عندما وصل إلى الخيمة الامبراطورية يحيط به حملة الصولجان الامبراطوري والارستقراطية الرومانية، ترجل من على ظهر حصانه حيث كان من عادة الامبراطور أن يفعل ذلك، وتقديراً من الامبراطور وفهماً لتفاخره غض النظر عن كثير من هذه الأشياء التي تتعلق بمكانته، ومع ذلك أولاه الأهمية، وتوجه إليه بالخطاب، وقدم له مقعداً منخفضاً ليجلس عليه، وتحادث معه، وكرّمه بدعوته إلى مائدته.

وبعدما عقد أرناط هذه الاتفاقيات، لم يرض الأنطاكيون بارسال قوات فرضت عليهم لمساعدة الامبراطور في الحرب، لأن قواتهم القديمة قد اضمحلت وزالت من المدينة، وكذلك لم يعجبهم ارسال أسقف إلى انطاكية من قبل بيزنطة، ولهذا السبب جاءوا يشتكون إلى الامبراطور، وتدخل بلدوين لدى الامبراطور حول هذا، ولاحظ بلدوين أن هذه المطالب لم ترفض بشدة لذلك جعل الرسل يلقون بأنفسهم على قدمي الامبراطور، وتفحص الامبراطور وفكر حول أي الشرطين فيه كرامة أعظم للرومان، وسمح لهم مانويل على الفور بالاسهام بقوات أقل، (لأنه ينجم عن طلب شيء يتجاوز طاقات الانسان في كثير من الأحيان مصاعب جمة، ويكفي على العموم تقديم شيء رمزي للدلالة على التبعية والخضوع في الوقت نفسه) غير أنه قال: لايمكن قبول الأسقف من أي مكان غير بيزنطة، وقبل الانطاكيون هذا بكل سرور، وعادوا إلى المدينة.

٢١- (أ)(٤١) وهكذا ختمت مسألة أرناط هناك، وعزم الامبراطور بعدها على مهاجمة طوروس، وهرب طوروس في البداية إلى مكان مهجور في جبال طوروس، ثم إنه عندما تدخل بلدوين لصالحه لدى الامبراطور،

جاء إلى المعسكر الروماني بمثابة تابع تائب، ورحب به الامبراطور، وأدخله ضمن الرعايا الرومان، وهكذا ألغى الحرب.

وبما أن الامبراطور كان مقبلاً على الدخول إلى مدينة أنطاكية [نيسان١١٥٩]، خاف الانطاكيون —كما يبدو— من أنه حالما يتم السماح للقوات الرومانية بالدخول إلى المدينة، فإن هذه القوات ستحاول طرد الانطاكيين منها، وهكذا لم يعرفوا كيف يصرفون الامبراطور عما عزم عليه، فاخترعوا بعض الأعذار الزائفة، وقدموها له، وكانت هذه الأعذار أن بعض الأشخاص من المتهورين من بينهم قد تآمروا انه عندما يدخل الامبراطور المدينة مجرداً من السلاح (لأنه لم يكن غير ذلك لائقاً) سيتولون بعض الأعمال الخيانية ضده، وفهم الامبراطور الخدعة، فأعلن لهم أنه لن يحدث شيئاً من هذا القبيل، وأوضح بجوابه للذين كانوا من حوله كيف أن ذلك لم يكن ممكنا، ليس فقط لأن الملك كان سيقوم بالاستعراض أمام الامبراطور، بعيداً عنه وهو مجرد من السلاح، بل لأن أرناط مع آخرين سيحيطون بالامبراطور ممسكين بلجام فرسه وبأطراف سرجه، وذلك أثناء سيرهم على الأقدام مجردين من السلاح، وستحيط بالوقت نفسه بالامبراطور وتتولى حراسته جماعة كبيرة من حملة الفؤوس من البرابرة [الحرس الفريجي]وذلك وفقاً لما جرت عليه العادة.

وهكذا رفض هذه المعاذير، لكنه عندما كان على دخول المدينة، لبس درعين فوق بعضهما، معتمداً على قوة جسده وقدرته على التحمل، ولبس فوق الدرعين رداءً مزيناً بالأحجار الكريمة لم يكن أقل وزناً مما كان تحته، كما وضع على رأسه تاجاً وأشياء أخرى اعتاد عليها الأباطرة، وأنا مندهش حول هذا الأمر، فبعدما احتفل بالنصر بالطريقة التي اعتاد عليها في بيزنطة، ووصل إلى كنيسة بطرس الرسول ترجل بكل سرعة ورشاقة، ثم لما عاد لامتطاء صهوة حصانه، امتطاه بقفزة واحدة، وكأنه مجرد تماماً من السلاح.

واستقبله هنـاك أسقف المدينـة، وقد ارتدى الثيـاب الكهنوتيـة، وكان معه جميع رجال الـدين، وقد حملوا في أيديهم صلبانـاً، كما حملوا الكتابات المقـدسة، وانـدهش الأجـانب والغـربـاء عندمـا رأوا بالاضـافة إلى هـذه الأشيـاء أرناط ومعـه أعيان انطـاكية يـركضـون على أقدامهـم من حـول الحصـان الامبراطوري، وكـان بلدويـن، وهو رجـل متوج، يسير في عـرض بعيـداً، وهو على ظهـر حصـانـه، لكن بـدون شـارات وعـلامات، وبعـد الانتهـاء من احتفـال النصر هذا وفـق هـذه الطريقـة، بقي الامبراطـور في المدينة مدة ثمانية أيـام، ثم غادرها، وأظهر الانطاكيـون تذللاً كبيراً نحوه، وذلك أثنـاء اقامته في قصر أرنـاط، حتى انه مـامن أحد عـرض قضية أو شكوى أمام المحكمين المحليين للبت بها، بل أمام الرومان.

٢١- [ب] وبعدمـا نجح في هـذه المسائل، استعـد الامبراطور لقتـال نور الـدين، لكـن بما أن نور الديـن قد عـرف بزحفه ضـده، قام بـاطلاق سراح واحـد من الايطـاليين، هو ابـن [كـذا] صنجيل(٤٢)، مـع الرجـل الذي كـان يتولى قيـادة الفرسان في فلسطين، الـذي يطلق عليـه اللاتين اسم مقدم الداوية(٤٣)، وكانا من الـرجال الأعيان، وبالاضافة لهما أطلق سراح عدد كبير من النبلاء ومـن العامة، فقد أطلق نور الـدين سراح ستة آلاف من الناس العـاديين الذين كان قد أسرهم مـن بين صفوف الجيش الألماني والفرنسي أثنـاء زحفهما في آسيا [الحملـة الصليبية الثـانية]، ولقـد فعـل نـور الـدين هـذا كلـه، ووافـق بـالاضـافة إلى ذلـك على مسـاعـدة الامبراطـور في حروبـه في آسيا، وتقبلـه مانـويـل حليفاً على قـاعدة هـذه الشروط، ومن ثم تخلى عن أغراضه في حربه.

لكن بعد مضي وقت قصير عزم الامبراطـور على إلغاء الاتفاقية، لكنه لم يتوصل إلى مااستهدفه، كما سيتضح معنـا فيما يلي من أخبار: فبدون معرفة من نـور الديـن قام حشـد من المسلمين بصنـع كمين أوقعوا مـن خلالـه أضراراً بالـرومان الـذين كـانوا يقـومون بجمـع المؤن والأعلاف، وعنـدما

سمع الامبراطور بما حدث أقام كمائن في أماكن مناسبة هناك، وقام عند الفجر بالهجوم على المسلمين، وهم لايتوقعون ذلك.

وبعدما تولى طرد المسلمين، رغب بالقيام بالصيد، فتوجه لهذا الغرض إلى السهول العليا من سورية، وهو أمر مرعب، السماع به في تلك الأوقات، ومضى أمامه عدد من الرجال لايزيد عددهم عن الستة، لاقامة الفخاخ أمام أجحار الحيوانات، وقبل أن يقطع هؤلاء مسافة طويلة التقوا بأربعة وعشرين من مقاتلي الأعداء، وقد اشتبكوا معهم، وحاولوا بالخداع جذب بعض الرومان نحو جيشهم، الذي كان من ورائهم، وما ان رأى الصيادون هذا حتى ألقوا بأنفسهم في مجرى نهر كان أمامهم، وسبحوا عبره، وتوجهوا إلى الامبراطور كي يخبروه بما نزل بهم، ولم ينزعج الامبراطور لسماعه هذا الخبر، بل قال: تعالوا أخبرونا أين هو العدو؟ ومع أن الآخرين كانوا يرتجفون ومضطربين كثيراً، فقد أطلق الامبراطور العنان لفرسه وحمل على الأعداء، وظهر فجأة جيش لايحصى عدده من المسلمين كان مرابطاً هناك في تلك المناطق، وانقض الامبراطور دونما توقف على وسط عدد كبير من الرجال المسلمين، وكان اندفاعه شديداً، وقد تمكن من دحرهم، ولم يتوقف عن المطاردة حتى التجأ العدو المهزوم إلى داخل حصون كانت قد شيدت هناك، وقد امتلأ السهل بجثث القتلى، ولهذا السبب، أراد عندما عاد إلى المعسكر، أن يقوم —كما ذكرنا— بإلغاء الاتفاقية مع نور الدين، لكن بعض الأخبار التي وصلته من الغرب، والتي تحدثت عن اضطراب شديد هناك، حالت بينه وبين تنفيذ مارغب القيام به.

وفي هذه الآونة انكسر ذراع بلدوين للسبب التالي: فلقد شارك الامبراطور في الصيد، وكان مساهماً في التمارين، وقد تولته الدهشة تجاه الامبراطور من جميع الجهات، وهكذا رغب في أن يعرف هل هو مقدّر في أعماله، وأراد أن يظهر أنه مكافىء للامبراطور في حملاته، وفيما هو منشغل

في نشـاطه الـرائع، انـزلق فجـأة مـع حصانـه، وأصيـب —كما ذكرنـا— بذراعه، وتولى الامبراطور على الفور تضميدها، وقـدم له مايلزم من عناية، لذلك فك الرباط بعد أيام قليلة.

وتفـوق الامبراطور في هـذه المسـائل على عدد كبير مـن النـاس الذيـن انشغلوا طـوال حياتهم في فن المعـالجات الطبية، وفي الحقيقة رأيتـه وسط عـدد مـن الـرجـال المدربين يعالـج الجروح، ويقـدم الأدويـة والعقـاقير للمرضى، كما أنـه أسهم كثيراً في علم المعالجة والإبراء، الـذي ظلّ مجهولاً لوقـت طويـل، ولايُعرف أي عقـار يصلح للـدهن وأيها يصلـح للشرب، وذلك مـع أشياء كثيرة يمكن لأي راغب أن يجمعهـا من المشافي العـامة، التي تدعى بالعادة «بيوت الضيافة»، لابل قدم أكثر من هذا كله.

ثـم ركب الامبراطـور الطـريـق إلى بيزنطـة، وارتحل على أقصر الطـرق، فـانطلق مـن بـامفيليا، وقـاد جيشـه مـن خلال وسـط ليكـونيا، مـع أن السلطان قـد عارض ذلك بكـل شدة، وعندمـا اقترب من مدينـة لاراندا Laranda [قرامان] (٤٤)، غـادرها الأتراك الخائفون وفـروا منها، حيث خيّـل إليهم أن الـرومان سيقـومون على الفـور بـالهجوم على قـونية، لكـن عندمـا لم يلحق بهم أدنـى أذى على أيدي الـرومان، استردوا شجـاعتهم، وجلبوا كميات من المؤن وقدموها لهم، وزودوهم بها، بيد أنه كان من غير الممكن بـالنسبة لـلأتراك التخلي كلية عـن الكراهيـة التي جبلـوا عليها، وهكذا عنـدما وصل الـرومان إلى كوتيـايون Kotiaion [كوتاهيا] قامـوا بمهاجمة بعض الـذين تخلفوا عن بقيـة الجيش، وقتلوا عـدداً منهم وأخـذوا البقيـة أسرى، ثم عـاد الامبراطـور إلى بيـزنطـة،وبعدمـا احتفـل بانتصاره العظيم، وقدم الشكر للرب على انتصاراته، عاد إلى قصره(٤٥).

٢٢- وجرى تـذكيره بعد أمـد قصير ليأخـذ الثأر وينتقـم من الأتـراك لأعمالهم الحمقـاء التي مـارسـوها ضـده، فقـام بحشـد جيش في سهـول

كيبسيلا Kypsella [إبسالا في تراقيا]، وكتب بالوقت نفسه إلى حاكمي المناطق الرومانية في آسيا، يأمرهما بمهاجمة الأراضي التركية في وقت محدد: واحد من جانب، وآخر من جانب آخر، وبما أن هذا قد وقع بالفعل، فقد أدى إلى إلحاق أضرار عظيمة بالأراضي التركية، وعندما وصل الموسم إلى الانقلاب الشتوي، عبر الامبراطور المضيق وجاز إلى آسيا، ووصل إلى دوريليون عبر نهريها الذي يدعى أحدهما باثيس Ba-thys [موتاليب ديري أوساريسو Muttalip Dere-Sarisu] وذلك من قبل السكان المحليين، واسم الآخر ثيبريس Thybris [أوتمبريس وحالياً بورسول جي]، وبعدما اجتاح المنطقة المجاورة بأكملها، طرد حشداً كبيراً من الناس مع كميات من مختلف أنواع الحيوانات، وبعدما عرف الأتراك بما لحق بهم من أضرار، شرعوا يظهرون على شكل فئات وجماعات، وأرسل الامبراطور إحدى التشكيلات الرومانية لتتولى نهب المنطقة الممتدة أمامها، وقام هو نفسه بالصعود إلى المناطق المرتفعة في تلك المنطقة مع قليلٍ من أتباعه، وأمرهم بالنفخ بصوت مرتفع بالأبواق الامبراطورية، ساعياً من وراء ذلك إلى إلقاء الرعب بين الأعداء، حيث سيتصورون أن الامبراطور يقود بنفسه أعمال القتال.

وكما حدث دوماً، في ايقاعه مذابح عظيمة بين صفوف هؤلاء البرابرة، كلما ظهر بشكل غير متوقع بالنسبة لهم، فقد ظهر كالصاعقة، وقيل إن آلافاً قد ذبحوا منهم، لابل إن عشرات الآلاف من الرجال المسلحين وغير المسلحين قد فروا غير مبالين بالعار، وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامعي، بدت لي لايمكن تصديقها، مثلما، لايمكن تصديق أفعال [نقفور الثاني] فوكاس ويوحنا الأول تزمكس، اللذان لم يكونا بين الأباطرة القدماء، أو أعمال أباطرة آخرين كانوا مشهورين لشجاعتهم ومن الممكن مقارنتهم بهما، لأنه فوق المعقول أن تتم هزيمة آلاف من قبل رجل واحد، وأن يتم التغلب على أعداد كبيرة من الرجال المسلحين

تمام التسليح بوساطة رمح واحد، ولهذا، كان كلما أقمت في البلاط وسمعت بصوت مرتفع عن أعمال الامبراطور هذه، كنت أنصرف من الاجتماع وأنا فاقد لصوابي، لأن أخلاقي لاتتماشى بشكل طبيعي مع الاطراء الكبير، كما انني لاأسمح بارادتي بمرور عبارة واحدة باستثناء العبارات الصادقة وليس الاطراء الكاذب، واعتدتُ أن أدع هذه الأشياء لتنسج ولتصنع باستمرار في العاصمة وداخل القصر، وبين الذين يشغلون الوظائف العالية، وذلك حتى تصل الحقائق إلى ناظري، وهذا ماحدث عندما صدف أن وجدتُ نفسي وسط الأعداء، ورأيت عن قرب قريب الامبراطور وهو يتولى مقاومة وحدات تركية كاملة، وسيتولى التاريخ وصف هذه الأشياء في اللحظة المناسبة، ودعونا الآن نتابع السير نحو ماهو قائم أمامنا.

وكان الامبراطور في أعالي تلك المنطقة، في حين زحف الجيش الروماني نحو الداخل، واصطدم بشكل غير متوقع مع القوات التركية، وبما أن الصراع بدأ يداً بيد، وبما أن القوات الرومانية بدأت تشعر بالضيق، عندما علم الامبراطور بذلك سارع بأقصى مايمكن، دون أن يرتدي درعاً، ودون أن يحمي جسمه بأي شيء آخر باستثناء ترس، وانقض بسرعة وسط الأعداء، وقام بأعمال رائعة عبّر فيها عن قوة جبارة، حيث كان يضرب بسيفه كل من اقترب منه، وعندما شرعوا بالهرب، لم يضع وقته، وقام بمطاردتهم إثر تزويد يده برمح، ودون أن يلتفتوا نحو الخلف هربوا بعيداً، وحقاً من غير الممكن تصور جيش كبير بهذا التعداد قد تمت مطاردته من قبل رجل واحد، لأن الخوف الذي حلّ بهم أغلق تماماً أعينهم، لكن عندما لاحظوا الحال الذي كانوا به، أخذ كل واحد منهم يهزأ بالآخر ويعيره بالجبن، وهنا انعطفوا فجأة، ووقفوا مواجهين له، لكنهم والرعب مازال يقودهم، امتنعوا عن الاندفاع نحوه والانقضاض عليه بأنفسهم، غير أنهم أفرغوا ماكان بجعبهم من سهام أطلقوها عليه،

ولـذلك كـان يحول ترسـه من جـانب إلى آخـر، يدفـع بذلـك عن نفسـه الرمايات، ويحمي جسده من السهام.

وكـان بين الأتراك واحـداً شجاعـاً وفرداً نشيطـاً، وعندمـا رأى ما مـن واحـد بين هؤلاء جميعـاً تصـدى للامبراطـور بـالقتـال، كان يغلي غضبـاً، فتناول سيفاً من أيدي واحد من أتبـاعه، واندفع ليضرب الامبراطور، لكن الامبراطور أمسكـه من شعره وأخـذه أسيراً، وأخذ معه ثـلاثة آخريـن من الأعيان، وعنـدما وجد البقية أنفسهـم غير قادرين على مواجهتـه، غادروا المكـان فراراً، وعـاد الامبراطور إثـر ذلك إلى المعسكـر ومعه أسراه هـؤلاء، ولدى ادراكه أن الشتاء جاء قاسياً جداً، قرر العودة إلى بيزنطة(٤٦).

٢٣- وفي ذلك الـوقت تماماً [أوائل١١٦٠] كـان في ثغر بيثينـا، حيث كان قـد أسكن مـن قبل الأسرى الـرومان مـن فيلوملنيـون [كان اسمهـا فيليا] (٤٧)، وتعـامل هناك مـع الرسل الذيـن جاءوا من عنـد السلطان، وعندما لاحظ أنـه لم يكن لديهم شيئاً جاهزاً لإعلانـه، صرفهم، وهددهم أنهم مالم يعملـوا متماشين مع ارادتـه سيقوم الفـرسان الـرومان بعـد وقت قصير باجتياح أراضيهـم، ونهب كل شيء بشكل أسوأ حتـى مما تم الآن، وبعدما أمضى بعـض الوقت في أوغسطي Augouste ، انطلق من ثـم من هناك (من قرية دعيت آنـذاك محلياً باسم رتزيون Rhitzion)، وقد استقبلـه السكان المحليـون عنـدما عبر إلى الطـرف الأقصـى من [خليـج أستاكينـوس Astakenos] ، وذهـب إلى الشاطـىء المقابـــل، وزحف من هناك راكباً الطريق المار بـالمدن الساحلية، ووصل إلى فيلادلفيا، وقام من هناك —بعدما أعدّ عدته— بمهاجمة الأراضي التركية (٤٨).

وكـان الرسـل الأتراك يسيرون عبر سهـول دوريلايـون Dorylaion ، حيث كـانوا يجهلون تمامـاً أخبار حملـة الامبراطور على قومهـم، ذلك أنهم كانوا واثقين أنـه كان مقيماً في أحواز مدينة بيـزنطة، وعندما كـانت أخبار

الحملـة الـرومـانيـة لاتتعـدى الاشـاعـات في كـل مكـان [شتاء١١٦٠-١١٦١]، شعر الأتراك بالبـداية أن الأمرلايصدق، غير أنهم عندمـا سمعوا عنهـا من عـدد كبيرمن شهـود العيان، حـركوا جيشهـم، وبادروا مسرعين للتصـدي لها، لأنه لم يحدث أن عـانى البرابـرة من قبـل مثلما عانوه الآن من خسائر بالمال والعتاد، وظناً من الامبراطور أن الأتراك مازالـوا لايعرفون شيئاً عما فعلـه، قدّم أمامـه بقية الجيش الرومـاني، وسار خلفهـم مع عـدد قليل مـن الرجـال، وسمع الـروماِن أن الأتـراك كانـوا يزحفون بقـوة، وقد انزعجوا لذلك واضطـربوا كثيراً، لاسيما لأن الامبراطور لم يكـن معهم، غير أنـه مالبـث أن التحق بهم، ذلـك أنه سمـع بزحـف الأتراك، فـاستردوا شجاعتهم، وزحفـوا بحماس أكبر، وبما أن الوقـت كان آخر النهـار فقد تـرجلوا من على ظهـور خيولهم، وقدمـوا للخيول طعـامها المعتاد، واستراحوا لبعض الوقت، ثم استـأنفوا انطلاقهم، وكان الليل قد حلّ، لذلك ركبوا الطريق وساروا عليه مستخدمين ضوء المشاعل.

وصنعت المشاعل كما يلي:

بـاثبات أقـداح معـدنيـة على قاعـدة تشبـه الصحـن، وهذه الأقـداح المعدنيـة مثبتة نحو الأعلى، وهي منفصلـة، وتتضاءل صعوداً مـن العرض إلى أن تصبح مدببـة، ويثبتون على الصحن شوكة معدنيـة أخرى، تختلف عن البقية، بـأنها في أولها سميكة ثم تغدو مـدببة، وبعدما يتـولون ربطهم صعـوداً حـول بعضهـم بـربـاط مـا، يصبحـون أشبـه بقـاعـدة مشعـل، ويـربطونهم على رأس رمـح، ثـم يأتـون بقطع مـن الكتـان جرى قصهـا طـولانياً، يجعلـونها تمتـص ما أمكـن مـن دهن الخنـزيـر(٤٩) ثم يلفـونها بعنايـة، ويثبتون كـل منها فـوق إحدى النقـاط المدببة للشـوك المعدنيـة، وهذه عنـدما كـانت تشعـل كانـت تعطي ضـوءاً ساطعـاً، يصدر عنهـا، فيكون الحال بالنسبة للعساكر أشبه بضـوء النهار، وماقلناه هذا يكفي عن المشاعل.

وكان الثلج يتساقط بغزارة، وهكذا اختفى الطريق تماماً، وتاه الجيش الروماني، وأضلّ الطريق، وكاد أن يقع في منطقة خطرة، لولا أن الامبراطور شعر بالخطأ، فحمل بيده مشعلاً، وتحرك ذهاباً وإياباً، وفي هذا الاتجاه وذاك، حتى عرف الطريق، ومن ثم قاد الجيش عبر الطريق الصحيح، وعندما وصل الجيش إلى قرية سماها السكان المحليون باسم ساراباتا ميلونوس(٥٠) Sarapata Mylonos حتى شرع بالعمل على جمع المؤن والأعلاف، وكان اسم الذي تولى حكم جميع تلك الامارة (اسمه سليمان) (٥١)، وقد سمع بالأخبار التي انتشرت في كل مكان، ومع ذلك كان متردداً في تصديق ماقيل، لذلك بعث بابن أخيه واسمه بوباكس (٥٢) (أبوبكر)، الذي غالباً ماكان قد رأى الامبراطور، وأمره أن يقترب ماأمكن من الجيش الروماني ويتجسس أخبار الامبراطور، وعندما رأى أبو بكر الامبراطور ترجل على الفور من على ظهر حصانه، وخاطبه بعبودية ولدى معرفة مانويل الرجل من كان ومن الذي أرسله قال له: «قل مايلي لسليمان:

أنت الذي ترغب الآن في معرفة من الذي يتولى نهب الأراضي التركية، اعمل كما لو أن النار قد ألقيت على بيتك، وأنت لم تقم اعتباراً للطريقة التي يمكن أن تتغلب بها عليها، والذي عليك هوأن تبحث جيداً لتعرف من أين جاء أصلها، ومن الذي أشعلها، لايجوز لك الرغبة بالتخفي وراء جبنك بالتظاهر بالجهل، وكأنك قابع تحت ردائك، لأنه من غير المنطقي أن يعفي التظاهر بالجهل مستخدمه من الملامة، والمنطق العام يعرف شيئاً واحداً رائعاً فقط: إن الشجاع وقت المخاطر هو الذي يوازن بين الأمور، وهو إذا لم يتمسك بهذا يفقد كل شيء، وفيما عدا ذلك فإن عذرك لا مكان له، حسناً، لقد أدركت، أنك لاقيت الذي أنزل القوارع بالأتراك، فإذا ماكنت ترغب بالتصدي له، لاتمتلك عذراً، [أن لا تفعل ذلك]».

ومـا ان أكمل كـلامه هكـذا حتى أعـاده، وبعـدما تـولى نهب ماوقـع أمامه، وعرضه للهدم، والتخريـب، ركب الطريق عائداً، لكن حدث أولاً شيئاً لايمكن أن يصدق، لأنـه قيل بأن الجيش الروماني لم يكـن فيه أكثر من ستين رجلاً مقاتلاً، بيد أنه عندمـا باتت أمور الرومان في وضع خطير جداً، تمّ انقاذهم بشكل غير متوقع، ولقد تجمع الأتراك بأعداد كبيرة، كما أنهم امتلكوا أجزاء مـن الأراضي زادت تفوقهم، وكان الأتراك يـرمون من الأعلى، لذلك آلموا الرومـان ايلاماً شديداً، وأرغموهـم على التجمع مع بعضهم والتكتـل، ومع هـذا لم يكن الأتراك على درايـة بشجاعـة هؤلاء، ذلـك أن طبيعـة المكـان لم تكـن مـوائمـة لمرورهـم، ثـم أحـاق الخطـر بالامبراطور نفسه، لأن بعـض الذين كانوا يتولون حـراسته أخذوا يتبددون خفية، ومع أن الامبراطـور في هذا الوضع الخطير، لم يتخـل عما اعتاد عليه من الشجاعة ، قام بابعاد جون قريبـه بالمصاهرة(٥٣)، الذي غالباً ماورد ذكره مـن قبل، وكـان قد اقترب منه، وكـان متشوقـاً لتزويـده بترس (لأنه كـان آنذاك مجرداً مـن السلاح)، قـائلاً بـأنه كـان من غير الممكـن لترس واحد أن يكون كافيـاً لحماية جسدين، وتمكن الرومـان بعد صعوبات جمة من الجواز خلال تلك المنطقة، وعندمـا أصبحوا في منطقة أعرض وأوسع، سمحت للخيـول بالتحـرك وللرجـال بفرصـة البرهنة على قـوتهم، فرددوا عـالياً صرخـة الحرب، ومدوا رمـاحهم وأشرعـوها بـاتجاه العدو، وانقضـوا عليه، فـردوه إلى الخلف، وذبحـوا عدداً كبيراً مـن أفراده، وعـادوا جالبين معهم جميع أسلاب كل من طردوه، وصحيـح أن كثيرين قاتلوا بشجاعة، فقـد تفـوق الامبراطور على كـل الموجـوديـن، فما مـن واحد تقـدم عليـه بالاشتباك مع العدو، ومامن أحد قام بمثـل ماقام به من أفاعيل شجاعة، ولقد عاد الامبراطور إلى بيزنطة بعد نجاحاته هذه.

٢٤- وبعدمـا نزل بـالأتراك مـانزل مـن فواجـع، قرروا رداً على ذلـك إلحاق الأذى بـالرومـان، وحزمـوا أمرهـم واستغلـوا وقتهم فـاستولـوا على

فيليتا(٥٤) Phileta ، وهي مدينة شرقية، ثـم هاجموا أيضاً بشكل غير متـوقع لـوديكيا في فـريجيا الصغـرى، وألحقوا بها أضراراً كبيرة وكـادوا يدمـرونها، وساقـوا أمام سيـوفهم كثيراً مـن السكان مـن الشبان فما فـوق حيـث اتخذوهم أسرى، وفي الحقيقـة كان عـدد الأسرى كبيراً وتكوّن مـن حشود لايمكن عدّها.

وعنـدمـا سمـع الامبراطور بهذا غضـب غضبـاً عظيماً وتـألم كثيراً، وود ـــلو أنـه كان ممكنـاً— أن يجوز على الفور إلى آسيـا ويشرع بقتال قـونية، لكن لما كان يعلـم أن هذا يحتاج إلى وقت موائم لتنفيذ مثـل هذا العمل، ولاستعدادات أعظم للحرب، فقد قرر التخلي عن الفكرة والابتعاد عنها.

ووضـع في ذهنه أن يقـوم بجمع قـوات مـن كل اتجاه، ولـذلك بعـث بجـون كـونتوستيفـانـوس إلى فلسطين [أوائل١١٦٠] كـي يقابـل الملـك بلـدوين، ويجلـب معه مـن هناك الـرجال الـذين جـرى الاتفاق حـولهم بمـوجـب تحالفهم الـذي قضـى بتـزويـد الامبراطور بما يطلبـه، وأن يقـوم كذلك بتجنيد وحـدة من المرتزقة،وأمر أيضاً أرنـاط أمير أنطاكية أن يشرع بأقصـى سرعة ممكنة بـالتحرك مع القـوات التي من حـوله، وكذلـك أمر قادة الأرمـن آنذاك وهـم: طوروس وتيغـرانيس وكـريسافيـوس الكيلكي، والذيـن يدعـوهم النـاس كوغ فـاسلي(٥٥)، وهم قـادة قوات عسكـرية، لكنهم كانـوا قد التحقوا متطوعين منـذ أمد بعيد بالامبراطـور وصاروا من رعـاياه، وحشـد مـن الشرق بهذه الطريقـة جماعـة كبيرة، واستـدعى مـن الغـرب الفـرسان الليغـوريين [أي اللـومبـارديين]، كما واستدعـى زوبـان العظيم صاحب صربيـا مع القواد الذين كانـوا تحت أمرته، واكترى كثيراً مـن بين السكيـزيين من بين القبـائل التـي عـاشت حـوالي تـاروس [أي تاروس سكيزيـا أو الروس]، ولم تقتصر استعداداته للحـرب على هذا فقط وبهذه الحدود، بـل كـان يعـرف أن بين الأراضي التـي وقعـت في أيـدي اللاتين المستـولين على فلسطين، كانـت جزيرة رودس، وقـد استأجـر من

هناك جماعات كثيرة من الفرسان المرتزقة، ومن أجل المؤن والخدمات الأخرى أمر بجلب أعداد لاتحصى من الثيران مع عرباتهم من قرى تراقيا(٥٦).

وقام بهذه الاستعدادات، وفي الوقت نفسه أراد أن يحول عداوة السلطان نحو بني جلدته وقرابته، فكتب إلى أخيه شاهنشاه الذي كان يحكم غانغرا Gangra وأنكيرة غلاطية [أنقرة]، وإلى صهره يغي—باسان الذي كان يحكم كل من قيصارية [قيصاري] وأميسيا [أماسيا] مع مدن أخرى هامة قائمة في أراضي كبدوكية، وبعدما جعلهم يشكّون بالسلطان، بات على وشك انجاز الاستعداد للحرب، وعلم السلطان بهذا كله، وبما أنه لم يكن قادراً على مواجهة كل هؤلاء الذين ثاروا ضده بتحريض من الامبرطور، تخلى عن ملكية عدد من المدن، خاصة المدن التي احتلها منذ وقت وجيز بعد بذله لجهود كبيرة، تخلى عنها لصالح الذين عاشوا على مقربة من أراضيه، وكتب إلى الامبراطور وسأله العفو عنه، ووعد أنه إذا ما حظي بذلك فإنه سيتولى إعادة الأسرى الرومان، حيثما كانوا مختفين في مملكته، وأن البحث عنهم هو مسؤوليته وعمله.

وبينما هذه الأمور قيد التجربة، حدث شيء ما كان كما يلي: عندما كان جون [كونتوستيفانوس] منطلقاً من فلسطين [خريف١١٦١] مع الفرسان، اصطدم بجيش تركي زاد على العشرين ألفاً من الرجال المقاتلين، ولقد فوجىء بالبداية، ولذلك توجه مسرعاً مع أتباعه إلى رابية كانت قائمة هناك، واتخذا موقفاً، ومن ثم بعث الحماس في الجيش كله، وانقض على الأتراك، وبما أن حملة الرومان كانت شديدة جداً على الأعداء، والقتال كان قاسياً، فقد شرع الأتراك بالتراجع، وهنا سقط عدد كبير منهم، كما وسحق الفرسان كثيراً تحت أقدامهم، وحدث أن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين حققوا انجازات وقاموا بأفاعيل جديرة

بالتدوين، ودللت على شجاعتهم، لكن في ذلك الصراع أبدى القائد ماتفوق به على الآخرين شجاعة واقداماً، وعاد جون بعد هذا النجاح يحمل معه إلى الامبراطور غنائم نصره.

وعندما سمع السلطان بهذا، تملكه الغضب والأسف، ولعن نفسه لتسرعهم هذا الذي جاء في غير وقته، ولم يزعجه ماحدث لأتباعه بقدر مابقي أمامه وعليه مواجهته بسبب زحف الامبراطور ضده، ولهذا تصرف وكأن البيزنطيين يهددون الذين لم يستعدوا بعد، وبناءً عليه سارع بزيادة عروضه المتقدمة بأشياء إضافية وبتقدمات أعظم، فوعد بإعطاء الرومان سنوياً قوة حليفة بناءً على الطلب، كما ووافق على أنه مامن تركي سوف يدوس بقدمه الأراضي الرومانية بدون إذن من الرومان، وإذا ماحاول أحد من بقية الامارات التركية إزعاج الرومان وتسبيب الأذى لأراضيهم، فإنه سيعلن الحرب عليه، ويباشرها ضده فوراً، ولسوف يعيق بكل وسيلة أي عمل تآمري مهما كان مصدره ومنشأه، وسيكون على استعداد لفعل أي شيء يأمر به الامبراطور بدون تردد، ووافق على إعادة إحدى المدن التي كانت تابعة من قبل للرومان، غير أنها وقعت تحت السيطرة التركية، واقتنع الامبراطور بهذه الأشياء، فأخذ عليه العهود والمواثيق المغلظة، فأنهى عمله العسكري، وعاد إلى الوطن.

ولدى معرفته بخبر أن الكومان قد عبروا الدانوب، لنهب الأراضي الرومانية، تحول عن الطريق الذي يقوده إلى بيزنطة، وزحف نحو مكان الجواز قرب مدينة أبيدوس، حيث قامت بلدة ساحلية صغيرة في منطقة تراقيا، أعتقد أنها نالت اسمها من كالياس Kallias ، وكان قائداً للأثينيين(٥٧)، وعبر من هناك، وأسرع في زحفه ضد الكومان، أما هؤلاء فإنهم حزموا أمتعتهم بسرعة وغادروا المكان، عندما سمعوا بزحف الرومان، وحدث هذا حتى قبل أن يصل الامبراطور إلى الدانوب.

الكتاب الخامس

١- هكذا سارت الأمور هناك، وبما أنه لم يبد في الأفق أي شيء من أي اتجاه يهدد المملكة الرومانية، فقد توجه الامبراطور إلى إحدى القرى الواقعة على مقربة من بيزنطة للاستراحة، وكان اسمها لونغوي Longoi، وبينما هو مقيم هناك، حلّ اليوم الأخير من حياة الامبراطورة [بيرثا] إيرين، وكانت امرأة، حسبما ذكرت من قبل، تفوقت كثيراً على الأخريات في ذلك الحين، بالحكمة،وصواب الرأي، والرحمة تجاه الذين كانوا بحاجة(١)، وكانت أما لابنتين، كانت أكبرهن [ماريا كومينا البروفيروجنيتا Prophyrogenita] قد بقيت حية وأقامت مع أبيها، أما الثانية فقد فارقت الحياة بعد قليل من اكمالها لعامها الرابع.

وبينما كانت تصارع ضد مرضها، عاش الطفل مع ذلك، ومهما يكن من أمر فقد استدعت أوضاع الغرب الامبراطور إليها، وقد خلف الامبراطور مسائل بيته الخاصة خلفه، وزحف ليعالج المشاكل هناك، ذلك أنه سرت وقتذاك أخبار أفادت أن فردريك ملك الألمان، كان قد حرك جميع شعبه لمهاجمة الأراضي الرومانية، ولهذا السبب، وبسبب، انقضاء أجل غيزا ملك هنغاريا(٢)، ذهب إلى سارديكا، وقد تأخر هناك مافيه الكفاية، لأنه أولى اهتماماً كبيراً مسألة السيادة في هنغاريا، ولأن ما روي عن الألمان لم يكن يقيناً وأصيلاً بعد، ودعونا الآن نبين لماذا رغب الامبراطور في الادعاء بحق له في حكم هنغاريا، فلقد كان لغيزا أخوين هما: لازلو Laszlo ، وستيفن [أسطفان]، وقد اختصما معه، وأنا لاأعرف لماذا أصبحا مكروهين كثيراً منه، وبعد نفي طويل، لأحدهما في مكان وللآخر في مكان آخر، توصلا إلى الامبراطور، وحضرا بين يديه، وقد

تزوج ستيفن ابنة أخـي الامبراطور، ماريا ابنة اسحق السيباتـوكراتور، التي كانـت —كما ذكرت— فـائقة الجمال، وبقي الآخـر بدون زواج، وعنـدما توفي غيزا استـدعى قانون العـدالة، واحداً من الأخـوين إلى السلطة (لأن القانـون بين الهنغار قضى بـذهاب التـاج دوماً إلى الأخوة الأحيـاء) وكان الامبراطور راغباً بشـدة في اعادتها إلى أرض أجدادهما، ذلك أن غيـزا قام قبل وفاته بتجـاوز العادة الوطنية، وحول المنصب الملكـي إلى ابنه، وكان الهنغار من بعض الجوانب يدينون بهذا القـانون، وخائفين من جانب آخر من قـدوم الامبراطور، فـانتزعوا المنصـب من ستيفـن ابن غيـزا [اسطفان الثـالث] ومنحـوه إلى لازلـو [الثـاني] الذي كـان واحـدا مـن الأخويـن، وأعطـوا ستيفـن، وأعني بـه الأخ الأكبر، منصـب أوروم Urum ، وكان معنـى اسم هذا المنصب بين الهنغـار أن صاحبه سيكـون الخليفة في تولي السلطة الملكية(٣).

٢- هكـذا سارت الأمـور بـالنسبة لـلأخـويـن، ووصلت المسـائل إلى خواتمها، وإثر هـذا تابع الامبراطور زحفه إلى فيلبه، وهي مـدينة مقدونية، وكان هـدفه إنهاء المشاكـل في صربيا، ذلـك أن بريميسلاف، الـذي كان يحكم البـلاد آنذاك، كان —كما سلـف بي القول مـن قبل— قد حـدثته نفسه بـالثورة، لأنه يمتلـك روح الاستقلال، وأنـه بعدما أوشـك أن يفقد سلطانه لهذا السبـب، وذلك على يدي الامبراطور، رأى الـرحمة مجدداً أمام ناظـريه، وبقي في [منصبـه] نفسه(٤)، ثم إنه لم يقـم الآن وزناً لاتفاقـاته وأيمانـه، وتورط ثـانيـة بالعصيـان، وقـام الامبراطور الـذي فهـم الرجـل، بتنحيته من منصبـه، وأقام مكانه أخـاه بلوس Belus ، وعطفاً منه على مصيره، قـام بنفي بـريميسلاف، حتـى لايحدث ضرراً مرة ثـانية، غير أنـه أعطاه منطقـة خصبة جـداً، وجيدة للرعـي من قبل الحيـوانات، وبعـدما عاش بلوس في منصبـه لوقت قصير ممجداً، تخلى عـن الملك، وهجر أرض آبائه، وذهـب إلى هنغاريـا، ولقد عاش هنـاك لوقت طـويل، غـادر بعده

هذه الحياة، وأمر الامبراطور باستدعاء آخر الاخوة الذي كان يدعى ديسا Desa وكان يحكم منطقة دندرا، وهي منطقة خصبة ومكتظة بالسكان، وتقع على مقربة من نايسوس(٥) Naissos ، وبعدما تلقى مانويل منه يمين الولاء، والوعد أنه سيحتفظ طوال حياته بنقاء بشرط الطاعة، وذلك بالاضافة إلى تخليه نهائياً عن دندرا لصالح الرومان، وهي منطقة —كما ذكرت— كانت خصبة، قام بمنحه لقب «زوبان العظيم».

٣- وحوالي هذا الوقت [١١٦٢] حدث أيضاً أن جاء السلطان قلج أرسلان(٦) [الثاني] متطوعاً وباختياره إلى بيزنطة ليتوسط لدى الامبراطور بشأن مسائل مفيدة له، وهذا شيء هائل، وفوق العادة رائع، فمثله لاأعرف أنه حدث للرومان من قبل، فهل تقدم لأحد من بين الأباطرة العظام أن ظهر رجل في بلاط الرومان على شكل عبد، مع أنه يحكم أراضي واسعة شاسعة، وهو سيد لعدد كبير من القبائل، ولكي أصف الاحتفالات والرسوم التي تمت لمن يود أن يسمع:

فقد نصبت دكة رائعة، ووضع عليها عرش، ارتفع ارتفاعاً كبيراً عن الأرض، وكان مشهداً جديراً بالملاحظة، ولقد صنع كل شيء فيه من الذهب، لكن كميات كبيرة من أحجار الياقوت والزفير كانت مرصوفة على جميع أطرافه، كما أنه لم يكن بإمكان أي انسان احصاء عدد اللآلىء، فقد وضع عدد كاف منها حول كل جوهرة، وكانت مثبتة في الفراغات المناسبة، فقد كانوا ذوي استدارة كاملة، ويشعون اشعاعاً أشد بياضاً من الثلج، وكان العرش مليئاً بمثل هذه المشعات، وتفوق بالروعة القسم الأعلى الذي يمتد فوق الرأس، عن البقية، بقدر مايتفوق الرأس على بقية أعضاء الجسد المرتبطة به، وجلس عليه الامبراطور، وملأ المكان بالفخامة لحسن توزيع جسده، وقد التف بثوب أرجواني، وكان شيئاً رائعاً، وقد رصع الثوب من الرأس حتى الأسفل بالياقوت واللآلىء المشعة، لكن في الحقيقة ليس بدون نظام، وإنما طرّز ببراعة حرفية رائعة، فقد رسم الفن

على الثوب منظراً أصيلاً لمرج جميل، وتدلى من رقبته إلى صدره سلسلة ذهبية نظمت جواهر تميزت في الحجم والألوان، وكان فيها ياقوتة لونها وردي، لكنها أخذت شكلاً يشبه شكل تفاحة، وأرى إنه من غير الممكن الكتابة عن الترصيعات التي كانت فوق رأسه، ووقف على كل طرف من طرفي العرش —تبعاً للعادة— فريقاً من الرسميين، انتظم وفقاً للأسرة والرتبة فذلك حدد مكان كل واحد منهم، وعلى هذه الصورة كان فريق الاستقبال الامبراطوري الرسمي:

وعندما وصل قلج—أرسلان إلى وسط هذا الفريق، كانت الدهشة مستولية عليه، ومع أن الامبراطور قد حثه على الجلوس، فقد تمسك في البداية بالوقوف وتشبث بذلك، لكنه وقد رأى الامبراطور يتابع الضغط عليه، جلس على مقعد منخفض،كان متواضعاً جداً إلى جانب العرش المرتفع، وبعدما قال وسمع ماهو مناسب غادر إلى المقر المعين لسكناه داخل القصر.

وبما أن الامبراطور قد ازداد عظمة وعلت مكانته بسبب نجاحاته، فقد أعدّ العدة لإقامة استعراض موكب نصر من القلعة نفسها إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، وكذلك ليسير معه في الاستعراض، ومع هذا لم ينجز ماعزم عليه، لأن [البطريرك] لوقا(٧)، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية عارض هذا العمل، قائلاً لايجوز للرجال غير الأتقياء المرور في ثياب كهنوتية مكرسة ومزينة، ثم إن شيئاً آخر قد حدث ليحول دون تنفيذ المسألة، ففي الهزيع الأخير من الليل هزّ الأرض فجأة زلزال عظيم، وهنا لاحظ البيزنطيون أن رأي لوقا قد تمّ تجاهله وتخطيه، لذلك أعلنوا أن المشروع مضاد لارادة الرب، ذلك أن الناس يولون بشكل طبيعي اهتماماً إلى المسائل الحاضرة، ولايبحثون في أي شيء بعيد المتناول، وعلى كل حال أعطت خاتمة المسألة شرحاً لما حدث، لأنه بعد مضي كثير من السنين أصبح قلج—أرسلان قليل الاهتمام بارتباطاته

نحـو الامبراطور، مما سبب قيـام الرومـان بـالهجوم على الأتـراك بكامـل القوى، ولبعض الصدف وقع الجيش في مشـاكل ومصاعب أرضية، ففقد كثيراً من الارستقراطيـة، وبات على شفير المعاناة من مأسـاة عظيمة، لولا أن الامبراطـور كان مـوجوداً، وقـد نظر إليـه على أنـه كان متفـوقاً في فـن الحرب براعـة على بني البشر(٨)، لكـن، كما سلف وقلـت من قبـل: هذه الأمور ستتم روايتها فيما بعد من قبلي، وقـد تم اصطحابه إلى القصر الواقع إلى الجنوب [كذا] مـن المدينة، وقد استقبله الامبراطـور بمائدة رائعة، كما وعـامله معـاملة ودودة تـامة(٩)، ثـم أغـراه بسباق للخيـل، ووضع تبعـاً للعـادة النـار في بعـض القـوارب والمشاعـل التـي زودت بسـائل قـابـل لـلاحتراق، وقد أدهـش هذا الـرجـل تماماً، لاسيما منظـر ميدان السبـاق، فهناك تظهـر بشكل خاص عظمة المدن، وبعـدما أمضى قلـج—أرسلان الوقت الكـافي في بيزنطة، وتولى تأكيـد الاتفاقات الماضية بـأيمان اضافية، عاد إلى بلاده، وكانت شروط الاتفاق كما يلي:

أن يكـون خـلال حياتـه كلهـا معـادياً للـذيـن يـرعون العـداوة ضـد الامبراطور، لكن أن يكون صـديقاً للذين يتخذون موقفـاً معاكساً، فهؤلاء يحظـون بـاحسانـه، وسيعطـي إلى الامبراطـور من بين المدن التـي استـولى عليها المدن الأعظـم والأكثر أهميـة، ولايحق له إبـرام أي اتفاق سـلام مع واحد من الأعـداء مالم يكن ذلك بتـوجيه من الامبراطور، ولسـوف يقاتل بمثـابة حليـف مـع الرومـان بنـاءً على طلـب، وسيقدم مـع قـواته كلهـا للمشاركة بالحرب سواء أكان الصراع صراعـاً شرقياً أم غربياً، ولن يسمح لأي واحد كان يخضـع لسلطانه، لاسيما الذين يعيشـون ببراعة من أعمال اللصوصية ويـدعون بالعادة باسم التركمان، بـالقيام بالحاق أي أذي مهما كان نوعه بالأراضي الرومانية، ولـن يمرر ذلك بدون عقوبة، وقد وافق على هذه الأشيـاء، وتعهد الـذين رافقـوه من الأعيـان، أنه إذا مـاحاول عـدم مراعاتها، سيمنعونه من محاولة ذلك بكل ماأوتوه من قوة.

وكان هذا ماتحقـق في بيزنطة، وقد عبرت الأخبار [للذلـك] من قبل من أوروبا إلى آسيـا، وارتأى قادة القبـائل هناك أنه لـن يكون من صـالحهم إذا ماتعامل الامبراطـور مع السلطان، فبعثوا برسلهم يـرجون أن يتصالحوا مع السلطان، واستمـع إليهم مانويـل بروح الصداقة، وقـد ترك كل شيء لاختيـار السلطـان، فبعـث بهم إليه، وكـان كما سلفـت الاشـارة مقيماً في القصر، وما ان مثلـوا أمامه للمنـاقشة، حتى سـألوه برجـاء أن يتخلى عن عداوتـه نحوهـم، وأقنعوه أن يتـوسط لصـالحهم لـدى الامبراطور، وتبعـاً لذلـك جلب مانـويل هؤلاء المستعطفين إلى جـانبه، واتخذهـم أصـدقاء، ومنذ ذلك الحين استقر السلام في مملكة الرومان.

٤ - وبما أن الامبراطـورة [بيرثـا] —ايريـن كـانـت قد غـادرت هـذه الحياة، والامبراطور لم يكن بعـد قد صار أباً لطفل ذكر، لـذلك فكر آنذاك بـزواج ثانٍ، وكـانت هنـاك فتاة في طـرابلس في فينيقيـة [لبنان]، لاتينيـة المولـد، لكـن ذات جمال متميـز، لـذلـك أرسـل لخطبتهـا [١١٦٠] السيباتـوس جون كـونتوستيفـانوس وايطـالي اسمه ثيـوفيلاكـت Theo- phylact ، الذي أطلق عليه رجاله لقب اكسوبيتوس(١٠) Ex ou- bitos ، ورأى الرجلان الفتاة وأعجبـا بجمالها، وبما أنه لم يكن هناك مايعيقهما مطلقاً، قـاما بدون انتظار بالصعود إلى ظهـر الغليون للسفر بها، وحـدث —على كل حـال— أنهم وهـم على نيـة الاقلاع والسفـر، حـلّ مرض شديد بـالفتاة، وباتت في الحقيقة بوضع خطير جـداً، ولذلك أخذا يؤجلان سفـرهما ومغادرتها كل يوم إلى الغد، وأمضيا الأيـام بدون عمل، ينتظران أن تتحسن حال الفتاة وتتحرر قليلاً مـن الوجع حتى يمكن توقع المغادرة، لكـن لحكمة خفية كانـت المعاناة تعاودهـا من جديد، وعنـدما اضطجعت كـان جسدهـا يرتجف ويرتعـد بشكل شـديد، فقـد استبدت الحمـى بها، وتبع ذلـك فقدانها وتـلاشيها، فـالبريق الـذي علا طلعتهـا، والذي أشرق جمالاً، مـالبث أن تغير إلى ظلام، وكان كـل من يراهـا يبكي

حزناً على هذه النضارة التي ذوت في غير وقتها، وهكذا كانت الفتاة في حالة سيئة، وهي ماتزال مقيمة في بلدها وقبل أن تصعد ظهر السفينة وتبتعد ولو قليلاً عن طرابلس، حلّ بها فيضان مضاعف هناك، وهكذا بقيت السفينة مجدداً في طرابلس، وجاءها هناك المزيد من الأمراض، ولم تغادرها البتة، ونظراً لتكرار حدوث هذا الأمر، سبب ذلك قيام كونتوستيفانوس بتفحص القضية وإعادة النظر بها بدون توقف، وفي حزنه وأساه كان يستبدل الفكرة بواحدة أخرى بدون توقف، وأخيراً دخل إلى إحدى الكنائس هناك، واستخار هل من المفيد أن تخطب الفتاة إلى الامبراطور، وأجابه الهاتف المقدس بقوله: «العرس جاهز، لكن الذين تمت دعوتهم لايستحقون الدخول»(١١)، وعندما سمع هذا، فهم المعنى، لأن أقاويل راجت هناك، وصلت مسامعهما، أفادت أن الفتاة ولدت من زواج غير شرعي، وهو شيء يمكن أن يسبب العار بشكل خاص، لذلك تخلى عن المسألة وانطلق عائداً إلى بيزنطة(١٢).

وكان لأرناط أمير أنطاكية ابنتين كانتا آنذاك فائقتي الجمال، وفي سبيل رؤيتهما أرسل الامبراطور باسيل الذي كنيته كاماتيروس Kamateros والذي كان آنذاك قائداً للفريجيين [Akolouthos]، وعندما وصل أنطاكية مسرعاً، وجدهما معاً جميلتين، غير أن ماري بدت له الأكثر جمالاً، وتبرهن أن استقصاء هذا الرسول كان صحيحاً، واعتاد البيزنطيون في أيامنا على القول، أنهم لم يعرفوا مثل هذا الجمال من قبل، لكن هذا حدث فيما بعد، وبما أن القرار آثر ماري، فقد علم الامبراطور بذلك،فبعث بأعضاء من الأرستقراطية إلى أنطاكية للقيام بخطبة الفتاة له، هم: ألكسيوس [كومينوس] ابن ابنة الامبراطور ألكسيوس الأول، وكان آنذاك هو الدوق العظيم، ونقفور برنيوس، وكان من أنسباء الامبراطور من خلال ابنة أخيه، وقد أصبح سيباتوس، وكان بينهم أيضاً أندرونيكوس كاماتيروس، الذي شغل آنذاك منصب إبأرك(١٣)

Eparch ، وكان أيضا مـن أقرباء الامبراطور، وقد عـدّ جديراً لأن يصبح سيباستـوس، ولقد رأوها، وأعجبوا بها أيما اعجـاب، وصعدوا ظهر غليون، واصطحبوها بكل حفاوة إلى بيزنطة.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر أبيلايوس Apellaios ، الذي يطلـق عليـه الـذي يتكلمـون بالـلاتينيـة اسـم كـانـون الأول [١١٦١]، وبعدما نقلت بشكل رائع إلى كنيسة آيا صـوفيا الواسعة الشهرة، تم عقد قرانها هنـاك، وكان مـع لوقـا الذي كـان على رأس كنيسة القسطنطينيـة، صفـرونيـوس بطـريـرك الاسكنـدريـة، وأثنـاسيـوس بطـريـرك أنطـاكيـة [ثيوبولـس]، وقد وضع يديـه عليهما، حسبما كانت العادة آنـذاك بالنسبة للمسيحيين، وبعدمـا أعلنها الامبراطور أوغسطه عـاد إلى القصر، واحتفل هناك في مقامه العالي بولائم رائعـة، وأقام الموائد للشعب في جميع طرقات المدينة، ودعـا في اليوم التـالي البطاركـة إلى مائدتـه، وبعدمـا رحب بكـل واحد منهـم بوساطـة كميات هائلـة من الـذهب، ودعهم عـائدين، وفي الحقيقـة قام قبـل صنعـه أي شيء آخـر بإهـداء الكنيسـة مـائة وزنة مـن الذهـب، وبعد وقت قصير متّع الشعـب بسباق للخيل، ورغـب في عدم إهمال أي شيء يجلب المسرة(١٤).

٥- وكـان هذا مـاحدث في بيـزنطة، وحـدث أنـه بعدمـا توفي لازلـو صـاحب هنغـاريـا [١٤-كانـون ثـاني١١٦٢]، أن أصبـح أخوه متملكـاً للسلطة بـاسم [اسطفـان الرابع]، وقـد بدا عبوسـاً وظالماً بشكـل منقطع النظير بالنسبة للشخصيـات الرئيسية، لذلـك أبغضه الهنغار كثيراً وازدروه، وكانوا على وشـك خلعه وانتزاع السلطة منه، واضطرب ستيفـن أمام هذا الحال، فتـوجه ثـانية يستنجـد بالامبراطـور، وقـام الامبراطور عنـدما حـلّ الاعتدال الـربيعي [ربيع١١٦٢] بـالمبادرة مسرعـاً نحو فيلبه، وقـد مكث هنـاك مع الجزء الأعظـم مـن الجيش الـروماني، وعهـد بقيـادة قطعة مـن الجيش إلى ابن أخيـه ألكسيوس كونتوستيفانوس، وبعـث بها إلى هنغاريا،

وحدث —على كل حال— في هذا الوقت أن اعتقد ستيفن أنه تصالح مع الهنغار وبالتالي ليس بحاجة لهذه القطعة، ولهذا السبب عاد الجيش الروماني إلى وطنه، لكن وقع في ذلك الحين أن ثار الهنغار ثانية ضد ستيفن، واتهموه بأشياء كثيرة، وأصروا على أن الدولة الهنغارية قد تدمرت تماماً في ظلّ حكمه، ولهذا حشد الامبراطور جيشاً من جديد، غير أن ستيفن الذي شعر بالمخاطر من البداية، جاء لاجئاً إلى إحدى المدن القريبة من الدانوب، والتي كانت خاضعة منذ وقت طويل مضى لحكم الامبراطور، وتابع هذا السير إلى سرديكا، وهناك التقى الامبراطور، وقد تأثر الامبراطور كثيراً بما حدث، وعطف على الرجل لما نزل به، فأعطاه المال، وزوده بما يكفي من قوات، تولت اصطحابه عائداً إلى عرش آبائه، وقاد هذه القوات ألكسيوس كونتوستيفانوس، المتقدم الذكر، وسار الامبراطور خلفها، وعلى بعد قليل منها.

وعندما وصل نيسوس، ورد إلى ذهنه خطة وهو معسكر هناك، في أن يقوم خلال جوازه بحلّ المشاكل في الصرب، لأن ذلك المكان كان على الطريق إلى كل من هنغاريا والصرب، ولابدّ للانسان من الدخول من احداهن إلى الأخرى من هناك، فقد كان ديسا، الذي كان وقتذاك يحكم الصرب كتقدمة له من الامبراطور، كان ما أن أصبح مسؤولاً عن البلاد قد نسي حتى الاتفاق، وادعى مجدداً الحق في ملكية منطقة دندرا، فقد ثار ضد السلطة الرومانية، وكتب إلى الألمان، عازماً على أن يقرن نفسه بعروس من هناك، وفعل كل شيء كان مضاداً لرغبات الرومان، ثم انه عندما استدعاه الامبراطور للالتحاق به في الحملة ضد الهنغار، ظهر نائياً، وعنيداً، معللاً ومدافعاً، بآمال عظيمة، وثابر على تقديم الوعود بالوصول في المستقبل، ولذلك عندما وصل الامبراطور إلى نيسوس، حيث هناك طريقان، يقود أحدهما إلى الصرب، والآخر إلى الدانوب وهنغاريا، أقام معسكره في وسط الطريق بينهما، ولدى شعور ديسا بالخطر الذي حام

فوقـه، جمع ماحضر لديـه من عساكر، ووصـل إلى المعسكر الرومـاني، ولقد عامله الامبراطور بعطف، وأضفى عليه من التشريف كل ماهو لائق.

وعلى كل حال، مامن إثم أعظم عـاراً من لسان غير ملجوم، لأنه ما ان تصـور ديسا أنـه مامـن أذى نجم عـن حماقتـه السالفـة، حتى صعّـد غايـاته وقـرر الاقدام على إحـداث ضرر إلى الرومـان أعظم مـن ذي قبل، ومع هـذا فقد أبقى المؤامرة سريـة، وهكذا يغدو بـالعادة افتراض الجودة في أعظم النـاس إثماً، العمل المادي لكل جـرائم عظيمة، لأنه جـاء بعد وقت قصير رسل إلى الامبراطور من لدن أمة الهنغـار، لكن بالصدفة حدث أن التقـوا بديسـا، وقـد سئل كـالعـادة من قبلهـم كيـف سارت أمـوره، فـأجابهم بـدون تحفـظ، بأن أمـوره سارت بشكـل جيـد، وهي تستحـق تقديـم الشكر لـه من قبل ملكهـم الذي سماه بشكـل مكشوف «المولى»، ولدى معرفة الامبراطور بذلك، استدعـاه إلى المحاكمة بدون تردد، وعندما أدين، بما أن التهـم ضده وازت المخففـات وجهاً لـوجه وأظهـرت خيانـة الرجل، قـرر مانويل التحفظ عليه بـأمان بدون إهانته، وقـد أحاط خيمته بخندق، وأبقاه مطوقاً بشكل متواصـل، وهكذا منه نال المكان اسمه وهو معسكـر ديسـا (لأن العوام هكـذا أطلقـوا بـالـدارجة هـذه التسميـة على الخنـدق) وأرسلـه بعـد أمـد قصير إلى بيـزنطـة، واحتفـظ بـه أسيراً في القصر(١٥).

كـان هذا مـاحدث هنـاك، ورأى الامبراطور الـذي كان يتبـاحث مـع الرسل الذيـن وصلوا من عند الهنغار، أنهم لم يقدموا شيئـاً أصيلاً، لذلك أمرهـم بمغادرة المعسكـر الرومـاني على الفور والعـودة على الطريـق الذي جاءوا عليـه، وهكذا غادروا المكـان، وعندمـا وصل الامبراطور إلى مـدينة بلغراد، عسكـر هناك، وهي مدينـة —كما سلف القول— قد قـام الجيش الرومـاني ببنائهـا، وذلك بعدمـا هدمـوا زيغمنون Zeugminon ، وقد شاركهم في عملهم ذلـك عدد من الهنغار، وكانت في الحقيقـة لعبة حظ،

تهزأ باستمرار، نحو الشؤون البشرية، ويمكن للمرء أن يضحك نحو الذين أزالوا الأبنية، وهم يرون المعمرين ثانية، وأعتقد أنه من هذه الأشياء بات استخدام كلمة حظ شائعاً جداً بين الناس، وعندما يكونوا غير قادرين على فهم الأسباب لأعمال التدبير، وعلى أساس مابدا لهم صحيحاً، نراهم يعزون المصائب إلى الحظ، ولندع كل واحد يفكر ويتكلم حسبما يرضيه حول هذا، ولكن دعوا الرواية تنعطف نحو مسألتها المبكرة.

وعندما وصل الامبراطور إلى بلغراد، ولاحظ أنه من غير الممكن بالنسبة لستيفن [اسطفان الرابع] أن يحكم بلاد الهنغار (لأنهم كانوا قد سارعوا إلى تنصيب ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ثانية) انصرف نحو شيء آخر، وكما تقدم الذكر، كان يرغب في أن يستحوذ على هنغاريا، التي قامت وسط الأمم الغربية، ولذلك عزم على أن يربط بالزواج بيلا الذي كان ابن غيزا تاليا لستيفن، بابنته ماريا، فأرسل إلى هنغاريا جورج الذي كان باليولوغوس Palaiolagos من حيث المولد، والذي كان آنذاك يتولى إمرة الحرس الامبراطوري الأجنبي، وكان قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي Sebastoi ، وأمره أن يبحث في مسألة رباط الزواج، ثم أخذ هو نفسه الطريق مجدداً نحو بيزنطة، وبعدما ناقش الهنغار المسألة مع باليولوغوس، سلموه مسرعين بيلا، وبكل سرور عينوا له الأراضي التي كان والده قد خصصها حصة له عندما كان على قيد الحياة، وحمله باليولوغوس معه، ومعه الاتفاقية المذكورة، وجاء إلى بيزنطة، ونظر الامبراطور بإيثار نحو القضايا المتعلقة برباط الزواج، وأعيدت تسمية الشاب، فبات اسمه ألكسيوس، وبات ينادى بلقب «دسبوتس Despotos» [أي سيد](١٦).

٦- وهكذا توافق وصول بيلا إلى بيزنطة مع هذه البداية في الافتراض أن كل شيء كان يسير على مايرام في الغرب، لذلك أولى الامبراطور بعد

اهتمامه إلى آسيا، وبعدما أثير بها حدث، تحول عنها بسبب الشؤون الغربية، والذي دعاه للتوجه إلى آسيا هو أن نور الدين، الذي كان حاكماً لكل من حلب ودمشق، وكلتاهما من أهم مدن سورية، قد ابتسم له الحظ وكان لصالحه، فحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى التي شربت ماء نهر الفرات، كما واستولى على كثير من المناطق التي لايستهان بها، ووقع في قبضته عدد عظيم من الأمراء هناك، وقد احتفظ ببعضهم أسرى، وكان بينهم جوسلين حاكم الرها(١٧)، وقتل آخرين في المعركة، ونذكر من هؤلاء: ريموند أوف بواتو، الذي قدمنا حوله مادة كافية في الروايات المتقدمة، وكان رجلاً يشبه الهرقلات الأسطوريين في القوة والقدرة، وكذلك بلدوين الذي كان وقتذاك حاكماً لمرعش، وتابع تقدمه، فاصطدم في القتال مع دوق كليكية، الذي كان اسمه قسطنطين، وكنيته، كالامانوس Kalamanos الأصغر(١٨)، وكان بهي الطلعة، وفعّالاً في الشؤون الحربية، وكان في البداية قد هزم هزيمة ساحقة على يد الأصغر، ووقع في مصيبة لايمكن النهوض منها، ثم حدث أن أسره، وأسر أرناط أمير أنطاكية، كما وكان بينهم أيضاً حاكم طرابلس الفينيقية، وكان قسطنطين عندما ربح منه المعركة، لم يكبح نفسه، بل اندفع بشكل أحمق، وانخرط بدون توفيق في أعمال المطاردة، فكان أن وقع بالأسر، وهكذا هوت مصالح الرومان [آب١١٦٤] (١٩)، وهزم نور الدين أيضاً طوروس في المعركة، وعلل نفسه بآمال الاستيلاء فوراً على أنطاكية، ولهذا كله كان الامبراطور في البداية قلقاً تجاه ماوقع، وعزم على الجواز إلى آسيا، واغتنام الفرصة، وعندما كان على نية الاسراع إلى هناك مع جميع قواته، حدث أن منعته مشاكل الغرب من جديد.

وبالنسبة للملك الجديد [اسطفان الثالث] قام مجدداً باغتصاب ميراث بيلا، ثم عمد إلى خرق المعاهدة علناً، يضاف إلى هذا أن ستيفن [اسطفان الرابع]، الذي سلف للهنغار أن طردوه من منصبه، استطاع أن

يتسلـل عائداً إلى هنغـاريا مـن خلال أنخيلـوس Anchialos ، وعزم على استرداد السلطة [١١٦٣]، وتـولى السعي لـذلك بشكـل سري، لكن بانـدفاع بـدلاً من أخـذ الحيطة، وربـح في أثناء تجوالـه إلى جانبـه بعض الهنغـار، وعندمـا علـم ستيفن [الثـالـث] بهذا اندفـع نحـوه ومعه جميـع جيشه، ولهذا بعـث الامبراطور إلى كليكية جيشاً كـافياً للدفاع عنهـا، وقام بالزحف عائداً إلى الدانوب، وعبر السافـا، ومركز قواته مقابل تيتليون Ti-telion [تيتـل على التيسـا Tisa] (٢٠)، عـازمـاً على استرداد ميراث الأجـداد إلى بيلا، ولينقـذ ستيفـن [الرابـع] مـن المصـاعب التـي تـواجهه، فقـد كـانت قـواتـه تتبـدد وتتشتت، وكـان بـالحقيقة في وضـع صعب، بسبب أن الهنغـار كانوا في كل منـاسبة ذاهبين للالتحاق بـالملك [اسطفان الثالث]، وأرسـل الامبراطور أندرونيكوس بن كونتـوستيفانوس، الذي سيصبح بعد وقت قليل دوقاً أعظـم، مع جيش، فتولى انقاذ ستيفن من وسط المصاعب.

وانطلق الامبراطور من تيتليـون مع قواته كلها، وتابـع زحفه إلى الأمام، أما بالنسبة لستيفن [الثالث] الذي اغتصب السلطة، فقد وجد نفسه غير قـادر على التصادم مـع الامبراطور بقـوات متكافئـة، ولهذا زحف أولاً مـع القوات المحيطـة به إلى مكان ما وقـع في الجزء الأقصى من هنغاريـا، ثم إنه بعدما قام بجمع قوات حليفـة، بادر مسرعاً للتصدي للرومان، ووصل الامبراطـور إلى مكان يـدعى بيتريكـون Petrikon [بيتروفارديـــــن Petr؟ovardin]، وعسكـر هنـاك، وهذا المكـان هـو الحد الأقصـى للـوصول إلى داخـل هنغاريـا، وبعدمـا وصل إلى هنـاك، كتب مـايلي إلى ستيفن [الثالث]:

«لقد قدمنا يابني لالإثـارة الحرب ضد الهنغار، بل لاستعادة أرض بيلا —أخوك— وهو ليـس شيئاً انتزعناه بقوتنـا، بل إنه مامنحتـه أنت وأبوك من قبـل، منذ زمن طويـل، وكذلك لننقـذ من المصاعب عمـك ستيفن،

المرتبط برباط الزواج بجلالتنا، وإذا كان تبعاً لارادتك الحرة أصبح بيلا صهرنا، وهو شيء كنتُ قد وافقت عليه من قبل، لماذا سارعت إلى التخلي عن صداقتنا، بعدم قيامك باعطائه أرضه؟ وإذا كنت تعارض الزواج وشيئاً آخر يبدو بالنسبة لك صحيحاً فيما يتعلق به، اعلم اننا سنمتنع عن الضغط عليك أكثر».

٧- كان هذا ماكتبه الامبراطور، أما الآخر، فكان —كما ذكرت— قد حشد قواتاً حليفة من الألمان والسيزيين من تاوروس [تاوروس سيز أوروس]، وتعايش مع أمة التشيك منذ أن قدم إلى عنده حاكمها ومعه جميع جيشه، وهذا الحاكم هو الذي ذهب بالحملة مع كونراد ملك ألمانيا، عندما —كما حكيت من قبل— انطلق نحو آسيا، ولهذا السبب أصبح ملكاً تحت سلطانه.

ومع هذا فكلاهما قد غشا: الذي منح اللقب والذي قدم الشكر، لأن لقب امبراطورية كان قد اختفى من روما منذ زمن طويل مضى، ولأن منح السلطة قد انتقل —بعد أغسطس الذي يدعى أغستولوس، وذلك اشارة إلى سنه الصغير عندما وصل إلى السلطة— إلى أودوفاكار -Odov akar ثم إلى ثيودورك حاكم القوط، وكانا معاً طاغيتين [أي مغتصبين]، ولأن ثيودورك دعا نفسه طوال حياته ملكاً وليس امبراطوراً، وذلك حسبما روى بروكوبيوس، وتعيش روما منذ أيام ثيودورك، لابل قبل ذلك بقليل، حتى الآن في حالة ثورة، مع أنها استردت مراراً من قبل بليزاريوس ونرسيس، قائدا الرومان في أيام جستنيان، ثم انها تحولت إلى مرتبة ليست أقل من العبودية تحت ظل الطغاة البرابرة، الذين حملوا ألقاب ملوك في مضاهاة لثيودورك الملك الأول والطاغية، وبما أنهم لم يدعوا المقام الأعلى، وهو مقام الامبراطورية، من أين يحق لهم الاقتراح بالنسبة لأنفسهم مناصب [الملكية] التي —كما سلف وقلت— صدرت عن الجلالة الامبراطورية بمثابة تمييز(٢١).

ولم يكن هـذا وحده كـافياً بالنسبـة لهم، فاغتصبـوا —مع أنـه لايليق بهم— أعلى منزلة للسلطـة وأضفوا على أنفسهم لقب الامبراطـور، وتحتاج هذه الحماقة وفقدان العقل الشرح:

أسرعوا الآن بالاعلان أن الامبراطورية في بيـزنطة تختلف عن تلك التي في رومـا، ولدى تفحصي لهذا، تسبـب ذلك لي مـراراً بالبكـاء، فلقد بيـع الحكم في روما، مثل قطعة مـن المتاع، إلى البرابرة، وفي الحقيقة إلى العبيد، ولهذا إنهالاتستحق أسقفاً، وأكثر من هذا إنها لاتستحق حاكماً، لأن الذي صعـد إلى عظمة الامبراطـور ركض على الأقـدام بشكل غير لائق بنفسـه ممـاشاة لـلأسقـف الراكـب، وكـان مثل سـائسـه(٢٢)، غير أن الآخريـن يـدعونـه امبراطـور، مقـدرين أنـه كـان مسـاوياً وبـالـدرجـة نفسها مـع البازيلوس [الامبراطور البيزنطي].

[وبالنسبـة للبابا:] كيـف لك ياسيدي النبيـل، ومن أين وقـع لك أن تعامـل امبراطور الـرومان مثـل سائس؟ لكنـك لاتعرف مـن أين، وأنـك أسـأت إلى لقب أسقـف، في حين زيـف هـو [الامبراطور الغـربي] لقـب امبراطور، لأنـك إذا لم توافـق على أن عرش الامبراطوريـة هو في بيـزنطة، وهو عرش روما، من أين أصبحت مستحوذاً على مرتبة بابا؟

هنـاك قسطنطين واحد فقـط، وهو المسيحـي الأول بين الأبـاطرة، ولـه سائغ منحه هذا اللقب، كيف يمكنك أن تـرحب بجزء منه بايثار، وأعني بذلـك العرش البابـوي، وغاية العظمـة، لكن تـرفض قبول بقيـة السيادة الامبراطوريـة، عليك إمـا أن ترضـى بكلا النـاحيتين أو ترفـض النواحـي الأخرى أيضاً.

غير أنه يقول:

أنـا يمكنني أن أعين أبـاطرة، نعـم، هـذا فيما يتعلق بـوضع الأيـدي،

وكذلـك فيما يتعلق بالتكـريس، فهـذه مسائل روحية، لكـن لافيما يتعلق بمنح امبراطـوريات واختراع مثل هذه الأشيـاء، ومادام بإمكانـك تحويل الامبراطوريات، لماذا لاتقوم أنت نفسك بتحـويل الامبراطورية القائمة في روما؟ لكـن عندمـا يرسـم واحد آخـر شيئاً مـا، على الذي وقتهـا يمتلك الكنيسـة بينكـم أن يعتـاد رغم ارادتـه على احترام مـراسيمـه(٢٣)، لقـد وقعـت —على كل حـال— في مصيـدتك، وتفعـل بشكـل مُقنع أشيـاء متعـارضة، هـؤلاء الـذين لم تـرض قبول طلبهـم واستقبـالهم، منذ وقـت قصير، عندمـا كنت تتصرف بشكل صحيـح نحو الامبراطـور، لأن ذلك لم يكن ممكناً، لكن أن تدرجهم الآن بين سواسك، لاأعرف كيف ذلك، ولا كيف تتقبلهم بمثابـة أباطرة، إنك تدرك أن الذي بوساطتـه ومن خلاله، ومنه ادعيت العـرش البابوي، لايمكن أن يُطـابق مع البربري، والطـاغية والعبـد، إنـه يقول: أنـا أرغمـت، إنني تحت الضغط، إن عـذرك ليس مسوغـاً، لقد تخليت مـن قبل، لكن ليـس قبل وقـت طويل مضـى، عن هذه الأشيـاء إلى الامبراطور مـانويـل، وإذا ما رغبـت بانكـار ذلك، فـإن الـوثائق التـي تلقـت توقيعـك في الأسفـل تعلـن ذلك، وفي الحقيقـة إن القضية هي مزحـة، وخدعة سخيفة ودنيئة، وحسب طريقـة الذي يراهن على مضي الوقت، لقـد لزمت بخط تبدلات الحظ(٢٤)، ولقـد تشعبنا مع هذه المسألـة أكثر مما يتوافق مع الـروايات التاريخية، لذلك لنـدع الحكاية تعود إلى مسألتها السالفة.

٨- بعدمـا قام ستيفـن [الثالث] هكـذا بالاستعـداد، أسرع بالـزحف ضـد الـرومـان [١١٦٤]،وعنـدمـا كـان الامبراطـور في داخـل الأراضي الهنغارية، جاء النـاس الذين كانوا هناك على شكـل حشود للترحيب به، وضموا كـلاً من الذيـن كانوا مـدرجين بين رجال الـدين، الذيـن التفوا بأردية صوفية، وحملوا بأيديهم الكتابات المقدسة، والذين كانوا من العامة والناس العاديين، وقد غنـوا بشكل جميل جداً، مزموراً نظمـه ببراعة واحد

ممن كان بيننا، ونصه هو كما يلي: «أيها المولى، يامن ساعدت داوود المتواضع»، وهكذا، وبعدما مرّ الامبراطور بهذه المناطق، أسرع لعبور الدانوب، وذهب محاذياً لجزيرة كانت هناك(٢٥)، فقد عزم على الزحف نحو الداخل.

ثم إنه عندما كانت القوات الرومانية تعبر، حدث أن واحداً من القوارب، امتلأ حتى حوافه بالبضائع والسلاح وبأكبر عدد ممكن من الرجال،وعندما لم يكن بعيداً عن الشاطىء، جنح إلى أحد الأطراف، ولذلك تدفق الماء إلى داخله، أما بالنسبة لبقية الجيش الروماني من الذين صعدوا إلى السفن وكانوا محمولين على وجه النهر، والذين كانوا مايزالون واقفين على اليابسة، فإن بعضهم قد استولى عليه الخوف من الخطر، وبعضهم الآخر كان مهملاً، ولذلك أهملوا القضية، ولم يبق سوى القليل أمام السفينة حتى تغرق وتذهب إلى القعر مع جميع رجالها، لولا أن الامبراطور قفز إلى الماء، وقصد على قدميه نحو السفينة، وذلك في وقت كان فيه التيار يدور بعنف عظيم، وشكل بعضاً من الطين هناك، كان من الصعب جداً تجاوزه، وقد وضع الامبراطور كتفيه تحت المركب، وأوقف بذلك لحظة الخطر، وأعطى بذلك الفرصة للآخرين للقدوم لمساعدته، فقد خجلوا من غيرته، فذهبوا إلى مساعدة الذين كانوا وسط المصاعب، وأنقذوهم من الخطر، ولذلك حصل الامبراطور على احترام عظيم لانسانيته.

ثم إنه بعدما عبر الامبراطور الدانوب من مكان أكثر ارتفاعاً، أسرع نحو مدينة اسمها باغاتزيون Pagatzion [باكـــس أوبج] —وهذه المدينة هي مطرانية شعب سيرميون Sirmion ، وهناك يسكن أسقف الشعب— وجاءت حشود من السكان خارجة من المدينة للخدمة بمثابة حرس هناك(٢٦)، وهكذا عسكر هناك، لكنه علم في اليوم التالي أن ستيفن [الثالث] كان يقترب آنذاك، فاستعد فوراً

للمعـركة، واستـدعى واحـداً من الـرومـان، كان يعـرف اللغة التشيكيـة، فطلب منه أن يخفي نفسه ويتسلل إلى معسكـر العدو، وعندما يصبح على مـرأى من ملـك التشيك أن يخاطبـه كما يلي: «إلى أين أنـت مسافـر؟ أي حملة أنت قـائم بها مع الجيش الذي تحت امرتك؟ أو انـك لاتعرف أنك تتجرأ برفع يديك ضد الامبراطور العظيـم؟ إنه مرعب بالنسبة لأي انسان أن يقف ضده في المعـركة لأسباب كثيرة، دون أن نذكـر أن مخاطرات المرء مزدراة من قبـل هؤلاء الهنغار، الذيـن أعطوا بيلا ميراثه ثـم أخذوه، لأنهم يعاملـون أيمانهم وكأنها مـزاح، فلو أن الانسـان يتعامـل مع فـرد خاص، وحدث مثل هـذا، بخرق اتفاقيته، هـل يمكن أن يمر ذلك بـدون عقاب بوساطة القانون، فهل ياترى يمكـن للهنغار الذين عملوا ضد معاهداتهم مع مثل هذا الامبراطور، أن يبقوا بـدون عقاب؟ لايمكن هذا، وعلى ذلك أوليسـت الحرب المثـارة من قبـل الامبراطـور عـادلـة؟ إن نتيجة المعـركـة ستكون دومـاً وفقاً للعدالة، وقـدر هذا: إنك قـدمت بمثابة عبـد متشوق للقتال ضد سيد، وبمثابة عبد يحمل النير بدون إكراه، (وإذا لم يكن الأمر كـذلك، سيكـون مـن الطبيعي هنـاك سبب مثـل الكـراهية لسيـد) وفي الحقيقة كتابـع متطوع (ولاؤك [Lizion] يدلـــل على هذا) (٢٧) إذا كان ماصنعته في بيزنطة من قبل، عنـدما انطلقت إلى آسيا مع كونراد، إن لم يكن ذلك قد أفلت من ذاكرتـك، وإذا كانت نتيجة الأمور متوقفة على قـرارك، اختر مـاسيكـون مفيداً لـك ولجميـع التشيكيين، الأسـف قـادم، والمنافع بالعادة قليلة جداً لمن يمارسه».

هكذا تكلم، وأجـابه فالديسـلاف [الثاني] (كان هذا هـو الاسم الذي أطلـق عليه) (٢٨) حسبما يلي: «أيها السيـد النبيل، نحـن لم نأت إلى هنـا لاثـارة الحرب ضـد امبراطـور عظيـم (ولا أن نكـــون بـذلـك متجـاهلين لاتفـاقاتنـا نحوه) بـل أتينا للـدفاع عـن ستيفن هـذا الذي لحقـه الضرر بشكـل غير عادل مـن قبل عمـه الشقيق، الـذي كان قـد طرده أولاً مـن

أرض آبائه ومن ميراثه، ثم إنه عندما استرد الحق إليه، هاجمه الآخر، وعزم على أن يستعيد بالقوة المنصب الذي كان قد فقده لسوء حكمه، ولهذه الأسباب جئت لأطلب من الامبراطور ولأرجوه في أن يقوم بحماية طفل يتيم، ولكن إذا كان تمّ صنيع شيء ما للاضرار بالامبراطورية من قبل ستيفن الأصغر (لأنني علمت أن مامن شيء من الأرض العائدة إلى بيلا نفسه قد استولى عليه) سنقوم بأنفسنا بعمل الوساطة ولسوف يقوم بالتنازل عن الأرض على الفور، ويجهد بكل سبيل بالعمل للتكفير عن أخطائه»، لقد كان هذا ماقاله، ثم أعاد الرجل.

وعاد الرجل إلى المعسكر الروماني، وأوصل إلى الامبراطور الجواب، واستمع مانويل إلى هذه الكلمات ليس بدون سرور، ومع ذلك لم يكن قادراً على تصديقهم كلياً، وشعر بالقلق خشية أن يكون فالديسلاف لم يكن قد عبّر عن نواياه الحقيقية، بل يوجد خلفهم شيئاً من الخيانة، فقام بارسال بعض أعوانه إليه، وأمر أن يتم تأكيد الاتفاقية بيمين، وقام الطرف الآخر بدون تردد بفعل ذلك على الفور، ولم يكتف بذلك، بل زاد التأكيد بأيمان اضافية على ماكان قد تعهد به من قبل، كما تقدم وذكرنا.

وبعد قليل بعث ستيفن رسلاً إلى الامبراطور، أعاد بوساطتهم الأرض، وطلب من الامبراطور ألاّ يسمح لعمه ستيفن [الرابع] القيام بمهاجمة هنغاريا(٢٩)، وقبل مانويل هذه الشروط، وبناءً عليه أنهى الحرب، وذلك بهدف الجواز إلى الأراضي الرومانية، ونصح ستيفن [الرابع] بمغادرة هنغاريا، لأنه علم من خلال التجربة بأن أبناء جلدته لايرضون به، لكن بما أنه لم يكن قادراً على اقناع الرجل قال له: «إنني الآن مغادر، فبعدما استرددت أرض بيلا، لم يبق من سبب مسوغ للصراع، إلا سبب غير عادل، واعلم أنك ستتعرض للخيانة على الفور لصالح أعدائك، وإذا ما كنت ترغب فإنني أبرهن لك وأريك الحقائق حتى أمام ناظريك، يوجد هنا ابن أخيك ستيفن، وهو مشابه لك تماماً بالمظهر، إلى حد أنه يصعب

على الـذين ينظـرون إليك عـن بعد تمييـز أحدكما عـن الآخر، قـم بعدمـا تلبسه سلاحك بـأمره بأخذ جيشك، والزحف ضـد الأعداء، وابق نفسك مختفياً في مكان ما هاهنا، وستعلم على الفور كيف سيعاملك الهنغار».

وهكـذا دخـل [ستيفـن الـرابـع] إلى إحـدى السفـن، وأقلـع دون أن يُلاحـظ إلى مكان ماعلى شـواطيء الدانـوب، بينما بادر ابن أخيـه ستيفن والهنغار من حولـه للاشتباك مع الملك ستيفن، ولكن حتـى قبل أن يواجه الجيشان أحدهما الآخر، بادر الهنغار الذين كـانوا مع ستيفن بإلقاء القبض عليه، وأسرعوا بتسليمـه إلى الملك على أنه ستيفن الأكبر، وانتهـت خطيئة الهنغار عند تلـك النقطة، لكن عندما علم الامبراطـور بهذا، أرسل ينصح ستيفـن [الـرابـع] قـائلا: «يكفـي أيها الـرجـل، وكما أنـه مـن الخَطـر أن تنسحب بدون حاجـة، كذلك من الحماقة أن تكون جسـوراً بدون حاجة، تبصر أنك في مـرتين كنت قادراً على أن تعلـم كم من الشرور جـاءت من كـل مناسبة، ولاتحاول مـرة ثـالثـة، أيها السيـد النبيل، لايمكـن بسرعـة اصلاح الأمور وتـرميمها حسبما ترغب». لقـد كان هذا ماقـاله الامبراطور لكن الآخر أجابه: «بدلاً عن ذلك، يشعر الهنغار الآن بـالخجل، لانغماسهم بالخيانة»، وهكذا تبدلت الروح التـي استولت عليها الشهوة مرة، وأوقفت كل نقاش في اتجاهها.

وبعدمـا رفض قبول [المساعـدة] لهذه الأسباب، ترك الامبراطـور هناك نقفور كالـوفيس Chalouphes مع جيش لمصاحبـــة ستيفن، وليتولى معالجة كـل مايمكـن أن يحدث، وعاد هـو نفسه إلى الأراضي الـرومانيـة، وبعد مضي مدة وجيـزة [١١٦٤] علـم الملك الهنغاري أن ستيفـن مايزال في هنغاريـا، فقام بجمع المزيـد من القـوات، وبادر مسرعاً لتقـدير مصير كـل شيء بوسـاطة القتـال، وحدث في الـوقت نفســه أن عدداً كبيراً ممـن كانوا مع ستيفـن [الرابع] تخلوا عنه والتحقوا بالملـك، وهكذا تركوه مجرداً من كل جانب، وعندما علم كـالوفيس بهذا، عرض عليه خطة قضت أن

يقوم بمغادرة هنغاريا وأن يأتي إلى سيرميون، وبما أن تلك المنطقة كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور، فسيكون ممكناً له —كما قال— أن يقوم بما يريده دونما اعاقة، ولكن بما أن الرجل رفض بثبات، فقد خطط كالوفيس ونفذ الخطة التالية: لقد تظاهر أن رسالة وصلت إليه من الامبراطور، فزحف نحو الدانوب من أجل مقابلة الذين حملوا الرسالة إليه، والذين كانوا لخوفهم من الهنغار مقيمين في مكان ماعلى محاذاة الدانوب، وعندما وصل إلى هناك، عبر ومضى إلى سيرميون، وبعد وقت قصير وصل ستيفن إليه ملتجئاً وذلك بعدما كاد أن يؤسر من قبل الأعداء، وعندما سمع الامبراطور بهذا أرسل جيشاً معتبراً إلى سيرميون، لكي يتولى —من جهة— حماية المنطقة (لأنه عامل الهنغار بشيء عظيم من الريبة، وكان يخشى أن يثوروا ثانية)، ومن جهة أخرى بحجة تأمين الأمن لأتباعه، ولبذل الجهد في سبيل سلامة ستيفن، وقاد هذه القوة ميخائيل الذي كنيته غابراس(٣٠) Gabras ، وبما أنه كان زوجاً لإحدى بنات أخيه فقد حمل لقب سيباستوس.

وحمل الامبراطور ذراع القديس بروكوبيوس، الذي كان قد أخذه من سيرميون، وأعاده إلى بقية الجسد في الكنيسة في نيسوس، وكانت هذه الذراع قد فصلت عن بقية الجسد منذ وقت طويل مضى للسبب التالي: كانت أمة الهنغار قد استولت مراراً على الأراضي الرومانية، وكان هؤلاء الهنغار قد استولوا على سيرميون قبل حكم ألكسيوس كومينوس بوقت قصير، وبعدما استعبدوا كثيراً من مدن الدانوب،وصلوا إلى نيسوس، فوجدوا هناك جثة الشهيد المقدس، وقدروا —كما أعتقد— أنه كان عملاً غير انساني القيام بحمل الجسد كله، ولذلك اكتفوا بقطع الذراع ومن ثم غادروا، وعندما وصلوا إلى سيرميون، تركوا الذراع هناك في كنيسة الشهيد ديمتريوس، التي كان قد بناها الذي حكم في متقدم الأيام مقاطعة اليركيوم Illyricum ، وعندما اكتشف الامبراطور

الـذراع هناك، حملهـا، وعاد بها —كماذكـرنا— مسرعـاً ليضمها إلى بقيـة الجسد.

٩- كانت هـذه الأشياء قد حدثـت وأنجزت من قبل الامبراطـور ضد الهنغار في ذلك العام، كما أنه أرسل ألكسيـوس ابن الدمستق [أكسوكوس Axouchos] الذي كـان —كما ذكرنا— قـد تولى مـراراً منصب البروتونوتاريوس Protonotarios ، أرسلة إلى كليكية، مع حملة معتبرة، وعيّنه قائداً عـاماً مسؤولاً عن الصراع هنـاك(٣١) [١١٦٥]، ذلك أن نـور الديـن أتابـك حلب، كـان قد ارتفـع شأنـه نتيجة الانتصـارات المتقدمـة، فبات يحدوه الأمـل في أن يسيطر حـالاً على أنطاكيـة، وكذلـك كان طـوروس المتسلط على الأرض هنـاك، قد استـولى غدراً على كثير مـن المدن الإيـزوريـة مما كـان خـاضعـاً للامبراطـور، ذلـك أنـه كان معـاديـاً لأنـدرونيكـوس يـوفـوربينـوس Euphorbenos ، ابـن عـم الامبراطور، الـذي كان آنذاك حاكماً لكليكيـة، فقد اتهمه طوروس بـأشياء كثيرة، ولامه بشكل خاص لقتله [١١٦٢] أخيه ستيفن [سديفان].

لقد كان هذا ماحدث هناك.

وكانت قـوة فردريك ملك ألمانيا تتقدم لحظـة فلحظة وتتصلب كثيراً، لأنه تدبـر أشياء كثيرة ومتنوعة في سبيل استقرار الـدولة، ولاسيما في سبيل تأمين المال، وهـو شيء لم يكن بالعـادة من قبـل، فقد استولى على ميـلانو، وهي مـدينة شهيرة [١١٦٢]، وهـزم أمة الليغـوريين أو اللومبـارديين، ثم تابع المزيد من التقدم، فزحـف إلى أقصى أجزاء الغرب، وهذا الذي كان من قبل غير قادر على الحاق الهزيمـة أثناء القتال بالذين كـانوا على مقربة منه، استطاع إثـر ذلك الاستيلاء على المناطق البعيدة كثيراً، فـأخضع روما نفسها في الحرب(٣٢)، ولهذا شعر الامبراطـور مانويل نفسه بـالقلق، وأخذ يبحث عـن الوسيلة التـي يوقف بها تقـدمه، خشية أن يجعلـه نجاح غير

متوقع يقدم على الالتفات ضد الأراضي الرومانية، التي نظر إليها منذ زمن طويل مضى بأعين جشعة، ولهذا أرسل سراً بعض الأشخاص غير المعروفين إلى الأمم هناك، وإلى المقيمين داخل خليج إيونيان Ionian [البحر الأدرياتيكي]، وأمرهم بتذكيرهم بجشع فردريك الذي لاينتهي، وليثيرهم لمقاومته، وبعث إلى شعب البندقية نقفور كالوفيس مع مال ليكسب مشاعر أولئك الناس نحوه، وليوجه الأمور هناك لصالح الرومان.

وكان فردريك بعدما أخضع روما قد أحدث تغييرات كثيرة، خاصة بازاحة الاسكندر [الثالث] عن عرشه، ذلك أنه كان الأسقف هناك، ووضع مكانه أوتافيانو(٣٣) Ottaviano وبذلك كان يمكنه —كما أعتقد— جعل نفسه مساوياً بالمرتبة امبراطور الرومان، لأنه مامن أحد —باستثناء امبراطور الرومان— مخول بتسمية أسقف لروما، وعندما أزيلت هذه العادة بسبب اهمال أباطرة بيزنطة، مامن واحد أقدم على إقامة أية أسقف في روما، بل كان ذلك يتم من خلال مجمع ديني خاص يضم حكومة الكنيسة وأعلى رجال الكهنوت رتبة [يعني الكرادلة] في روما، وكان فردريك، قد رنا بناظريه من قبل نحو منصب امبراطور، ولدى توليه تعيين الأسقف، بدا وكأنه يمتلك مسوغات هامة ومعطيات لنيل هذا المنصب، فلقد كسب إلى جانبه عدداً من الأساقفة، وظهر أنه مقبل على نيل ماأبدعه من خلال مجمع ديني، أما بالنسبة إلى الملوك الآخرين، فقد بدا هذا أمراً ليس مرضياً، لكن مامن واحد كان قادراً على مواجهة فردريك، الذي صعد إلى أعلى درجة من القوة، باستثناء أن الامبراطور كان قادراً على اعاقته بالمال وبطرق مبدعة أخرى لخدمة هذا الغرض، فقد أعاد تثبيت الاسكندر على عرشه، غير أن هذا حدث فيما بعد.

وعندما وصل كالوفيس إلى ايبيدامنوس Epidamnos ترك معظم المال الذي عهد به إليه هناك، ومضى إلى البندقية بوساطة سفينة، لاقت

ريحاً طيبة [حوالي١١٦٦]، وعندما جاء ليتحدث إلى الدوج في تلك المنطقة [فيتالي ميشيلي الثاني] وإلى بقية الأعيان وسط ذلك الشعب، خاطبهم قائلا:

«لايفكرن أحد أيها السادة أنني قدمت إلى هاهنا من عند الامبراطور خوفاً، أو خشية أن المشاعر الطيبة لديكم نحو الامبراطورية الرومانية يمكن على الاطلاق أن تتخلى عنها نباهتكم، فأنتم لستم أدنياء بمثل هذه الدرجة، ولاغير جديرين بأصلكم، ولم يخطىء الامبراطور في رأيه فيكم، لكن بما أنه —باستثناء الخاضعين لسلطانه— مطمئن تجاه حسن نواياكم، قرر أن يمدّ عواطفه الملكية الأمينة نحوكم، وبما أنه من العار استغلال الرعايا المزدهرين، ورفض انقاذ الذين يعانون من المصاعب، ولأنكم مع آخرين ممن يشارك في المشاعر الطيبة للامبراطور قد تعرضتم للخطأ من قبل فردريك، الذي لشدة رغبته بالسلطة قد جهد أن يغير بدون توقف ماتقرر منذ زمن بعيد وصار عادة، ولهذا أرسلني إليكم، كما ترون، لأزودكم بكل شيء يمكن أن ترغبوا بالحصول عليه منه، فبمساعدة الامبراطور توليتم بأنفسكم الصراع ضد فردريك في ميلان، وأنتم تعلمون كيف انتصرتم عليه، ولهذا بات يحمل الحقد على الامبراطور، وثقة منه في نجاحه غير المتوقع يطلب شيئاً غير لائق، إنه يطلب أن يحمل لقب امبراطور الرومان، وهو لايعلم أن نجاحات الحظ غير المتوقعة تتبدد بالعادة بسرعة وتختفي، لأنها لم تقم على قاعدة ثابتة، إن هذه هي الأسباب التي جئت من أجلها إليكم، ويتوجب عليكم مراعاة التنفيذ الفعلي لما وافقتم عليه مؤخراً عندما راسلتم البلاط الامبراطوري، فلقد قلتم إن مدن الليغوريين [أي اللومبارديين] المجاورة ستساندنا إذا جاء أحد من بيزنطة ليشارك في المهمة معكم، وهذا —كما ترون— قد وقع». هكذا تكلم نقفور، ورحب البنادقة بكلماته، وتعهدوا بتنفيذ كل شيء، وفي الحقيقة انضمت كريمونا وبادوا وكثير من المدن

الشهيرة الأخرى في ليغوريـا إلى الامبراطور، وكان هذا مـا أنجزه الامبراطور في ايطاليا، لكن ليس بشكل مكشوف، فقـد كان مايزال يرغب في اخفاء كراهيته نحو فردريك.

١٠- واستـولى [اسطفـان الثـالث] ملـك الهنغـار مجدداً على سيرميـون وانتـزعهـا مـن الـرومـان وتمسـك بها، وادعـى ملكيـة زيغمينـون نفسهـا [١١٦٥]، وعندما علم الامبراطور بهذا كتب له كما يلي:

«أيها السيـد النبيـل، انـك لاتتصرف بشكل عـادل، فقـد استخففـت بـالأيمان التي سلـف أن أقسمتها لجلالتنـا فيما يتعلق بسيرميـون وأماكـن أخرى، وخرقتها، (ويحتاج البرهان على ماقمـت به إلى كلام طويل) وما لم تقم بالانسحاب بسرعـة مما ليس عائداً إليك، فإنـك لن تحقق شيئاً كثيراً بالاستيلاء على سيرميون لأنك سوف تعاني من ذلك قريباً، وذلك عندما تجتاح القوات الرومـانية بلادك كلها من جديد بقـوة السلاح، فهل نسيت كم مـن آلاف المرات قد انتزعـت هنغاريا من أبيـك، عندما تخاصـم منذ زمن بعيد مـع الدولة الرومـانية؟ الاعتذار عما اقترف هو سبيـل خلاصك: فكر بهذا وإلا فـإنك لن تستفيـد حتى من اعتـذاراتك المتقدمـة، وسيف العدالة التي شحـذ من قبل خلال عدد كبير من السنوات تحول بالحقيقة لأن يكـون مظلماً، خـلال عدد مسـاو مـن السنـوات، لكنني أعتقـد أنـه لايمكـن للمرء أن يتجنـب حده قبـل الآخـرين»، هكـذا كانـت كلمات الامبراطور وعباراتـه، لكن ستيفن أهمل هذه الكلمات، ورجـع إلى الطريق نفسه، ولهذا استعـد الامبراطور بكـل وسيلة لقتـاله، لابـل حتى رغـب في إعادة اعطاء العـرش إلى عمه الشقيق ستيفن [الرابع]، وهـذا أمر لم يفكر به من قبل.

ووصل بـالحقيقة إلى دولة روسيـا رجل اسمه مـانويل، يعـود بنسبه إلى الكومنيني [حوالي١١٦٥] ليـذكر حاكمها بالاتفاقية التي كـان قد عقدها

من قبل مـع الامبراطور وأكدها باليمين، بـالاضافة إلى لومه لصـداقته مع ياروسلاف Iaroslav [أوسمومیس Osmomys] حاكم غاليشيا، لأن ياروسلاف خـرق تعهداته نحو الرومان في عـدد كبير من المسائل، ولاسيما في استقباله أندرونيكـوس والاحتفاء به بشكـل ينم عـن الصداقـة، وعن أندرونيكوس هـذا سوف نتحدث ملياً، فقـد جاء إليه ملتجئاً بعـد فراراه مـن السجن في القصر، حيـث كان مسجـونـاً —كما أعتقد— لمدة تسـع سنوات، وفيما يتعلـق بالحقائق حـول فرار أندرونيكـوس، هذا ماسأحكيه الآن:

١١- وكان في وقـت متقدم مضى قـد فرّ مـن السجن بطريقـة رائعة، لكـن القدر كما أعتقـد كان مـايزال يتطلـب العقـوبة لما كـان قد اقترفـه، ووضع دون جهـد هذا البـائس في أيدي مطـارديه، فقـد روي أنه عنـدما وصل إلى نهر سانغـاريوس Sangarios [ساكـاريا Sakarya] اضطر بسبب البرد الشـديد إلى الدخـول إلى كوخ حقير، لكـن مالبث أن لـوحظ من قبل الرجال هناك، لأنه كـان بطبيعته دائم الحركة، وبدا حاداً إلى حد مـا ومخيفـاً، وبسبـب أن الحركـة الداخليـة ظهـرت كما أعتقـد، وبـاتـت مسمـوعة في الخارج، قـام الفـلاحون بتطـويقه، وعلى الـرغـم من انكـاره وتأكيده أنه ليس أندرونيكوس، ربطـوه وذهبوا إلى بيزنطة، وأخذوه معهم، ومرة ثانية تولت القيود والزنزانة حبسه.

ثم قام أخيراً بطبـع المفاتيح على الشمع، وأرسلهم مـع أحد المساجين إلى زوجتـه وابنه[١١٦٤]، وبـاستخـدامهم لبعـض المتآمـريـن الآخريـن صنعوا المفاتيح من الحديد وأرسلوهـم له، وبعدما استلمهم، وعند غروب الشمـس، وهـو وقت كـان متفقـاً عليـه، وبعد أن انتظـر غيـاب الحراس خرج، وكان هناك سـاحة ما، لها سور، فهناك كان مسجـوناً، وكان هناك، بحكم أن المكان نادراً مـاطرق، بعض الأعشاب التي نمت بكثـافة وطول شديـد، فركـض هناك، وخبأ نفسـه مثل الأرنب، بـإلقاء نفسـه في أصغر

بقعة ممكنة، وبما أن الوقت بات ليلاً، كان على حرسه الليلي المعتاد القيام بتطويق السجن، وقام الذي عهد إليه من قبل الامبراطور بالاشراف على ذلك بمركزة الحرس، وهزّ بيده القضبان، حسب عادته اليومية قبيل ذهابه إلى الفراش، وكان هدفه تفقد الوضع ومعرفة فيما إذا كان أي تخريب قد وقع، وعندما لم يجد أي تخريب على الاطلاق، ترك المكان وذهب إلى النوم، وكان أندرونيكوس قد خشي أن يجد كلادون (كان هذا اسم الرجل) الباب مفتوحاً فيشرع على الفور بالبحث عنه، أغلق الباب وغادر بسرية وأمان.

وعندما حلّ منتصف الليل، ذهب إلى أقصى جزء من الساحة هناك، حيث نهاية السور المشرف عليها، ولم يكن السور مرتفعاً جداً هناك، بل مايكفي فوق الماء هناك، وكان البحر عندما يرتفع بقوة الريح غالباً مايضربه بمائه بعنف، وربط هناك حبلاً قصيراً وأمسك به وتدلى إلى الشاطىء، وهناك واجهه الحظ لوقت قصير بوجه عبوس، ثم ابتسم له وأطلقه وتعطف عليه، ذلك أنه كان خجولاً بعض الشيء، ويمزح كما هو واضح، فقد كان هناك واحداً من الحرس الذين اعتادوا على الاقامة في الأبراج،وكانوا يداومون الحراسة بالصراخ من أحدهم إلى الآخر بالتناوب مع التفوه بالكلمة المتفق عليها، فعندما رآه هذا الحارس اقترب منه وطلب منه أن يعلن عن هويته، فأجابه السجين بأنه كان واحداً من الذين يقفون في القصر عند الـ Papicas (٣٤)، لأسباب مالية، وقال له: «إذا تركتني أذهب، فهذا سيكون معروفاً وفضلاً منك نحوي»، وفيما هو يقول ذلك سحب التميمة من حول صدره وأراه إياها، وعندما رأى الآخر (الذي كان فلاحاً ويتصارع بشكل مستمر ضد حقائق الفقر) الذهب يلمع أمام عينيه، أخذ التميمة وترك أندرونيكوس يذهب، ووصل بالوقت نفسه إلى القارب الذي كان موضوعاً بالقرب من المكان، وكان معدّاً لنقله، وحملوه بالقارب، وأوصلوه إلى البيت، وهناك فكوا

القيود التي ربطت قدميه، ثم قام مجدداً بالصعود إلى ظهر سفينة، أقلعت به، وأبحرت إلى خارج الأسوار، وهناك وجد الخيول التي كانت معدّة من أجله، فامتطى أحدها وغادر هارباً، وهكذا بعدما هرب أندرونيكوس من السجن، مضى إلى روسيا، والآن ينبغي أن تعود روايتنا إلى موضوعها المتقدم.

١٢- وللأسباب السالف ذكرها جاء مانويل إلى بلاط بريميسلاف، وطلب منه قوات حليفة للرومان، لأنه بعث إليه وإلى روستيسلاف الذي كان أيضاً حاكماً في روسيا للبحث في عقد تحالف(٣٥)، وفي الحقيقة نجح في غرضه، وكانا على درجة عالية من السرور لأن الامبراطور استخدم مثل هذا الرسول وبعثه إليهما، وقد وعدا بتلبية كل شيء يطلبه الامبراطور، ولم يغفل الامبراطور بهذه المناسبة ياروسلاف [صاحب غاليشيا] بل أثاره للحرب ضد ستيفن بعدة وسائل وسبل، فقد كتب إليه كما يلي: «إننا لن نقلد انعدام عواطفك نحونا، باهمالك الشروط والمعاهدات التي أقسمت عليها من قبل، بل سأضع أمام ناظريك حقائق أذاه بسبب أنك تخاطر في أن تغضب وتثار إلى أقصى الدرجات، قدر أنك مزوج ابنتك إلى ملك هنغاري ضعيف الأخلاق ومريضها، وفي الحقيقة غير ثابت في أغراضه: فهو لايقدم أي احترام على الاطلاق للعدل والصدق، وأعتقد أن أي شيء يمكن بسهولة أن يصنع من قبل انسان مهمل بالطبيعة، ويعمل بشكل عام ضد القوانين، وبناءً عليه لن يتزوج ستيفن من ابنتك، ولن يفعل أي شيء قانوني نحوها، لابل حتى إذا تزوجها فإنه سيعاملها مثل إحدى الماشيات في الطريق، لأنه على هذه الصورة سبب المضار لجلالتنا، وبلا حياء لم يرع أياً من الأيمان التي أقسمها منذ زمن وجيز، بحجة المزاح، قدّر مايمكن أن يفعله لك من أعمال غير انسانية»، وأصغى بريميسلاف(٣٦) إلى هذه الكلمات بنوع من السذاجة البربرية، وكان على الفور عظيم الغضب، وقد عدّ صهره عدواً،

ووافق على مساعدة الرومان الذين كانوا يقاتلونه بأي طريقة ممكنة.

ويوجد في روسيا مدينة اسمها كييف، كانت متفوقة على كل مدينة موجودةهناك، وقد عدّت بمثابة عاصمة لاهوتية لتلك الدولة، وجاء إليها أسقف من بيزنطة، وكانت تدعي السلطة على البقية، لأنهم ألصقوا بها شرفاً خاصاً ومنزلة عالية، ووافق حاكم هذه المنطقة على مباشرة الحرب ضد ستيفن، وأكّد معاهدته بالأيمان(٣٧).

وفي الوقت الذي حدث هذا فيه، علم فردريك ملك الألمان، أن الامبراطور يعارض بشدة أعماله في الغرب، لذلك قرر ازالة خلافاتهما، وأقام سلاماً مع الرومان، واتفق هو شخصياً مع الامبراطور على اثارة الحرب ضد ستيفن، ولم يشأ هنري، الذي غالباً ماقلنا [كذا] أنه تزوج من ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، أن يكون غائباً عن هذا الصراع(٣٨)، وكان هناك أيضاً جيشاً كبيراً من الكومان والصرب الذين كانوا من رعايا الرومان، وقام السلطان، طبقاً لموافقته بارسال قواته الحليفة، وهكذا تجمعت قوة جبارة من كل جانب.

وجاء في الوقت نفسه فالديسلاف —وكان من الشخصيات الرئيسة في روسيا— ملتجئاً إلى الرومان ومعه أولاده وزوجته وقواته كلها، وقد تمّ منحه ممتلكات على طول الدانوب، وهي الممتلكات التي سلف للامبراطور أن أعطاها إلى اللاجىء فاسيليكا بن جورج، الذي كان يتمتع بمكانة رئيسية بين الزعماء في روسيا(٣٩).

ووافق البنادقة أيضاً آنذاك على مساعدة الرومان باسطول فيه مائة سفينة حربية للصراع بالبحر، وبذلك جددوا معاهداتهم السالفة مرة ثانية، وبالاضافة إلى هذا قدموا تعهدات بالمحافظة على معاداة فردريك ملك الألمان وبقية المناطق الغربية طوال حياته إذا ماأثار الحرب ضد الرومان.

١٣- هكذا سارت الأمور فيما يتعلق بالغرب، وكان بلدوين [الثالث] ملك فلسطين الذي تزوج ابنة أخي الامبراطور(٤٠)، قد هلك وزال من بين البشر [١١٦٣]، ولأن حياته انتهت دون أن ينجب ولداً، انتقلت الملكية إلى أخيه [عموري الأول]، وفور اعتلائه العرش بعث إلى الامبراطور يسأل الحصول على عروس من بين الرومان، واستهدف بالوقت نفسه معرفة موقفه فيما يتعلق بالوضع في أنطاكية، وبحكم أن الانطاكيين كانوا بطبيعتهم خرقة للأيمان، قد عادوا إلى بلدوين في فلسطين، وتمكنوا بذلك وبتدبير أمورهم بأنفسهم وفق ارادتهم، تمكنوا من تأمين حكومة مدينتهم(٤١)، وكان عموري يعرف أن المدينة كانت خاضعة إلى الامبراطور، لذلك ارتأى أن يتعرف إلى الأمور منه أولاً، وقد أجابه مانويل كما يلي: «بالنسبة للطلب المتعلق باقامة وشائج القربى بالزواج، وبما أنك ترغب بالحصول على عطفنا، إن مطلبك سيلبى قريباً، لكن فيما يتعلق بمدينة أنطاكية، فقد كانت قديماً تابعة ضرائبياً إلى الرومان، وهي الآن خاضعة لجلالتنا، وسيكون من غير الممكن مادمنا أحياء بالنسبة لك أو لأي انسان آخر أن يمارس أية سلطةعليها، وعندما سيتلقى شعب أنطاكية العقوبة من جلالتنا بسبب كفرهم تجاه الرومان، سيعرفون وقتها مع من تجرأوا على الاختصام»، لقد حوت رسالته هذه المواصفات، وحيث أن عموري قد خاب أمله بالنسبة لأنطاكية، زاد بذلك من ضغطه في سؤال الامبراطور حول رباط زواج، وقام بعدما تزوج إحدى بنات [جون كومينوس] البروتوسيباتوس، بدوره أيضاً بالتعهد بالقسم إلى الامبراطور، مثلما فعل أخوه بلدوين من قبل.

وبما أن الامبراطور لم يكن قد أكمل بعد استعداداته للصراع الذي أمامه، خشي كثيراً على مدينة زيغمي Zeugme ، التي كانت محاصرة من قبل ستيفن [الثالث]، وأرسل قبل أن تنشب الحرب الشاملة في جميع المناطق، جيشاً متميزاً لمساعدتها، وكان تحت قيادة الأميرين

ميخائيل غابراس وجوزيف برينيوس، وكان تحت قيادتهما آخرين من أكثر المتميزين بين الرومان، منهم جون الذي كنيته أنجيلوس، وكان رجلاً صاحب خبرة عسكرية، وجون ايسس [عيسى] (٤٢)، وهو تركي من حيث المولد، شارك الرومان في النشأة وطرائق الحياة، ورغبة من الامبراطور في ضمان المدينة أكثر، ملأ عدداً كبيراً من السفن بالجنود والمؤن، وأمرهم بالابحار عبر طريق الدانوب، بغية تزويد الشعب في داخل المدينة بالضروريات، وذلك حتى يتمكن هو نفسه من الوصول إلى هنغاريا مع الجيش كله.

وأضاع الهنغار كثيراً من الوقت حول أسوار [زيغمينون]، وبعدما حاولوها مراراً أدركوا أنهم كانوا يحاولون شيئاً مستحيلاً (لأن السفن الرومانية التي كانت راسية على مقربة من شاطىء نهر الدانوب، قدمت الكثير من المساعدات إلى الرومان في الداخل، يضاف إلى هذا أنها نقلت الرجال الذين عانوا من الجراح أثناء القتال، وعوضتهم برجال أصحاء الأجساد)، أما الهنغار أنفسهم فقد جمعوا عدداً من المراكب، وذلك قبل وصول قوة غابراس وبرينيوس إلى هنغاريا، وبادروا مسرعين مندفعين ضد السفن الرومانية بهدف اغراقها، وبالتالي الانتصار في المعركة بسهولة، ومع ذلك فقد تبرهن أنهم أقل شأناً بوساطة هذه المحاولة، وكانت سفنهم أقل سرعة من السفن الرومانية، لأنها لم تبن ببراعة، ولأنها تتسع بشكل غير اعتيادي في الوسط، وعندما انطلقت عبر النهر، قام الرومان الذين شكلوا نمطاً من صفوف الاقتتال، باعتراضها وسط المجرى، ورموها مراراً بالنار بوساطة النشاب، وقد أعاقها هذا، فبعض السفن دخلته المياه، وانسحب البقية إلى مقربة من شاطىء النهر وبذلك تجنب الخطر، لكن إحدى السفن، وكانت مليئة بالرجال الذين شغلوا مناصب قيادية بينهم، أصبحت فريسة للرومان عندما أصابوها بالنار الاصطناعية.

وبما أن الهنغار كانـوا غير موفقين في هذه المحاولـة، فقد تحولوا إلى شيء آخـر، فقد أفسـدوا بوسـاطـة المال بعض الهنغـار الـذين خـدموا ستيفـن [الرابـع]، وأقنعوهم بتقـديم شيء مميت للرجـل، ولذلك جـرى الاستيلاء على المدينة، وغـدت سيرميون مجدداً خاضعة للهنغـار [نيسان١١٦٥]، ولم يتعرض الرومان والهنغار الذين كانـوا في الداخل، والذين وقفوا إلى جانب ستيفـن [الـرابـع] لـلأذى، لأنهم تخلـوا عـن المدينـة بشروط على هـذا الأسـاس، وبعـدمـا انتصر الهنغـار على جثة ستيفـن، لم يقـدمـوا للميـت الطقوس المقدسة، ولم يـروا أنه يستحق تقديم أي شيء قانـوني آخر، وكل مافعلوه أنهم رموا الجثة أمام أبواب المدينة، وجرمـوها بابقائها غير مدفونة، ثـم تحركوا فيها بعـد بدافـع طبيعي، فنقلـوها إلى كنيسـة الشهيد ستيفـن، ووضعوها في قبر(٤٣).

١٤ – عندما سمعـت الامبراطورة بهذا، أصيبت بمرض خطير، أمـا هو نفسه فقد تجاوز ذلك كالعادة بحماس شـديد، وانطلق نحو الحرب، ولدى وصوله إلى سرديكا، عاصمة الإليريين، جمع جيشاً هناك، وانطلق مع آخر أيـام حزيـران [١١٦٥] وذهـب إلى الدانـوب، وفيما هـو ذاهب للجـواز، عمل كما يلي: مركـز الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه والـذي كان مستعداً للقتال أمام كرامون(٤٤) Chramon وهي مدينة هنغارية، معطياً بذلك توقعات بأنه سيقوم بالعبـور من هناك، وبناءً عليه عندما لاحظ أن القوات الهنغاريـة تمركزت في الجانب الأقصى المقابـل، انطلق إلى بلغراد، وقام عنـد الفجر بالابحـار عابراً من هنـاك(٤٥)، وبذلك قسـم العدو إلى عدة أقسام، ذلك العدو الذي خطط لمواجهته موحداً.

واستبد بالرومان حالة من الرعـب الشديد، وهم يقومون بالعبور، ولدى ملاحظة الامبراطور نفسه ذلك، قام كما تجرأ غـالباً من قبل، بدخول عبارة قبـل الجميـع وأسرع نحو الشـاطـىء الآخـر، وبنـاءً عليه خجـل الجيـش الروماني لدى رؤيتـه اندفاع الامبراطور، فتابع السير نحـو المراكب، وعندما

رأى الهنغار أن الامبراطور قد عبر، تخلوا عن تشكيلاتهم، وانسحبوا، ثم انه لدى رسو الامبراطور على الأرض العدوة قفز أكثر مما ينبغي (لأن عدم عمق الماء، لم يسمح للسفينة بالرسو على أرض جافة)، وتجاوز حده، فلوى إحدى رجليه بشدة، ولم يرغب في التخفيف من حماسه، بل سارع إلى إحدى فجوات النهر، حيث أمضى النهار متألماً، وازداد القسم المجروح من الرجل انتفاخاً وتورماً(٤٦).

وركض عدد كبير من البرابرة الذين كانوا متمركزين في زيغمي Zeugme وغادروا الأسوار، واتخذوا موقفاً أمام [الرومان]، لكن ما ان رأوا الامبراطور، حتى أسرع كل واحد منهم سابقاً الآخر بالفرار، وبشكل فوضوي وبصخب شديد اندفعوا مسرعين للدخول عائدين إلى المدينة، ولم يتجرأوا على الخروج منها، ثم استعد الرومان للحصار، وأنشبوا في اليوم الثالث القتال، وملأ البرابرة الذين دافعوا من فوق الأسوار الهواء بصراخهم، وبأصوات غير مميزة، واستمروا بالرمي وتلقي الرمايات، واستهلك بهذه النشاطات ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، ولم يربح خلال ذلك لا الرومان ولاالهنغار، ولقد تملكتني الدهشة تجاه أشياء كثيرة صنعت أثناء هذا الحصار، وكان من الصعب عليّ تصديق التقارير التي تحدثت عن اقدام الامبراطور، لولا انني كنت حاضراً وشاهداً لما حدث، لأنه عندما بنى الرومان برجاً خشبياً، وعزموا على نقله نحو المدينة ليقاتلوا البرابرة المتمركزين فوق الأسوار يداً بيد، طلب أن يصعد البرج قبل بقية الرومان قائلاً: «أيها الرومان إنكم تستحقون شكري أكثر من أي انسان آخر، إذا لم تعيقوا صعودي»، ومع هذا لم تتحقق رغبته، فقد منعه القادة الرئيسيون الذين صحبوه بالقوة.

وقام بالدوران حول الأسوار، بحثاً عن مكان يكون مناسباً للهجوم، ونظراً لانعدام الحجارة أمر بطم الخندق الذي طوق المدينة، وكان عميقاً وعريضاً بالفضلات وأخشاب الحرق، وذلك بهدف تمكن الآلات الحربية

من العبور، لكن مامن شيء كان قد أنجز نحو السيطرة على المدينة، ذلك أن الهنغار، مع أنهم تعرضوا لضغط حاد من قبل العساكر الرومان، كانوا يصرخون أكثر من ذي قبل، وكانت لديهم آمال بأن الجيش الهنغاري الآخر كان على وشك الوصول إليهم.

١٥- وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور معلقة على هذا الشكل، عاد الكشافة الرومان وجلبوا أخباراً تحدثت عن قرب وصول جيش كبير، وقد شوهد الغبار يتصاعد في معظم أجزاء الهواء، وأكد واحد من كبار شخصيات الهنغار، ممن التحق بالرومان واسمه فاساس(٤٧) Vasas، أن الملك الهنغاري لم يكن بعيداً، وهو يقود جيشاً يفوق الحصر، لاسيما بعدما التحق به الكومان وجيش روسي، بالاضافة —كما قال— إلى أن أمير التشيك قد عاد معه بكامل قواه، وعندما سمع الامبراطور بهذا، دعا إلى اجتماع ضم كبار الشخصيات، بهدف النظر في كيفية معالجة الوضع الحاضر، وقد خاطب المجتمعين قائلاً: «أيها السادة الرومان، إن النظام الطبيعي للأمور لايكفي بشيء واحد فقط، أي لايكفي أن يكون الانسان شجاعاً، بل ينبغي ألا يقاتل باندفاع أزمات لايمكن تجاوزها، وأعتقد بشكل خاص، أنه عظيم الأهمية بالنسبة للمرء أن يتعلم قليلاً فقليلاً السيطرة على الذات، ثم، بما أن تلك الدولة كانت ناجحة لبعض الوقت فيما مضى، بدوران غير متوقع للحظ، بشكل بات الأمر فيه صعباً بالنسبة للدولة الرومانية لمواجهته، علينا لهذا ألا نفكر أنه يكفي بالنسبة لنا اذا ماقمنا بالقتال فوق ترابها، بل علينا أن نستخدم ماهو موائم لكل مناسبة، وأن نقوم بالعمل الضروري والمفيد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولاتفيد السياسات المعتادة ولاتناسب —كما أعتقد— للنجاح ولعدم النجاح، أما مايتعلق بالمملكة الرومانية —مع أنها لم تعد تتمتع بسعدها القديم الجيد— لكن (أقول بعون الرب) سوف تتمتع بحظ أعظم بفضل جهودنا كأبطال لها، وسيسيء إلى أمجادها اساءة تامة لدى تجنب

ملك الهنغـار، الذي قيـل إنه يقترب مع جيـش محلي كبير، ومعه أكثـر من ذلك قـوات من المرتزقـة جمعها بـالمال، وعلى هذا إنه في سبيـل الاحتفاظ بكل مـن الشهرة التي تحولت نحـو الأحسن، والقوة التي ينبغـي أن تنجو سـالمة، علينا التشـاور حول الجيـد والممكن». لقـد تكلم الامبراطـور على هذه الصورة.

وارتأى بعض الـرومان الذين كـانوا بالاجتماع أن المناسـب هو المغادرة والعسكـرة عند سـافا، حيـث من هنـاك يمكـن مواجهـة الأعداء بـدون خسائر، وكـان آخرون غير مسروريـن بذلك، وارتـأوا أنه أفضـل لهم ترك الحصار، والتـوجه لمقـاومة الأعـداء الوشيكـي الوصـول، بكل قـواهم، ولم يـوافق الامبراطـور على أي مـن الرأيين، ولـذلك وصـم أحـدهما بالجبـن، والآخر بـالحماقة فقال: «مـن الممكن اننـا عندما نترك الحصـار أن تتشكل قوة أكبر من الحالية، مع مايكفي مـن المؤن، يمكن نقلها إلى الهنغار الذين يشكلون قـوة الحامية في المدينة»، وبـدا الأفضل لـه أن يترك الجزء الأدنى نشاطاً من الجيـش مع قوات الحشـم بعد تسليحهـا هناك قـرب المدينة، تحت قيادة بعض الضبـاط غير المهمين، في حين تذهب بقية القـوات معه نفسـه لقتال الهنغـار الآخـريـن، وبما أن هذا الـرأي هـو الـذي أخذ بـه، استعدوا للانطلاق في اليوم التالي.

لكن عنـدما لم تصلهم أيه تقـارير محددة، تسلحوا عند الفجـر، وقادوا ثالـث محاولة ضـد المدينة، ومن جـديد نشب القتـال، ودافع الهنغـار من فوق الأسـوار عن أنفسهم ضـد جيش الـرومان بالحجـارة والنشاب وأي شيء توفـر لهم، وتمكن الرومـان أكثر من قبل مـن لغم أساسـات الأسوار، ودمـروها ورمـوها بـالحجارة مـن المنجنيقات، وكثيراً مـاسمعت أصـوات التشجيـع والتحريـض مـن على الجانبين، وكـان هناك صراخ، وأصـوات مرتفعة جداً، ثم سمع صوت هـائل متميز، عندما لاحظ الهنغار أن بعض الرومان كان يستخدم عتلات عند الأساسات، فتصرفوا كما يلي:

كانت هناك حجرة كبيرة مرمية داخل الأسوار، فوضعوها فوق عوارض كبيرة من الخشب وربطوا حبالهم بالخشب، وسحبوها نحو برج خشبي صغير كانوا قد شيدوه فوق الأسوار، واستهدفوا من وراء ذلك رمي الحجرة على الرومان الذين كانوا هناك، وعندما وصلت الحجرة البرج لم يستطع تحمل وزنها (لأنها كانت كبيرة جداً)، وفجأة تحطم البرج الخشبي، وسقط نحو الأرض مع عدد كبير من الهنغار، الذين لم ينج واحد منهم من الخطر، ومرة ثانية ارتفع الصوت الهادي، وحمي وطيس القتال أكثر، ثم لاحظ الامبراطور أن واحداً من الرومان كان يرمي بشكل دقيق جداً، فركض نحوه، ورفع ترسه أمامه بهدف ابقاء الرجل وحمايته من النشاب.

١٦- وعندما لاحظ الهنغار أن أمورهم كانت بالفعل في وضع صعب، راسلوا الامبراطور وترجوه أن يقبل تنازلهم عن المدينة له شريطة مغادرتهم دون أن يلحقهم أذى، وقال بالبداية بالرفض حتى يقوم غريغوري وبقية الزوبان لديهم بربط حبال حول رقابهم وأن يقدموا إليه عراة الأقدام والرأس، وأعاد الرسل حاملين هذه الشروط، وزاد الروم من ضغطهم وقاتلوا بحدة أكبر حتى استولوا على المدينة، وبعدما باتت مُستولى عليها بالكامل، وصل غريغوري مع بقية قادة الهنغار إلى الامبراطور بحالة مزرية، تتوافق مع الشكل المطلوب، لابل جاءوه على شكل متسولين، وأقاموا مناحة، ورفض مانويل لبعض الوقت النظر إليهم، وعلى كل حال، تدخل بينلا فيما بعد، وبناءً على طلبه منع اعدامهم، غير أنه أرسلهم إلى السجن.

واندفع الرومان بغضب شديد إلى داخل المدينة، وذبحوا الناس هناك مثل الأغنام، مما جعلني أبكي تعاطفاً مع الحياة الانسانية، فكم من الشرور المؤسفة ربط هذا العرق نفسه بها عن طواعية، وحملت الأشياء الثمينة والثياب والمصنوعات الفضية، ونهبت بضائعهم، وقام حتى

المقاتلون العراة وغير المسلحين بحزم كل واحـد منهم نفسه بسلاح العدو، ثم وجـدت امرأة عجـوز تعيسة، كـانت مصـابة بسهـم خرق قـاعدتها، فلماذا حدث هذا، هـذا ماسأحكيه على الفـور: عندما كانـت المدينة غير مستـولى عليها بعـد، وقفت على أعلى الأسـوار، ورمت بـالقاذورات نحـو الأسفـل، وصـدف انها سحبـت ثيـابها، ودارت حـول نفسهـا، عـارضـة مؤخـرتها على الجيش الـروماني، وهي تغنـي ببعض التفـاهات بـلا نهاية، وفكرت في أن تلقي سحـراً تربطهم به، غير أن واحداً من العسـاكر أطلق سهماً نحوهـا أصاب مـؤخرتها ونفـذ إلى المكان الموجـودة فيه القنـاة التي تحمل البراز.

وشبيه بهذا، وجد واحد مـن الرومان كان يعاني من السجـن، ذلك أنه مسجونـاً في زنزانـة سيئة وبلا ضـوء للسبب التالي: عنـدما أخـذه الهنغار أسيراً، ولأنه كان معروفـاً ببراعته بالرماية، أرغموه على الـرمي على الرومان مـن خلف السـور، وكان هـذا العمل مضـاداً لـرغبته، ومـع ذلك سمـح بذلك عن ذكاء، وعمل على ألا يصيب أحـداً، وعندما لاحظ الهنغار هذا، ضربوا الرجل مراراً على ظهره، ووضعوه في سجن محكم الاغلاق.

وهكـذا أخذت زيغمـي ثانيـة، ووقتهـا عمل بعضهـم أعمالاً شجاعـة بارزة، غير أن أندرونيكـوس لم يكن أقلهم(٤٨)، لأنه عندمـا رأى الرومان يتسلقـون الأسـوار بـوسـاطـة سلـم، ذهـب إلى أنـدرونيكـوس ابـن عـم الامبراطور، وكان موضـوعاً تحت قيادته، وذلك بعدمـا عاد هذا الأخير من روسيا واستقبل بكـرم من قبل الامبراطور، وطلب أندرونيكـوس من قائده أندرونيكـوس أن يسمح لـه بمحاولـة التسلق، وعنـدما سمـح الأخير له، ذهب إلى هنـاك مسرعاً،وعنـدما حاول الـلاتين الذين كـانوا قـادمين من الخلف جاهديـن الذهاب متجاوزين له، اعترضهـم بثبات، ولم يرغب أن يفقد فخاره، وبينما كان هذا يحصل، انكسر السلـم بشكل مفاجىء، ووقع أرضاً، غير أن أنـدرونيكوس [دوكاس] تمسـك بشجاعته المعهـودة، ولدى

رؤيته بعض الرجال يعتلون سلماً آخر جلبوه، ركض وصعد عليه. وهكذا مضت الأمور هناك.

وكان الملك ستيفن [الثالث] قد وثق بأمن المدينة، (لأنه بالاضافة إلى أشياء أخرى كانت هناك قناة مغطاة تزودها بالماء من الدانوب، وكانت من قبل مكشوفة للهواء حتى وصولها إلى المدينة، ثم جعلت تحت الأرض من قبل الامبراطور، عندما كان متحالفاً مع ستيفن [الرابع] الأخير) ولم يصدق الملك خبر سقوط المدينة ولم يكن قادراً على تصور سقوطها بمثل هذه السهولة والاستيلاء عليها من قبل الرومان، وانتقل الامبراطور من هناك بسرعة، واسترد السيطرة على حصن آخر، أسكنه بسرعة كثيراً من الهنغار من سيرميون، ممن يعرف عادة باسم كاليسيو Chalisioi ، (وهم كما قيل هراطقة يجارون في عقيدتهم الأتراك ويوافقونهم)(٤٩)، وما ان علم [ستيفن] بالأمر الذي حلّ تماماً بمدينة زيغمي، حتى بعث رسلاً إلى الامبراطور، وكانوا رجالاً من الارستقراطية، ومعهم واحد ممن شغل منصب أسقف، ووافق على إعادة تسليم سيرميون إلى الرومان، وذلك بالاضافة إلى دلماشيا كلها.

وعندما رأوا الامبراطور، تلفظوا بما أمروا بالتلفظ به، وتعطفوا الامبراطور ورجوه الاقلاع عن غضبه، ورفض بالبداية قائلاً: «أيها الرسل، إنه بالحقيقة لأمر جدير بالتقدير، لو ظنّ حقاً أن هناك إعادة لهذه الأشياء التي سلبت من قبل، إننا الآن نمتلك سيرميون، وأعدنا الاستيلاء على زيغمي، كما اننا الآن سادة دلماشيا، نحن سادة هذه الأماكن كلها معاً، فالذي تريدون اعطاءه قد حرمتم منه، وبناءً عليه هل هناك سيرميون أخرى؟ أو هل هناك زيغمي أو دلماشيا أخرى، جئتم لاعطائنا؟!، إذا كان موجوداً، أرونا إياهما حتى نقوم بتسلمهما على الفور بأيدينا الفارغة، عارفين اننا لن نستطيع أخذهما وضمانهما بالنسبة لقوتكم (لأنكم لاتهتمون مطلقاً حول خرق القانون)، إننا —بفضل من الرب—

محتفظين بها بوساطة قوتنا، مثل هؤلاء، وإذا كانت هذه الأشياء موجودة تحت سيطرتنا، فما من شيء قد بقي لتتحدثوا عن اعطائه، فحول أي شروط ستكون الاتفاقية؟، أو ماالذي سيكون هناك لتبادلونهم معنا؟»، هكذا أجابهم في البداية، ثم غير عقله وقال: «لكن عليكم بعد هذا أن تعلموا أننا نرغب في أن نقيم سلاماً معكم بمثابة هدية منا إليكم، لأنكم مسيحيين، اقدموا، وأقسموا»، وكان هذا ماقاله الامبراطور، وبعدما أقسموا حول كل شيء، غادروا، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة(٥٠).

١٧- وسلم جون دوقاس، الذي أخضع دلماشيا، هذه البلاد إلى نقفور كالوفيس، وكان ذلك بناءً على توجيه من الامبراطور، وقد تقدم لمانويل ارسال [دوقاس] إلى هناك مع عساكر للاستيلاء عليها إما بالقوة أو بالاتفاق، وذلك بسبب أن الهنغار كانوا قد عينوا هذه البلاد بواسطة المعاهدة وجعلوها ميراثاً لبيلا، ولدى مروره ببلاد الصرب خرقها، وفي مدة وجيزة تحولت سلطات البلاد كلها إلى أيدي الامبراطور، ومدّت فوقها بالكامل، ثم أصبحت تروغير Trogir وسيبنيك Sibenik تحت السيطرة الرومانية، وذلك بالاضافة إلى سبلت Split ودولة كاتزيكوي Katzikoi وديوكليا Dioklieia، وهي مدينة مشهورة سلف أن بنيت من قبل الامبراطور الروماني ديوكليشيان Diocletian، وكذلك سكرادين Skradin وأوستروفيكا Ostrovica وسولين So-lin، والمدن الأخرى كلها القائمة في دلماشيا، وكان عددها كلها سبع وخمسين مدينة. على هذه الشاكلة سارت الأمور في دلماشيا.

وعاد الامبراطور —كما قلنا— إلى بيزنطة، فقاد موكب نصر من القلعة حتى كنيسة آيا صوفيا الكبيرة، واحتفل هناك بالصلوات والشكر، وأتحف رجال الكهنوت بشيء من الذهب وصل من الجزية التي أرسلت إلى الرومان من سيرميون، وإثر هذا استراح بالقصر، وكاد يفوتني أن أذكر، أن

عربة مـوكب ذلك النصر كانت قـد صنعت من الذهـب الخالص، وكان من المفترض أن يـركب بها الامبراطور، لكنه لم يـركب، جزئياً بسبـب عدم رغبته بـالتباهـي ولتواضعه، ومـن جانـب آخر بسبب انـه عندمـا جلبت الخيول التـي كانت ستجر العـربة، وربطت بـالمقاود كانت جموحـة جداً، وخشي من خطر انقلاب العربة.

ولم يمض وقت طويـل حتى علم [مانويل] أن كـل من الصرب ودولة الهنغار كانـا ثانية يجهدان [في سبيـل الثورة]، لذلك بـادر مسرعاً إلى هناك لاستباق القتـال، لكن مـا إن سمعوا بقدوم [مـانويـل] حتى أقلعـوا عن أعمال العدوان، وحافظوا على المعاهدات بشكل تام.

الكتاب السادس

وشرف الامبراطور أنـدرونيكوس —الذي عـاد كما ذكرنا مـن روسيا— وأولاه كل أنـواع العطف وقـدم إليه كميـات من الـذهـب، وبعـث به إلى كليكيـة ليعالـج الأمور هنـاك ويحقق الاستقـرار[١١٦٦]، ومن أجـل أن يتمكـن مـن الانفـاق والبذخ، منحـه ضرائب قبرص، ومكـث في المكـان المعين له قليـلاً من الوقـت، ثم قام بجعل فيليبـا [الأنطاكية] خطيبـة له وزوجة، وهذا شيء لايسمح به قانوننـا لأنها كانت أخت الامبراطورة، ثم تركها بدون أي سبـب، وتحول إلى فلسطين [أوائل١١٦٧] آخذاً معه كثيراً من أمـوال الامبراطور التـي فرضها كضرائب وجبـاها مـن أراضي كليكية وقبرص.

والتقى هناك بثيودورا ابنـة السيباتوكراتور اسحق، التـي —كما ذكرنا— تزوجت من الملك بلدوين [الثالث]، والتي بعدما توفي وآلت السلطة إلى أخيه، عاشت كـأرملة في عكا، ولأنها كانت قريبته، غالبـاً مازارها، وعقد محادثات خاصة مع المرأة، ومع الاستمرار بـذلك أصبح مرتبطاً بها بشكل غير اعتيادي، بحـب غير قانوني وغير مقـدس، وبعدمـا جامعها وعـاشرها حملها معـه وذهب معها إلى أراضي المسلمين، وحملـت منه وأعطتـه طفلاً فيما بعـد، ثم إنـه بعـدما مـرّ بعدد كبير مـن البلـدان الأجنبية، دخـل إلى الأراضي الشرقية للإيبيريين [الكـرج=الجورجيين]، وذهب ثانية بعـد وقت قصير إلى الأتـراك وبصحبته المرأة، وقـام هذا الـرجل التعيـس من هنـاك بغـارات كثيرة ضـد الأراضي الرومـانيـة، وأخـذ عـدداً كبيراً من الـرجـال الأسرى، وحـول أسلاب الحرب إلى الأتـراك، ولهذا حكم عليـه بـالحرمـان من قبل الكنيسة(١).

٢- وحدث في حوالي هذا الوقت [١١٦٠-١١٦٦] بحث بين البيزنطيين حول عقيدة المسيح، للأسباب التالية: كان هناك شخص اسمه ديمتريوس، وهو روماني المنحدر، جاء من لامب Lampe، وهي قرية آسيوية [قرب أترامیشن Atramyttion] (٢)، وقد درس —كما أعتقد— قليلاً من الثقافة العامة مع شيء من التعليم العلماني، ولكنه أمضى بالعادة وقته حول العقائد المقدسة، وتحدث بشكل مستمر بحماقات لانهاية لها، وبما أنه أرسل مراراً رسولاً إلى الغرب وإلى الشعوب الإيطالية، عاد من هناك بكثير من الحماقات، وتورط في أشياء غريبة، ولم يستطع بشكل خاص الاقلاع عن العبث والانشغال فيما يتعلق بطبيعة الرب، وهو موضوع غير مسموح بالخوض به إلا للمختصين ورجال الدين الرئيسيين وبالدرجة نفسها للأباطرة بحكم منزلتهم ومكانتهم.

وإثر عودته في تلك الآونة من الأراضي الألمانية، أكد أن الشعب هناك قد اتخذ بشكل واضح موقفاً خاطئاً، وكان في إحدى المرات يتحادث مع الامبراطور، فأثار مثل هذه المسائل، وعندما سأل الامبراطور عما يعنيه هذا، قدم لدى اجابته عرضاً كاملاً لعقيدته، وجاء كلامه كما يلي: «هم يتجرأون على القول إن الشخص نفسه [المسيح] أدنى من الرب، ومساوياً للرب الذي أوجده»، وعندما قال الامبراطور: «لكن لماذا؟ أولسنا ندعوه رباً وانساناً»؟، فقال: «نعم»، فقال الامبراطور: «إذن نحن نوافق على أنه أدنى بالنسبة لناسوته، ولكنه مساوي بالنسبة للاهوته، ونسمع أن المخلص يقول هذا الشيء نفسه، حيث قال في أحد الأماكن «أبي أعظم مني أنا»(٣)، وإذا لم يتوجب تطبيق هذا على الطبيعة [اللاهوتية] (لأن ذلك لن يكون موائماً بالبتة) عندما من الضروري توجب تطبيق هذه المقولة على [انسان] آخر، وقد قيل إن كل منهما لايمكن التفكير به، ولذلك إن عقيدة النوع البشري سليمة، وذلك حسبما عرف جلالتنا منذ وقت طويل»، وقال الآخر —على كل— ثانية: «ومع

ذلـك إنهم يتكلمون بشكـل مكشوف بـدون تقـوى»، وعلى هذا الشكـل أنهيا المنـاقشة، لكـن بعد وقـت قصير وضع ديمتريـوس أفكاره في كتـاب قدمـه إلى الامبراطور، وقـال له مانـويل: «إذا كان مـن الممكن دفـن هذه الأشياء تحت الأرض، ادفنهـا على الفور، خشية أن تكون بها سبـب تدمير كثير من النـاس، لأنه بالنسبـة للرأي القـائم الآن، أنا متمسك بـه بشدة، ولاأعتقد أنه سيكون بإمكان أي كان أن يزحزحني عنه بسهولة».

وعلى كـل حال أصبـح الآخـر أكثر جـرأة، ونقـل أفكاره وأوصلهـا إلى النـاس: إلى الأفـراد، وإلى الجماعـات، ثـم أوصلهـا إلى عـدد كبير مـن الأساقفـة، وإلى الذين يشكلـون طبقة اللاويين الذيـن ندعوهـم شماسة، وعندما وجد كثيريـن يوافقونه، تنفس الصعداء، وتكلـم بشكل مكشوف ضد الذين كانوا بشكل ما أقل اهتماماً بـه، وقام بتطوير وتوسيع مناقشاته إلى حجم كبير، ولم يكن هناك أي واحد لم يتكلم آنئـذ عنها وقام بالبحث والاستقصاء حـول أي عمل حـدث أن قام به، وعنـدما علـم الامبراطور بهذا تردد، ثم اتجه نحو عرض المسألة أمـام مجمع ديني للنظر فيها، وعامل القضية بشيء من الحذر، فلدى مـلاحظته أن الغالبية كانوا تقـريباً يميلون نحو موقـف ديمتريوس، استقبلهم واحداً واحـداً، ثم اثنين اثنين، ثم على شكل جماعة كبرى، ولقـد تفحص الذين قالوا، وبـذلك استطاع أن يحول كثيراً منهم إلى العقيدة الأخرى الصحيحة، وذلك لأنهم كانوا غير قادرين على المناقشة ضده.

ومع أنه لم يكن لديه خبرة في تداريـب المنطق، استطاع بذكائه وبسعة ثقافتـه أن يتفوق على كـل واحد عـاش في أيامنـا، ولم يكن هنـاك انسان ينكر هـذا، ليس فقـط بين الذيـن تعايشـوا مع الامبراطـور عن قـرب (مما يدفع المرء إلى التشكيـك بأنهم يمالئون) لكن حتـى من قبل الذيـن كانوا معروفين مـن قبله، وكان إذا مارغـب في شرح شيء ما، كان يقدم عـرضه بحكمة غير اعتيادية، مع وضوح وبساطة بـالعرض، ولم يكن هاماً بالنسبة

له نوع الفلسفة التي اعتمد البحث في المسألة عليها، سواء أكانت طبيعية أو لاهـوتية، أو مـن أي نـوع آخر، ذلـك أنـه شغل نفسـه كثيراً بـالثقافـة اللاهوتية وغير الـدينية، مع أنه بالكاد كـان بإمكانه توفيرالوقـت لانشغاله المستمر بالأعمال العسكرية، وهكذا نجح بذكائه وبقدرته الطبيعية —كما قلنا— فربح إلى جانب موقفه عدداً كبيراً ممن قابله.

في البـداية لم يكـن هنـاك مـن أحد ليس مشـاركـاً في الموقف ضـده باستثناء لوقـا، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل الـلاهوتية، غير أنه لم يتجرأ على الكلام بحـرية، ومعه ليس أكثـر من ستة من الشمامسـة، ولدى ملاحظة البقية أن كثيراً منهـم تخلوا عن مواقفهم اللاهوتيـة إثر المناقشات الفردية مع الامبراطـور، ولتوقعهم انه بعقله الرائع ولسـانه البارع سيتمكن من جذب عدد كبير منهـم إلى نفسه من خلال المقابلات الفـردية، لذلك اتخذوا قراراً بعدم الالتقاء بالامبراطور فـردياً أو بشكل خاص: «ومن يفعل ذلك سيكون الآن، وكـذلك بعد موته خـاضعاً للحرمان الكـامل»، فهذا مـاقـالوه لـدى عقـدهـم اجتماعـات في بيوت بعضهـم، لاسيما في بيـوت الشخصيات البارزة بينهم.

ولم يكن الامبراطور عـارفاً بهذه الأمور، إلى أن دعا يوثيمـوس إلى زيارته زيارة خاصة، وكـان آنذاك أسقفاً [مطراناً] لني بـاتريا Neai Patrai [هيباتي قرب لاميـا](٤)، فسأله عما قيل، ورغب أن يـدرس العقيدة معه، غير أنه أغلـق شفتيه ولزم الصمـت، وعندما سـأله الامبراطور عـن سبب صمتـه، أجابـه في أن وضـع أمـامه الحكـايـة كلهـا، فغضب وأقـدم على تهديـده [مـع أنـه اعتـاد في جميـع الظـروف أن يحافـظ على هـدوئه وألا ينفعل]، لقد هـدده في رميه من فوق شاهق، إذا كـانوا يعملون على تغيير العقيدة الصحيحـة المتعلقة بالـرب، واتهمه بـذلك، لكنه مـالبث أن غيّر عقله قائلاً: «بناءً عليه إنك ستقوم أولاً بفهـم من أنت وكيف تفكر حول الرب، أنـت الذي رميت بـالشكوك حولي، (لكـن مع انني أهنـت، إنني

أكبح نفسي، خشية مني أن أقوم بعمل ما بالوقوف ضد الأرثوذكسية، ذلك أن هناك عددا كبيراً من الكتب الجيدة مقابل السيئة لنقل مترادفات الأمور المؤكدة التي ينطلق منها كلا الفريقين)، سلح نفسك حتى تكون قادرا على مبارزتي، فأنا دون الآخرين، سوف أتصدى لك، ليس بقوة السلاح، بل بفعالية الكلمة، لأنه بغيض بالنسبة لي أن أقهر من هو أدنى مني، وهذا العمل هو شاهد، وكما ترى، إنني مع أنه من الواضح قد تعرضت للاهانة، إنني موقف انتقامي، ومع هذا ينبغي ألا تستخف بهذه المسائل وتزيحها جانباً، لأنه من الذي يحجر عليك؟ من الذي أزال حريتك بالكلام؟ متى طردت من قبلي وأنت تتكلم أمام المنبر؟ ماالذي سأربحه إذا ماقمت بالدفاع عن عقيدة فاسدة؟ ثم إنه خشية مني أن أسيء إلى عقيدتي بكلمات، وهو شيء حدث لكثيرين بينكم، (في الحقيقة انني لم أعتقد قط بمثل هذه الأشياء) يبقى تماماً إنه ينبغي عليّ ألا أخون عقيدتي المتعلقة بالرب، ومع هذا إذا ماتحدث انسان ماتبعاً للكتابات المقدسة، وكان قادراً على أن يغير رأيي، لن يكون مخجلاً بالنسبة لي قط تغيير آرائي، وأبق هذا الشيء محتاطاً بشأنه: أن لايكون الرب موضع سؤال، ولهذه الغاية تحملت أنا نفسي، مراراً كثيرة الاهانات».

هكذا مضت الأمور هناك، وبعد مضي عدة أيام، قدم عدداً كبيراً من الكتب تحدثت بوضوح حول هذا الشأن، ووضع القضية أمام مجمع ديني للبحث فيها [١١٦٦]، وأخذت أعداد كبيرة من الفئات المتصارعة تتملص من لحظة إلى أخرى، حتى بات الجميع مع الرأي نفسه مع البطارقة الآخرين، ووافقوا على أن الامبراطور قد جمع أهداف الكتابات المقدسة، ومع هذا كانوا غاضبين جداً على لوقا، واستخفوا به وأهانوه، ونادوا بخلع هذا الانسان وطرده من عرشه، لعلمهم أنه عالج المسائل بشكل لامعرفي تماماً، واعترفوا أنهم هزموا بوساطة موقف لوقا، لأن هذا الموقف عرض قبل موقف الامبراطور، ولأنهم هزموا من قبلهما [البطريرك

والامبراطور]، أرادوا توجيه التهمة حول أمور أخرى، وهنا لاحظ الامبراطور —كما أعتقد— أنهم يقاتلون لوقا بأسباب موبوءة، فقال: «دعوا هذا يبقى سرياً لبعض الوقت، فعندما تظهر محصلات القضية الحالية، سنقوم بتفحص هذا الأمر، ولسوف نطبق عليه مايستحقه من جزاء».

وهكذا هزمهم على أساس هذه القواعد، وتمّ الاعلان عن استمرار العقيدة وصحتها، وأمر الامبراطور بكتابتها، ثم أمر بعد ذلك بنقش النص على حجر، وضعوه بكل سرعة في آيا صوفيا على يسار الداخل، وهكذا تحقق لهذا البحث نهايته(٥).

ولقد فكرت دوماً حول هذه الأشياء، فوجدت أنه لايمكن لانسان حي أن ينجو من اللوم عندما يعبث في طبيعة الرب، ومع هذا إنني مصاب بالدهشة بشأن ما روي لي فيما يتعلق بهذا الامبراطور، فقد حدث مرة، عندما كان يبحث بهذه المسألة (لأن القضية ظلت تناقش بين أخذ ورد لمدة ست سنوات) جاء إليه واحد من المتعلقين بالبيت الامبراطوري، وروى إليه بكل هدوء أن الامبراطورة عانت من اجهاض، وأن ماأسقطته كان ذكراً، وهنا لم يظهر عليه أي أدنى تأثر بماروي له، ولم تبد آلامه على مظهره، بل ظلّ مصغياً متنبهاً لما كان يقال، لكن عندما انتهى البحث حول المسألة المطروحة، انتصب قائماً، ثم ألقى بنفسه على أقدام الكهنة، وقال: «أيها الآباء المقدسين، وصلني للتو خبر من جناح النساء يقول: إن طفلاً ذكراً —وهو أعظم آمالي— قد ولد في غير وقته، إننى أطلب من قداستكم، الدعاء إلى الرب، افعلوا ذلك، أرجوكم، وإذا كنت قد تبنيت في هذا الصراع المقدس الجانب الخاطىء، ليجعل الرب ذريتي تلد مجدداً في غير أوانها، مهما كان نوع المولود، ولأحرم من التمتع بنيل آمالي، لكن إذا كان موقفي يرضي الرب، ليمنحني هذا الأمل بعد وقت قصير»، وما ان أكمل حديثه، حتى نهض من على الأرض، غير أن

كل واحد من الآخرين ركع ودعا إلى الرب ورجاه والدموع تنهمر من عينيه، وعلى هذه الصورة غادروا، هذا ولم يمض وقت طويل حتى رزق الامبراطور ولداً ذكراً، وكان قطعة من النعمة، ووردة من الطبيعة، هذا وإنه في اللحظة المناسبة سيكون ممكناً لروايتي أن تصف أي نوع من الأشخاص كان(٦).

وهكذا وعلى هذه الشاكلة انتهت هذه الخلافات، وبما أن لوقا لم يقدم ضده أي اتهام جديد بالملاحظة، فقد بقي على عرشه، لكن جون الذي شغل المنصب الديني الرئيسي في كيركيرا Kerkyra ، وواحد من الرهبان، الذي كانوا يلقبونه بـ«إيرينيكوس Eirenikos» اللذان ظلا متمسكين بعقيدتها القديمة، قد تعرضا للحرمان، وطردا واحداً تلو الآخر من التنظيمات الكهنوتية(٧).

٣- ثم تحركت الأمور من جديد، تلك الأمور التي عرفت الاستقرار، فقد أرسل ملك الهنغار دايونيسيوس(٨) Dionysius ، وكان واحداً من الارستقراطيين في بلاطه، وصاحب خبرة حربية نالها من خلال عدد من الحروب، أرسله للاستيلاء على سيرميون بوساطة جيش كبير [١١٦٦]، وعندما علم القادة الرومان بذلك، وضعوا خططهم حول المسألة، غير أن الخطط التي تشاوروا حولها لم تنجح، لأن المتشاورين لم ينظروا إلى ماكان مفيداً للرومان، بل نظروا إلى كيف يمكن لأحدهم أن يخدع الآخر، خاصة كل من الميخائيلين: الذي كنيته غبراس، ورتبته دوق تلك المنطقة، وبراناس الذي تولى منفصلاً قيادة الجند، فكلاهما كانا مقاتلين، لكن براناس كان بالحري هو الأقوى، وعندما بدا للمشتاورين أن الأفضل مهاجمة دايونيسوس ليلاً، انطلقوا وزحفوا بكامل القوات، وعندما وصلوا إلى معسكر دايونيسوس، وجدوه فارغاً تماماً من الرجال، لذلك بدأوا يشعرون بالخوف، لأنه في أراضي العدو، إذا كان المكان مهجوراً،وخدماته المعتادة مفقودة، ذلك كان كافياً للتأثير على الروح

المعنوية للجند.

وفي محاولة منهم لتتبع آثـارهم، تقدموا نحو الأمام، وقـد تهيأ لهم انجاز شيء بسرعة، لـو أنهم هاجموا الهنغـار على الفور، وبما أن ضـوء النهار بـات واضحاً، فقد رآهـم الهنغار، وبدأ فرسـانهم بإنشاب القتال ضـد المعسكر الـرومـاني (لأنهم كـانـوا منطلقين مـن أجل الـرعـي)، ولـذلـك شكلـوا صفوفهم، وهاجموا الذين اعتادوا على الـوقوف أمام الخيم، ولدى ملاحظة الهنغار أن الرومان كـانوا يركضون بلا نظام وفي فوضـى عظيمة (لتعرضهـم لهجوم الهنغار الذيـن كانوا خيالة، فإن الجزء الأكبر منهـم قد تفرق) حملوا [الهنغار] عليهم وبعدمـا أرغموهم على ادارة ظهورهم، كانـوا قادرين على مطاردتهم وسوقهم أمـامهم حتى أدخلوهم في وسط قطعة رومـانية كانت قادمـة من المؤخرة، واضطرب أمـر هؤلاء، وانعطفوا بغية الانسحـاب، ثم انهم هربوا بسرعة كبيرة، معتقدين أنهم هـوجموا من قبل قوة أكبر بكثير من الجيش الذي رأوه معهـم، وبدا لهم، لأنه في مثل هـذه الظروف يستطيع فقط قلة من الناس فهم واستيعاب الحقيقة.

وبما أنهم كانوا هاربين بكل سرعة فقد أصـابهم الإعياء، ولذلك توقف القائدان لبعـض الوقـت ومعهما الرايـات وقليلاً مـن أتباعهما، ظـانين أن الرومـان سيتجمعون ثانية، لكـن بما أنه لم يلتحق بهما أحـد من أي اتجاه، أدارا أيضاً ظهـريهما، وحدث آنذاك أن استدار بـراناس وطعن واحـداً من الأعـداء برمحه، في حين تـابع القـائد الآخر فـراره، وهنا ظهـرت بوضـوح قضيـة خلافهما المتقـدم في الاجتماع، لأنـه عندمـا عـاد بـراناس والتحـق بغابـراس الفار، سخـر منه وقـال مستخفاً بـه: «ثم انـك توافـق معي أيها السيباستـوز كما تعلم أنني قـاومت الأعداء، وقـاتلتهم بـالرمح»، وعنـدما وافق الآخر، تابع يقول:

«لكـن بحق رأس الامبراطـور، إنني لم أرك إلاّ أثنـاء التراجع»، وهكـذا

كان ذلـك اليوم فريـداً بالنسبة للـرومان دون أن يحقـق لهم مرابح عـامة، لكن بذلك يمكن للمرء أن يرى باعجاب، أنه تولى القيام بكل مهمة.

ولم يقتل المطاردون الهنغار عدداً كبيراً من الـرومان، ولم يأخذوا كثيراً من الأسرى، لأن رعباً عظيماً استـولى على الرومـان، ويمكن استخـلاص ذلك ومعرفته ممايلي:

قـام فرد مـن وحـدات المشاة بـالفـرار طوال الطـريـق حتى التجـأ إلى زيغمي، ولم يوقفـه طوال الطريق أحـد من الرومان، وهكـذا رحلوا ببطء، ثم عزم دايـونيسيوس على اعلاء أهمية مـاقام به، فجمع أجسـاد عدد من الذيـن قتلوا، وأقـام نصباً كبيراً فـوقهم، مقـدراً أن حجم المذبحـة يمكن تعويضه بحجم الصرح(٩) المقام.

لقد سارت الأمـور هنا هكذا، غير أن الامبراطور أثاره التهـديد، ورغب في حرب الهنغـار بنفسه، ورغـب أولاً في عرض قـدرات الرومـان أمامهـم، فخطط في سبيل ذلك كما يلي:

أرسل إلى الـدانوب ألكسيـوس [أي بيلا أخو ستيفـن ملك هنغـاريا] الـذي كـان قـد زوجـه مـن ابنتـه، ومعـه قـوات كثيرة، كـان ألكسيـوس البروتوستراتور يقودهـا واستهدف من ذلك اعطاء الهنغار تـوقعاً أنه سوف يهاجمهم مرة ثانيـة عبر المناطق المعتادة، وأمر بالوقت نفسـه ليو الذي كنيته بـاتاتـزس Batatzes ، الـذي كان يقـود قـوات من الخارج ضمـت أنـواعاً كثيرة كـان مـن بينها الـ«الفلاش Vlachs» الذيـن كانـوا —كما قيل— مستعمرين من شعب ايطاليا، أمره بالانقضاض عن طريق المناطق القريبـة مما يعرف بيوكسين Euxine البحر [الأسود] حيث لم يتقدم لأحد من قبل أن هاجمهـم، وهكذا وصل ألكسيوس [بيلا] والجيش الرومـاني الآخر إلى الـدانوب، فأدخلـوا بذلك الـرعب إلى قلـوب الهنغار، خشية أن يقوموا بـالجواز من هناك، وفي ذلك الوقت كان باتـاتزس، يوجه

ضرباتـه من ذلك المكان حيـث تولى نهب كل شيء بـدون رحمة، واجتاح كل شيء واجهه، ثم تـولى قتل عدد كبير جداً من الناس، ولم يكـن الذين أخذهم أسرى أقـل عدداً، يضاف إلى هذا أنه عندمـا عاد إلى الامبراطور، ساق أمامـه قطعاناً من الماشية والخيـول مع كل نوع من أنـواع الحيوانات الأخرى.

ورغبـة من مـانـويل في انـزال ضربـة ثـانية بهم، أرسـل ثـانية جيشـاً ضدهـم، وأمـره أن يقاتل من أماكـن أكثر علواً الهنغار الذيـن عاشوا على مقـربة مـن روسيا، وقـاد هذه القـوات أندرونيكـوس لامبارداس ونقفـور بتراليفاس مـع عدد كـاف من الآخـرين، ومـع هذا جُعـل جون دوكـاس السـالف الـذكر مـراراً مسؤولاً عـن الجميع، وبعـدما مـروا خلال بعـض المناطق المتعبـة والوعرة، مضوا مـن خلال مناطق كـانت خالية تمامـاً من النـاس، ثـم انقضوا على هنغـاريـا، ولقـد استـولوا على كثير مـن القـرى المكتظة بـالسكان، وجمعـوا كميات عظيمـة من الغنـائم وقتلوا كثيراً مـن الناس، لكن الـذي أخذوه من الأسرى كان أكثـر، وعندما باتـوا على نية العودة من هناك أقاموا صليباً من النحاس كتبوا عليه العبارات التالية:

هنا قامت العصبة الأرسية Ares والايطالية

بذبح عدد لايحصى من قبائل العرق البانوني Pannonian

عندما كان مانويل النبيل يحكم روما الشهيرة

فخر الملوك الحكماء من الكومينيين(١٠)

٤- وبينما كـان هـذا يحدث، جـاء هنـري دوق النمسـا ومعـه زوجتـه ثيـودورا ابنة أخـي الامبراطـور، إلى سارديكـا، وذلـك مـن أجل مصـالحة فردريك، ملـك ألمانيا مع الامبراطور، ولمطلـب إقامة هدنـة في الحرب مع الهنغار[١١٦٦]، لأنه —حسبما تقدم ورويـت— كاد فردريك أن يقترب

مـن فقدان حكـم روما، وذلـك منذ أن بـدأ الامبراطـور نشاطـاته ضـده، لاسيما عنـدمـا وافـق أسقـف رومـا على العـودة إلى الاستخـدامـات القديمـة(١١)، وقد وعد فـردريك بـأشياء كثيرة ضد ارادتـه، لأن الناس هبوا هنـاك لحمل السـلاح والقتال ضده، نتيجـة للضغوط الصـادرة عن الامبراطـور، ولـذلك حـدث قبـل وقـت قصير، أنه رغـب في كسـب ود الامبراطور، ذلك أنه كـان في ضيق شديد، ولذلك كتب لـه وتناقش معه، بطريقة ودودة، وأعلـن —كما ذكرنا— عن موافقته على التعـاون معه ضد الهنغار.

وعندمـا —على كل حال— تحولـت اتفاقية مـانويـل مع البابـا بشأن الحكـم في روما إلى الافـلاس، بسبب أن الامبراطـور أصرّ على بقاء عـرش روما في بيزنطـة، رفض البابا قبـول هذا، وطلب بحكم رومـا لنفسه، هنا استرد فردريـك مكره وخداعه، وأظهـر من جديـد دهاءه، وبالنظر لعـزمه على غزو الأراضي الـرومانيـة، بدأ بحماقـة بربـرية، بتـوزيعها بين أتبـاعه، ولأنه لم ينجح من قبل في خططه الأخـرى، بسبب معارضة الامبراطور له، فقـد لجأ إلى استخـدام سفـارة هنري وأوتـو صـاحـب وتلسبـاك Wit-telsbach، وخطط بالتظاهر بالصداقة أن يقنع الامبراطور بالتخلي عمّا كان يقـوم به ضـده، فبذلك يمكنـه أن يستعد بسهـولة للحـرب ضد الرومان، وقدر الامبراطور جهود هنري وعاملة بشكل لطيف ، ووافق على طلبه مـن أجل هـدنة في الحرب ضـد الهنغار، لكنـه لم يتوصـل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بفردريك، وعندما كـان هنري في طريق عودته إلى بلاده، أقنع ستيفن —الذي رفض الزواج مـن فتاة روسية— أن يتزوج من ابنته، ولقد حدث هذا بالفعل.

ولم يمـض وقـت طويـل حتـى خطـط الهنغـار إلى سلبنا دلماشيـا مـن جديـد، فأرسلوا قـوى مختلفة إلى هناك، كما وبعثـوا الذي يحمل رتبـة بان Ban (١٢)، بينهم (ويعني هذا الذي سيمتلك السلطة بعد الملك في

الدولـة)، وبعدما أخفقوا بـالتغلب على الرجال الـذين كانوا هنـاك قتالاً، انسحبوا، لكن بعـدما حملوا قسراً معهم كالوفيـس [الدوق] وجعلوه تحت سلطانهم، أما كيف حدث هذا لنقفور [كالوفيس] فسأحكيه فيما يلي:

فهو عندمـا علم أن القوات الهنغارية كانـت تحارب تلك المنطقة، جمع قليلاً مـن جيشه، وخـرج من مدينـة سبلت، غير أنـه ماان زحـف قليلاً، حتى تخلى عنه أتبـاعه قليلاً قليلاً، وسببـوا بذلك وقوع الـرجل أسيراً بكل سهـولة في أيـدي الأعداء، فقـد طوقـوه بعـدما قـام بأعمال فيهـا بطولـة وشجاعة، وأخذوه أسيراً.

٥- عنـدمـا سمـع الامبراطـور بهذا، عاد إلى بيـزنطـة، عـازمـاً على أن يغزوهم في الربيع بحملة أكبر، وفي الحقيقـة هو لم يكن قادراً على الذهاب إلى هنـاك في موسـم الحملات التـالي، فقد أعـاقه قطعـة من سـوء الحظ، ماالذي كانت هذه؟ الرواية التالية سوف توضح ذلك:

مضـى شتاء [١١٦٦-١١٦٧]، وعنـدما زال الطـل أوقف نفسـه على بعض التمـاريـن المفيدة، وهي تماريـن اعتاد الأبـاطرة وأبناء الأبـاطرة على ممارستها منذ وقـت طويل مضى، وكان عدد من الشبـاب يقومون بتقسيم أنفسهم بـالتساوي، ثـم يرمـون بكرة من الجلـد تقارب بـالحجم تفـاحة، وكانوا يلقونها على بقعـة مستوية، تبدو لهم مناسبة عندما يتـولون قياسها، وحيث أن الكرة كانت تمكث ملقـاة على الأرض في الوسط وكأنها جائزة، كانوا يطلقون خيولهم نحوها بسرعة كـاملة، ويتوجه كل واحد ضدّ الآخر، ويمسك كـل واحد منهـم بعصا ذات طول منـاسب تنتهـي على شكل شعب فـارغ، مقسم في الـوسط بوسـاطة أوتار لحميـة، جفت مـع الأيام، وتـداخلت فيما بين بعضهـا بعضـاً لتشكل مـايشبـه الشبكـة، وكان كـل جـانب يسعـى بسرعـة عاليـة جـداً لجرف الكـرة ولنقلها أولاً إلى الطـرف الآخر، الذي يكـون قد عين لهم منذ البدايـة، وكلما جرفت الكرة بـوساطة

العصا، ووصلت إلى إحدى النهايتين، فقد عدّ ذلك انتصاراً للطرف الذي أوصلها، وكانت هذه الرياضة خطيرة جداً ومرعبة، فقد كان من الضروري لكل مشارك بها أن يتحرك على ظهر مطيته إلى الأمام وإلى الخلف، وكذلك أطرافه يمنة ويسرة، وأن يقود فرسه ويجعله يدور حول نفسه، وأن يساهم في كل نوع من السباق، مما احتاج إلى عدد كبير من أنواع الحركات وذلك مسايرة لحركات الكرة.

وكان الامبراطور مغرماً بهذا النوع من الرياضة، لكن حدث أن كبا حصانه ووقع فوقه على الأرض بكل ثقله، وتحمل ثقل الحصان فوقه وجهد كثيراً للقيام من سقطته، غير أنه لم يكن قادراً على أن يبعد الحصان عنه، بعد أن بات تحته، فقد قبع فوقه —كما ذكرنا— بكامل وزنه، ولذلك جرح جرحاً بليغاً في طرفه، وكذلك بذراعه الذي التوى بشكل سيء بسبب من ردائه، ولقد تحمل ذلك كله بشجاعة، مع أنه تألم من ذلك آلاماً شديدة جداً، وعندما تجمع حوله عدد كبير من الناس، نهض مسرعاً، وقفز على ظهر حصانه ثانية، وقام ببعض الدورات بشكل بطيء بما فيه الكفاية، وذلك حتى شعر بآلام مبرحة فمضى إلى الفراش، وإثر ذلك قهره الوجع وغاب عن وعيه، ولم يعد يتذكر الغد، ثم ماقيل ومافعل.

هكذا كانت الأوضاع، لكن بعد مضي يومين تحسن، فذهب إلى أباميا(١٣)، ثم انه بسبب الرحلة —كما يبدو— ومتاعبها، عاد التورم ثانية، ورجعت إليه نوبات الآلام، وقد أمضى عيد الفصح [٩نيسان١١٦٧] في سيليمبريا [سيليفري]، وعندما شعر بالتحسن ذهب إلى فيلبه، وتباحث هناك مع رسل جاءوا من عند الهنغار، وعندما رأى أنهم لايمتلكون شيئاً مفيداً لتقديمه، سوى أنهم كانوا يجهدون بكل وسيلة للحصول على هدنة ولتعليق الحرب، قام بصرفهم وإعادتهم خائبين، غير أنه بعث معهم واحداً من الرومان، ليتقصى حول كالوفيس،

وليهـدد [اسطفان الثـالث] انـه إذا لم يحترم الاتفاقيـة ويحافظ بـاستقامـة عليهـا، سيكون مـن الممكـن رؤيـة الامبراطور والجيـش الـرومـاني ثانيـة، ووصل إلى سارديكا، وقام هناك بتجميع قواته.

٦- وعندما كان مقيماً هناك وقعت واقعة كانت كما يلي:

كان ألكسيوس الـذي شغل منصب بروتـوستراتور —كما أشير إلى ذلك مراراً من قبـل— يعمل في سبيل ثورة، فـأدين بعدما كشـف أمره، وحلق شعر رأسه، وبعـدما جرى وضعه بين الـرهبان، اقتيد بعيداً إلى واحـد من الأديـرة الجبليـة، التـي انتشرت بـأعـدادٍ كبيرة في جبـل بـابيكيـون Papikion على نهر ستريمون Strymon [ستروما]، وقد أقام هناك بعض الوقت ثم توفي.

لكن لماذا، ولأي سبـب وصل هـذا الانسان إلى هـذا النصيب، دعـونا نوضح ذلك الآن: عنـدما كان قد سافر فيما مضـى إلى كليكية، وذلك إثر تعيينه قـائداً عاماً للحـرب هناك مـن قبل الامبراطور، قصـد السلطان في قونيـة، وكسب بشكل سري صداقتـه، وتباحـث معه حـول أشياء كثيرة في اتجاه القيام باغتصاب العرش، وقد تسلم منـه رسائل، وبعث إليه بأجوبة كتبـت حول اتفـاقيتهما،، وبعد هـذا توجـه إلى كليكية، ثـم عاد لبعـض الوقـت فيما بعد إلى بيـزنطة، وهنـا عندمـا عزم على تـزيين مسكن لـه في الـريـف بمـواد تجميليـة لجدرانـه، لم يصـور على هـذه الجدران المفـاخـر الاغـريقية القـديمـة، كما انه لم يصـور أفعـال الامبراطـور، والأشياء التـي حققهـا في الحروب أو في صيـد الحيوانـات، كما جـرت العـادة بالغـالـب للذين شغلوا مناصب حكومية عالية.

فلقد نـازل [مانـويل] وقاتـل بشكل طبيعـي وحوشـاً كثيرة، بشكل لم نسمـع لــه بنظير بين بنـي البشر، وخشيـة منـي أن أبتعـد عـن أحكـام المؤرخين، دعوني أذكر فقط بعـض انجازات مانويل وبراعـاته، ففي وقت

كان في حوالي الانقلاب الشتوي، حيث تراكمت كميات من الثلوج على الأرض، إلى حد لم تكن فيه الوديان والشعاب الجبلية مغطاة فقط، بل الأجساد كانت أقرب إلى التجمد بسبب شدة البرد، وحدث في الحقيقة أن جميع الحيوانات التي لم يتوفر لها مكان تختبىء به، أن خرجت من الأماكن الكثيفة، واندفعت فوق الثلج على شكل جماعات، ولقد كانت قطعان من الطيور غير قادرة على استخدام أجنحتها (لأن الجليد ربط فيما بينها وأمسك بها مثل القيود، مثلما كان من الممكن رؤية ذلك في حالات صيد الطيور) وكذلك سارت على أقدامها بدلاً من أجنحتها، وباتت عرضة للصيد من قبل الوحوش والانسان وذهب الامبراطور للصيد في إحدى المناطق الشرقية، التي اسمها داماتريس(١٤) Damatrys

وبينما كان مشغولاً بنشاطاته، واجهه وحش جبلي كبير، ولم يكن هذا الوحش أسداً، ولم يكن فهداً، ذلك أن حجم الأسد وشكله يمنع هذا التشبيه، لقد كانت له طبيعة مضاعفة، فلقد تجمع فيه كل من الفهد والأسد، وهكذا كان أسداً وفهداً معاً، كان وحشاً مخيفاً فيه صفات مزيجة، لقد كان مرعباً في شجاعته، مقداماً في ارعابه، وكل السمات التي تعود إلى كل من الأسد والفهد فيه اجتمعت، لقد كان هذا الوحش على هذه الشاكلة، وهربت غالبية الذين كانوا حول الامبراطور عندما رأوه، لأن منظره كان غير محتمل بالنسبة لكثير من الناس، وعندما بات قريباً، لم يكن هناك من أحد للتصدي له، لكن أثناء فرارهم، سحب الامبراطور سيفه الذي كان مسلحاً به، واندفع نحو الأمام ليضرب الوحش، وأصابت ضربته مقدمة رأس الوحش وظلت ماضية حتى وصلت إلى الصدر، فهكذا كان الامبراطور في الصيد.

وفي عودة إلى الموضوع الذي استطردت منه، أهمل نقفور، هذه الموضوعات، وبدلاً عن ذلك أثبت شواهد تخلّد أعمال السلطان العسكرية، وبجنون صوّر بشكل علني في مسكنه، ماتوجب عليه أن

يخفيه في الظلام، وعلم الامبراطور بهذا، ومع ذلك غالباً مااستقبله في مباحثات خاصة، وسمع منه نصائحه، وكان راغباً في أن يبعده عما كان يسعى إليه، لكن هذا الرجل تمسك بشدة بخطته، وغالباً ماكان يدعو إلى الاجتماع به رجلاً، من أصل لاتيني، غير أنه كان ساحراً ومتفوقاً في أعمال الخداع، وكان يتحادث معه بشكل مكشوف، ويخططان لمؤامرات مرعبة، وتمركزت المؤامرات حول كيفية ابقاء الامبراطور بدون وريث، وقد اعتاد على أن يتسلم كثيراً من العقاقير من هذا الساحر لتستخدم لهذه الغايات، ولم يتوقف هذا التعيس عن ممارسة هذه الأشياء، ولذلك لامه الامبراطور من جديد، وبين جنونه، وتظاهر بالأسف، غير أنه ظلّ هو نفسه، لأنه بعد مضي بعض الوقت، عاد من جديد إلى ذلك الساحر، وأخذ يبحث معه المسألة نفسها.

ثم انه التقى بقسطنطين دوكاس، الذي كان نفسه متزوجاً من ابنة أخي الامبراطور(١٥)، فقال:

«سيدي النبيل، إذا كان يوافقك أن نتشارك بهدف واحد، اعلم أنه مامن أحد سيكون قادراً على قهرنا»، وطبعاً هو لم يقل هذا بشكل واضح تماماً، إنما بشكل يمكن فيه تمييز هذا واستخلاصه منه، والتقى كاسيونوس مرة بألكسيوس، بعدما لاحظ أنه أخفق بدون قصد وانكفأ عندما كان في حملته في هنغاريا مع بيلا، وشرع في اثارته فيما يتعلق بهذا الموضوع، وبعد ذلك استقبل ألكسيوس الرجل على انفراد فقال:

«هل تعلم لماذا أبعدت نفسي كثيراً عن الحروب؟ لأنني أمتلك شفقة كبيرة على بني البشر»، وعندما انتقده الأخير على هذا القول، قال بدون وجل من أي شيء يمكن أن يحدث: «إن الامبراطور يرغب في تدمير القوات الرومانية، فقد أمرني أن أندفع وأتقدم بقوة في المعركة، لكن إذا أبقيت ماسمعته مني سراً، ستكون صديقاً لنا»، هكذا قال وأكثر، لكن

كاسيونوس أخبر الامبراطور بذلك.

لقد كان هذا ماحدث من قبل، لكن ماأوصل الأمور إلى الانشغال الكامل كان شيئاً هو كما يلي:

كانت هناك قوة من الكومان اكتريت للعمل مرتزقة في خدمة الرومان، وقد سببت هذه الفرقة في البداية بعض المشاكل التي تعلقت بالدفع إليها، ثم تمّ ارضاؤها، لكن البروتوستراتور التقى بالكومان سراً، وأقنعهم بالمال بالتظاهر بالعودة إلى أرض آبائهم وانهم عند منتصف الليل، يقومون بمهاجمة خيمة الامبراطور بحشدهم، وينشبون القتال، وكان هذا في الحقيقة ماتقرر وخطط له، غير أن صبياً صغيراً من الذين كانوا يخدمون في خيمته، ذهب بعدما عرف بالمؤامرة مسرعاً إلى الخصي توماس، الذي كان يحظى آنذاك برعاية الامبراطور العاليّة، وحذره من الخطة، وحمل الخصي الحكاية كلها إلى الامبراطور، ثمّ قدم إليه الطفل، وكان الامبراطور حتى الساعة رافضاً أن يصدق ماقيل له، حتى جاء الفجر، وبدأ الكومان بالانسحاب بدون سبب، واستطاع الامبراطور اقناعهم ببعض الوعود، وعندما نجح في ابقائهم، أرسل بعضاً منهم لاعتقال ألكسيوس بالحال، وبسرعة قصوى بات الشقي سجيناً، ثم أمر الامبراطور بعد ذلك بعض الأعيان بالقدوم إليه، واستدعى جون دوكاس، وميخائيل الذي كان المتحدث باسم [الهيئة؟]، وذلك بالاضافة إلى الخصي توماس، وكذلك نقفور الذي كنيته كاسباكس Kaspax وهو الذي كان قاضي الأحوال السرية، وقد وجهوا إلى ألكسيوس ثلاث تهم، وأمروه بالرد على أية واحدة منها هو قادر أن يدافع فيها عن نفسه، لكنه عندما سمع التهم، أقرّ بجرمه في الجميع، ورجاهم أن ينزلوا به العقوبة الصحيحة التي يستحقها، لكن بعد حلق شعره، وحضوره القداس، أشفق الامبراطور عليه، واكتفى بحلق شعره وجعله راهباً(١٦).

٧- بالنسبة لألكسيوس انتهى مصيره وقدره هنا. وبما أن القوات الهنغارية كانت تعبر باتجاه سيرميون، قام الامبراطور بارسال قوات إلى هناك، كانت تحت امرة عدد من القادة الرومان، وخاصة أندرونيكوس ابن أخي الامبراطور، الذي كان يكنى بـ «كونتوستيفانوس»، وقد سماه الامبراطور قائداً عاماً للأعمال الحربية، وقد تم توجيهه كيف يقوم بصف الرجال، وأين ستكون المعركة، كما لو أن الأمر رسم عل صورة، وهكذا قام أندرونيكوس بعدما جاز السافا، وبات قريباً من معسكر الهنغار بالتصرف كما يلي: لقد أدرك أن ارسال جواسيس وكشافة —كما جرت العادة— إلى جيش العدو، لن يكون مجدياً، غير أنه أمر بعض الرومان الذين تقدموا أمام الجيش الروماني أن يحاولوا وهم عائدون جلب عدد من أفراد العدو معهم، وتنفيذاً لأوامره، عادوا ومعهم واحد من الأعداء، وسأله كونتوستيفانوس عن وضع الامدادات لدى الهنغار الذين قدموا إلى سيرميون، وعن خططهم، وأجابه هذا الرجل بصدق وأوضح له كل شيء حيث قال:

«بيننا سبعة وثلاثين قائداً يتولون قيادة هذه القوة، لكن دايونيسيوس له السلطة عليهم جميعاً، وعدد الجيش كله خمسة عشر ألف رجل فيهم فرسان مسلحون، ورماة، وفرسان خفاف، وهم شجعان جداً، يعتقدون أن الرومان لن يستطيعوا الصمود أمام أول حملة لهم.

وعندما سمع أندرونيكوس هذا، ترك الرجل يعود ليروي لدايونيسيوس، أن الامبراطور الذي لم يستطع تحمل الأذى الذي ألحقوه بالرومان، قد تعهد بانزال العقوبة المناسبة بالهنغار بيده، وقاد الجيش الروماني، وهو شاكي السلاح، إلى خارج المعسكر، وجرى صفه كما يلي: أمر الكومان مع معظم القوات التركية وقليل من الفرسان الذين قاتلوا بالرماح، أن يشقوا الطريق، ثم تقوم كل الوحدات الرومانية بالهجوم من على الجناحين، وهي القوات التي كان يقودها كوغ فاسيل وفيلوكالس،

وذلك بالاضافة إلى الـ «تاتيكيوس Tatikios » الذين يلقبون بـ «أسبيتس Aspietes »، وزحف من خلفهـم الرجالة وقـد اختلط بهم النبالة ووحدة مسلحة من الأتـراك، وتقدم خلف هؤلاء، وزحف من على الجنـاحين جـوزف بـراينيـوس وجـورج بـرانـاس مـع أخيـه ديمتريـوس، وقسطنطين أسبيتس السيبـاستوز، ثـم تلا هـؤلاء أندرونيكوس الـذي كنيته لامبارداس Lampardas الذي كـان كاتــب الامبراطور، و....(١٧)، مع نخبة من القادة الرومـان والألمان والأتراك، وزحف وراء هؤلاء القائد أندرونيكـوس [كونتوستيفـانوس]، ومعه عدد كبير مـن الرجال الجديـرين بـالتقديـر، الرجـال الذيـن اعتادوا على الانضـواء تحت قيادة الامبراطـور عندما كان يذهب إلى الحرب.

وايطالين مـن قوات المرتزقة، وكـذلك صربيين، ساروا خلفـه، حاملين الرماح وترسة عريضة، وهكذا شرعت صفوف الرومان تأخذ طريقها نحو المعركـة، وعندما وصلـوا إلى المكان الذي أقـام فيه دايونيسيـوس النصب التـذكاري، تـرجلـوا مـن على ظهور خيـولهم، وانتحبـوا بحـرقة، وعـاهـد أحـدهم الآخـر، أن كـل واحـد منهم سـوف يمـوت في سبيـل ابن بلـده وقرابته.

وعندمـا علم دايونيسيـوس أن الرومان كانـوا يقتربون، امتلأ شجـاعة، وأمر الهنغـار بكل قحـة بأن يـرفعوا كؤوسهـم ويشربوهـا بصحة الـرومان، فرفعوها، وشربوها مسرعين، ثم تـوجهوا نحو أسلحتهم، وأخذوا صفوفهم حسبما هو معتاد، فقد كان من عادتهم دوماً أن يملأ الرجال النخبة بينهم الصفـوف المتقدمـة، وكان الامبراطـور المدرك لهذا الأمر والعـارف له منـذ زمن طويل، قـد وجّه أندرونيكوس أن تكون صفوفـه في الاحتياط، وهكذا عندمـا باتوا على مقربـة من بعضهم بعضـاً، أمر أندرونيكوس الـوحدات الأمامية أن تطلق نشـابها نحو الهنغار، وعندما رآهم الهنغـار حملوا عليهم، فقامـوا بالفرار، لكـن ليس نحو الخلف، إلى الجيـش الروماني، بـل بالحري

نحو الجناحين، وهكـذا انقسموا على كلا الطرفين، وبذلـك ترك الهنغار في مكان فارغ في الـوسط بين الصفوف المقاتلة، لكن لـدى حملتهم على بقية ساقـة الرومـان جعلتهم يـديرون ظهورهـم ويهربون بـأقصى سرعـة حتى وصلوا السـافا، وصمد أخيراً اثنتان مـن الوحدات الـرومانية التي كـانت على اليسـار، وكانتـا تحت قيادة كـوغ فـاسيل وتـاتيكيوس، غير أن البقيـة جرفت جـانباً، وقام ديمتريوس برانـاس، الذي ترك مع ثمانين مـن أتباعه الـذين تفـرقوا، بـالالتحـام مع العـدو، وقد سقـط هنـاك بعدمـا ناضـل بشجاعة، ونال ضربـة قاتلة على وجهه، وحدث أنه بعـدما سقط أن أخذ أسيراً، وحمل إلى المعسكر الهنغاري، أمـا أخوه جورج، الذي أرعبـه تفوقهم العددي، فقد افتقر إلى الشجاعة من أجل الصراع.

وهكذا تحول الجنـاح الأيسر للجيش الـروماني إلى الفـرار، لكن الجنـاح الأيمـن قـاتل ميسرة الهنغـار، وصـدّ العـدو بشكـل واضح نحـو الـوراء، وعندما لاحظ دايونيسيوس هذا، فكر في مهـاجمة الذين كانوا حول القائد أندرونيكـوس، وبدأ الخوف على كـل حال يستـولي على كثير من أتبـاعه، وهم يقـودون خيولهم، ولاحـظ دايونيسيوس ذلـك. فلامهـم لجبنهم، وفي الوقت نفســه، رجاهم بالبقاء هنـاك، وذلك خشية منه أن يجعلـوا خوفهم ظـاهـراً للرومـان، وتفهـم أنـدرونيكـوس لامبارداس الـذي كـان يحدث، وخشية منه أن تقوم الحشود التي مـع دايونيسيوس، إذا ماتحولت إلى جهة أخـرى، أن تقوم بـالانقضاض على القـائد أنـدرونيكوس، لـذلك قـرر أن عليه الالتحـام بدايـونيسيوس أولاً، ولـدى اصطدامهـم ببعضهم بعضـاً، ارتفع الضجيـج، وسمعت الأصوات في كل مكـان بسبب تحطم الـرماح على الترسة، وسقـوطها على الأرض، ومـع أن الصفوف التـي كانـت تحت إمرة برانـاس الآخر وجورج جاءت لمساعـدة الرومان، فإن هـؤلاء الرومان تولاهم الانهاك.

وعندمـا لاحظ القائد أنـدرونيكوس هـذا، وخشية منه أنـه إذا ماانهزم

الذين كانوا مع لامبارداس بشكـل حاد، فإن الصراع كله سينصب عليه، لهذا اندفـع نحو العـدو بشدة، وقام بحملـة هائلة، ونتيجـة لذلـك سقط للوهلة الأولى ثمانون مـن الرومان، لكن أكثر منهم كان الـذين سقطوا من البرابـرة، وتمكـن الـرومـان، بفضـل شجـاعتهـم، وثبـاتهم أثنـاء القتـال، وقـدراتهم الخارقـة، تمكنـوا أخيراً مـن صدّ العـدو، وارغـامـه على الفـرار، ووقعـت مـذبحة بين صفـوف الأعـداء، بلغـت حـداً مخيفاً، لـدرجـة أن السهـول هناك غطيـت بجثث القتلى، لأنـه عنـدما انقصفـت رماحهـم، وتكسرت سيوفهم، حطـم الرومان رؤوس هؤلاء الأشقياء بحـرابهم، ثم تمّ الاستيلاء على رايتهم، وكانت كبيرة جداً، حملهـا هؤلاء البرابرة على عربة، كما واستولي على حصان دايـونيسيوس مع كامـل سلاحه، ونجا هـو نفسه من المخاطر بصعوبة، أنا غير قادر على وصفهـا، أما بالنسبة للبرابرة الذين فروا ووصلـوا إلى النهر، فقـد تولى أسرهم الاسطـول الرومـاني، وجرى أسر خمسـة من كبـار قـادتهم الذيـن يـدعون «زوبـان»، وأخـذوا وهـم أحيـاء، ومعهـم حـوالي ثمانمائة من العساكر، وكـان بينهم أعدادٍ كبيرة مـن النبلاء والرجال الأعيان، وسقط في هـذا الصراع عدة آلاف، ولم يكن بين الرومان من لم يكن بطلاً، قـام بأعمال مجيدة، لكن تميز بينهم بشكـل خاص جون كونتوستيفانوس، وأندرونيكوس لامبارداس.

وعندمـا اكتمل نجـاح الرومان هكـذا، وكان الـوقت يقـارب منتصف الليـل، عاد جنـد الجيش الـروماني إلى المعسكـر، يقودون معهـم الأسرى الهنغار، وجلبـوا حوالي الألفين من الـدروع، ولم يكن من الممكـن احصاء الخوذ والترسة والسيـوف التي غنمـوها، وعسكـروا على هذه الصـورة تلك الليلة، ثـم حملوا أسلحتهم عند اشراق الشمـس، وتوجهوا نحـو المعسكر الهنغاري، فوجدوه فارغاً من الرجـال، لذلك نهبوه وعادوا، وعرفت الحرب ضد الهنغار نهايتها هناك(١٨).

٨- وصرف الامبراطـور عنايتـه إلى أسوار القسطنطينيـة، التـي تدمـرت

بفعل الزمن في كثير من الأجزاء، وعندما عانت العاصمة من قلة المياه، قام بتنظيف الأقنية بكل عناية، ولدى ملاحظته أن الأقواس القديمة التي حملت الأقنية الناقلة للمياه إلى بيزنطة، قد سقطت منذ زمن طويل، وأنه سيكون من الصعب جداً إعادة بنائها، وأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، قام بعدما تفحص المكان الذي لم يكن على مسافة كبيرة من بيزنطة، وكان اسمه بيترا(١٩) Petra ، ببناء خزانات تحت الأرض، وقد أقيمت في منخفض وسط التلال على كلا الجانبين، ولهذا كانت ذات سعة كبيرة، ولوجود مآخذ كثيرة لها، وفجوات فقد تلقت المياه التي نزلت إليها من خلال منحدرات وفتحات، وكأنها آلاف الأقنية، ونقلت هذه المياه إلى المدينة، بوساطة الطرق العادية التي كانت قائمة تحت الأرض.

واجتث الامبراطور من عادات الاتحاد الروماني، واحدة كانت من أكثرها ارعاباً، وهي عادة تفتقر ولو إلى القليل من الشرعية، فما الذي كانته هذه العادة؟ هذا ماسوف أرويه الآن:

سببت حاجة الانسان للبقاء حياً ابداع أشياء كثيرة في طرق حياته، ولاسيما ارغام الكثيرين على التخلي عن حرياتهم وتأجيرها، حتى بعض الذين ولدوا من أسر كريمة —فكيف بك بالناس العاديين— خدموا أجراء لدى الذين كانت أوضاعهم أعلى، ومراتبهم أرفع، فكم هي كثيرة الشرور التي سببها الجشع الانساني؟ وكان الذين يتسلمون هؤلاء التعساء بعد شرائهم لخدماتهم يعاملونهم معاملة أشخاص شروهم بالفضة، وكان ايجار اليوم المدفوع مقابل الاكتراء، يعادل شراء انسان حر، وبذلك كان علامة على سوء الحظ، وود الذين تحملوا متاعب هذه العبودية لو يستطيعون رفضها، وعاملهم الذين اكتروهم وكأنهم عبيد آبقين، وفرضوا عليهم العقوبات لجرأتهم، ثم كان الحال مثل حكاية ايسوب Aesop، التي قعد فيها الأسد مريضاً في عرينه، ومضت الحيونات إليه: وهكذا

مضى في إثر الرجال الأحرار أعداد كبيرة، لكـن الذين خرجوا عبر الطريق نفسه لم يكونوا أبداً، وعلى هذه الصورة المرعبة كانت هذه العادة، ورغب الامبراطور في اجتثاثها من وسط الدولة، لذلك أصدر كتاباً حرر فيه الذين كانوا بشكل طبيعي أحراراً، لأنه رغب في أن يحكم روماناً أحراراً، وليس رومانا أسرى.

ورسم الامبراطور في السنة الخامسة عشرة لحكمه بألا يعتدي انسان على الديرة في بيزنطة، وذلك بالنسبة لممتلكاتها التي بحوزتها في أي مكان [آذار١١٥٨]، وأكّد هذه التقدمة بوثيقة، دعيت بشكل عام لأنها ممهورة بختم ذهبي بـ "Chrysbull"[الوثيقة المهورة بالذهب]، ولهذا السبب مامن واحد من الرهبان يمكن أن يرى قابعاً أمام باب المحكمة، لأنه لم يعد هناك من سبب يدعو أحداً من رجال الحكومة للمثول أمام القانون معهم، هكذا باتت الأمور(٢١).

بما أن القانون عزل عدداً كبيراً من المجموع العام للأيام، مثل: الأيام التي يحتفل بها بذكرى تضحيات الرب وذلك من قبل المسيحيين، وكذلك الأيام التي تخلّد الرجال العظام [أي القديسين]، فقد نتج عن ذلك أن القضايا القانونية داخل الدولة بقيت معلقة بدون نهاية، ولذلك رأيت رجالاً أصبحوا شيوخاً دون أن يبت بقضاياهم، لابل مات بعضهم والقضايا معلقة، غير أن القانون الجديد [آذار١١٦٦] ألغى هذه الفوضى ونفاها من داخل الدولة الرومانية، لأن المرسوم الامبراطوري قضى ألا يشغل الاحتفال بأي عيد كل النهار، وقضى أيضاً بعدم السماح للقضايا بجرها من يوم ليوم وتأخيرها، وجرى تحديد الأيام التي يتوقف النظر فيها بالقضايا القانونية، بالأيام التي جلب فيها الرب شيئاً نافعاً لبني البشر، وتركت بقية الأيام كاملة للنظر في الأعمال القانونية، ففي الأعياد تمّ منع النظر بالقضايا صباحاً، لكن توجب أن تفتح المحاكم أبوابها طوال مابعد الظهر، مع السماح بالدخول إلى كل من أراد(٢٢).

ونقل الامبراطور إلى بيزنطة أيضاً الحجر المقدس، الذي كان منذ وقت طويل مضى في أفسوس [عرب سوس]، ووضعها هناك مع بقية الآثار المقدسة[١١٦٩]، فما هو هذا الحجر، وكيف وصل إلى بلاد أفسوس ومن أين؟ إن هذا ماسوف أحكيه الآن:

لقد كان بالنهاية تضحية المنقذ على الصليب، وعندما تسلمته أمه، مددته منكباً على وجهه، حسبما كانت العادة، وكان ذلك على هذا الحجر، وانكبت فوقه، وندبته بعمق، وهذا كان أمراً معقولاً، ووصلت الدموع التي انحدرت من مآقيها بسبب بكائها، إلى الحجر، وبقيت هناك دون أن تجف، وكان شيئاً اعجازياً، ثم كان —كما قيل— أن أخذت مريم المجدلية الحجر، وأبحرت تريد روما، حتى تلتقي بالقيصر تاييبروس، من أجل أن تتقدم بشكوى ضد بلياط واليهود لأن يسوع قد قتل ظلماً، وعندما توقفت لسبب ما في أفسوس، تركت الحجر هناك، ثم غادرت وذهب إلى روما، ومنذ ذلك الحين إلى الآن والحجر موجود في أفسوس، وعندما حمل من هناك، ووصل إلى منطقة داماليس Damalis للعبور به من هناك إلى القسطنطينية، خرجت مسيرة رائعة من بيزنطة استقبلته، وضمت المسيرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وجميع رجال الدين والرهبان، وتقدم قبل ذلك لوقا، الذي أدار الكنيسة، وكذلك الامبراطور، كل على انفراد، دون بقية الرسميين، وقام الامبراطور بالحقيقة برفع الحجر، ووضعه على كتفه، فهو قد اعتاد على التواضع أكثر من اللازم في مثل هذه الحالات وعبر عن تواضع عظيم وتعبد كبير(٢٣).

٩- نجت مصر في تلك الأيام من مخاطر الاحتلال من الرومان، وبرهنت على قدرتها على الاستمرار والبقاء حية، بطريقة أنا مقبل على شرحها: كانت فيما مضى تشكل جزءاً من المملكة الرومانية، وقد زودت هذه المملكة سنوياً بمبالغ ضخمة جداً، وعندما تعرضت آسيا بشكل حاد للغزو، وسيطر عليها العرب آنذاك، تمّ الاستيلاء على مصر، ووقعت

تحت حكم المشارقة، وتطلع الامبراطور بشكل كبير لاعادة السيطرة على مصر، لاسيما بعدما نجح في استرداد كثير من المناطق في الشرق لصالح الرومان، ولهذا الغرض بعث إلى مصر رسلاً، أمرهم أن يذكروا تلك البلاد بعادتها القديمة بدفع الجزية، التي تزن كثيراً، والتي جرت العادة بوصولها إلينا، وإذا مارفضت مصر، فإنه يعدها بأنه قبل مضي وقت طويل ستتعرض للحرب، فلقد كان هذا ماحمله الرسل، ولأن المصريين رفضوا هذا بفعالية، بنى الامبراطور أسطولاً من المراكب، وناقلات الخيول، مع عدد كبير جداً من السفن الحربية، وحمل جيشاً على هذا الأسطول، وأرسل به إلى مصر[١١٦٩]، وتولى قيادة هذه الحملة أندرونيكوس كونتوستيفانوس السالف الذكر، والذي كان قد أصبح منذ زمن الدوق الأعظم [الأميرال العظيم]، وأبحر الأسطول مسرعاً إلى مصر ووصل إلى هناك في أقرب وقت، وبعث إلى فلسطين، فاستدعى الملك الذي كان هناك [عموري الأول] للالتحاق بالرومان والمشاركة في هذا الصراع، حسبما قضت المعاهدة.

وبالنظر لتأخر الملك، وخشية من أندرونيكوس، أن يبدد الوقت هناك بلافائدة، قرر انزال الجيش إلى اليابسة، وقد استطاع بلا جهد الاستيلاء على مدينة تنيس(٢٤) Tenesion ، وقام بغارات نحو الأمام، فاستولى على المنطقة، وعندما وصلت الأخبار باقتراب وصول الملك، نقل ساحة الحرب إلى دمياط، وهي مدينة مليئة بالسكان وغنية جداً، وخاض الرومان هناك معارك مخيفة، لكن بدون نجاح، لسبب أنا مقبل على ذكره:

لقد تمّ الاتفاق بين الامبراطور والفلسطينيين الذين شاركوا في الحملة على مصر، أن يتسلم الرومان نصف حصة من البلاد المستولى عليها، وللفلسطينيين البقية، ولهذا بما أن الرومان وصلوا أولاً إلى مصر، قام الملك فقرر خيانة التأخر عن الحرب، ففي هذا الحال في الوقت الذي يتحمل فيه الرومان جميع المخاطر، يأتي هو بالنهاية، ويصير ممكناً له الاستيلاء

على البلاد بدون جهد، ولأنه وصل متأخراً، أجّل القتال بشكل مستمر، ونصح الرومان بفعل ذلك، وفيما كان الرومان لايهتمون إلاّ قليلاً بكلماته، خاضوا يومياً صراعات بطولية، ولستُ على دراية فيما إذا كان الفلسطينيون —كما قلت— قد رغبوا في أن يتحمل الرومان مسؤولية المخاطرة، حتى يمكنهم التمتع بدون جهد بالنصر، أو أنهم كانوا يخشون من استيلاء الامبراطور بشكل كامل على مصر ولايريدون ذلك، إن هذا مالاأستطيع قوله، ويقال إن الذين كانوا في داخل دمياط قد أفسدوا الملك بالمال، وأقنعوه بفعل ذلك.

ولدى ملاحظة الرومان أنهم غير قادرين لوحدهم على متابعة الحرب، انسحبوا وعادوا إلى بيزنطة، وفي الطريق فاجأتهم عاصفة، ففقدوا عدداً كبيراً من السفن، وهكذا حظيت الحملة الرومانية على مصر بهذه الخاتمة، وخشية من أهل مصر، أن تأتي حملة رومانية ثانية ضدهم، أرسلوا رسلاً إلى الامبراطور، وأعلنوا عن موافقتهم على ارسال مبلغ محدد من الذهب سنوياً إلى الرومان، ورفض الامبراطور السفارة، وأعاد الرسل بدون نجاح، ذلك أنه كان عازماً على الاستيلاء على البلاد بأكملها من جديد(٢٥).

١٠- وقدم في الوقت نفسه ملك فلسطين إلى بيزنطة ليتقدم بمطالبه إلى الامبراطور [١١٧١] وحصل على ماطلبه، ووافق على عدد من الأشياء الكثيرة، بما في ذلك خضوعه للامبراطور حسب شروطه(٢٦).

وأمر في ذلك الوقت الامبراطور مانويل بايداع البنادقة الذين عاشوا في بيزنطة وبقية الأراضي الرومانية، في السجن العام، وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة، وذلك لسبب أنا مقبل على حكايته:

قامت أراضي البنادقة على الجزء الأقصى من خليج يونيان [البحر الأدرياتيكي]، وتمتد بعيداً عن الساحل، على شكل حزام بحري، مثل شاطىء رملي، وغالباً مايتقدم البحر خلال النهار، مما يجعل الملاحة ممكنة

خلال ذلـك الوقـت، ثم يتراجع ثـانية، جاعـلاً الأرخبيل لايمكـن عبوره لابالسفـن ولامن قبـل الناس، وهـذه الدولـة فاسـدة الأخلاق، لاتعـرف الخجل ووقحـة أكثر مـن سواهـا، لأنها مليئة بـالبحارة الـرعاع(٢٧)، وبما أنها قدمت فيها مضـى قوة حليفة إلى الامبراطور ألكسيـوس الأول، عندما قام روبـرت كويسكـارد الواسـع الشهرة بـالعبور مـن ايطاليـا إلى دورازو [دورس الحالية]، وحاصر ذلـك المكان [١٠٨١]، وقد تلقوا مقـابل ذلك تعويضات، ولاسيما بمنحهـم مساحة محددة في بيزنطة، وهي بـاتت تعرف بشكل عام باسم الامبولون Embolon [الحي](٢٨)، وكانوا هم دون سواهم من بين الايطاليين الآخريـن والتجار البيزنطيين، لايدفعون في حيهم أياً من العشور عن تجارتهم للـرومان، وجعلتهم ثرواتهم الهائلة التي حصلوهـا من ذلك المصـدر بسرعة متعجـرفين، فقد اعتادوا على معـاملة الناس مثل العبيد، ولم يقتصر تصرفهم هذا على العـامة، بل تجاوزوا بذلك نحو الـذين حازوا على مجد مـرتبة سيباستوس، والـذين تقدمـوا نحو أعلى المناصب الرفيعة بين الرومان، فلهؤلاء وجهوا الاهانات.

وغضب الامبراطور جون من هذا السلوك فطردهـم من الدولة الرومانية [١١٢٢]، ولذلـك رغبوا وتشـوقوا لـلانتقام من الـرومان، وبعـدما قـاموا بإعـداد أسطول من سفنهم، أغـاروا على الأراضي الرومانية واستـولوا على كيوس، ونهبوا جزيـرة رودس الشهيرة وكذلك لسبوس Lesbos، وتوقفوا عنـد الأراضي الفلسطينيـة، فحـاصروا صـور واستـولـوا عليهـا، وأقنعـوا سواهـم بالتعـاون معهم، ومـارسوا حملـة من القـرصنة في البحـر لم تعرف الـرحمة على الجنـس البشري [١١٢٢-١١٢٥]، ولهذا تقبلهـم الامبراطـور على أسـاس الشروط المتقدمـة، ثم رقـاهم إلى مـزيد مـن المجد والفخـار [١١٢٦](٢٩).

إن الـرغبة الصـادقة التـي بدت أنها نـاجحة، أمكـن للحماقة ازالتهـا ومحقها، ولهذا وجهوا ضربـات قاسية لعدد كبير من أبناء الأسر الـذين كان

بعضهم أقرباء الامبراطور عن طريق الدم، وقاموا بشكل عام باهانتهم بشكل وحشي، حتى في أيام الامبراطور مانويل تابعوا ذلك ولم يكونوا أقل في ممارسة الأعمال نفسها، واتخذوا لأنفسهم زوجات رومانيات وسكنوا مثل الرومان الآخرين في بيوتهم خارج منطقة السكنى الممنوحة إليهم من قبل الامبراطور، ولم يستطع الامبراطور تحمل هذه الأشياء، لذلك شرع بايقاع العقوبات بهم بسبب أعمالهم السيئة، ولقد عُرف البنادقة القدماء باسم «البرجوازية» وذلك نقلاً عن اللغة اللاتينية، ذلك أنهم تعهدوا بالحفاظ على طاعة الرومان، ماداموا يعيشون بينهم لأن اسم [برجوازية أو مواطنين] يفسر هكذا، وقد ميز الامبراطور بين هؤلاء وبين البنادقة الذين جاءوا إلى بيزنطة للعمل بالتجارة.

وقبل مضي وقت طويل، ثار البنادقة ضد اللومبارد [أي الجنويين]، ذلك أنهم كانوا غاضبين منهم، ولذلك دمروا بيوتهم إلى الأساسات، وألحقوا بهم أذى كبيراً [١١٧٠]، واستدعاهم الامبراطور إلى مجلس القضاء، وقضى عليهم بإعادة بناء بيوت اللومبارديين، وأن يعيدوا إليهم على الفور ما أخذوه منهم، غير أن البنادقة لم يرغبوا في فعل أي من هذه الأشياء، وهددوا بالحاق الضرر بالرومان، وذكروه بالذي فعلوه عندما كان الامبراطور جون مايزال حياً، وعندما فهم الامبراطور هذا، قرر ألاّ يتأخر بالعمل، ولأنه عزم على أخذهم في اليوم نفسه ووضعهم داخل الشبكة، بعث برسائل إلى جميع الأراضي الرومانية، حيث حدد للذين تولوا الحكم في تلك المقاطعات الساعة التي توجب عليهم فيها إلقاء القبض على البنادقة، وهكذا حدث في وقت واحد أن ألقي القبض على البنادقة الذين كانوا في بيزنطة، وكذلك على الذين انتشروا في أقصى زوايا الأراضي الرومانية، وقد تلقتهم السجون ومعها الديرة [١٢آذار١١٧١].

وبعد مضي بعض الوقت، وبما أن السجون اكتظت بمثل هذه الحشود، تجرأ البنادقة (لأنه يبدو أنه مامن شيء أصعب من هزيمة

الناس اليائسين) تجرأوا على عمل مايلي:

بعدما قدم كل واحد نفسه بمثابة ضمانة للامبراطور من أجل الآخر، كانوا قادرين على الخروج من السجون، وكان بينهم رجلاً كان متميزاً من حيث الأسرة ومن حيث الثروة، فابتاع نفسه من الخزينة مقابل مبلغ كبير مع سفينة ذات حجم كبير، لم ينزل مثلها قط في ميناء بيزنطة، ولهذا عهد إليه الامبراطور بالعناية بها، فتآمر مع البنادقة أنهم عندما يصعدون إلى ظهرها، سوف يبحرون بها ليلاً نحو بلادهم، فتوافقوا على هذا الاقتراح، وعندما هبت ريح مناسبة، قفزوا إلى ظهرها، وغادروا هاربين، وما ان علم الرومان بهذا حتى طاردوهم، وباتوا على مقربة منهم في مكان قرب مضيق أبيدوس [الدردنيل]، وهنا عزموا على احراقهم بالنار الاغريقية، لكن بما أن البنادقة كانوا على دراية بطرائق الرومان، فقد قاموا باجراءات جريئة، وذلك بأن نقعوا بعض الأقمشة بالخل، ولفوا بها جميع السفينة، وبما أن الرومان كانوا غير قادرين على النجاح (لأن النار التي قذفت باتجاه المراكب، إما وقعت أبعد مما هو ضروري، أو انها لم تصل إليها، لابل حتى وإن وصلت صدت بوساطة الأقمشة وانطفأت في الماء عندما سقطت) عادوا مخفقين.

وبعدما مضى وقت ليس بطويل على وصول البنادقة إلى بلادهم، بنوا أسطولاً، وقاموا بمقاتلة الرومان [١١٧١-١١٧٢]، وهاجموا أولاً يوريبوس Euripos [أي يوبيا]. لكن عندما صدوا سارعوا إلى جزيرة كيوس، وسبب صدهم أن الامبراطور مركز حاميات من الجند كافية في تلك المدن، ولدى وصولهم إلي كيوس سحبوا سفنهم وربطوها هناك، ثم تقدموا لنهب الموقع، وعلى كل حال لقد واجهوا هناك قوة كانت قد عبرت إلى الجزيرة، لأن الامبراطور كان متوقعاً ماحدث، وعندما وقعت الاشتباكات، فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم، وأداروا ظهورهم وتراجعوا نحو سفنهم، وفكر الامبراطور بقهرهم بالقوة، ولذلك خطط لارسال قوة

عسكرية، وبحرية ضدهم، لكن كان هناك واحداً، اسمه هرون، شغل منصب أكولاوثوس Akolouthos [قائد حرس البنادقة]، وكان والحق يقال شخصاً مقامراً ومغامراً، غير أنه كان دوماً معادياً لشؤون الامبراطور، وقد اعتقل مراراً بسبب سوء أفعاله، وأدين لتكريس نفسه لأعمال شيطانية، لكن هذا حدث فيما بعد، عندما تناولت العدالة المجرمين، أما الآن، فإنه بسبب اقدامه على افشاء الخطة إلى دولة البنادقة، جلب الاخفاق لمشروع الامبراطور.

وأبحر الأسطول الروماني ليصل إلى ماليا Malea (وهذا رأس [للبلبونيز] يفصله عن جزيرة كيوس رحلة عدة أيام) ليكمن هناك منتظراً البنادقة، وكان البنادقة يتوقعون أن يتم صدهم ثم طردهم بوساطة الرجالة الرومان الذين —كما قلنا— كمنوا لهم فوق الجزيرة، واشتبكوا معهم من مواقع متفوقة، ثم إنهم بسبب تغلب الرومان عليهم في القتال على الجزيرة، وبذلك عانوا من خسائر عظيمة نزلت بجيشهم، وبسبب أنهم علموا أن الأسطول الروماني كان على الطريق نحوهم، قاموا في آخر النهار بمغادرة الجزيرة، ووصل الأسطول الروماني عند الفجر إلى ليسبوس Lesbos، وعندما سمعوا أخبار ماحدث قاموا بمطاردتهم، غير أن [الأسطول البيزنطي] لم يكن قادراً على تقرير الأمور في معركة تصادمية، لأن العدو تابع فراره ولم يتوقف، وتمكنوا من قهر الكثير من سفنهم الحربية واغراقها مع جميع ملاحيها، لكن البقية وصلت هاربة إلى بلادها وبالنظر لنقص الرجال لديهم، فروا مرعوبين، حيث انه عندما حدث واصطدموا مع جماعة من أهل إبيدامنوس Epidamnos [دورازو] لم يستطيعوا أسر واحد منهم بالقوة(٣٠).

وحصد البنادقة نتيجة تبجحهم ورعونتهم، وأراد الامبراطور أن يسخر من تفريطهم فكتب إليهم كما يلي:

«أظهرت دولتكم منذ زمن بعيد جهالة عظيمة فيما يتعلق بما ينبغي صنعه، لأنكم عندما تقاطرتم من قبل على الأراضي الرومانية بمثابة آفاقين كنتم وقتها، والحق يقال، قد استولى عليكم الفقر، ومع هذا أظهرتم استخفافاً عظيماً نحو [الرومان]، وكانت لديكم مطامح كبيرة لخيانتهم لصالح أعدائهم، ومن فضول القول أن نعدد ونذكر ماهية أوضاعكم الحالية، وتذكروا أنكم قد طردتم بحق وعدل من أراضيهم، وعبثاً فعلتم حين قررتم أن الصراع معهم سيكون على مستوى واحد، فأنتم دولة لاتستحقون من حيث القدم هذا الاسم، ولقد بتم الآن تتمتعون أخيراً ببعض الشهرة، لكن ذلك على حساب الرومان، مع أنكم لاتماثلونهم في القوة، لنتأمل هذا، لقد بتم مضحكة من كل جانب، فكيف حدث هذا؟ إنه لايمكن حتى بالنسبة للنخبة بين الدول، في أي مكان، على الاطلاق، إثارة حرب ضد الرومان دونما عقوبة»، هكذا كتب إليهم الامبراطور، وبهذه الشدة، وبما أنهم كانوا غير قادرين بعد على القتال مع الرومان بوساطة أسطول كبير، قاموا منذ ذلك الحين بالتربص والانتظار، ونشطوا كقراصنة حتى عانوا من ضربة ثانية(٣١).

وهكذا سارت هذه الأمور، وبدأت الأحوال في كليكية تصبح في أوضاع سيئة، لأنه بعدما قضى طوروس أجله [١١٦٨]، استولى أخوه مليح على المنطقة، وبدأ يتصرف بشكل لم يكن أقل سوءاً من أخيه، نحو الرومان، وجرى اختيار ميخائيل براناس أولاً حاكماً للكليكيين [حوالي ١١٦٠-١١٦١]، ثم جاء بعده أندرونيكوس الذي لقبه يوفوربينوس، وقد ذكرنا من قبل أن كان ابن عم للامبراطور [١١٦٢]، ولكن بما أنه لم يحقق شيئاً يستحق الذكر هناك، فقد باتت أحوال الايزوريين منهارة، ولذلك تتابع الحكام بكثرة، وخلف أحدهم الآخر بالحكم، وكان بينهم قسطنطين، الذي كنيته كالا مانوس، متميزاً، ومع ذلك لم يحقق شيئاً [١١٦٣-١١٦٤ وثانية حوالي ١١٧٣]، وكان

كـالامانـوس بالحقيقـة هو الّذي أزعـج الأرمن في كثير مـن الطرق، وقـد أصيب بجرح كبير في إحدى المصادمات(٣٢).

وجاء في هذه الآونـة [هنريّ الأسد] دوق السكسون، وهـم شعب كبير العدد ومزدهر، إلى بيزنطة، ومعه حـاشية عظيمة، وذلك من أجل مصالحة ملك ألمانيا [مـع مانويل] (لأن كل واحد منهما حمل شكـوكاً عظيمة تجاه الآخر)، وبعدما أنجز ماجاء من أجله، غادر عائداً [١١٧٢](٣٣).

وفي هذه الآونة، تطلع الصربيون نحو الثـورة(٣٤)، وذلك بعدما ضغط عليهم البنـادقة كثيراً في هـذا الاتجاه، وبما أن ستيفن [اسطفـان الثالـث] الذي حكـم هنغاريا، قد غادر هذه الحياة [١١٧٢]، فقد أصبحت الأمور هناك مليئـة بالغليـان، وتنبه الامبراطور للمخـاطر، فـذهب إلى سـارديكا، وعندما كان مقيماً هنـاك، راسله الهنغار، وسألوه ارسال بيـلا، ليكون ملكاً عليهم، لأنـه بعدما مـات ستيفن، تطلع معيار العـدالة نحوه، وكـان بيلا قـد أفرد مـن قبـل ليكـون صهراً لـلامبراطـور —كما ذكـرنا في الـروايـات المتقدمة— ولكن بما أن قـانون القرابة كان يمنع ذلـك، فقد تزوج أخت الامبراطـورة، وبناءً عليـه، تمتـع، بعـدما تـمّ إعـلانـه قيصراً، بأعلى رتبـة عرفتهـا بيزنطة آنـذاك، ثم كان بعـدما سماه مـانويل ملكـاً، أن أرسله إلى هنغاريا مع زوجتـه، إنما بعدما تعهد بالأيمان أن يرعـى مادام حياً ويحافظ على كـل مـافيـه فـائدة لـلامبراطـور وللـرومـان، ورافقـه إلى هنـاك ممثـلاً للامبراطـور، ومساعداً لـه في عمله: جون [كـومنينوس] البروتوسيبـاتوس، مع آخرين من الأرستقراطية(٣٥).

وبعـدمـا ثبـت الامبراطـور أركان بيـلا بـالسلطـة، انصرف نحـو دولـة الصرب، وكان متشوقـاً للانتقام منهم بسبب تسرعهـم وحماقتهم، وحدث أمر، أنـا نفسي تتملكني الدهشة نحـوه، هو أن الجيش لم يكن قـد اكتمل اجتماعه، ومـع هذا قام الامبراطور بغـزو تلك البلاد ومعه آلاف قليلـة من

الجنود، على الرغم من كون البلاد بلاد منحدرات وشعاب، وقد زحف الامبراطور نحو الأمام ليقاتل الزوبان العظيم، ومع أن هذا جمع حول نفسه حشوداً هائلة من القوات الحليفة من كل جانب، فقد هرب على الفور، لأن الرعب استولى على روحه، وأرسل رسله إلى الامبراطور، وسأل أن يحظى بعفو الامبراطور عن أعماله الشريرة، وعندما أخفق في اقناع الامبراطور بهذا، سأل عما إذا كان ممكناً له أن ينال اجتماعاً بالامبراطور، دون أن يلحقه أذى أو ضرر شخصي.

وبناءً عليه، عندما وافق الامبراطور، جاء واقترب من فسطاط الامبراطور وهو مكشوف الرأس والذراعين حتى المرفقين، وكان حافي القدمين، وقد ربط حبلاً حول رقبته وحمل سيفاً بيده، وقدم نفسه إلى الامبراطور ليفعل به مايشاء وليعامله حسبما يرغب، وعطف عليه مانويل، وألغى التهم المثارة ضده، وبعدما نجح الامبراطور على هذه الصورة، غادر بلاد الصرب، وكان برفقته الزوبان العظيم(٣٦)، وحدث في هذه الأثناء أن ألقي القبض على هرون، الذي ذكرته من قبل، وسملت عيناه للأسباب التي تقدم ذكرها.

١٢- هكذا مضت الأمور في الغرب، لكن آسيا عانت من المصاعب ثانية، لأن نور الدين أتابك حلب، والسلطان الذي حكم ليكانيا [أي قلج أرسلان الثاني صاحب قونية] ومليح مقدم الأرمن، وحاكم أنقرة وبقية غالشيا وافقوا على شيء واحد، وهو القيام بحملة ضد الرومان [١١٧٣](٣٧)، ولهذا زحف الامبراطور مسرعاً من الغرب وعسكر في أحد الأماكن حول فيلادلفيا.

وفيما هو مشغول بهذا، جاء الألمان والبنادقة وحاصروا أنكونا، بعضهم بالبحر، والبقية بوساطة جيش بري [١١٧٣]، وكان واحداً من الرجال بينهم [كرستيان أوف مينز] الذي حمل رتبة أسقف، هو الذي تولى قيادة

الألمان، وبعد مضي بعض الوقت على الحصار، نقصت الحاجيات في أنكونا، وبات من المتوقع سقوط المدينة خلال وقت قصير، وعلى كل حال، كان هناك امرأة، ذات أصل ايطالي [ألدرودا فرانجيبين Al-druda Frangipane كونتية بيرتينورو Bertinoro]، وكانت أكرم من أي واحد آخر، ولاسيما الرجال، ونظراً لأنها كانت محرومة من زوجها، فقد حافظت على حياة نقية منذ ذلك الحين فصاعداً، وعندما علمت بحقائق الأمور المتعلقة بأنكونا، وأنها باتت على شفير الهاوية، امتلأت غيرة (لأنها حافظت على صداقتها مع الرومان)، وبادرت مسرعة لمساعدة المدينة من منفذ من داخل ممتلكاتها، وبحكم أنه لم يتوفر لديها مايكفي من ضروريات الحرب، أوقفت أولادها [أي ممتلكاتهم] وبذلك قدمت كميات كبيرة من الذهب، وكتبت إلى أهل المدينة، وقالت إنه ينبغي عليهم أن يحافظوا على شجاعتهم عالية، وألا يتخلوا عن أنفسهم إلى العدو، وعندما علم شعب أنكونا بهذا، ازدادت شجاعتهم وخططوا لمهاجمة الأعداء، وما ان لاحظ الأعداء ذلك حتى بادروا إلى تقليص انتشارهم، وفي الوقت نفسه، قامت بعدما عينت قائدة للمدينة، بتوحيد رجال أنكونا مع جيشها، وعندما تمّ الهجوم، لم يستطع الألمان الصمود أمام المهاجمين، فهربوا أمام حشود امرأة وفقدوا العديد من رجالهم، وكاد قائدهم الأسقف أن يقع بالأسر، لولا أنه نال السلامة بالفرار، وما كان منها إثر هذا إلاّ أن تحولت ضد البنادقة، الذين حاصروا المدينة —كما ذكرنا— وهاجموها من جهة البحر، وبعدما تغلبت عليهم بالقتال، عادت إلى المدينة، وهي تهلل باسم الامبراطور العظيم، مع هتافات مديح له(٣٨).

وخطط الامبراطور الذي كان معسكراً —كما ذكرنا— في فيلادلفيا، لايجاد طريقة يتمكن فيها بسهولة من ابعاد البرابرة المذكورين عن بعضهم بعضاً، وفي الحقيقة كتب إلى سلطان قونية، ووبخه لقلة وفائه،

وسأل عن السبب الذي أدى به إلى اعلان الحرب بشكل مفاجىء ضد الرومان، ولقد تعلل بعدد كبير ومتنوع من المعاذير وقال إن خليفتهم(٣٩)، وهو أعلى رجال الدين بينهم، كان غاضباً منه، لأنه وافق على هذا الحد من الصداقة مع الرومان، ولقد كان هذا ماقاله، وقد أعاد الرسول فارغ اليدين، وعندما سمع الامبراطور بهذا، رد على ذلك بارسال سفارة ثانية، وكتب إليه هكذا:

«إذا كان قد بدا لك منذ بعض الوقت الذي مضى أن تتحد مع الآخرين من أتباعك، في سبيل مهاجمة الرومان، تخل عن حماقتك وتسرعك، وأقم حرساً على بلادك، لأن الجيش الروماني سوف يصل إليها خلال خمسة عشر يوماً»، وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة، ارتجف قلبه رعباً، وتخلى عن خططه، وبحث في شروط للسلام من أجل المستقبل، وبالنسبة للفئات التركية التي لم يتأكد لديها أمر المؤامرة، انفصلت، لأن شطراً كبيراً منها تخلى عن السلطان والتحق بالامبراطور(٤٠)، ولقد ازدادالامبراطور فخاراً بهذا النصر الذي ناله دون بذل للدماء، وقام إثر ذلك بأخذ طريق العودة إلى القسطنطينية.

وعلم بهذا ملك فلسطين مع أمير أنطاكية، فامتلآ لذلك بالشجاعة، وتحركا ضد برابرة حلب، وألحقا بهم أضراراً بالغة(٤١).

١٣- وقام الامبراطور في هذه الآونة، فصنف بنفسه الخطاب الذي سيلقيه في المجلس، ولم يصنفه بالتعاون مع العاملين(٤٢)، الذين اعتادوا على املائه وكأنه من عند الامبراطور، وكانت مقاصده عميقة التفكير، انطلقت من روح على درجة عالية من النبل، وقد زود الخطاب بما فيه الكفاية من الأفكار، وجُهز بعدد كبير من الحجج المنطقية، وكانت صياغته نقية، وأسلوبه بسيط، وباختصار لم يكن مزوقاً، بل كان طبيعياً، يعبّر بوضوح عن كاتبه، فلقد كان الامبراطور، كما قلت مراراً، شخصاً

لايمكن مقارنتـه بأحد في القدرات الطبيعية، فلقد لاحظـت أنا شخصياً، عندمـا ناقشت معـه مراراً كتابـات أرسطو، أنـه تمكن بشكل طبيعـي من حل الكثير مـن المسائل العميقـة المختلف حولها، وهـذا أمر أعتقـد أنه لم يتهيأ مطلقـاً، وكان ممكناً لأي واحـد آخر، ولقد تمكـن ببساطة رائعـة من توضيح عدد كبير من النقاط في الكتابـات المقدسة، التي بقيت حتى الآن بدون حـل، أو أنها لم تفسر تفسيراً صحيحاً، وفي الحقيقة يبدو لي أن كتـابة هذه الأشياء هنا، معارض لأحكام التأريخ.

الكتاب السابع

١- لقد كان هذا ماأنجزه الامبراطور مانويل حتى الآن في القارتين، وسأقدم فيما يلي تسجيلاً لما حلّ به، عندما كان في حملة في آسيا، ذلك أن قلج أرسلان، الذي ورد ذكره كثيراً فيما مضى من روايات، والذي زوده الامبراطور بكميات كبيرة من المال، حسبما قلت [كذا]، قد ارتقى إلى درجة عالية جداً من القوة، وكان قادراً على حرمان عدد كبير من الحكام من إماراتهم، لاسيما أنه حجر على شاهنشاه، الذي كان أخوه، وصدرا عن الأصل نفسه، وكان يحكم غانغرا وأنقره، وهما من مدن غاليشيا، فقد وضعهما تحت سلطته، وبما أنه لم يكن قادراًعلى قتله، اضطره للتجول بين جميع الدول وبني البشر بمشابة غريب وأجنبي، كما أنه لم يُعد إلى الامبراطور أياً من المدن التي كان قد استولى عليها، كما أنه لم يرغب بتنفيذ أي من بقية الأشياء، التي كان وافق عليها فيما مضى، ولقد عامل جميع الناس بتكبر ورعونة، ولم يكن منضبط الرغبات، ولدى تفحص الامبراطور لهذا وتقديره له غضب غضباً شديداً، وكان مزعوجاً تجاه القضية، لكن بما أنه شغل عن هذه الأشياء بمشاكل الغرب، لم يرغب في اثارة الذين كانوا في آسيا، وعندما لم تبق هناك أية حروب في الغرب، ولم يظهر بالأفق القريب أي شيء من هذا القبيل، لأنه كان ناجحاً هناك في كل شيء، قام بحشد قوة كافية، وقرر الجواز إلى هناك(١) [آسيا].

وما أن سمع قلج أرسلان بهذا حتى بعث برسله إلى الامبراطور، معلناً موافقته على القيام بتنفيذ مختلف القضايا تبعاً لارادته، وطلب أن تقوم القوات الرومانية المنوي ارسالها إلى آسيا، بالعسكرة بالمدن التي يختارها الامبراطور، وهو سيقوم شخصياً بالالتحاق بالقوات الرومانية في الصراع

من أجل هذا المقصد، وبعدما تسلم الامبراطور هذه [الرسالة] بعث ألكسيوس بترايفاس ومعه جيش وصل تعداده إلى ستة آلاف، وعهد إليه بمبلغ من المال، اعتقد أنه يكفي للانفاق على الحرب، وعلى هذا الأساس انطلق ألكسيوس نحو آسيا، وعندما سمع قلج أرسلان أن الجيش الروماني بات قريباً، أنذر المدن التي مازالت لم تقهر من قبله،وعرض عليها الاستسلام قبل وصول جيش الامبراطور، وادراكاً من هذه المدن أنها لن تستطيع مقاومة كل من الجيشين الروماني والتركي، تخلت بدون رغبة له، وما ان كسب السلطة على هذه المدن، حتى رفض التخلي عن أي منها وتسليمها إلى الرومان.

وكان الامبراطور لهذا السبب مزعوجاً، وعزم على الانطلاق نحو الحرب فوراً، لكن بها أن شؤونه لم تسمح له (لأن ربيع [١١٧٥]، كان قد مرّ، وهو الموسم الموائم بشكل خاص للأعمال العسكرية، وكان قد خطط ليقوم بأشياء متنوعة مفيدة للرومان، وعلى الخصوص بناء مدن حيثما رغب، اضافة إلى المصيصة، وهي مدينة شرقية، كانت تسعى آنذاك للالتحاق به، وكان لهذا سيكون سهلاً للرومان الاستيلاء عليها) لذلك عمل حسبما يلي:

أرسل إلى بافلاغونيا ميخائيل الذي كانت كنيته غابراس، وهو رجل —كما قلت مراراً— قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي، وكان خبيراً ممتازاً بالأعمال العسكرية، وأخذ معه شطراً من جيش، وكانت البقية سيتم حشدها من قرى قامت هناك حول طرابزون وأوينانيون Oinaion، ومدن بنطش، وبعدما قام بجمعها، أمره [مانويل] بالسير إلى المصيصة.

وحدث في الوقت نفسه حادث كان كما يلي: كان لجون كانتاكوزينوس —الذي تحدثنا عنه مراراً في الروايات المتقدمة— ولد اسمه مانويل، بهي الطلعة وسيماً، وكان متفوقاً بالقوة على جميع قرنائه وأتباعه(٢)، وقد

تورط في أعمال ممنوعة [أي خيانية]، ولهذا وجه إليه الامبراطور في البداية النصيحة، محاولاً منعه من التورط بمثل هذه الأشياء، ولكن عندما تمسك بتهوره، دون أن يكبح نفسه، أمر به الامبراطور إلى السجن، وقد حدث [أمر ما] هو طبيعي بالنسبة لبعض الذين في وظائف عليا، (عندما يحاولون في كثير من الحالات جذب انتباه الامبراطور لهم ونيل عطفه)، فعندما وصل إلى السجن حرموا الفتى من عينيه، وذلك خلافاً لارادة الامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بهذا، غضب كثيراً، وأقسم أن هذا اقترف بحق الفتى دون معرفته، ومع هذا فقد تحمل الآلام، لأنه لم يعرف كيف يمكنه تسويغ معاقبة الذين فعلوا ذلك.

٢- وكنا قد ذكرنا أنه قد بعث ميخائيل [غابراس] إلى المصيصة، وقام هو نفسه بجواز مضيق داماليس [البوسفور]، وتوجه مباشرة إلى ميلانغيا Melangeia [١١٧٥]، وبعدما قام بحشد قوة كافية من بيثينا والريندكوس Rhyndakos ، توجه إلى سهول دوريليون Dorylaion ، بهدف شحن الحصون الرومانية هناك بالمؤن، مادام السلام مازال قائماً، وأيضاً بهدف تشجيع الذين كانوا معادين للسلطان، وكان هذا هاماً بالنسبة له، وذلك بالاضافة إلى إعادة بناء دوريليون.

وكانت دوريليون فيما مضى مدينة عظيمة مثل أي مدينة في آسيا، وتستحق اهتماماً كبيراً، فقد كانت تهب عليها نسمات لطيفة، وامتدت السهول حولها، وكانت ناعمة جداً، وتقدم منظراً على درجة عالية من الجمال، وكانت هذه السهول خصبة جداً تنتج كثيراً من الأعشاب وتعطي قمحاً رائعاً، وكان هناك نهر، جميلاً أن تراه، حلواً أن تتذوق مياهه، يجري في وسطها، وفيه كميات هائلة من الأسماك التي تسبح فيه هناك، ويصطاد السكان الكثير الكثير ولايعانون من النقص، وكان في هذه المدينة أبنية جميلة بُنيت في أيام القياصرة المتقدمين من الميليسينوي Melissenoi ، كما وكان هناك قرى مكتظة بالسكان وينابيع دافئة،

وحمامات ذوات أعمدة وقناطر، مما يحقق البهجة ويجلبها للناس، وكان بالعادة أن يعطي المكان وفرة من المنتوجات، لكن عندما وصل هجوم الأتراك على الأراضي الرومانية ذروته، هدموا المدينة ودمروا حتى الأساسات، وجعلوها خالية من السكان، وباد هناك كل شيء، ولم يبق هناك أدنى أثر من عظمتها الماضية، هكذا كانت هذه المدينة(٣).

وكان في تلك الآونة حوالي الألفين من الأتراك المتجولين، معسكرين حسب عوائدهم حولها، وبعدما قام الامبراطور بطردهم من هناك، وضع حاجزاً أحاط بالمكان ليس بعيداً عن المدينة، وأعدّ العدّة لبناء أسوار هناك، وهكذا بُنيت المدينة بسرعة، ممثلة في داخلها خطة المدينة القديمة، مع سور يحيط بها، وله أبعاد متساوية من كل جانب، ولم تكن بعيدة عن رابية اصطناعية شيدت فيما مضى لبناء قلعة عليها، واعتاد الامبراطور أن يخرج يومياً من هناك مع عدد قليل من الرجال، ويكمن، ويفاجىء الأتراك وجهاً لوجه وبذلك قتل عدداً كبيراً منهم، لابل حتى إنه قتل بعض الشخصيات البارزة بينهم، لأن كثيراً من الأتراك لم يتوقفوا عن القدوم من المناطق الداخلية، والتهور بالغارة بقصد اعاقة أعمال البناء، ثم قام الامبراطور أيضاً بارسال شاهنشاه، الذي سلف لي ذكره، والذي جاء فيما مضى بمثابة لاجىء إلى الامبراطور، لقد بعث به إلى ماوراء أراضي قونية، وذلك بعدما زوده بالمال، ورافقه أيضاً جيش عندما ركب الطريق إلى بافلاغونيا، ولكنه لم يذهب بعيداً، لأنه اصطدم بقوة تركية كانت تنتظره، قتلت كثيراً من الرومان الذين كانوا معه وحصلت على غنائم كافية،ونجا شاهنشاه بكل صعوبة، وعاد إلى الامبراطور مرعوباً، وهكذا انتهت أعمال هذا الرجل دوماً بنهاية سيئة، فهذا ماكان قد صنع في دوريليون.

ووصل ميخائيل غابراس مع جيشه إلى المصيصة، ووجهت إليه الدعوة من قبل الذين كانت المدينة في أيديهم للدخول إليها مباشرة(٤)،

ونظراً لوجود قوة أخرى بعث بها قلج أرسلان للغرض نفسه كانت معسكرة هناك ليس بعيداً عن المدينة، أعوزته الشجاعة للدخول، ذلك أنه حمل في نفسه ريبة عظيمة نحو الذين كانوا بالداخل، وكان يخشى أنهم يخططون لمؤامرة ضده، ولهذه الأسباب أرسلوا رهائن إليه، وقدموا عن طواعية القلعة إلى الرومان، لكن بعض الخوف استولى على الرجل فجأة، مما دفعه إلى الانسحاب لعذر أو آخر، حتى ان الذين كانوا في المدينة باتوا يخشون أنه عندما سيتولى قلج أرسلان على المدينة، بسبب تأخر الرومان وتقاعسهم الطويل، سيصبحون في وضع يكرهون فيه بشكل دائم سيدهم المستقبلي، وقاموا، بدون معرفة من حاكمهم، بالتخلي عن المدينة إلى الأتراك، وانطلق ميخائيل من هناك وعاد إلى الأراضي الرومانية، دون أن يتذكر الرومان، الذين —كما قلنا— كانوا في القلعة، أو يتذكر سواهم من الآخرين.

وانتهت على هذه الصورة الأعمال في المصيصة، وعندما علم الامبراطور —الذي كان مايزال مقيماً حول دوريليون— بما حدث، بعث بالخصي توماس إلى قلج أرسلان، وقد ضغط عليه بطلبه إعادة المصيصة، واتهمه بإهمال أيمانه، وهدده أنه إذا لم يتوقف عن إلحاق الأذى بهذه الطريقة بالرومان، لسوف يعاني بعد وقت ليس بالطويل من انتقام عادل، لكن من كان توماس هذا، إن هذا ما سأوضحه فيما يلي:

لقد ولد في جزيرة ليسبوس Lesbos ، وجاء من أسرة مغمورة، وبالنظر إلى أن لديه صنعة جديرة بالتقدير، فقد ذهب إلى بيزنطة، وأخذ يمارس صنعة قطع عروق الناس [حجام]، وبذلك كسب نفقات معيشته، ولكن يبدو أن مامن شيء على الاطلاق لن يكون مفيداً عندما يكون الحظ مواتياً، فصحيح أن توماس مارس أدنى الحرف مكانة، لكن ببراعته أصبح عظيماً مثل أي رجل آخر في البلاط الامبراطوري، وبعدما حصل على مبلغ كبير من المال في وقت قصير، غادر بعد مضي

عـدة سنوات هـارباً إلى فلسطين مـع أموالـه، لكن بما أن الأمـور لم تمض هناك بما يتـوافق مـع رغباتـه، عاد ثـانية إلى الامبراطـور. إنما بعدمـا لاقى العطف منه والرعـاية، برهن فيما بعد أنه غير مُـرض، ولهذا ألقي بالسجن في القصر، وهو السجـن الذي يعرف بـاسم الفيلي [أي العاجـي]، وهناك أمضى بقية حيـاته، لكن هذا حـدث له فيما بعد، المهم أنـه ذهب آنذاك إلى السلطـان —كما قلنا—، وبما أنـه لم يمتلك الـرغبـة في تنفيذ أي مـن هذه الأشياء التـي جاء من أجلها، فقـد عاد فارغ اليديـن إلى الامبراطور، وكاد في ذلك الوقت أن يتمكن الأتراك الـذين تربصوا له على الطريق أن يقتلوه(٥).

٣- وتمكن الامبراطـور في مدة أربعين يوماً مـن تشييد المدينة، وبعـدما أحـاطهـا بخندق أسكـن فيهـا كثيراً مـن الرومـان، وتـرك حـامية كـافيـة لحمايتها، غادرهـا وعسكر في منطقة حول ريندا كوس، وبعـد توقف قصير هناك، قـاد جيشه وتقدم نحـو الأمام، وعندمـا لاحظ أن عدداً قليـلاً بقي برفقتـه (لأن الجزء الأعظم من الوحـدات العسكرية قد ذهـب إلى بلاده، دون أن يعلم بذلـك، مع أنه كان من قبـل قد أعطى أوامر مـؤكدة بعدم مغادرة أي واحـد من ذلك الجيش) أرسـل رجلاً اسمه ميخائيـل، وكان من أصل بربـري (في الحقيقة كان اسمه السالف اسحـق)(٦) من الذين خدموا في حـواشي بيته، أرسله لإنزال عقـوبات جسدية ببعـض الفارين من الجنـد، وقام الامبراطور شخصياً بـالمرور خلال السهول التـي تقود إلى لامب Lampe [في فريجيـا](٧)، وأعاد بناء إحدى القـلاع (وكان اسمها سـوبلايـون Soublaion)(٨)، وقد أقيمـت في مكان حـول ينابيع ميانـدر، وكانت قـد سقطت بفعل الأيام، ومـن هناك شرع الامبراطور بالاشتباك مع الأعداء، لكن ليـس بالطريقة التي اعتادها، بل ثار واندفع بشكل لايقاوم مثل النار أو الماء.

وبينما الامبراطور مشغـول بهذه الأعمال، كان ميخـائيل المذكـور أعلاه،

يحمل حقداً دفيناً ضد الرومان منذ زمن طويل مضى، لذلك اتخذ غضب الامبراطور عذراً له، فكان يمدّ على الأرض كل من التقاه، ويجعله ينكب على وجهه، ثم يقوم بدون استجواب بغرس الحديد في عينيه، ويتركه هناك تعيساً، لايفقه حتى لماذا أنزل به البلاء، وكان بعض الذين ابتلوا في بعض الأحيان ليسوا حتى أعضاء في الجيش، بل فلاحين، أو عاملين بالتجارة أو أنواع أخرى من الناس، وقد انتقل إلى أماكن أخرى، وشوه أجساد أعداد كبيرة من الرجال، واستمر هذا حتى علم الامبراطور بالذي كان يحدث (لأنه كان قد أكمل بنجاح الأعمال بالحصن، وعاد إلى بيزنطة) فأوقفه وأوقف أعمال انتقامه، لابل أكثر من ذلك كاد أن يتعرض إلى نوع الجزاء نفسه، لكن الامبراطور قدّر أنه لن يتجرأ ثانية على إنزال مثل هذه الأشياء ثانية بالرومان، لذلك عفا عنه، وحرره من التهم الموجهة إليه، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل على هذا، حتى تناولته العدالة، وأزالته من بين الجنس البشري، وأنزلت بأولاده سوء المصير.

ثم استدعى الامبراطور ميخائيل غابراس للمحاكمة، وعندما أدانه (لأنه رسم أنه من الممكن انزال عقوبات به وفقاً لارادته) وضع الأغلال في قدميه مع الحديد، وألقاه لبعض الوقت في واحد من سجون القصر، لكنه استدعاه بعد ذلك وأعاد إليه اعتباره ثانية مع رتبته السالفة.

وعندما علم قلج أرسلان بهجوم الامبراطور (لأن ماحدث حول دوريليون أثر بشكل حاد على معنوياته) أرسل إلى بيزنطة واحداً من ذوي النفوذ العظيم في بلاطه وكان اسمه غفراس(٩)، ليتقدم بالرجاء إلى الامبراطور علّه يرضى بأخذ أي من القلاع تبدو مرضية له، ومن ثم يقلع عن غضبه عليه [السلطان]، ومهما يكن من أمر، رفض الامبراطور هذه الرسالة، وأعاد غفراس، وحشد عساكر كثيرة جداً من الصرب والهنغار، واستعد بكل عناية للحرب، وخشية منه أن يحتاج الجند والخيول إلى ضروريات الحياة، جرى سوق عدد من الثيران من القرى في تراقية، وكان

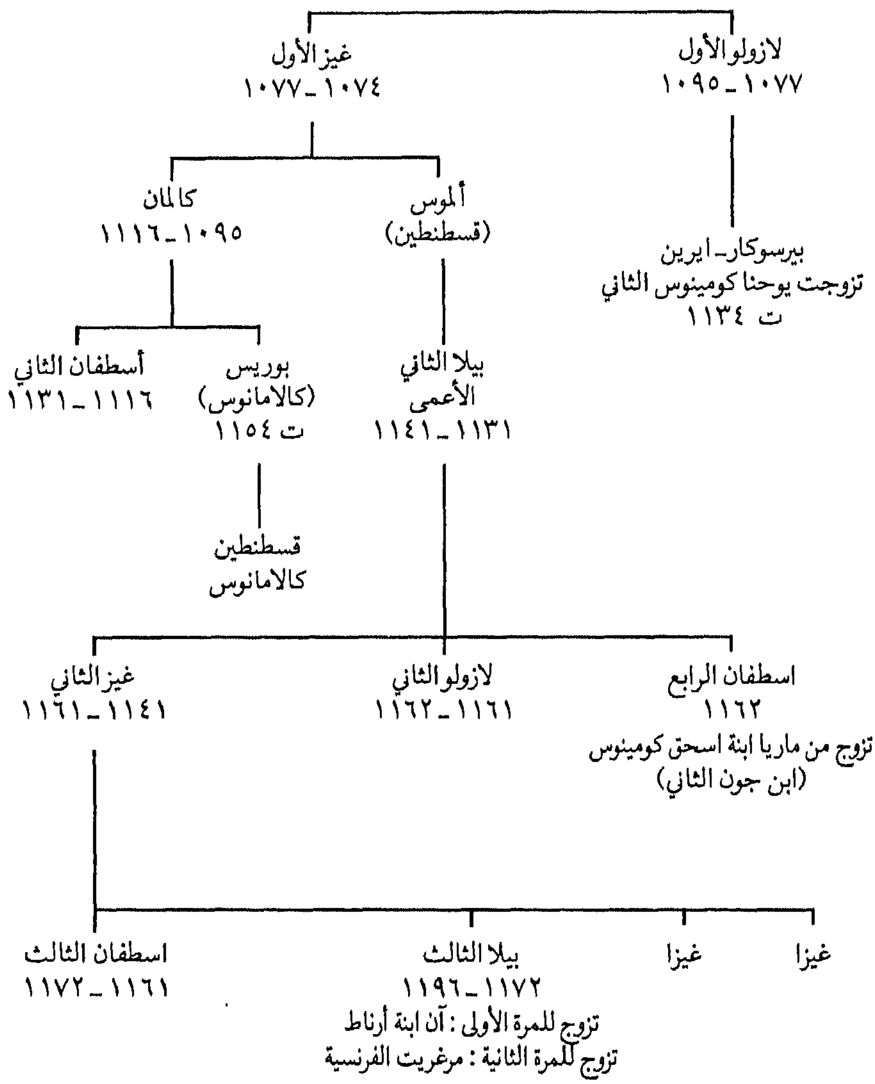
هناك مايزيد على ثلاثة آلاف عربة.

وعندما ظهر ربيع [١١٧٦] جاز إلى آسيا، وحسبما جرت العادة حشد عساكره عند ريندادكوس Rhyndakos ولم يصل الحلفاء من الهنغار والصرب —الذين كانوا رعايا للرومان— في اللحظة المناسبة، مما سبب قيامه بالحملة في موسم الصيف، ولذلك السبب بالذات واجهت أموره الدمار: ففي الأمور العسكرية والنشاطات الحربية، التوقيت هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهكذا سار الامبراطور خلال لوديكيا والمناطق المجاورة لميانذر، واضعاً بذهنه العسكرة والاستقرار مع القوات جميعها من أجل حصار قونية، وبما أن نو—قيسارية كانت تسعى للانضمام إليه، فقد بعث بابن أخته أندرونيكوس باتاتزس Batatzes إليها مع جيش، على أن يرتحل من خلال مناطق بافلاغونيا، وكان مانويل قد قام قبل مغادرته بيزنطة بارسال أسطول قوامه مائة وخمسين سفينة إلى مصر، وذلك بالوقت الذي كان ذاهباً به مع القوات جميعها للحرب ضد قلج أرسلان(١٠)، ولهذا السبب افتقر إلى مايكفي من قوات [للحملة] ضد مصر...

[انقطع النص هنا، فخلال زحفه نحو قونية، انهزم مانويل في ١٧-أيلول ١١٧٦ هزيمة ساحقة، وسحق جيشه إلى أبعد الحدود في معركة ميريوكيفالون Myriokephalon . ثم كان أن توفي عام١١٨٠].

الملحق الأول

شجرة نسب ملوك هنغاريا



NOTES TO BOOK VII

8. Ibid., 221–27 (esp. 224): Soublaion allegedly derives from ancient Siblianoi, and is also called by the Byzantines Choma (Nicetas, *Hist.*, 231), hence is equivalent to modern Homa, northwest of Dinar.

9. Bryer, "Gabrades," 180 (No. 9).

10. Chalandon, II, 504–07, 550. No Byzantine attack was made on Egypt at this time; the attack on Nea Kaisareia by Andronicus Batatzes and the Dānishmendid Dhū-n-Nūn failed, because of disagreement of the two commanders, and Batatzes was slain. On the route Manuel followed in 1176, and the location of Myriokephalon, see W. M. Ramsay, "Preliminary Report to the Wilson Trustees on Exploration in Phrygia and Lycaonia," *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, ed. W. M. Ramsay (Aberdeen, 1906), 235–38.

36. Jireček, *Serben*, I, 261–62.

37. The ruler of Ankyra and Galatia at this time was probably Shāhan-Shāh, restored by pressure of Nūr-ad-Dīn on Kilidj Arslan. The latter was compelled to yield to Nūr-ad-Dīn in 1173, and restore the Dānishmendid heir to Sebasteia/Sivas. The alliance was destroyed by the deaths of Nūr-ad-Dīn and Mleh in 1174, which left Kilidj Arslan free to expand his realm at the expense of lesser princes: Chalandon, II, 494–98, 501; Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 527; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678–79.

38. Chalandon, II, 597; Lamma, *Comneni e Staufer*, II, 244–53; Paolo Lamma, *Oriente e occidente nell' alto medioevo*, Medioevo e umanesimo, 5 (Padua, 1968), 383–94; Peter Schreiner, "Der Dux von Dalmatien und die Belagerung Anconas im Jahre 1173. Zur Italien- und Balkanpolitik Manuels I.," *Byzantion*, 41 (1971), 285–311 (includes German translations of this passage and of Nicetas' account of the siege).

39. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 339.

40. At the death of Nūr-ad-Dīn, 1174, Shāhan-Shāh and the Dānishmendid heir, Dhū-n-Nūn, fled to Manuel: Chalandon, II, 498.

41. Baldwin, "Latin States," 561.

42. The *a secretis* were notaries; the *protoasecretis*, probably referred to here, was director of the imperial chancery: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 167.

BOOK VII

1. Late 1174 or early 1175: Chalandon, II, 502.

2. Nicol, *Kantakouzenos*, 4–5 (Nos. 2 and 3).

3. Ramsay, *Historical Geography*, 212–213 (he considers the fish inedible); Vryonis, *Asia Minor*, 123, 153 (with a translation of this passage). The caesar in question must have been Nicephorus Melissenos, who received his title at the outset of Alexius I's reign. P. Wirth, "Kaiser Manuel I. Komnenos und die Ostgrenze. Rückeroberung und Wiederaufbau der Festung Dorylaion," *Byzantinische Zeitschrift*, 55 (1962), 21–29, compares the accounts of Kinnamos, Nicetas, Eustathius (in an unpublished oration), and Euthymius Malakes on this event.

4. Chalandon, II, 502–03, suggests that partisans of Shāhan-Shāh held the town, and that the latter had been sent from Dorylaion to join the Byzantine expedition.

5. Ibid., 502–04.

6. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

7. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 227–28: the plains are between the upper Büyükmenderes and the Acigöl; the modern place-name Lappa, mentioned by Ramsay, is no longer found on maps.

NOTES TO BOOK VI

24. Perhaps Tinnis, a mistake for Pelusium (modern al-Faramā'), captured at this time.

25. While this account makes numerous factual errors and distortions, it vividly reflects the hostility which sprang up between the Palestinian and Byzantine commanders during this expedition: Chalandon, II, 536–45; Baldwin, "Latin States," 556–58.

26. Chalandon, II, 546–50; Baldwin, "Latin States," 558–60.

27. Libanius, *Or.* XI, 38 (ed. R. Foerster, I, 449). Except in the northern Adriatic, tides are unknown in the Mediterranean and, evidently, were unfamiliar to Kinnamos.

28. Horatio F. Brown, "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *Journal of Hellenic Studies*, 40 (1920), 75, says, "An *Embolum*, it seems, was a place where merchants stored and sold their goods and generally transacted business. . . . It was a building with an open loggia running round it and was of the nature of an Exchange-house rather than of a bazaar. But the word *Embolum* soon acquired a secondary and wider meaning and came to be applied to the whole quarter; '*in Embolo Peramatis*' means in the quarter and district of the Ferry. We find the word *Embolani* signifying the Pisans dwelling in the Pisan Quarter."

29. Chalandon, II, 156–58.

30. The text of this sentence is corrupt; the translation is based on the suggestions in the editor's notes.

31. Chalandon, II, 582, 584–91; H. Kretschmayr, *Geschichte von Venedig*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. 1, No. 35, Vol. I (Gotha, 1905; repr. Aalen, 1964), 254–62. The "second blow" was perhaps the Venetians' defeat at Ancona (Kinnamos, 289).

32. In 1173, Mleh seized Tarsus, Adana, and Mopsuestia from the Byzantines, and captured Constantine Kalamanos, then in his second term as governor: Chalandon, II, 526, n. 2, 531–33; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 642–43. Mleh was murdered by his soldiers in 1174.

33. Chalandon, II, 596.

34. Stephen Nemanja had been grand župan since 1168, and eagerly attacked Byzantine Dalmatia: Jireček, *Serben*, I, 258–61.

35. The real reason for the termination of Béla's engagement to Maria Porphyrogenita was the birth of Manuel's son, who was proclaimed co-emperor in 1172. Béla's bride was Anne, daughter of Reginald of Châtillon, and thus half-sister to the empress. A Byzantine army assisted Béla III to obtain his throne: Chalandon, II, 491–92.

NOTES TO BOOK VI

12. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

13. Janin, *Constantinople byzantine*, 443: Aphameia or Apameia, a village with an imperial villa, northwest of Hebdomon and north of San Stefano/Yesilkoi, perhaps modern Bosnaviran.

14. Ibid., 496: Samandira and adjacent Alemdaği, ca. 16 miles east of Üsküdar.

15. Polemis, *Doukai*, 192–93 (No. 226): Constantine Doukas or Makrodoukas, who later figured prominently in the reign of Andronicus I.

16. Chalandon, II, 219–20; Nicetas, *Hist.*, 187–88, maintains that the accusation against the protostrator was false, the work of hostile courtiers. He names Isaac Aaron as his chief opponent.

17. According to Babos, *Adalékok*, 13, MS *Vat. gr.* 163 leaves a short gap here; the editor, Meineke, suggests that the name of John Kontostephanos (see below) has dropped out of the text.

18. This battle occurred on 8 July 1167: Chalandon, II, 488–90; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 85–89.

19. Janin, *Constantinople byzantine*, 215, 465, is unable to offer an exact identification, but suggests the vicinity of Eyüp. Eustathius of Thessalonica addressed an oration to Manuel on the water shortage in Constantinople, ed. W. Regel, *Fontes* (see Introduction, n. 43, above), I, 126–31; the editor (xvi–xvii) dates the shortage to the winter of 1168 and Manuel's construction to 1169, but on what grounds are unclear. The oration was definitely prior to 1174, when Eustathius was appointed to the see of Myra.

20. Chalandon, II, 611–12; Franz Dölger, *Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565–1453*, Corpus der griechischen Urkunden des Mittelalters und der neueren Zeit, Reihe A, Abt. I, Teil 2 (Munich, 1925), No. 1476 (dated shortly after 8 July 1167, solely on the basis of its position in the text of Kinnamos; Kinnamos, however, is here giving a non-chronological review of some important civil acts of the emperor); A. P. Kazhdan, "Odin netochno istolkovannyĭ passazh v 'Istorii' Ioanna Kinnama," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, 7 (1969), 469–73.

21. J. and P. Zepos, ed., *Jus graecoromanum*, I (Athens, 1931), 381–85; Dölger, *Regesten*, No. 1419; N. Svoronos, "Les Privilèges de l'Eglise à l'époque des Comnènes: Un Rescrit inédit de Manuel Ier Comnène," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 1 (1965), 330–33 (No. 4 of his series), 375–76.

22. Zepos, *Jus*, I, 397–402; Dölger, *Regesten*, No. 1466.

23. Chalandon, II, 204 and n. 2; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 662; Janin, *Les Eglises et les monastères*, 530.

the walls of Zeugminon/Zemun. On the other hand, the discontinuity may be the result of the author's haste, evident in this rather disordered section of his history.

47. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

48. Polemis, *Doukai*, 190 (No. 220), as a "Doukas of unknown family background." He suggests he may be Andronicus Doukas Angelus, father of Isaac II and Alexius III (p. 86, his No. 39), but this person would in 1165 have been rather elderly to be behaving in so impetuous a fashion.

49. See Kinnamos, 107.

50. Chalandon, II, 484–85.

BOOK VI

1. Chalandon, II, 221, 526, n. 2, 529–30.

2. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 228 and n. 4.

3. John 14:28.

4. Euthymius Malakes, metropolitan of Neai Patrai, was a prominent theologian and author of the second half of the century; see his writings, *Τὰ σωζόμενα*, ed. Konstantinos G. Mpones [Bonis], 2 vols. (Athens, 1937–49).

5. The synodal decision came in 1166: Jean Gouillard, ed. and trans., "Le Synodikon de l'Orthodoxie," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 2 (1967), 75–77; Chalandon, II, 564, 644–51; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 58, 622–23; the inscribed stones from Hagia Sophia have been recovered: C. Mango, "The Conciliar Edict of 1166," *Dumbarton Oaks Papers*, 17 (1963), 315–30.

6. Alexius II (emperor, 1180–83) was born 14 September 1169: Peter Wirth, "Wann wurde Kaiser Alexios II. Komnenos geboren?" *Byzantinische Zeitschrift*, 49 (1956), 65–67.

7. This revival of the debate, and the condemnation of John (Constantine) of Kerkyra and Eirenikos, occurred in 1169–71, under Patriarch Michael of Anchialos (1169–77): Gouillard, "Synodikon," 77–81; Chalandon, II, 651–52; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623, 627.

8. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 118.

9. Chalandon, II, 486–87.

10. Ibid., 487; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 83–85. These campaigns are analyzed in Năsturel, "Valaques" (see above, Book III, n. 8), 177–86.

11. I.e., accept Manuel as emperor. The year 1166 marked the peak of Manuel's negotiations for the western throne (see Kinnamos, 218–20); one of the causes of their collapse was, as Kinnamos notes below, Manuel's refusal to reside in Rome.

NOTES TO BOOK V

32. Probably a reference to Alexander III's flight from Rome to France, 1162; even in 1167, Frederick was able to occupy only the Leonine section of the city.

33. Ottaviano, anti-pope as Victor IV, 1159–64; Alexander III was pope from 1159 to 1181. On this conflict and on Manuel's role in the subvention of the Lombard League, see Chalandon, II, 572; Balzani, "Barbarossa and the Lombard League," 430–47.

34. Guardian and doorkeeper of the palace: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 355.

35. Rostislav I Mstislavič, grand prince of Kiev, 1158–67; Primislav or Pervoslav is unidentified, but perhaps was prince of Volynia: Chalandon, II, 482; Vernadsky, *Kievan Russia* (see above, Book III, n. 27), 219–20.

36. This would seem to be a scribal error for Iaroslav.

37. This appears to be an accidental repetition of the previous reference to Rostislav; Kinnamos is not very well-informed on Russian affairs. The MS gives "Kiama" as the name of the city, but this is considered to be an error by Kinnamos or the scribe for "Kioba," i.e., Kiev.

38. Henry Jasomirgott, who was from 1156 duke of Austria; he had married Manuel's niece Theodora (daughter of Manuel's brother Andronicus) in 1148, at the time of Conrad III's residence in Constantinople during the Second Crusade.

39. Vladislav is unidentified; George might be George (or Iuri) Dolgoruky, prince of Suzdal and grand prince of Kiev, 1155–57: Chalandon, II, 482, n. 4.

40. Theodora, daughter of Manuel's brother Isaac.

41. After the capture of Reginald of Châtillon (1160), the people of Antioch had turned to Baldwin III, who assumed guardianship of the principality. In 1163, after Baldwin's death, the populace, with aid from Ṭoros of Armenia, drove out Constance and established her son (by Raymond of Poitiers), Bohemond III, as prince. Amalric I's embassy to Manuel is thought to have occurred soon after his accession, but only in 1167 did Maria, daughter of John Comnenus the protosebastos, wed him: Baldwin, "Latin States," 546–47, 554.

42. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 141.

43. Chalandon, II, 483.

44. Probably Kama, east of Branitshevo.

45. Probably across the Sava: note that Manuel proceeds to attack Zeugminon/Zemun, on the south bank of the Danube. Since "all Sirmion" (i.e., the territory between the Sava and the Danube) was in Hungarian hands, this would equally be a crossing into hostile country, yet the enemy forces would be effectively divided by the Danube: Chalandon, II, 484.

46. Tentatively, I would here suggest a lacuna of a sentence or two in the text; Manuel is seen in one sentence with an injured leg, then, in the next, attacking

NOTES TO BOOK V

Bohemond. Ṭoros of Armenia was also a member of the defeated coalition: Der Nersessian, "Cilician Armenia," 641.

20. On the locality, and the geographic difficulties posed by Kinnamos' reference to a crossing of the Sava (rather than of the Danube), see Chalandon, II, 477 and n. 2. The text, however, says that Manuel sat down opposite Titel; this could have meant on the south bank of the Danube, opposite the mouth of the Tisa (or Tisza); Titel is only a few miles upstream. The emperor's next stopping place, Petrikion, may be Petrovaradin, on the south bank of the Danube opposite Novi Sad; therafter, he reached Bač, north of the river; the three sites show a generally northwestward line of march. This agrees with Kinnamos, 221, who puts the crossing of the Danube in the subsequent part of the campaign.

21. Kinnamos, 68–69.

22. Frederick Barbarossa himself had balked at the requirement of serving as squire to the pope, but had had to yield to precedents: Ugo Balzani, "Frederick Barbarossa and the Lombard League," *The Cambridge Medieval History*, V (Cambridge, Eng., 1929), 419–20.

23. The allusion is somewhat mysterious, perhaps a reference to previous papal obedience to decrees of the Byzantine emperor ("someone else").

24. This tirade was inspired by Pope Alexander III's prolonged dispute with Frederick Barbarossa, during the course of which the pope at least discussed (in 1166) accepting Manuel as the single emperor of a united Roman Empire: Chalandon, II, 558–67. Eventually, after his defeat by the Lombard League, Frederick was reconciled with Alexander. On the political philosophy expressed in this passage, see Chalandon, II, 556–57.

25. Perhaps at Novi Sad.

26. On this Orthodox population, mentioned here and on Kinnamos, 221, see N. Oikonomides, "A propos des relations ecclésiastiques entre Byzance et la Hongrie au XI[e] siècle: Le Métropolite de Turquie," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, n.s., 9 (1971), 530.

27. See above, Book II, n. 9.

28. See above, Book II, n. 65.

29. On this campaign and negotiations, see Chalandon, II, 476–80, who gives some credit to Kinnamos' story of Manuel's relations with Vladislav II.

30. Bryer, "Gabrades" (cited above, Book II, n. 37), 180 (No. 7). He was married to Eudokia, daughter of Manuel's brother Andronicus: Chalandon, II, 480–81.

31. Chalandon, II, 526, n. 2 (for the chronology), 528–29; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

NOTES TO BOOK V

6. Kilidj Arslan II, 1155–92. On this visit, see Chalandon, II, 462–66; Vryonis, *Asia Minor*, 122; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678.

7. Patriarch Loukas Chrysoberges, 1157–70.

8. The reference is to the Byzantine disaster in 1176, at Myriokephalon. The earthquake mentioned in this section is not included in the lists by Grumel, *Chronologie*, 480, or Glanville Downy, "Earthquakes at Constantinople and Vicinity, A.D. 342–1454," *Speculum*, 30 (1955), 600.

9. Again, the reference is to Blachernai Palace: see Book II, n. 61.

10. Chalandon, II, 517, renders this as Excubitor, chief of the interpreters.

11. Matth. 22:8.

12. The girl in question was Melisend, sister of Raymond III, count of Tripoli. The tale told by Kinnamos is a fiction: neither miraculous diseases nor (groundless) allegations of illegitimacy prevented the marriage. Rather, negotiations were prolonged for a year (1160–61) by Manuel, then broken off by him, because a more favorable match seemed possible in Antioch: Chalandon, II, 517–21; Baldwin, "Latin States," 546.

13. Chief official of the city of Constantinople: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 186–92.

14. Chalandon, II, 520–24; Baldwin, "Latin States," 546–47.

15. Chalandon, II, 392–93 (who, however, errs in identifying Desa with Stephen Nemanja, and also in dating the event 1163: see 475, where Manuel's campaign is dated 1162); Jireček, *Serben*, 252; Grumel, *Chronologie*, 390; Radojčić, "Vazalnikh," 347–54.

16. Chalandon, II, 474–76; the territory ceded as Béla's inheritance was "Sirmion" (i.e., the region between the Sava and the Danube) and Dalmatia: 475 and n. 3. On the title of Despotes, see Ostrogorsky, "Urum-Despotes," 448–60.

17. Joscelin II of Edessa was captive 1150–59, and died in captivity: Baldwin, "Latin States," 533; Robert Lawrence Nicholson, *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States* (Leiden, 1973), 21.

18. Chalandon, II, 525, n. 2, says he was called this because his father had also been titled Kalamanos.

19. Hamilton A. R. Gibb, "The Career of Nūr-ad-Dīn," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 524; Baldwin, "Latin States," 551; Chalandon, II, 524–25; Nicholson, *Joscelyn III*, 33. Reginald of Châtillon, regent of Antioch, had been captured by Nūr-ad-Dīn in 1160 (Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 523; Baldwin, "Latin States," 546); the captives in 1164 included Bohemond III, prince of Antioch; Raymond III, count of Tripoli; Joscelin III, titular count of Edessa; and Hugh of Lusignan, as well as Kalamanos. Kinnamos has confused Reginald and

and 300. On these attacks, see Chalandon, II, 460–61; Vryonis, *Asia Minor*, 122, 189.

55. Evidently descendants or followers of Kogh Vasil, an Armenian who ruled Kesoun/Keysun (east of Marash/Maraş) at the time of the First Crusade. Kesoun formed part of the County of Edessa; in 1150, after the loss of its capital, the remnants of that county were ceded to Manuel Comnenus (Baldwin, "Latin States," 533–34). Possibly some of the Armenian inhabitants, using their former leader's name, remained in Byzantine service.

56. Chalandon, II, 459–60.

57. Kallipolis or Gallipoli, modern Gelibolu.

BOOK V

1. Kinnamos has here erred in his chronology: she died in early 1160, perhaps while Manuel was staying at Rhitzion (Kinnamos, 194): Chalandon, II, 211–12, 459. Part of John Kontostephanos' mission to Palestine, 1160–61, was to seek a bride for Manuel: Kinnamos, 199; Chalandon, II, 459, 517–19.

2. 31 May 1161. On this stage in Manuel's lengthy intervention in Hungarian affairs, see Chalandon, II, 469–73. For the genealogy and dates of the various rulers who follow, see Appendix I. The dating of these events is disputed; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 82–83 and appended genealogy, gives the reign of Géza II as 1141–62, László II as 1162–63, István IV as 1163, and István III as 1162–72. Chalandon gives the dates a year earlier, basing his data largely on western chroniclers.

3. According to Chalandon, II, 469–73, László II ruled 1161–62. On "Urum," "My Lord," see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 238; G. Ostrogorsky, "Urum-Despotes: Die Anfänge der Despoteswürde in Byzanz," *Byzantinische Zeitschrift*, 44 (1951), 448–60; repr. in his *Zur byzantinischen Geschichte*, 153–65.

4. Grumel, *Chronologie*, 390, believes Primislav (or Prvoslav) is another name for Uroš II; see Kinnamos, 113, on his earlier restoration by Manuel's decision.

5. Borislav Radojčić, "La Region de la Dendra de la Serbie au XII[e] siècle," *Balkan Studies*, 11 (1970), 249–60, is able to show that Dendra was Serbian territory, granted to Desa in 1155 by Manuel's judgment regarding the županate of Serbia, between Uroš II and Desa; he is, however, unable to give any more exact identification of the region than Kinnamos' expression here. Desa ruled ca. 1161–65. See Chalandon, II, 391–92 (but the identity of Desa and Stephen Nemanja, there asserted, is not generally accepted); Jireček, *Serben*, I, 250–52; Borislav Radojčić, "Prilog proučavanju vazalnikh odnosa Srbije prema Vizantiji pedesetikh i šezdecetikh godina XII veka," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 2 (1964), 347–54.

NOTES TO BOOK IV

42. Bertram of Toulouse, grandson of Raymond of Saint-Gilles, had been captured in 1149: Baldwin, "Latin States," 532, 545.

43. Bertrand of Blancfort, master of the Templars, had been captured in 1157: Baldwin, 539, 545.

44. Ramsay, *Historical Geography*, 382n. In 1158 Manuel had followed the coast from Attaleia/Antalya in Pamphylia; in 1159, he chose to return from Cilicia through the center of the plateau, by way of Laranda/Karaman and Kotiaion/Kütahya, a route which could have taken him near Ikonion.

45. On this campaign of 1158–59, see Chalandon, II, 435–56; Baldwin, "Latin States," 543–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

46. Chalandon, II, 457–59.

47. See Kinnamos, 63.

48. Augouste was perhaps an imperial estate on the Astakenos Gulf; Rhitzion was probably near Chalcedon: Ramsay, *Historical Geography*, 185–86. Possibly Manuel stayed near Constantinople, but did not enter it. He then turned south to Philadelphia/Alaşehir.

49. Dubious word.

50. Alternate translation, equally possible: "Reaching a certain village, Sarapata, called by the natives Mylonos. . . ." In the opinion of Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 1, and 341; Pt. 2, pp. 598, n. 4, 679, and 696, the name is Turkish-Greek, Mylonos or Mylon perhaps the original Greek name, Sarapata representing "Hissar-Abad," "Place-of-the-Castle." He suggests modern Sandikli (on the Glaukos/Kufi River, a northern tributary of the Maeander). The area was clearly in Turkish hands: Vryonis, *Asia Minor*, 122, 190.

51. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285.

52. Abu-Bakr: ibid., 256–57; see Kinnamos, 48, 50.

53. At first glance, the "oft-mentioned John" would seem to be John Comnenus the protosebastos, but he was a nephew of the emperor, not a relative-in-law (*gambros*): see L. Stiernon, "Notes de titulature et de prosopographie byzantines: Sébaste et gambros," *Revue des Etudes Byzantines*, 23 (1965), 222–43, esp. 223. Probably this is John Doukas, former Byzantine commander in Italy and future great heteriarch; he is identified in very similar language by Kinnamos, 260, line 24. This possible date in his career is not mentioned by Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas." John Doukas is not elsewhere called a *gambros* of the emperor, and some other individual might be meant.

54. For Phileta as a late-Byzantine name of Phaselis (near modern Tekirova), on the Lycian coast southwest of Attaleia/Antalya, see Ramsay, *Historical Geography*, table facing p. 424; Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 2,

NOTES TO BOOK IV

26. Chalandon, II, 232–33; on Kinnamos' misconception of the location of Blachernai, see above, Book II, n. 61.

27. Perhaps Simon, illegitimate son of Roger II: Chalandon, *Domination normonde*, II, 307.

28. Kilidj Arslan II, 1155–92.

29. Unknown locations, apparently in Cilicia, south of Laranda/Karaman: Ramsay, *Historical Geography*, 369, 450.

30. Chalandon, II, 434–35. Oinaion/Ünye is on the Black Sea coast; Pauraë/Bafra is on the lower Halys/Kizil.

31. According to Chalandon, II, 640–41, the text is from the liturgy of Saints Basil and John Chrysostom: "You are He Who offers and Who is offered and Who receives."

32. Chalandon, II, 640–43; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623–24.

33. Chalandon, II, 437–39; Baldwin, "Latin States," 539–41, 559–60.

34. Apparently the region of Laodikeia/Denizli: Ramsay, *Historical Geography*, 150–53, 382.

35. Kistramos and Longinias are unknown (Ramsay, *Historical Geography*, 348, 380, 382), but Anazarbos is 'Ain Zarbâ or Andvorza, an abandoned fortress sixteen miles south of Sis/Kozan. Tili or Til is modern Toprakkale, Arabic Tall-Hamdūn, on the Adana-Alexandretta railway line, just west of the pass between Cilicia and the plain of Alexandretta: J. Gottwald, "Die Burg Til im südöstlichen Kilikien," *Byzantinische Zeitschrift*, 40 (1940), 89–104 (esp. 96–97). Kinnamos seems to have disordered events slightly: the capture of Anazarbos and Tili probably followed that of Tarsus. On this campaign, see Chalandon, II, 441–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41; Baldwin, "Latin States," 543.

36. Probably John Comnenus and other captives taken in Cyprus and the Cilician wars.

37. On Reginald and Aimery of Limoges (Latin patriarch of Antioch, ca. 1139–96), see Cahen, *Syrie du nord*, 505–06; Baldwin, "Latin States," 540; Chalandon, II, 443.

38. Presumably Muḥammad (II), the Great Selchükid sultan of Persia, 1153–59: C. E. Bosworth, "The Political and Dynastic History of the Iranian World (A.D. 1000–1217)," *The Cambridge History of Iran*, V (Cambridge, Eng., 1968), 175–76.

39. The text here is corrupt; I have read παρά for περί.

40. Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148.

41. By an error of the editor the number "21" has been repeated for chapters commencing on pp. 186 and 188.

NOTES TO BOOK IV

12. On this relief force, see Chalandon, II, 363; Chalandon, *Domination normande*, II, 215–16, but by a slip he makes the Germanoi of the text into Germans instead of French. This John Angelus is probably John Doukas Angelus, son of Constantine Angelus and Manuel's aunt Theodora, but this expedition is not cited in the note on him by Polemis, *Doukai*, 87–88 (No. 40). This appearance of John, with the name Angelus, repeated in Kinnamos, 162 and 238, is omitted in his survey of references to John by Lucien Stiernon, "Les Origines du Despotat d'Epire: A propos d'un livre récent," *Revue des Etudes Byzantines*, 17 (1959), 102–17, who is thus able to write: "Nulle part JEAN, *fils* de Constantin Ange . . . ne porte le patronyme d'Ange ou de Comnène, mais celui de DOUKAS . . ." (p. 114). While the references by Kinnamos do not specify his relationship to the emperor, I know of no other John Angelus in this period, and Manuel's proclivity for using his relatives as army commanders is well known. Kinnamos doubtless calls him "Angelus" to distinguish him from the John Doukas who was commanding land forces in Italy.

13. Tonsured as a monk, the normal preparation for death.

14. The name given in the text is Polymilion; Chalandon, *Domination normande*, II, 217, identifies this as Polignano (on the east coast between Bari and Monopoli). But the village of Palagiano is close to Massafra and Mottola, the scene of Byzantine operations. Also, the fact that the Norman garrison of "Polymilion" fled to Taranto (not Monopoli or Brindisi, both still in Norman hands) suggests Palagiano, scarcely ten miles from Taranto.

15. This is a paraphrase of Procopius, *De bello gothico*, IV, 1, 11 (ed. Haury, II, 489), as Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 96, pointed out.

16. Probably a Latin from the principality of Antioch, a mercenary in Byzantine service.

17. Archilochus, Frag. 55 (Diehl).

18. Probably Alezio, between Otranto and Gallipoli.

19. Keltoi in the text: see Kinnamos, 67 and 167. The bulk of the Byzantine army consisted of Norman rebels and mercenaries, not troops sent from the empire.

20. He had done a like feat at Marathon: Herodotus, VI, 114.

21. Alexius Comnenus [Bryennios], son of Anna Comnena.

22. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 243.

23. Chalandon, *Domination normande*, II, 229.

24. Chalandon, *Domination normande*, II, 248–54; Chalandon, II, 377–81.

25. Chalandon, *Domination normande*, II, 250, thinks this an accurate account of events in Rome in the summer of 1157.

49. On Basil Tzykandeles Goudelios, see Kinnamos, 56, 72, 77.

50. Probably Géza II's *brother* Stephen, later István (Stephen) IV: Chalandon, II, 413, n. 1.

BOOK IV

1. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

2. On this sequence of embassies, and the offers made, see Chalandon, II, 343–50, esp. 344, n. 3, which examines the chronology in detail; Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 137–47.

3. On Michael Palaiologos, see Kinnamos, 70, 82. John Doukas is possibly John Doukas [Kamateros]: Polemis, *Doukai*, 127–30 (No. 99), but Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 262, considers this to be the future great heteriarch. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, see Book II, n. 48, above. See Chalandon, II, 349.

4. Robert II of Bassonville, Count of Loritello, son of Roger II's sister: Chalandon, II, 352, n. 5; Chalandon, *Domination normande*, II, 182–83. Under William I, 1154–66, Robert led the barons' opposition to the low-born chief minister, Maio or Maione of Bari.

5. This word has been added to the text by the editor.

6. Chalandon, II, 358, and Chalandon, *Domination normande*, II, 191, 204–10, dates the events narrated here and following (Kinnamos, 137–46) to late August–September 1155. See Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 149–231.

7. According to Chalandon, *Domination normande*, II, 205–06, possibly Fano, ancient Flavia Fanestris, north of Ancona. Doukas, however, was moving from Ancona to Apulia, and the now-ruined site of San Flaviano, adjacent to the present town of Giulianova, at the mouth of the Tordino River, between Ancona and Pescara, would better suit the text. According to [*Murray's*] *Handbook for Travellers in Southern Italy and Sicily*, 9th ed. (London, 1892), I, 234, San Flaviano owed its name to the body of a saint brought from Constantinople in the Middle Ages. Chalandon, II, 353, n. 4, was unable to locate this place in the directories available to him.

8. Chalandon, *Domination normande*, II, 206, believes the Byzantine force had now entered the Bassonville lands.

9. Ibid., 209.

10. Hadrian IV, 1154–59. Chalandon, *Domination normande*, II, 210–14; Chalandon, II, 358–62.

11. In the text, Masagetoi; see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 183, citing this passage.

NOTES TO BOOK III

39. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39; Chalandon, II, 426–28.

40. Chalandon, II, 408–09. Bitola in Yugoslavia is the modern center of the plain of Pelagonia. Chalandon II, 408–09, dates this incident to Manuel's 1153 stay at Pelagonia, but Kinnamos, a few lines further on, indicates that it was prior to Andronicus' first governorship in Cilicia (1152). Manuel was probably at Pelagonia in 1149 and 1150: Chalandon, II, 385, 387; see 408, n. 3, on the difficult chronology of this period.

41. Chalandon, II, 408–09; Babos, *Adalékok*, 9, gives an important correction to the text. Protosebastos was a rank in the court hierarchy (sebastokrators, protosebastoi, sebastoi, etc.), protovestiarios or chief chamberlain was an honorary position in the palace services. See Hohlweg, *Beiträge*, 34–40 (esp. 39–40).

42. Chalandon, II, 410; on the grand stratarches (an undefined, apparently honorary military title), see Hohlweg, *Beiträge*, 131.

43. This quarrel at Melangeia seemingly occurred during one of Manuel's early campaigns: he was at Melangeia in 1144 or 1145 (Kinnamos, 36), and passed close by (Pithekas) in 1146 (Kinnamos, 38). On the latter campaign, both his brother Isaac and his cousin Andronicus attended him (Kinnamos, 49, 61). Some names in the text have evidently suffered scribal corruption, and I have followed the emendations suggested by Chalandon, II, 215, n. 6. Polemis, *Doukai*, 113, n. 1, believes the John Doukas, cousin of the emperor, here mentioned, was John Doukas [Bryennios], son of Nicephorus Bryennios and Anna Comnena. But John Doukas [Kamateros] could equally well be meant, and John Doukas [Angelus] would also qualify. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 261, is unable to identify this person, but would reject John Doukas the future great heteriarch on grounds that he is not elsewhere called cousin of the emperor. John Doukas was presumably punished for raising his whip against a prince of the blood. Apparently out of pique, Isaac stole the seals. Andronicus was probably offended by the light penalty imposed on Isaac, and then infuriated by the favor showered on John Comnenus the protosebastos at Pelagonia. The incident is briefly discussed in Chalandon, II, 215.

44. This seems to have been Alexius Axouchos, son of the grand domestikos John Axouchos: see Kinnamos, 170, line 5, and Chalandon, II, 377–78.

45. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

46. The dates can only be approximate, but Andronicus was in prison nine years and fled to Russia in autumn 1164: Chalandon, II, 220–21, 410–11, 482, 483, n. 2.

47. Perhaps Svilajnac on the Morava: Chalandon, II, 412. On this campaign, see Chalandon, II, 411–13; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81–82.

48. Borić ruled from before 1154 to 1163.

seven individuals; she is not, however, ready to state which of Manuel's close r(atives this particular individual was.

25. Donald M. Nicol, *The Byzantine Family of Kantakouzenos (Cantacuzenu ca. 1100–1460: A Genealogical and Prosopographical Study*, Dumbarton Oa! Studies, XI (Washington, D.C., 1968), 4 (No. 2).

26. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 85. Bakchinos' identity is disputed: I was not the grand župan of Serbia proper (who was Pervoslav Uroš II), but prob: bly was the leader of the Hungarian contingent: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I 85; Chalandon, II, 390, n. 2; Jireček, *Serben, 248, n. 2.*

27. Just as Géza II and the Serbs were allied, so the Byzantines were linked (Vladimirko, prince of Galicia (1130–52): George Vernadsky, *Kievan Russia*, History of Russia, II (New Haven, 1948), 217–18; Chalandon, II, 402–05; C Vernadsky, "Relations byzantino-russes au XII^e siècle," *Byzantion*, 4 (1927/28 273–76. Géza had just defeated and made peace with Vladimirko: Chalandon, I 401–03.

28. Beloš or Bela was a son of Uroš I of Serbia (Rascia or Raška), and Géza II' maternal uncle: see above, n. 17, and Chalandon, II, 399, 405–07.

29. Chalandon, II, 406, suggests the mountains along the Timtş, now in wester Romania.

30. He was a son of king Kálmán: see Appendix, and Chalandon, II, 62–63, 401 406–07. His son was Constantine Kalamanos, who played a prominent role i. Manuel's later years.

31. Maria, often called "Porphyrogenita," "Born-in-the-Purple," was born i| March 1152: Chalandon, II, 212. On this Hungarian campaign, see Chalandon, II 403–07; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81.

32. Chalandon, *Domination normande*, II, 188–89; Chalandon, II, 347–48.

33. On this campaign, see Chalandon, II, 407–08; and, on Kinnamos' chronolog ical slips, 408, n. 3.

34. The Byzantine year ended August 31; these events then fell in the summer o 1154: Chalandon, II, 348.

35. Chalandon, II, 408–09.

36. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39: this was Toros (or Thoros) II. Chalandon, II, 418–29.

37. Marshall W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I. 1143–1174," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 532–33.

38. Baldwin, "Latin States," 536; Chalandon, II, 426–27. To become a monk before dying was normal for a Byzantine.

NOTES TO BOOK III

13. Chalandon, II, 384–86, believes that on his return from Kerkyra (autumn 1149), Manuel marched from Valona/Avlona/Vlonë through Pelagonia to the Vardar and Morava valleys; Rhason/Ražanj is near the Morava, north of Niš. Constantin Jireček, *Geschichte der Serben,* Allgemeine Staatengeschichte, Abt. I, No. 38, Vol. I (Gotha, 1911), 246–47, has little to contribute on these campaigns.

14. Manuel's uncle by marriage, the progenitor of the Angeli dynasty.

15. Galitza was allegedly at the mouth of the Morava: K. v. Spruner, ed., *Spruner-Menke Hand-Atlas für die Geschichte des Mittelalters und der neueren Zeit,* 3rd ed., ed. Th. Menke (Gotha, 1880), Map No. 84; Jireček, *Serben,* 247, n. 3, however, suggests a location in south-central Yugoslavia, consistent with his identification of Rhason as Ras (modern Novi Pazar), and Chalandon, II, 385, n. 4, places Galitza on Mt. Golija, north of Novi Pazar. Nikava is unidentified; Chalandon, II, 385 and n. 4, thinks it the Nišava valley. That the entire campaign was in the Nišava and Morava valleys seems probable.

16. Identification uncertain: Chalandon, II, 388, n. 1, cites several possibilities. On this campaign, see Chalandon, II, 387–91. Moravcsik's opinion (*Byzantium and the Magyars,* 80) that Kinnamos participated in this campaign is scarcely acceptable; he could have been only six or seven years old at the time.

17. Géza II, 1141–62. Kinnamos is confused about the genealogy: Uroš I of Serbia's daughter Helen married Béla II the Blind of Hungary; her brother Beloš or Bela became very influential at the Hungarian court; Chalandon, II, 74–75, 384–85, 399.

18. See above, Book II, n. 33.

19. Evidently a scribal error for the Drymon/Drina: Chalandon, II, 389, n. 1.

20. An upper tributary of the Drina.

21. Perhaps Sjenica, on the Uvac River, west of Novi Pazar: Chalandon, II, 389.

22. The Chalisioi were probably refugee Jewish Khazars: Moravcsik, *Byzantinoturcica,* II, 338–39; D. M. Dunlop, "The Khazars," *The Dark Ages: Jews in Christian Europe 711–1096,* ed. Cecil Roth and I. H. Levine, The World History of the Jewish People, Ser. II, Vol. II (n.p. [New Brunswick, N.J.], 1966), 356.

23. Dj. Sp. Radojičić, "Kinamov Γουρδέσης," *Zbornik radova Vizantološkog instituta,* 8, Pt. 1 (1963), 255–59, provides documentary and inscriptional evidence for this person.

24. Allegedly John Doukas Kamateros: Demetrios I. Polemis, *The Doukai: A Contribution to Byzantine Prosopography,* University of London Historical Studies, XXII (London, 1968), 127–30 (No. 99). P. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," *Byzantion,* 42 (1972), 259–65, suggests that Polemis has conflated six or

namos' allegation that Conrad pledged to return "Italy" (i.e., Apulia and Calabria), once conquered, to Manuel. Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 90–93, is dubious. It was at this time that Henry of Austria wedded the emperor's niece, Theodora; see Kinnamos, 236, 261. On this Theodora's identity, see my *Byzantium Confronts the West*, 34, n. 9 (p. 322–23).

69. Berry, "Second Crusade," 511; Chalandon, II, 330–32.

70. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

71. Actually, sons of Henry V's sister Agnes, who married duke Frederick of Swabia.

72. Lothar II, 1125–37.

BOOK III

1. Roger II was count of Sicily from 1105.

2. Duke William of Apulia, 1111–27, was a grandson of Robert Guiscard. The story of a loan and mortgage on Apulia is a fiction; William died without an heir, and Roger II speedily moved to appropriate his domain: Chalandon, *Domination normande*, I, 321–26, 380–89.

3. Roger II was opposed by both Pope Honorius II, 1124–30, and Innocent II, 1130–43. Roger supported the anti-pope Anacletus II, 1130–38.

4. See Chalandon, *Domination normande*, II, 69–70.

5. Roger II had first been recognized as king by the anti-pope Anacletus II in 1130. On the capture of Pope Innocent II in 1139 and his subsequent acceptance of Roger as king, see Chalandon, *Domination normande*, II, 89–91.

6. On this exchange, see Chalandon, *Domination normande*, II, 129.

7. Ibid., II, 135–37; Chalandon, II, 317–20.

8. Perhaps modern Zimnicea, Romania: Chalandon, II, 324, n. 2; on this campaign, see 323–25. In regard to this place, P. Ş. Năsturel, "Valaques, Coumans et Byzantines sous le règne de Manuel Comnène," *Byzantina*, I (1969), 169–75, suggests the late-medieval place-name Holevnic (modern Turnu-Măgurele).

9. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 305–06; for another interpretation, see Chalandon, II, 325, n. 1. Năsturel, "Valaques," 175, identifies the site as the hill of Măgura Aranului, near the Teleorman River.

10. The citadel at Kerkyra is a rocky peninsula. On the siege, see Chalandon, II, 325–33; Chalandon, *Domination normande*, II, 137–45.

11. Pervoslav Uroš II, ca. 1131–60 (briefly dispossesssed ca. 1155).

12. Chalandon, II, 333–34.

NOTES TO BOOK II

54. See Kinnamos, 56, and n. 35 above.

55. Near modern Bahşayiş in Thrace, west of Istanbul: Constantin Jos. Jireček, *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe: Eine historische-geographische Studie* (Prague, 1877; repr. Amsterdam, 1967), 102.

56. On the park and palace of the Outer Philopation, see R. Janin, *Constantinople byzantine: Développement urbain et répertoire topographique*, 2nd ed., Archives de l'Orient chrétien, 4A (Paris, 1964), 143–45, 452–53. The statement by Kinnamos involves punning etymologies; "*philopatein*" could mean "enjoy frequenting;" "*phyllopatein*," "walk on leaves."

57. Janin, *Constantinople byzantine*, 465–66; this passage is further evidence for the existence of a bridge over the Golden Horn outside the city wall, just west of Blachernai, in the modern Eyüp district: see my *Byzantium Confronts the West*, 237–38 and nn.

58. A section of Üsküdar (Scutari): Janin, *Constantinople byzantine*, 495–96.

59. Commander of the Varangian Guard: Hohlweg, *Beiträge*, 49–50.

60. Identity uncertain: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 181; Vryonis, *Asia Minor*, 121, 188.

61. Kinnamos always regards the Blachernai Palace (situated at the western extremity of Constantinople) as south of the city: Kinnamos, 171–72, 207. A number of famous relics were kept at Blachernai: Janin, *Eglises et monastères*, 169–79.

62. Franco-Byzantine relations were actually more strained than Kinnamos states: Berry, "Second Crusade," 489–92.

63. Patriarch Nicholas IV Mouzalon, Dec. 1147–Mar./Apr. 1151.

64. Theodotos II, elected between Mar./Apr. 1151 and Apr. 1152; died between Oct. 1153 and Oct. 1154, having held office two-and-a-half years.

65. Vladislav II of Bohemia, 1140–74 (but he was not crowned king until 1158), and Boleslav IV of Poland, 1146–73.

66. L. Oeconomos, "Remarques sur trois passages de trois historiens grecs du Moyen Age," *Byzantion*, 20 (1950), 180–82, and H. Grégoire's note on p. 183; I have adopted Grégoire's suggestion.

67. Actually, only to Ephesos at this time (Dec. 1147): Berry, "Second Crusade," 497–98. Conrad's actual reason for temporarily returning to Constantinople was illness.

68. On Conrad's meeting with Manuel near Thessalonica, and his subsequent second stay in Constantinople, see Chalandon, II, 326–28; Berry, "Second Crusade," 510–11. The purpose of the treaty alluded to by Kinnamos was a joint attack on Roger II of Sicily. Chalandon, II, 326–27 (esp. 327, n. 2) accepts Kin-

NOTES TO BOOK II

Cites and Bishoprics (see above, Book I, n. 3), I, Pt. 2, 454, and map facing p. 353.

43. Actually, both the name and the site were older: it is on the north coast of Bithynia, just outside the Astakenos Gulf: Ramsay, *Historical Geography*, 187; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Dc.

44. Kosmas II Attikos was patriarch of Constantinople from April 1146 to 26 February 1147.

45. Nephon was thus propagating a Bogomil dualism, whereby the Divinity of the Old Testament was alleged to be the Evil Principle: Hans-Georg Beck, *Kirche und theologische Literatur im byzantinischen Reich*, Handbuch der Altertumswissenschaft, Abt. XII, Teil II, Band I (Munich, 1959), 661; D. Obolensky, *The Bogomils* (Oxford, 1948), 221–22.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285; on the fight at Kalograia, see Kinnamos, 40. On these negotiations, see Chalandon, II, 257–58.

47. On the Second Crusade and the Byzantine Empire, see Chalandon, II, 262–315; Virginia G. Berry, "The Second Crusade," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 463–503; on western plans to seize Constantinople, see Sibyll Kindlimann, *Die Eroberung von Konstantinopel als politische Forderung des Westens im Hochmittelalter: Studien zur Entwicklung der Idee eines lateinischen Kaiserreichs in Byzanz*, Geist und Werk der Zeiten, 20 (Zurich, 1969), esp. 149–68.

48. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, who became a leading diplomat in John II's and Manuel's service, see Chalandon, II, 170, 226–27, 270, and index; Chalandon, *Domination normande*, II, 27–29, and index; Paolo Lamma, *Comneni e Staufer: Ricerche sui rapporti fra Bisanzio e l'occidente nel secolo XII*, Istituto storico italiano per il Medio Evo, Studi storici, 14/18 and 22/25, 2 vols. (Rome, 1955–57), indices of each vol., s.v. "Gravina."

49. An exaggeration: Berry ventures no estimate, but Steven Runciman, *A History of the Crusades*, II (Cambridge, Eng., 1952), 259, suggests "nearly twenty thousand" for the German force.

50. This is a literary usage, in no way reflecting official nomenclature.

51. The *chartoularios* was chief of the archive office in the treasury department: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 257. This individual would seem to have been the *chartoularios* Basil Tzintziloukes: Chalandon, II, 196, 273, n. 3. Michael Palaiologos was a cousin of Manuel, and later commanded a force in Italy: Chalandon, II, 218–19.

52. See above, Kinnamos, 33.

53. The future Frederick I Barbarossa; Kinnamos' estimate of him is based on his later prolonged opposition to Manuel and the Byzantine Empire.

NOTES TO BOOK II

30. Perhaps a brother of Constantine Angelus, husband of Manuel's aunt Theodora: G. Ostrogorsky, "Der Aufstieg des Geschlechts der Angeloi," *Zur byzantinische Geschichte: Ausgewählte kleine Schriften* (Darmstadt, 1973), 168–69.

31. Commander of the armies, second only to the emperor. John Axouchos was a former Turkish captive reared alongside John II, whose trusted minister he became. Axouchos was a leading supporter of Manuel in the difficult outset of his reign; he was chief of Manuel's advance representatives to the capital, and by his ability bloodlessly suppressed the conspiracies (real or potential) of Manuel's brother Isaac and of the caesar John Roger.

32. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 256–57.

33. John Comnenus was eldest son of Manuel's older brother Andronicus; he was a favorite of Manuel, and is often mentioned by Kinnamos. The title of protosebastos was one of the highest in the Comnenian scheme: Hohlweg, *Beiträge*, 36–38.

34. The text of the sentence is confused; I have followed the editor's suggestion.

35. Probably Basil Tzikandyles Goudelios: Chalandon, II, 648.

36. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 331, has no suggestion.

37. On the Gabras family, see Claude Cahen, "Une Famille byzantine au service des Seldjuqides d'Asie Mineure," *Polychronion: Festschrift Franz Dölger zum 75. Geburtstag*, ed. Peter Wirth (Heidelberg, 1966), 145–49; Anthony Bryer, "A Byzantine Family: The Gabrades, c. 979-c. 1653," *University of Birmingham Historical Journal*, 12 (1970), 164–87 (Bryer's No. 6, pp. 179–80); Vryonis, *Asia Minor*, 231–32.

38. Literally, "Rhomaïs," evidently a rhetorical variant of "R(h)omania," which by the 12th cent. was in official Byzantine use to designate the empire: Robert Lee Wolff, "Romania: The Latin Empire of Constantinople," *Speculum*, 23 (1948), 5–8.

39. This is the correct reading of the manuscript: Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. The ancient name was Lake Karalis, of which "Skleros" is thought to have been a medieval corruption; it is now Beyşehir Gölü: Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389. Rather than return the way he had approached Ikonion, Manuel withdrew nearly due west, through the Ala Dağ, and made for the upper valley of the Maeander.

40. On this important evidence of Turkomen pressure westward, into the Maeander valley, see Vryonis, *Asia Minor*, 121, 147, 189; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 259, has no suggestion to identify Rama(n).

41. Son of John II's brother Isaac the sebastokrator: see above, n. 4.

42. This clearly refers to the region from Apameia/Dinar to Soublaion/Choma/Homa and further west: Ramsey, *Historical Geography*, 79, 434; Ramsay,

NOTES TO BOOK II

18. The Kaystros or Cayster valley (modern Küçükmenderes): Ramsay, *Historical Geography*, 130, and map facing p. 104.

19. The second son of Gümüshtigin Ghāzī ibn Dānishmend, and emir of Sebasteia/Sivas, 1140/42–64: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 677–78; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 96–97, 100–01.

20. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 337.

21. Neither Ramsay, *Historical Geography*, 359, nor Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 69, have any identification to suggest.

22. Adrianople or Hadrianopolis was on the route between Philomilion and Ikonion, south of modern Cavuşçugölü: Ramsay, *Historical Geography*, 140; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Fe. Ramsay, *Historical Geography*, 359, identifies Gaïta as Aghait, now Akait, southeast of Akşehir: this suggests that Kinnamos has confused the sequence of stopping places.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359; the location is apparently a pass through the Ala Dağ, west of Ikonion/Konya. Kaballa is possibly an abandoned fort atop Takali Dağ (also called Gevele Dağ) eight miles west-north-west of Konya; see notes to Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Gf. Medieval Ikonion was on an oval mound, perhaps a third of a mile long and seventy-five feet high, in an otherwise level plain.

24. An important domestic official: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148. Chouroup is not discussed by Moravcsik, but the name is possibly Turkish.

25. Not word of the Second Crusade, but news of the Turkish allies' gathering to the sultan's banner probably turned Manuel back: Chalandon, II, 254–55.

26. On the hypothetical family of rulers, see Franz Dölger, "Die 'Familie der Könige' im Mittelalter," *Byzanz und die europäische Staatenwelt* (Ettal, 1953), 34–69.

27. Evidently Muḥammad, 1134/35–1140/42. Since the eleventh century the Dānishmendid family of Cappadocia had been the chief Turkish rivals of the Seljuks established at Ikonion. After Muḥammad's death, however, the principality was divided between his son Dhū-n-Nūn at Kaisareia/Kayseri (1140/42–64), and Muḥammad's two brothers, Yaghi-Basan at Sebasteia/Sivas (1140/42–64) and 'Ain-ad-Daulah at Melitene/Malatya (1140/42–52). These princes and their sons became pawns in power struggles between the Seljuks of Ikonion, the Byzantines, and Nūr-ad-Dīn. See Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 91–110.

28. Not precisely identified, but one of several passes west of Ikonion: Ramsay, *Historical Geography*, 359.

29. These might have included Manuel Anemas (married to Theodora), Stephen Kontostephanos (Anna), and Theodore Batatzes (Eudokia); probably John Roger was still in custody, although he was at some date restored to favor.

NOTES TO BOOK II

6. Chalandon, II, 239–41; Nicholson, "Latin States," 445–47.

7. Evidently a Turk in Byzantine service; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 257.

8. A classical byword for easy spoil: Liddell-Scott-Jones, s.v.

9. The Byzantine term is λίζιος, adapted from Old French *liege;* it is used by Anna Comnena and later authors to designate western Europeans who had become imperial vassals. See Jadran Ferluga, "La Ligesse dans l'Empire byzantin: Contribution à l'étude de la féodalité à Byzance," *Zbornik radova Vizantološkog Instituta*, 7 (1961), 97–123.

10. Kinnamos' chronology is here somewhat erroneous. The negotiations for Manuel's engagement were managed by John II between 1140 and 1142; seemingly it was in the latter year that Bertha of Sulzbach (renamed Irene, in accord with Byzantine custom) arrived in Constantinople. She was sister-in-law to the German emperor Conrad III; her birth evidently made her seem unsuitable to Manuel when he unexpectedly became emperor, and only pressure from Conrad and need for alliance with Germany brought about the marriage, in January 1146: Chalandon, II, 169–72, 209–12, 259–62.

11 That is, the death (1142) of co-emperor Alexius, which caused his wife to enter a convent.

12. The date of this expedition to re-fortify the Bithynian frontiers is vague, but prior to Manuel's attack on Ikonion in 1146: Chalandon, II, 247–48; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 187–88. On Melangeia-Malagina, see Ramsay, *Historical Geography*, 202–09, and map facing p. 178.

13. John Roger was a Norman of unknown background and lineage, who married John II's eldest daughter, Maria. For his attempted coup in 1143 he recruited prince Robert of Capua, who was in Constantinople as an envoy of Conrad III: Chalandon, II, 11–12, 197–98; Chalandon, *Domination normande* (see above, Introduction, n. 36), II, 126–29 (I have adopted the textual correction suggested on p. 127, n. 4).

14. The fort of Lopadion, where the modern Orhaneli River leaves the Apolyont Gölü, figures repeatedly in 12th-cent. history: Ramsay, *Historical Geography*, 160 (Uluabat is the modern spelling of Ulubad).

15. Prakana, in Cilicia Tracheia, lay almost due west of Seleukeia/Silifke: Ramsay, *Historical Geography*, 364, and map facing p. 330, is to be corrected by W. M. Calder and George E. Bean, *A Classical Map of Asia Minor*, published by the British Instiute of Archaeology at Ankara (London, 1958), reference square Hg.

16. Apparently located between Melangeia and Nikaia/Iznik: Ramsay, *Historical Geography*, 201–02; Vryonis, *Asia Minor*, 21, 31, and map facing p. 14.

17. Evidently the road to Kotiaion/Kütahya; the route led to Akroenos/Afyonkarahisar, Philomilion/Akşehir, and Ikonion/Konya: Ramsay, *Historical Geography*, 199. On this campaign against Ikonion (1146), see Chalandon, II, 248–57.

valric culture. The discovery of the true circumstances, from several contemporary rhetorical compositions, is the achievement of Robert Browning, "The Death of John II Comnenus," *Byzantion*, 31 (1961), 228–35.

Note that John II actually reigned 24 years, 7 months, 25 days (15 Aug. 1118–8 Apr. 1143): Kazhdan, "Eshche raz," 23.

BOOK II

1. Antioch had been regained by the Byzantines from the Arabs in 969; the Turks took it in 1085 from Philaretos, once a lieutenant of Romanus IV Diogenes; he had established himself as an independent ruler after Romanus' downfall. When the First Crusade seized it in 1098, Bohemond refused to acknowledge Byzantine overlordship. Alexius I had vainly struggled to achieve this; John II had in 1138 momentarily imposed himself, when Raymond did homage: Chalandon, II, 119–50, 183–90; Cahen, *Syrie du nord*, 357–68.

2. On the route (through Attaleia and Chonai/Honaz), see Chalandon, II, 198–99. On dromonds, triremes, and biremes, repeatedly mentioned by Kinnamos, see Hélène Ahrweiler, *Byzance et la Mer: La Marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VII^e–XV^e siècles*, Bibliothèque byzantine, Etudes, 5 (Paris, 1966), 410–18, esp. 418: "Le bateau à voiles est en effet l'une des unités principales des flottes impériales du XII^e siècle. Le tonnage des bâtiments byzantins s'est alors considérablement accru, les unités de guerre sont maintenant des bâtiments ronds et lourds, ils continuent cependant à être désignés comme *dromons* et surtout comme *chélandia*, terms indiquant à ce moment le navire de guerre en général sans aucune précision spécifique."

3. The senate was then an advisory body of officials.

4. This Isaac Comnenus the sebastokrator, after initially enjoying the trust and confidence of his brother John II, turned against him; from 1130 to 1138 he wandered the Near East, striving to create a league against John. His exile at Herakleia Pontika apparently dates from soon after his return and reconciliation with John. In 1140, during the siege of Nea Kaisareia, his son John went over to the Turks, turned Muslim, and married a daughter of the sultan of Ikonion. Isaac's other son, Andronicus, continued the family tradition of opposition to the ruling Comneni. He figures largely in the histories of Kinnamos and Nicetas Choniates; in 1182 he effectively deposed Manuel's son Alexius II and ruled as Andronicus I. From him descend the so-called Grand Comneni, emperors of Trebizond. Chalandon, II, 17–18, 83–85, 152–53, 179–80, 195, etc.

5. Patriarch Leo Styppes had died in Jan. 1143; Manuel's first patriarch, Michael II Kourkouas Oxites, held office from July 1143 to March 1146: V. Grumel, *La Chronologie*, Traité d'études byzantines, I (Paris, 1958), 436; Chalandon, II, 196, 199–200; Peter Wirth, "Leon Styppes oder Styppeiotes?" *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 254–55.

NOTES TO BOOK I

by king Fulk of Jerusalem to marry Constance: Nicholson, "Latin States," 434, 436–38. Raymond of Poitou was prince of Antioch from 1136 to 1149.

21. This campaign and the siege of Shaizar in 1138 mark a high point of Byzantine intervention in the Crusading States; Kinnamos exaggerates the extent of John's success, especially in the siege: Chalandon, II, 130–46; Nicholson, "Latin States," 439–40; Cahen, *Syrie du nord,* 359–63; Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 252.

22. Chalandon, II, 175–79; Vryonis, *Asia Minor,* 119–20, considers this failure the beginning of the end for the Comnenian reconquest of Anatolia.

23. Ramsay, *Historical Geography,* 359, 389; I have corrected the MS reading "Pasgouse" on the basis of Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. On Sozopolis/Uluborlu, see Kinnamos, 6; on the campaign, see Chalandon, II, 180–83; Vryonis, *Asia Minor,* 120, 215.

24. An exaggeration; the distance is "over sixty miles" by road: Ramsay, *Historical Geography,* 389.

25. Alexius was born in 1106, crowned co-emperor in 1122 (after John's victory over the Petchenegs), and died in 1142; he married a Russian princess, and left a daughter: Chalandon, II, 12–13. Alexius' portrait, as co-emperor, survives in the south gallery of Hagia Sophia: Thomas Whittemore, *The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul: Third Preliminary Report, Work Done in 1935–1938: The Imperial Portraits of the South Gallery* (Boston, 1942), 7, 26–28, and plate facing p. 21.

26. Purple boots were in Byzantine usage the prerogative and special mark of the emperor; a sebastokrator (Manuel's rank) was entitled to blue boots: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin,* L'évolution de l'humanité, XXXII^bis (Paris, 1949), II, 12.

27. The co-emperor Alexius died in 1142 at Attaleia; Andronicus the sebastokrator, the second son, died while taking his brother's body back to Constantinople by sea; he was accompanied on this mission by the third brother, Isaac the sebastokrator, who remained in the capital: Chalandon, II, 12–14, 182–83.

28. This word, evidently signifying "membrane" or something similar, is not found in the lexica of Du Cange, Liddell-Scott-Jones, Sophocles, or Demetrakos.

29. The ancient custom of reclining while dining continued among the Byzantines: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin,* L'évolution de l'humanité, XXXII^ter (Paris, 1950), III, 52.

30. The actual circumstances of John II's death were quite different: he was apparently murdered, possibly by the Latin mercenaries in the army, who disliked his aggressive policy toward Antioch and the other Crusading States. They favored Manuel, who was known to be partial to Westerners and to Western chi-

NOTES TO BOOK I

8. So Chalandon, II, 51, dates these engagements.

9. Kinnamos is confused about the genealogy of the Hungarian kings. See table in the Appendix, based on that in Gyula Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, trans. Mihály Szegedy-Maszák, Miklós Szenczi, and Zsigmond Ritoók (Amsterdam, 1970). Álmos and István II were uncle and nephew; neither descended from László I.

On the text of this passage, see Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

10. R. Janin, *Les Églises et les monastères*, La Géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin, Part I, Tome III (Paris, 1953), 529–38 (modern Zeyrek Kilise Cami).

11. Located on the Danube, three miles northwest of Belgrade; modern Yugoslav Zemun appears in Kinnamos as Zeugme or Zeugminon, in Nicetas, *Hist.*, 25, as Zeugminon, in Hungarian as Zimony, and in German as Semlin. See Jovanka Kalić, "Zemun u XII veku," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 13 (1971), 27–56 (esp. 32–50).

12. Chalandon, II, 56–62; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 78–79.

13. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 59, 158.

14. On this campaign, see Chalandon, II, 81–87; Claude Cahen, "The Turks in Iran and Anatolia Before the Mongol Invasions," *The Later Crusades, 1189–1311*, ed. Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, II, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 677; Vryonis, *Asia Minor*, 119, 162.

15. Gümüshtigin Ghāzī (ca. 1105–34/35), leader of the Dānishmendid dynasty: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 676; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 94–95; Chalandon, II, 87–89.

16. Mas'ūd, 1116–55, of the Seljuk (Selchük) dynasty, opponents of the Dānishmendids.

17. Apparently the valley of the Rhyndakos, the modern Orhaneli River.

18. Leon or Levon I, 1129–37: Chalandon, II, 107–12; Sirarpie Der Nersessian, "The Kingdom of Cilician Armenia," *The Later Crusades* (see above, n. 14), 636–37.

19. Bohemond II, 1126–30: Chalandon, II, 121–39; Robert L. Nicholson, "The Growth of the Latin States, 1118–1144," *The First Hundred Years*, ed. Marshall W. Baldwin, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, I, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 431–32, 436–39; Claude Cahen, *La Syrie du nord à l'époque des croisades et la Principauté franque d'Antioche*, Institut français de Damas, Bibliothèque orientale, I (Paris, 1940), 349–50, 357–61.

20. This is a fiction of Kinnamos; Raymond of Poitou was purposely summoned

NOTES TO BOOK I

BOOK I

1. Nicephorus Bryennios, Alexius I's son-in-law, commenced a biography of him; it was revised and completed by his wife, Anna Comnena.

2. Moravcsik, *Byzantinoturcica* (see above, Introduction, n. 4), II, 70–71. 'Ιωάννης should evidently be corrected to 'Ιωάννην.

3. Moravcsik, "Συμβολαί" (see above, Introduction, n. 52), 295. On this campaign, see Chalandon, II (see above, Introduction, n. 20), 46; Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071–1330*, trans. J. Jones-Williams (New York, 1968), 92–93; Speros Vryonis, Jr., *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh Through the Fifteenth Century*, Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies, U.C.L.A., No. 4 (Berkeley, Calif., 1971), 117–19. On Laodikeia, see W. M. Ramsay, *The Historical Geography of Asia Minor*, Royal Geographical Society, Supplementary Papers, IV (London, 1890), 134–35; W. M. Ramsay, *The Cities and Bishoprics of Phrygia: Being an Essay of the Local History of Phrygia from the Earliest Times to the Turkish Conquest* (Oxford, 1895–97), I, Pt. 1, 32–71; on the Kapros River, 35: "the river of Serai-Keui," i.e., Sarayköy, but recent maps call it the Kadiköy Dere.

4. On Sozopolis, see Ramsay, *Historical Geography*, 400–01; Vryonis, *Asia Minor*, 154–68.

5. An unknown location near Attaleia/Antalya: Ramsay, *Historical Geography*, 381, 420; Peter Wirth, "Zur asiatischen Toponymie im Geschichtswerk des Johannes Kinnamos," *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 251–52.

6. A Turkic people who had occupied much of the Ukraine, Moldavia, and Wallachia since the 10th cent. In 1091 they had been severely defeated by Alexius I, acting in cooperation with the Cumans (Polovtzi), who subsequently occupied the same regions: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 87–90; Constantine Porphyrogennetos, *De administrando imperio*, Vol. II, Commentary, ed. R. J. H. Jenkins (London, 1962), 12–14, 142–45. On this campaign, 1121–22, see Chalandon, II, 48–51.

7. On the Anglo-Saxons, who made up the chief part of the Varangian Guard from early in Alexius I's reign, see A. A. Vasiliev, "The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century," *Annales de l'Institut Kondakov (Seminarium Kondakovianum)*, 9 (1937), 39–70; Richard M. Dawkins, "The Later History of the Varangian Guard: Some Notes," *Journal of Roman Studies*, 37 (1947), 39–46 (see rev. by V. Laurent, *Revue des Etudes Byzantines*, 6 [1948], 114); Armin Hohlweg, *Beiträge zur Verwaltungsgeschichte des oströmischen Reiches unter den Komnenen*, diss. Munich, 1962, Miscellanea byzantina monacensia, 1 (Munich, 1965), 46–50.

NOTES TO INTRODUCTION

Du Cange's edition, Paris, 1670, in the Paris Corpus of Byzantine historians, was reprinted in Venice in 1729 in the Venice Corpus. Meineke's edition (see n. 1, above) was reprinted in J.-P. Migne, ed., *Patrologiae cursus completus*, Series graeca, Vol. 133 (Paris, 1864), col. 309–677. Fritz Hörmann, *Beiträge zur Syntax des Johannes Kinnamos*, diss. Munich, 1937 (Munich, 1938), discusses Kinnamos' grammar as a prelude to what proved an abortive new edition.

Even before Tollius' edition, the existence of Kinnamos' work was known; the title page of P. Poussines' edition of Anna Comnena reads in part as follows: *Annae Comnenae Porphyrogenitae Caesarissae Alexias . . . Notae mox opportunius edentur, unà cum Sinnamo Continuatore Annae* . . . (Paris, 1651), and on folio T. ij^{r} appeared the statement, "Hanc Alexiadem continuauit *Ioannes Sinnamus Regius Grammaticus;* quae nunc lucem aspexit e Codice Vaticano 319. cum Versione & Notis P. Possini." The projected publication was evidently forestalled by the appearance of Tollius' text.

There is a general, rather uncritical study of Kinnamos as a historian by M. M. Freĭdenberg, "Trud Ioanna Kinnama kak istoricheskiĭ istochnik," *Vizantiĭskiĭ Vremennik*, 16 (1959), 29–51; the bulk of it (pp. 30–47) analyzes Kinnamos' account of Byzantine relations with the Slavic states, Hungary, and Western Europe (except for the Italian cities); pp. 47–50 relate to Kinnamos' interests in military affairs. Peter Wirth, "Zur Frage nach dem authentischen Titel von Johannes Kinnamos' Geschichtswerk," *Byzantion*, 41 (1971), 375–77, points out that, in addition to the lengthy title given at the beginning of the MS (Kinnamos, 3), there are the titles given to the only two books attested by the manuscript, "Histories" and "Roman History." The long title, he thinks, might go back only to a scribe or epitomator, but which of the two other names Kinnamos applied to his whole work remains unknown.

New editions of Kinnamos have repeatedly been projected, most recently by B. Schartau, in XIV^{e} Congrès international des études byzantines, Bucarest, 6–12 September 1971, *Résumés—Communications* (Bucharest, 1971), 196–98, and by P. Wirth. I have been privileged by some communications from Dr. Wirth.

Since these notes were composed, a French translation of Kinnamos has been published: Jean Kinnamos, *Chronique*, trans. J[acqueline] Rosenblum, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines de Nice, 10 (n.p. [Paris], 1972). The translation is occasionally defective: e.g., in Book I, Ch. 1 (Kinnamos, 4–5), John Comnenus is made out to have rebelled against Nicephorus Botaneiates, and the last sentence in the chapter has been misunderstood (Rosenblum, p. 18). The annotation is incomplete and often inaccurate: Laodikeia on the Lykos, mentioned in Book I, Ch. 2, is identified as "Lattakieh" (Rosenblum, p. 199), a mistake for Syrian Laodikeia, now Latakia. Mlle Rosenblum's introduction takes a different view of Kinnamos' trustworthiness from the one expressed here (Rosenblum, pp. 7–9). See the review by D. Stiernon, *Revue des études byzantines*, 32 (1974), 407–09.

NOTES TO INTRODUCTION

48. For the view that the existing Kinnamos text is an abridgment, see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80–84, who originated the hypothesis; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279–80; Chalandon, II, xiv–xv. The opposite view was put forward (I think successfully) by V. Grecu, "Nicétas Choniatès a-t-il connu l'Histoire de Jean Cinnamos?" *Revue des Etudes Byzantines*, 7 (1949), 202–03; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, states both views and leaves the question open. Epitomes exist for Anna Comnena's *Alexiad* (see edition by Leib, I, clxxi–clxxv), and for Nicetas Choniates' *History*: the B version partially published at the base of the text of the Bonn edition, and the simplified version by [Theodore Scutariotes,] in K. N. Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη (*Bibliotheca graeca medii aevi*), VII (Venice and Paris, 1894). Leib, I, clxxiv, notes that Anna Comnena's epitomator made senseless excisions which destroy the meaning of the text; such is never the case in Kinnamos' history.

49. Nicetas, *Hist.*, 7.

50. Grecu, "Nicétas Choniatès," 194–204; A. P. Kazhdan, "Eshche raz o Kinname i Nikite Khoniate," *Byzantinoslavica*, 24 (1963), 4–31, which is a detailed comparison of the two authors' treatment of the reign of John II (pp. 6–23), and a brief review of some aspects of Manuel's reign (pp. 23–27).

51. Psellos, *Chronographie*, ed. Renauld, I (Paris, 1926), lxi–lxii; Anna Comnena, *Alexiad*, ed. Leib, I, clxiii–clxxi.

52. The 13th-cent. manuscript of Kinnamos is designated *Vaticanus graecus* 163 (fol. 221r–268v); for its being in Constantinople in 1453, see the marginal note published by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 101–02. The best discussion of the history of the text, with a stemma of manuscripts and editions, is Gyula Moravcsik, "Συμβολαὶ εἰς τὴν χειρόγραφον παράδοσιν τῆς Ἐπιτομῆς Ἰωάννου τοῦ Κιννάμου," in his *Studies Byzantina* (Amsterdam, 1967), 293–96. The variants from *Vat. gr.* 163 for the sections of Kinnamos touching on Hungarian affairs were published by Ferenc Babos, *Adalékok Kinnamos Szövegtörténetéhez: Symbolae ad historiam textus Cinnami*, Magyar-görök Tanulmánok: Οὐγγροελληνικαὶ μελέται, 26 (Budapest, 1944), 6–13, and have been utilized for the present translation. The first edition is: Ioannis Cinnami, *De Rebus Gestis Imperat. Constantinop. Ioannis & Manuelis, Comnenorum Historiar. Libri IV*, Cornelius Tollius, Primus edidit, vertit, castigavit, Trajecti ad Rhenum [i.e., Utrecht], 1652; note that this edition was in four books (Books II, III, and IV begin where the present Books II, III, and IV do, so that the last book is extremely long). A Latin translation accompanied it, but a new one was made by Du Cange, and it is essentially his translation which is given in the Bonn edition; Du Cange divided the text into six books, the Bonn editor, into seven, but the divisions are not at the same points. The MS gives only two books, the modern Book I (John's reign), and the modern Book II as the entire remainder (Manuel's reign), but does have a paragraph mark or an ornamental stripe at the points where the Bonn editor's other books commence (Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 82–84).

NOTES TO INTRODUCTION

38. Kinnamos, 30, 58–59, 67–68, 76–80, 172–75, and many other places. On the question of the genuineness of the documents quoted, see the discussion in n. 23 above.

39. Kinnamos, 46–58 (esp. 55–56), 143–45, 246.

40. See above, n. 17.

41. Kinnamos, 265–69; Nicetas, *Hist.*, 187–89. For examples of panegyric to Manuel, see Kinnamos, 42–43, 47, 56, 61, 99–100, etc. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–101, offers a particularly good discussion.

42. Michael Psellos, *Chronographie, ou Histoire d'un siècle de Byzance (976–1077)*, ed. and trans. Emile Renauld, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, II (Paris, 1928), 172–85; Michael Attaleiates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1853), 3–6, 216–29; Nicephorus Bryennios, *Commentarii*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836); for Anna Comnena, see n. 1, above.

43. A number of 12th-cent. court orations are to be found in W. Regel, ed., *Fontes rerum byzantinarum*, I, fasc. 1–2 (all pub.) (Petrograd, 1892–1917); see my own translation of an oration by Nicephorus Chrysoberges to Alexius IV, in "A Byzantine Plan for the Fourth Crusade," *Speculum*, 43 (1968), 462–75. For Nicetas' orations, see the new edition: Nicetas Choniates, *Orationes et epistulae*, ed. Ioannes Aloysius van Dieten, Corpus fontium historiae byzantinae, III (Berlin, 1972 [pub. 1973]).

44. See in particular Kinnamos, 192; Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 98–99, a particularly good discussion; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 326, places excessive trust in Kinnamos' claims of objectivity.

45. Kinnamos, 121–22. This confused chronology reappears at pp. 125–26, where again the necessity of explaining the fatal destiny of Andronicus leads the historian into rapid temporal and topical shifts. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 85–88, discusses the composition.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325.

47. Kinnamos, 236, 261; other back-references without corresponding texts are to Manuel, oft-mentioned as John's youngest son (21), but really only once before; to Andronicus as having received an extended account already (61), while he has only been alluded to among the unnamed sons of Isaac (53–54); to Suleimān's having been in command at Kalograia (66); to a certain Sotas (95); and to subsidies paid by Manuel to Kilidj Arslan (291). This is the list furnished by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80, augmented by the case of Kilidj Arslan, which he had not noted. Neumann, 81, also mentions that Kinnamos fails to fulfill a promise (Kinnamos, 10) to record the rebuilding of Zeugminon, although he alludes to the event.

NOTES TO INTRODUCTION

spondence of Manuel and Conrad III, it bears no relationship to what Kinnamos alleges was written. Only Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325–326, has supported the accuracy of Kinnamos' alleged documents as summations from a register. But his examples are nearly all manifest rhetorical creations by Kinnamos himself; only the papal documents (alluded to, not quoted, in Kinnamos, 220) can have any real validity.

24. Kinnamos, 5; see Nicetas, *Hist.*, 7.

25. Kinnamos, 20.

26. Ibid., 127, 129–30; Chalandon, II, 410. John Comnenus and Andronicus were bitter enemies. Note that John Comnenus was killed in 1176 at Myriokephalon, so Kinnamos must have listened to his recollections before then.

27. Kinnamos, 109–13, 136–69 (see above, n. 9), 257–59.

28. Anna Comnena, *Alexiad*, XIV, vii, 7 (ed. Leib, III, 175–76).

29. Kinnamos, 38–63.

30. Kinnamos, 67–83, 84–87. If Kinnamos did *not* participate in the Italian expedition, and if John Doukas was *not* his informant, a written narrative by a participant should confidently be hypothesized.

31. Kinnamos, 3–4, 163. Among other possible Herodotean usages would be Kinnamos, 42, line 23 (Herodotus, VII, 18), and Kinnamos, 139, line 3, contains the same thought ("darken the air with arrows") as Herodotus, VII, 226, but not in the same words.

32. Kinnamos, 121. Kinnamos' style in general seems to imitate that of Thucydides.

33. Ibid., 218; the reference is to Procopius, *De bello gothico*, I, 1; see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 86.

34. Kinnamos, 52, 280. Kinnamos, 232, line 20, seems to reflect Hesychius, *Lexicon*, ed. Kurt Latte, II (Copenhagen, 1966), 112.

35. On this Byzantine practice, see Herbert Hunger, "Die byzantinische Literatur der Komnenenzeit: Versuch einer Neubewertung," *Anzeiger der Phil.-Hist. Klasse der Österreichischen Akademie der Wissenschaft*, 105 (1968), 61–62. For the sake of clarity, these names have ordinarily been translated into their medieval equivalents: see Preface. A similar classical echo is the consistent designation of Roger II as the "tyrant" of Sicily (Kinnamos, 118, and elsewhere), which merely signified that his title to rule had not been recognized by Constantinople.

36 Chalandon, II, xvi; the same author's *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile* (Paris, 1907; repr., New York, 1960), II, 253 n. 4.

37. Kinnamos, 26–28; see below, Book I, n. 30.

16. Kinnamos, 119, 120–21.

17. Kinnamos, 123–25, 129–31, 232–34 (his escape from prison), 250–51. The orations of Michael Choniates, before and after 1185, show what could be said both in eulogy and excoriation of Andronicus I: Michael Choniates, Τὰ *σωζόμενα: Τὰ πλεῖστα ἐκδιδόμενα νῦν τὸ πρῶτον κατὰ τοὺς ἐν Φλωρεντίᾳ Ὀξωνίῳ, Παρισίοις καὶ Βιέννῃ κώδικας*, ed. Spyridon P. Lampros, I (Athens, 1879).

18. On the regency period, see my *Byzantium Confronts the West (1180–1204)* (Cambridge, Mass., 1968), 30–40. Several other details point to the regency period as the date of composition: Pope Alexander III (1159–81) is subjected to a violent invective (Kinnamos, 219–20), as if he were still alive, and the Kontostephanoi family, who were important supporters of the regency, receive consistently favorable treatment (96–98, and many other places). The date of composition of Kinnamos' history has aroused debate: Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–100, believed most of the work was compiled during Manuel's reign, only the introduction being later; this ignores Kinnamos' reference, p. 4, to his present special opportunity for writing history (see below). Karl Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum Ende des oströmischen Reiches (527–1453)*, 2nd ed., Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, IX, Pt. 1 (Munich, 1897), 279, believed the work was published after 1185, as shown by the statement in Kinnamos, 53–54, but this does not seem a clear reference to Andronicus' usurpation, only to his repeated treacheries toward Manuel. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, dates the composition to 1180–83, the lifetime of Alexius II.

19. Kinnamos, 4.

20. Ferdinand Chalandon, *Jean II Comnène (1118–1143) et Manuel I Comnène (1143–1180)*, Les Comnènes: Etudes sur l'Empire byzantin au XI^{e} et XII^{e} siècle, II (Paris, 1912; repr., New York, ca. 1960) [hereafter cited as Chalandon, II], xvi–xviii; on Kinnamos' hostility to Latins, see xx–xxii.

21. Nicetas, *Hist.* (see n. 1, above), 430–31. The subject under debate was the Gospel expression, "My Father is greater than I." Since Euthymius had earlier supported the heterodox view on this point (Kinnamos, 254–55), he probably restated this position, while Kinnamos would have defended the conventional orthodoxy he expresses in his history (251–57, esp. 256).

22. E. Miller, *Catalogue des manuscrits grecs de la Bibliothèque de l'Escurial* (Paris, 1848), 218; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279, 281.

23. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 91–93, pointed out that there was no tradition of documentary accuracy in ancient history; Chalandon, II, xvi–xvii, joined in rejecting the texts of the documents allegedly quoted by Kinnamos, pointing out that where we have genuine surviving documents, as in the corre-

4. Györgi Bánhegyi, ed. and trans., *Kinnamos Ethopoiiája: Cinnami Ethopoeia*, Magyar-görök Tanalmánok: Οὐγγροελληνικαὶ μελέται, 23 (Budapest, 1943), which has not been available to me. See brief accounts of its contents by F. D[ölger] in *Byzantinische Zeitschrift*, 43 (1950), 59, and Gyula Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 2nd ed., Berliner byzantinische Arbeiten, 10–11 (Berlin, 1958), I, 324.

5. Kinnamos, 3.

6. Kinnamos, 69, 146–147.

7. Kinnamos, 5; it was possible to be enrolled "since childhood" among the imperial secretaries (19).

8. This has been the conventional view: see Carl Neumann, *Griechische Geschichtschreiber and Geschichtsquellen im zwölften Jahrhundert: Studien zu Anna Comnena, Theod. Prodromus, Joh. Cinnamus* (Leipzig, 1888), 93–95, 98–99; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 324. One must, however, bear in mind that the ancient historians who formed his model concentrated on warfare, and his Byzantine predecessors (Attaleiates, Anna Comnena, and Bryennios, to name but a few) found only the emperor's person and especially his martial deeds worthy of attention. Convention thus dictated his concentration on military history.

9. Kinnamos, 134–69. The description of Móttola, for instance, seems accurate: 152; his account of the siege of Bari, 139–40, seems to be that of a witness. If he was present, to whom was he attached? Possibly Michael Palaiologos, for whom he has outstanding praise, 70, 151. For John Doukas, the other leader of the expedition, he has very high regard and lavish praise (indeed, he claims to be able to state his thoughts, 158), but condemns his conduct after his capture by the Normans: 168–69, 172–73. He did not participate in every part of the campaign, since at one point he says that "allegedly" booty sold at specified prices (154). Nor does he seem to have shared the captivity of the leaders, so he may have returned to Constantinople at a late stage in the struggle. If he did not participate in this expedition, he had available an unusually complete and reliable source, whether a written memoir or living persons.

10. Kinnamos, 170–71, 290–91.

11. Ibid., 241.

12. Ibid., 192–93.

13. Ibid., 207. These quotations were noticed by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 93.

14. Kinnamos, 4, 257.

15. Kinnamos, 82–83; for the French version of these events, see Odo of Deuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem: The Journey of Louis VII to the East*, ed. and trans. Virginia G. Berry, Records of Civilization, Sources and Studies (New York, 1948).

Notes

INTRODUCTION

1. Anna Comnena, *Alexiade: Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081–1118)*, ed. and trans. Bernard Leib, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, 3 vols. (Paris, 1937–45). The English translations are: Elizabeth A. S. Dawes, trans., *The Alexiad of the Princess Anna Comnena* (London, 1928); E. R. A. Sewter, trans., *The Alexiad of Anna Comnena* (Harmondsworth and Baltimore, 1969). Ioannes Kinnamos, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio [sic] Comnenis gestarum*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836; repr., Athens, n.d.); there is an unannotated Russian translation, *Kratkoe obozrienie tsarstvovaniia Ioanna i Manuila Komninov, (1118–1180). Trud Ioanna Kinnama*, trans. V. N. Karpov, Vizantiĭskie istoriki, perebedennye s grecheskago pri S. Peterburgshoĭ dukhovnoĭ akademii (St. Petersburg, 1859), and a Serbian translation, thoroughly annotated, of the sections relevant to Serbia and Hungary in *Vizantiski izvori za istoriju naroda Jugoslavije*, IV, trans. J. Kalić and N. Radošević-Maksimović, Vizantološki institut Srpske akademije nauka i umetnosti, Posebna izdanja, Knj. 12 (Belgrade, 1971), 1–105: Nicetas Choniates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1835; repr., Athens, n.d.); the German translation is by Franz Grabler, in the series Byzantinische Geschichtsschreiber, VII–IX (Graz, Vienna, Cologne, 1958). There were other Byzantine historians in the 12th century, but they either wrote on short periods (Eustathius of Thessalonica, on the Norman capture of Thessalonica) or on world history (John Zonaras, Michael Glykas).

2. Kinnamos, 4–5; all citations to Kinnamos are to pages of the Bonn text (cited in n. 1 above), represented by numbers inserted between virgules in the translation which follows.

3. See the Typikon of St. Neophytos, in Ioannes P. Tsiknopoullos, ed., *Κυπριακὰ Τυπικά*, Κέντρον ἐπιστημονικῶν ἐρευνῶν, *Πηγαὶ καὶ μελέται τῆς κυπριακῆς ἱστορίας*, No. II (Leukosia [i.e., Nikosia], 1969), 78. In 1195 a Manuel Kinnamos was one of the clerks of the Bureau of the Sea: F. Miklosich and J. Müller, *Acta et diplomata graeca Medii Aevi*, VI (Vienna, 1890), 129.

ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ
عن الحروب الصليبية

المدينتان

الكتاب السابع

١- عندما توفي غريغوري —الحبر الأعظم، صاحب الذكرى المباركة— في سالرنو باتت الكنيسة في وضع صعب، لأن غيوبرت، استولى بقوة الامبراطور على الكرسي الروماني وعلى المدينة، وقلة هم الرومان الذين نهضوا ضده، وتمّ جلب الكادرينال ديسيدروس [فكتور الثالث: ١٠٨٦، توفي في١٠٨٨] راعي ديرمونت كازينو (الذي دعي أيضاً باسم فكتور) لاستلام العرش البابوي، وبعدما رشا حراس مدينة ليونايين Leonine أدخل إلى كنيسة بطرس المقدس، ليرسم هناك ليلاً، وذلك خوفاً من الانشقاق، وأصيب هناك باسهال شديد، ومالبث أن غادر المدينة ليفارق حياته بعد ذلك بوقت ليس بطويل، وقد ترك حكم الكنيسة إلى أوتو أسقف أوستيا، الذي عرف أيضاً باسم أوربان.

٢- في ذلك الوقت —بينما كان هنري الرابع مايزال يحكم في روما، وألكسيوس يحكم في القسطنطينية— قامت أمم (باسم كلمات الانجيل) ضد أمم في جميع العالم، وعانت الكنيسة الشرقية بشكل حاد من الاضطهاد على أيدي الكفرة، وارتعدت المدينة المقدسة تحت أقدام الكفار، وفقط القبر المقدس للرب احتفظ باحترام عظيم لديهم، مع أن ذلك —والحق يقال— كان في سبيل جني الأرباح وهكذا عانى عبدة المسيح هناك من التعاسة والشقاء، وكان مفروضاً عليهم دفع الجزية، ولذلك أرسل هؤلاء، عبر ألكسيوس امبراطور القسطنطينية، رسالة إلى

البابا أوربان، وسألوه مساعدتهم، وتحرك البابا لمواساة شعب الرب، فقام برحلة متعبة في بلاد غاليا ليعقد مجمعاً هناك [في كليرمون -١٨-٢٨ ت٢-١٠٩٥]، واستطاع بخطاب موعظته المقدسة أن يوحد حوالي مائة ألف رجل من مختلف الدول للحرب في سبيل المسيح، وعيّن قائداً عليهم غودفري دوق اللورين، وروبرت كونت فلاندرز، وريموند كونت صنجيل، وهيو أخي فيليب ملك فرنسا، وعدداً آخر من النبلاء، ورجال الحرب، وعهد بالاشراف على هؤلاء الرجال إلى المبجل [أدهمر] أسقف بوي، وأثارت التقارير حول مافعله أوربان شعوباً معروفة قليلاً في أكوتين، ونورماندي، وانكلترا، وسكوتلاندا، وايرلاندا، وبريتاني، وغالشيا، وغاسكوني، وفرنسا، وفلاندرز، واللورين، وشعوباً أخرى، ليس من بين الذين يعيشون في القارة، بل من الذين يعيشون في جزائر البحر وأقصى المحيط، وكان بين هؤلاء الناس، شعوب تميزت تماماً بلغاتها وعاداتها ومواردها، حتى أن بعضها —كما قيل— عاش فقط على الخبز والماء، بينما استخدم آخرون الفضة فقط في أدواتهم، واتحد هؤلاء الناس الذين جاءوا من كثير من الأمم، واستخدموا لغات مختلفة، في جسم واحد، وقد ارتدوا الصليب فوق ثيابهم، ووعدوا أنهم سيكونون بالقول والفعل أتباع صليب المسيح، وانطلقوا وهم على ثقة بكفاية الصليب وقدراته، في رحلتهم إلى الشرق مع غودفري قائداً لهم، ليقاتلوا باسم الرب ضد أعداء الصليب، وكان لهذه الحملة تأثيراً أدنى على الفرنجة الشرقيين، والسكسون والثورنجيين،والبافاريين، والألمان، وذلك بسبب الانشقاق الذي كان قائماً آنذاك بين الدولة والكنيسة، ومع هذا كان هنالك بعض الناس، الذين حملوا ذلك الشعار نفسه، بشكل زائف، مدعين أنهم يفعلون ذلك باسم الدين، وكان بين هؤلاء واحد اسمه إميكو Emicho ، كونت منطقة الراين، وكان أرعناً في ذاته، وقد قاد مايقارب الاثني عشر ألف رجل، وقد كرّس نفسه لتدمير اليهود أينما وجدهم، أو، إذا أمكن، جلبهم للالتحاق بالكنيسة والاتحاد بها، لكن بما

أن سكان بانونيا اعترضوا سبيلهم لدى مرورهم بالممرات الضيقة، كانوا مرغمين على العودة إلى أوطانهم، غير أن غودفري والقادة الآخرين، الذين ذكرتهم أعلاه، تمكنوا بفضل الرب من الجواز خلال بلغاريا، لكن بصعوبة، ووصلوا إلى القسطنطينية، وعانوا هناك كثيراً من خيانة الامبراطور ألكسيوس، ثم إنهم نجوا من خطر الموت، بثورة قاموا بها هناك، فقد اقتحموا جسر المدينة الملكية، ودمروا ضواحيها، ثم تابعوا زحفهم إلى نيقية، وكان عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل، بدون تعداد النساء أو الأطفال، وكانت نيقية في يوم من الأيام حصناً للعقيدة الكاثوليكية، وبعدما هزموا [قلج أرسلان بن] سليمان قائد الكفار، استولوا عليها، وسلموها إلى الامبراطور، وتابعوا زحفهم نحو الأمام إلى أن وصلوا إلى مناطق سكيزيا البحرية، حيث وجدوا وفرة من المؤن، إلى حد أن الكبش بيع بديناري واحد، والبقرة باثني عشر ديناري، وذلك حسب مارواه الكونت روبرت، ثم إنهم تمكنوا بعون الرب من الانتصار على أمراء أو ملوك المسلمين الذين تصدوا لهم، وشجعتهم هذه النجاحات، فقاموا بحصار أنطاكية، التي كانت حاضرة سورية، غير أنهم بعدما أمضوا هناك تسعة أشهر، ضعفوا كثيراً بسبب تناقص جيشهم وانكماشه ونقص المؤن، ولهذا نظر الرب فرأى متاعب شعبه ومعاناته، فأعطاه المدينة، مع مؤن الأتراك، ووضع ذلك في أيديهم.

٣- وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وفيما المسيحيون منشغلون بحصار أنطاكية، وشعوب المشرق كلها قد أصابها الرعب، وصل رسل من قبل ملك المصريين —وهو المعتقد أنه ملك بابليون— إلى الدوق غودفري، ووعده بشكل خياني بالعون ضد الأتراك، الذين كانوا آنذاك مستولين على القدس مع جميع فلسطين، وكانوا قد انتزعوها من العرب، لأنه تأكد لنا عن طريق رجال ثقة من بلادنا فيما وراء البحار، أن جزءاً من بابل القديمة يُدعى بغداد، وهو جزء مايزال مسكوناً، وهو جزء كما تقرأ في

النبوءة «مهجور ولايمكن الوصول إليـه»، يمتد إلى نحو عشرة أميال، لابل حتى بـرج بابل، والقسـم المسكون، والمدعـو بغداد، واسع جـداً، ومكتظ بالسكـان، ومع أنها بشكل صحيح جـزء من امبراطورية الفـرس، منحها ملك الفرس إلى كاهنهم الأعلى، الذي يـدعونه الخليفة، هناك بينات (كما تقدم القـول مراراً) على وجود بعـض التشابه بين بـابل وروما، لأن مـاهو ممنوح في جزئنـا من العالم من قبل الامبراطـور المسيحي، إلى الحبر الأعظم في مـدينة رومـا، مثلـه قد جـرى منحـه من قبـل الملـوك الفرس الكفـار —الذين كانت بـابل ومابرحت خاضعة منذ زمـن طويل— إلى كاهنهم الأعظم، ومثلما اختـار حكامنا مـدينة ملكية اسمهـا آخن، كذلـك جعل ملوك الفـرس مقر مملكتهـم ايكباتـانا Ekbatana (التي نقرأ في سفـر يهوديـت أن أرفخشد قـد أسسهـا) وهـي مـدينـة تدعـى بلسـانهم «همذان»، وهـم يمتلكـون مائة ألـف مقـاتـل أو أكثر، ولقـد اتخذوا هـذه المدينة مقرهـم الملكي، ولم يحتفظوا لأنفسهم بشيء خـارج بغداد فيما عدا اسم «امبراطـور»، والمدنية التـي قلت إنها تعـرف الآن بشكل عـام باسـم بـابليون ليسـت قائمـة على الفرات (كما يفترض النـاس) بل على النيـل وتبعـد مسافـة حوالي ستـة أيـام من الاسكنـدريـة، إنها بالحقيقـة مدينـة ممفيس، وكـان قمبيز بـن قورش قـد سماها بـابليون، وهنـاك فيها يسكـن ملك المصريين وذلك بسبـب حديقة البلسم، مع أن عاصمـة مملكته هي الاسكنـدريـة، ويمكـن استنتـاج مـن حقيقـة أن المسيحيين يسكنـون في المدينتين، ومـع أنهم خـاضعين للجـزيـة، فإن أسقـف ممفيـس خـاضـع بمـوجب القـانـون اللاهـوتي إلى بطـريرك الاسكنـدريـة، ونحن نجـد في الترتيبات الأساسية، وبموجب سلطات مجمـع نيقية أن البطريرك قد أقيم ليس على الآشوريين والبابليين بل على المصريين والأفارقة.

٤- عندما قـدم رسل الملك المذكور آنفاً أنفسهم إلى الـدوق غودفري، جرى ارسال بعض نبلاء الفرنجة —فهـذا هو الاسم الذي اعتاد المشارقة

اطلاقه على الشعوب الغربية، كما أعتقد على أساس المجد القديم لذلك الشعب وبسبب شجاعته— الذين جرى اختيارهم بكل عناية، إلى بابليون، وأعلن البرابرة، الذين أعجبوا بقوة هؤلاء الرجال، وببنيتهم الجسدية، ولباسهم وتصرفاتهم، ونقاوتهم، أنهم آلهة وليسوا من بني البشر، وبعد اجتماع جرى عقده، قام ملك بابليون، فأخذ سفراء الفرنجة معه، وحاصر القدس، وعرض في منظر عام الأبطال المتقدم ذكرهم، وأعلن أنهم حلفاءه، وبهذه الطريقة تسلم طاعة المدينة [آب١٠٩٨م] —بسبب الرعب الذي بثوه فيهم، وليس لسبب مخيف آخر— وطرد الترك، وأسكن العرب هناك.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون (كما قلنا قد استولوا على أنطاكية) لكنهم لم يقدموا الشكر المستحق للرب، ولهذا جرى تطويقهم من قبل حشد هائل من المسلمين، ولذلك حلّ بين صفوفهم مجاعة —تلت وفرة عظيمة— لايمكن تحملها، حتى أنهم تمنعوا بكل صعوبة عن أكل لحوم البشر، وعطف الرب الرحيم، على شعبه التائب المنيب ورحمه، ونظر إليه بعين النعمة، بوساطة رؤيا جاءت من عليين، فأظهرت للمؤمنين من أتباعه الحربة المقدسة (وكانت حتى هذا الحين غير معروفة) التي بها طعن —كما نقرأ— طرف ابنه المسيح، وهو على الصليب، ووثق المسيحيون بهذه الحربة واعتمدوا عليها، ومع أنهم كانوا ضعفاء بسبب المجاعة، خرجوا وتقدموا نحو الأمام، وهزموا المسلمين، ليس بوساطة أية قوة هي قوتهم بل بوساطة قوة المسيح، ثم زحفوا داخل سورية، فاستولوا على مدن كفر [طاب و] البارة ومعرة النعمان، وبينما كانوا مشغولين بمحاولاتهم هذه، تعرضوا للعناء ثانية، حيث روي أنهم عانوا من نقص شديد بالمؤن، إلى حد أنهم أكلوا لحوم بشرٍ كانت آيلة للفساد، ثم إنهم وجهوا بعد هذا جيوشهم ضد المدينة المقدسة، التي كان يسكنها الآن العرب، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها بالقوة،

عقدوا مؤتمراً، وقرروا تقليد تواضع المعلم، فمشوا حول المدينة حفاة، وتبعاً لهذا، حدث في اليوم الثامن، ذلك اليوم الذي يوافق انتشار الرسل، والذي يحتفل به ، أن تمّ الاستيلاء على المدينة [١٥تموز١٠٩٩]، وقتلوا الأعداء الذين وجدوهم فيها، وكانت مذبحة هائلة حتى أن دم المذبوحين وصلت إلى قوائم خيول مقاتلينا داخل بناء المعبد، ولاحظ أنه بعدما قام شعب الرب بالتواضع والتذلل شخصياً، والتقاطر للصلاة للرب، أصبحت المدينة المقدسة التي كانت تحت أقدام أبناء الشعوب، في اليوم الثامن مبتهجة بشكل رائع لأنها استردت من قبل شعبنا، ومثلما تمّ الاستيلاء على أريحا في اليوم السابع، لدى مراعاة يوم السبت، كذلك حدث هنا أن مدينة القدس المحاصرة جرى اقتحامها من قبل الشعب المسيحي في اليوم الثامن (جاء يوم القيامة بعد يوم السبت)، وفي ذلك اشارة إلى أن الشريعة [اليهودية] ونظام الأيام السبعة قد طبق، وغدت القدس من ذلك اليوم مع ضريح الرب في حوزتنا.

٥- وقام ملك شعب ممفيس، أو الاسكندرية —الذي يدعوه الحجاج باسم أمير جيوش أهل بابليون— بالتوجه إلى عسقلان، مصطحباً رسل الفرنج معه، ثم وجه زحف قواته نحو أنطاكية، في سبيل الاستيلاء عليها بنوع من أنواع الخداع الذي كان قد سيطر بوساطته على المدينة المقدسة، غير أن المسيحيين تركوا أثقالهم ومرضاهم في المدينة، وقادوا قواتهم ضد المسلمين، وعندما أبصروا عن بعد حشود العدو التي لاتحصى عدداً، أقاموا الصلوات للرب، ثم انقضوا على الأعداء بكل جرأة مع أن قواتهم كانت صغيرة، ومن الغريب القول، إنه بنعمة من الرب، القادر على فعل كل شيء، تمكنوا وعددهم لم يتجاوز خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل من ارغام مائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل على إدارة ظهورهم والفرار، ثم انهم حصلوا على غنائم هائلة، وهلك بحدّ السيف في هذه المعركة أكثر من مائة ألف من المسلمين، وقيل اختنق أيضاً

بالتدافع عند باب المدينة أكثر من ألفين، كما وروي أن أعداداً أخرى لاتحصى غرقت أو ماتت على الخازوق، وبعد نيل هذا النصر، عاد بعض القادة إلى أوطانهم، لكن غودفري بقي، ومارس بكل حماس حكمه كدوق على الذين مكثوا، وتدخل أيضاً وسيطاً بين الفرنجة الرومانسيين والألمان، الذين اعتادوا على الخصام دوماً، مستخدمين حركات تعبّر عن المرارة والحقد، وتمكن غودفري من التوسط بينهم بحكم أنه نشأ على الحدود بين الشعبين، وكان عارفاً بلغة كل منهما، وعلّمهم بطرائق مختلفة كيفية الصبر والتحمل.

٦- وتمكن أوربان بعد عودته مع مجمع كليرمونت—فيراند، بمساعدة الذين ألهبهم حماساً للقيام بحملة إلى القدس، من طرد غيوبرت من المدينة (لكن ليس من قلعة كرسسنتوس) وحكم كرسيه المقدس، ثم سافر من خلال أبوليا وكالبيرا إلى صقلية، التي كانت آنذاك مقطونة من قبل النورمنديين، وجمع من هناك مبلغاً كبيراً من المال، ثم عاد إلى المدينة، ورشا بالأعطيات الذين تولوا حراسة قلعة كرسسنتوس، وبهذه الواسطة تمكن من طرد غيوبرت من القلعة مثلما طرده من المدينة، وبذلك استحوذ على كامل المدينة [١٠-آب١٠٩٨]، لكن بعد أمد قصير فارق هذه الحياة، وترك كرسيه لباسكال.

٧- وفي السنة الألف ومائة بعد تجسيد الرب، عندما أخذ المؤمنون يحتشدون من جميع أجزاء العالم للذهاب إلى القدس الأرضية (نظيرة القدس السماوية) للصلاة، كثيرون ماتوا من المناخ الصعب، ونقل غودفري أيضاً الباكون عليه، بعدما بقي دوقاً لمدة سنة فقط، ودفن في كنيسة قرب الضريح المقدس، وحظي أخوه بلدوين بشرف اسم ملك، بوساطة سلطات الحبر الأعظم، وتعين مكان غودفري —وهذه اشارات تشير إلى التمييز بين المملكة وبين الحملة إلى القدس— ويكفي أن ذلك قد تم تدوينه من قبل الآخرين، ومات في تلك الآونة غيوبرت، وبذلك

جلب نهاية للانشقاق الرهيب الذي طوقنا مثل دخان مصر الكثيف، وتوفي في السنة التالية كونراد الابن المسيحي الأكيد للامبراطور هنري، الذي كان أبوه قد عهد إليه بإيطاليا، لقد حمله الموت المبكر في السنة التاسعة التي افترق فيها عن أبيه، وكانت وفاته ثم دفنه في فلورنسا التي هي مدينة في توسكانيا، وفي الوقت نفسه قام كل من وليم كونت بواتو ودوق أكوتين، وتيمو Tiemo ، رئيس أساقفة سالزبورغ، وولف دوق بافاريا (الذي تولى في حرب أثارها ضد الامبراطور هدم مدينتي فريزنغ وأوغسبيرغ)، والدوقة ايثا Itha التي كانت أم ليوبولد [الثالث] (الذي كان حاكم النمسا) ووليم [كونت نافار] وستيفن [كونت بليوس] وهما بارونان ايطاليان [كذا] مع كثير من ايطاليا وأكوتين وألمانيا، قاموا بالانطلاق نحو القدس عبر طريق هنغاريا واليونان، وحشرهم الامبراطور ألكسيوس بشكل خياني في ممرات ضيقة، وقتل معظمهم بشكل وحشي، وأخذ الشخصيات الأكثر لمعاناً بينهم أسرى، وأهداهم إلى ملك، أو أمير الجيوش في ممفيس، وقام واحد، ذكر أنه شارك بهذه الحملة، فكتب هذه الرواية، بشكل واضح ومؤكد، وفق طرائق التراجيديا، وقيل إن صاحب الغبطة الأسقف تيمو قد وقع بالأسر مع البقية، فأمر بأن يعبد الأصنام، وطلب منحه فرصة للتفكير والراحة [وحصل على ذلك] فدخل إلى المعبد، وبما أنه امتلك القوة الفعالة للعقل والجسد، فقد حطم إلى قطع الأصنام التي كان متوجب عليه عبادتها، مرياً بذلك أنهم لم يكونوا أرباباً بل أعمال أيدي الناس، ولهذا السبب اقتيد، وبعدما تعرض لتعذيب شديد مع جميع أنواع الارهاب، تتوج بالشهادة الرائعة، بيد أنه من الصعب تصديق قيامه بتدمير أصنام، لأنه معروف بشكل جيد ومتداول بين الناس أن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً، وهم يقبلون بكتب الشريعة، وعادة الختان، ولا يرفضون المسيح والحواريين، والرسل، وقد نأوا عن الخلاص بشيء واحد فقط، هو حقيقة انكارهم أن المسيح هو الذي يجلب الخلاص إلى الجنس البشري، وانه رب، أو ابن الرب، ويجلّون

ويقدسون محمداً بحكم كونه نبياً عظيماً لله العظيم، وهو الشخص الذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وبدأت نبوته —كما يدعوها نفسه— وتبعاً لتقاليدهم، بدأ دعوته حسبما جاء في مطلع انجيل محمد قوله: «ابن الرب، بني الرب الأعلى، غسلك، وجعلك نظيفاً» [كذا]، ويقوم هذا الشعب المشار إليه بحماقته بعادة تمسكوا بها تبعاً لهذه الأوامر وذلك بغسل الأجزاء السرية من أجسادهم يومياً.

٨- في السنة الثالثة بعد المائة وألف من تجسيد الرب، احتفل الامبراطور هنري بميلاد الرب في مينز، وقام هناك بتعيين ابنه هنري ملكاً يكون خلفاً له، وأعلن أمام الناس أنه سيقوم بزيارة ضريح الرب، مما جعل الكثيرين من مختلف أجزاء مملكته يتخذون القرار نفسه، وبينما كان في السنة التالية يشاهد الاحتفال بميلاد الرب في ريغنزبيرغ Re-gensbaurg ، حدث شجار، وقتل الكونت سيغهارد Sigehard من قبل كتلة النبلاء الذي عرفوا باسم «المنسترال Ministeriales(*)» لأنه تعدى على حقوقهم، وفي السنة التالية، بينما كان الامبراطور يحتفل أيضاً بميلاد الرب في مينز، قام ابنه هنري، بناء على نصيحة مارغريف ثيبولد وكونت برنغر بالتآمر للثورة على أبيه في بافاريا، وقام بهذا تحت غطاء ديني في أن والده قد حرم من قبل الحبر الأعظيم الروماني، وجمع حول نفسه بعض النبلاء من شرق فرانكونيا، وألمانيا وبافاريل، ثم دخل ساكسوني، وهي بلاد وشعب من السهل اثارته ضد المملكة، واستقبل هناك بكل التشريف، وبقي في كويدلنبيرغ Quedlinburg للاحتفال بفصح الرب [٩نيسان ١١٠٥]، وقد ربح إلى جانبه جميع الشخصيات القيادية لذلك الشعب، وجرى عقد مجمع

(*)- حاشية الامبراطور من غير الأحرار الذين جلبوا من أراضي العرش أو من ممتلكات الامبراطور الشخصية الموروثة.

للأساقفة في المدينـة الملكية نوردهوزن Nordhousen ، برئاسة روثارد Rothardرئيس أساقفة مينـز (الذي كان قد عزل من منصبــه منذ أمد طـويـل من قبـل الامبراطـور)، وأدان هنـري في هـذا المجمع السيمـونيـة والممارسات الأخرى المخـالفة لكنيسة روما، وحالما فرغ مـن الاحتفال بعيد الشعانين في ميرسبيرغ Merseburg قام بتنصيـب هنري (الـــذي انتخب، لكـن رُفض من قبل مـؤيدي أبيه) بحكـم كونه رئيساً لأسـاقفة مغدبيرغ Magdeburg ، ثم جمع هنـري جيشاً، قاده بـاتجاه مينز بقصد إعـادة تنصيب رئيـس الأساقفة، ولكـن بما أن والده كـان مع كثير من أتباعه ينتظـرون قدومه مع قوى مسلحة وراء الأسوار، لم يكـن بإمكانه تنفيـذ رغبته،ولـذلـك ذهـب إلى وورزبيرغ وطرد ايـرلنـغ Erlung وأقام روبرت مسؤولاً عن تلك الكنيسة، وإثر قيامه بهذا سرّح السكسون، وتولى مع البافـاريين حصار نورنبيرغ Nurnberg وتمكن خلال شهــرين أو ثلاثـة من الاستيـلاء عليها، ثم تـوجه نحـو ريغنزبيرغ Regenburg وكانــت مقرّ مطرانية دوقيـة بافاريا، وكـان والده يتتبع خطاه بكـل شدة، فـألحق الهزيمـة بروبـرت، واسترد ايـرلنـغ، ثـم تـابع تقـدمـه، واستطـاع بمساعـدة شعب ريغنزبيرغ أن يطرد ابنـه من المدينة، وأقام هنـاك واحداً اسمه أولريك Ulricأسقفاً، وعاث فســاداً في تخوم ثيبولد Theobald من خلال وكالة بوهيميا.

٩- وبعدمـا انقسمت المملكـة هكذا بشكـل مؤلم ضـد بعضها، فقـد حشدت جميع امكـاناتها العسكرية مـع بعضها، وتعرضت البـلاد بشكل وحشي للتخـريب بـالنـار والسيف، وتمركـز الفـريقـان المتصارعـان: الأب والابـن على طرفي نهر ريغنـغ، وكـان معسكـراهما قد تميـزا عـن بعضهما، وبدأت معسكرات القتـال لديهما بالتشكل، وكـان الأب غاضباً كثيراً على ابنه بفعل تحريضـه من قبل مؤيـديه، وكذلك الابـن في صراع عائلي ضد أبيـه، وقد أعـاق صراعهما القـذر مجرى النهر، وكـان بـإمكـانك أن تـرى

استعدادات محزنة ومؤلمة، لقد كان من الممكن لك أن ترى العالم يعاني من الأعمال الخيانية بشكل أشد وضوحاً من شعاع الشمس، وكانت الأمور بلاريب مضادة لقانون الطبيعة، لأن ابناً قام بعصيان ضد والده، وبشكل ظالم كان الجندي يستعد للقتال ضد ملكه، والعبد ضد مولاه، كما ووقف الأخ ضد أخيه، والقريب ضد قريبه، وكان كل واحد من هؤلاء يخطط لسفك دم شريكه الخاص بالدم............

وبناءً عليه، عندما غمر في هذه الأيام حب السلطة المملكة الرومانية وأدى بها إلى الحرب الأهلية، لابل حتى إلى قتل الابن لوالديه، قام بعض الناس، من أجل المسيح، بالتخلي عن مصالحهم، وعدّوا أنهم ليسوا للعبث كانوا يلبسون حزام الفروسية، ولذلك انطلقوا نحو القدس، وهناك أخذوا يعملون في مجال جديد من القتال، حين وجهوا أنفسهم ضد أعداء صليب المسيح، وعندما حملوا في باطنهم عقيدة الموت في سبيل الصليب، بدوا بطريقة حياتهم وحديثهم لابمثابة جند بل بالأحرى رهباناً، زد على هذا، بدأت الحياة المستقيمة المتشددة مع السلوك تزداد بين الرهبان ورجال الدين، وذلك منذ تلك الآونة حتى اليوم الحالي، وهكذا بفضل من عظمة الرب وصحيح حكمه أخذ أتباعه يلتزمون أكثر فأكثر بفضل نعمته بتطبيق كامل والتزام كامل بأوامره ونواهيه مع أن سكان العالم يزدادون دنساً في سلوكهم الدنس.

١٠- في هذه الآونة نفسها ألقى الملك بلدوين الحصار على عسقلان وجعلها تدفع الجزية له، كما وخاض معركة مع المسلمين، ومع أنه امتلك قليلاً من الرجال فقط —أي أربعة آلاف فقط— فقد تمكن من إلحاق الهزيمة بخمسين ألفاً، وذلك بفضل القوة الربانية وليس بالقوة البشرية، وقد أسروا واحداً من قادتهم وقتل الباقين، لكن الامبراطور ألكسيوس، رأس الخونة، وقد غدا غير قادر على إخفاء خطته الشريرة التي أخفاها من قبل في قلبه، دخل الآن بكل وقاحة في حلف مع

الأتراك، الذين كانوا وقتذاك في وضع يائس تقريباً، وقام بكل قحة بالتخلي لهم عن نيقية، التي تمّ الحصول عليها مقابل سفك كثير من دماء شعبنا. لاحظ هذا الزمان الصعب الذي فيه امبراطورين —واحد في الشرق وآخر بالغرب— كلاهما عدو للرب..

٢٨- في سنة ألف وأربع وثلاثين لتجسيد الرب، قام الامبراطور جون كومينوس، امبراطور القسطنطينية (الذي عقد معاهدة صداقة مع الملك الروماني كونراد بوساطة زواج ابنه مانويل من أخت الملكة غيرترود) بالدخول إلى سورية على رأس جيش كبير، بسبب أن ريموند أمير أنطاكية قد أقسم على اعطائه تلك المقاطعة مع المدينة نفسها، وذلك مقابل مبلغ من المال، لكن لم يف بوعده، ذلك أن [هوغو HUGO] المحترم، أسقف جبلة، قاومه برجولة ووقف في وجهه، وحذره بكل شجاعة، باسم كل من أسقف روما والامبراطور، وطلب منه التوقف عن الهجوم على المدينة التي أتيت على ذكرها، لأنها كانت ضمن ممتلكات اللاتين، غير أن جون الذي خدع من قبل الأمير قام —على الرغم من عدم مهاجمة المدينة— بالعيث فساداً في جميع أرجاء المقاطعة بالنار والسيف، حتى أنه اقتلع النساك والرهبان، الذين هناك أعداد كبيرة منهم في تلك المنطقة، وساقهم أمامه بعدما أخرجهم من صوامعهم، وعاملهم بوحشية متناهية، ولم يقم جون هنا بدور المعطي —أي أن تقول الجيد— ولم يمض وقت طويل بعد هذا، أن تعرض، وهو يقوم بأعمال الصيد ويستخدم سهاماً مسمومة، إلى الاصابة بأحدها بشكل غير متوقع، وهكذا مات الملك الغني بشكل بائس جداً وسط جيشه،وترك العرش لابنه مانويل.

وفي الوقت نفسه مات فولك، ملك القدس، وسلم قيادة المملكة إلى ولده فولك [كذا: الذي خلفه هو بلدوين الثاني وكان في الثالثة عشرة من عمره] وكان وقتها مجرد صبي، وإثر اعتلاء مانويل للعرش، أرسل

رسلاً إلى الملك كونراد مع هدايا ثمينة (وذلك مثلما فعل أبوه من قبل) وجدّد المعاهدة، وغالباً ما جرى مراعاة هذه العادة بين الامبراطورين، وذلك لاعتبارات متنوعة، أعني بعدما انتقل اللقب الامبراطوري إلى الفرنجة، وفي هذه الآونة كان الاتفاق بين جون والد هذا الامبراطور وكونراد ضد روجر الذي تولى غزو كل من الامبراطوريتين...

٣٠- عند بداية العام ألف ومائة وخمسة وأربعين مضت على تجسيد الرب، وفي ذروة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وقعت واقعة في الشرق، جاءت نتيجة لآثام الشعب المسيحي، وكانت واقعة محزنة ومريعة فيها سوء حظ عظيم، هي أن زنكي: أمير حلب، في سورية وأمير الجزيرة (باستثناء أنطاكية ودمشق)، والذي كان من أتباع ملك أو سلطان الفرس والميديين، قام بحصار إديسا مع حشد من المسلمين لايعد ولايحصى، وكانت هذه المدينة (التي تعرف الآن باسم الرها) على أساس حجمها وثروتها الملاذ الوحيد لكنيسة القدس، ففي يوم ميلاد الرب، كما قلت، اقتحم زنكي المدينة وقتل بحد السيف جميع المسيحيين مع أسقف المدينة، أو حولهم إلى مرتبة العبودية، ودنس بإثم كنائس المسيح، وبشكل خاص بازيليكا مريم المقدسة (العذراء دوما) التي دفن فيها جسد الرسول توما، وجلب إلى داخلها أشياء غير لائقة، وذلك استهزاء بمخلصنا، وبعدما فرغ من ابادة شعبنا، وحولهم إلى دافعي الجزية، مركز المسلمين هناك لسكنى المدينة....

٣٢- ووصل في هذه الآونة وفد ديني مرسل من الأساقفة الأرمن ومطرانهم (الذي هم أنفسهم يسمونه الجاثليق، أي الأسقف الكوني، وذلك بسبب العدد الذي لايحصى من الأساقفة الذين يتبعونه) وجاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم في فيتربو VITERBO ، قادماً من أقصى الشرق ومكملاً رحلة متعبة استغرقت سنة وستة أشهر، وبعدما بعثوا إليه بالتحية باسم تلك الكنيسة، وأكدوا له خضوعهم التام،

انطلقوا مسافرين إلى فيترالا(*) VETRALL ، التي كانت هدف قدومهم وغايته، وكنت أنا موجوداً أثناء تلك المقابلة مع عدد كبير آخر، وكانت الأسباب كما يلي:

إنهم يتفقون مع الاغريق في ممارسة جزء من طقوس القربان المقدس، ويخالفونهم في جوانب أخرى، فهم يأخذون الخبز المخمر مثلما يفعل الاغريق، لكنهم لايمزجون الماء مع النبيذ مثلما نفعل نحن ويفعل الاغريق، زيادة على هذا إنهم يجمعون معاً بين عيدي الميلاد والغطاس ويجعلون منهما عيداً واحداً، ونظراً لخلافاتهم حول هذه المسائل وقضايا أخرى، وقع اختيارهم على الكنيسة الرومانية لتكون حكماً، وجاءوا للتشاور معها، وسألوا التوجيه حول شكل الأضحية تبعاً للعادة الرومانية، واستقبلهم الأسقف الروماني بسرور، وسمح لهم بحضور القداس العظيم، ومشاهدة الطقوس السرية للتضحية، ووجههم لمتابعة كل ماجرى هناك بكل دقة، وفيما هم يفعلون ذلك، ويقفون بانتباه شديد، أمام المذبح المقدس، رأى أحدهم وكان يحمل رتبة أسقف —شيئاً حكاه فيما بعد— في اجتماع عام عقد في اليوم الثامن الذي تلا عيد مارتن المقدس، وذلك أثناء الاحتفال المعتاد بتكريس كنيسة بطرس المقدس [١٨تشرين ثاني] والذي رآه —كما قال— هو مايلي:

بينما كان الحبر الأعظم يقوم بالقداس المقدس، أضاءت الشمس وانتشرت أشعتها فجأة حول رأسه بشكل كله بهاء، وأثناء ذلك كان هناك حمامتان تصعدان وتهبطان وسط نور الشمس، ولدى اطافته ناظريه في هذا الاتجاه وذاك، ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أن يتخذها

(*)- على بعد اثني عشر كم إلى الجنوب من فيتربو حيث كان البابا مقيماً في كانون أول: ١-١٦ عام١١٤٥م، ويستخلص من هذا النص أنه كان موجوداً هناك منذ حوالى بداية تشرين الثاني.

طريقاً له، أدرك أن هذا كان من عمل الرب، وهنا ازداد يقيناً باطاعة الكنيسة الرومانية، وجعل معروفاً ماراه أيضاً إلى جميع الناس، غير أن الأب المبجل رفض أن يعزو هذا إلى فضائله الخاصة، وأعلن أنه بالحري بسبب إيمان هذا الأسقف أبيحت له هذه الرؤيا من السماء، ففي سبيل تيسير الاعتراف بالكنيسة التي تولت ارساله، تمّ غسل قدرة القداس في نور الحقيقة، ومن ثم بالمعرفة، وكذلك بالتبجيل وبالشكل المتوجب الاحتفاء به بهم.

وروى الأسقف المتقدم ذكره أنه يوجد على تخوم أرمينيا بعض الشعوب التي تحمل أطفالاً برائحة مخيفة، وأنهم يأخذونهم مباشرة ويجعلونهم يستحمون في مياه أرمينية ويطرد الأرمن عنهم برشهم بماء العماد تلك الرائحة النتنة، لكن ما يلبثون لدى عودتهم أن يتحولوا إلى طقوسهم الوثنية وإلى قذارتهم، وسألوا أيضاً رأي الكنيسة الرومانية هل ينبغي أن يصنع هذا.

٣٣- ورأيت في ذلك الزمان والمكان أيضاً أسقف جبلة في سورية المتقدم ذكره، —الذي بفضل جهوده بشكل خاص بدأت أنطاكية تصبح تابعة تماماً للكنيسة الرومانية— وقد جاء ليقدم شكوى ضد كل من بطريركه في أنطاكية وأم(*) الأمير، ابنة بلدوين —الذي كان مرة ملك القدس— وطالب بحقوق قديمة، قياساً بما فعله ابراهيم، (ذلك أنه أعطى عشر الأسلاب إلى ملكيصادق، بحكم أنه عزا نصره إلى الرب) أن يُدفع له عُشر الأسلاب المأخوذة من المسلمين، وطالب أن يمنح التفويض من الكرسي الرسولي بشأن هذه المسألة، ولقد سمعته يقدم شكوى مريرة تتعلق بالمخاوف المحيقة بالكنيسة في بلاد ماوراء البحار

(*)- لم تكن الأم بل حماة الأمير ريموند الأول أمير أنطاكية، وكانت أرملة الأمير بوهيموند الثاني وأم كونستانتيا، زوجة ريموند.

منذ الاستيلاء على الرها، وقال إنه يفكر لهذه الغاية بعبور جبال الألب إلى ملك الرومان والفرنجة ليطلب العون.

وروى أيضاً أنه حدث قبل عدة سنوات مضت أن قام واحد اسمه بريستر جون(***)، وهو ملك وكاهن يسكن فيما وراء ايران وأرمينيا في أقصى الشرق، وجميع شعبه مسيحيون، لكن نساطرة، وحكى أنه شن الحرب على أخي ملوك الفرس والميديين الذي اسمه سانياردي (سنجر) وأنه اقتحم ايكباتنا EKABATANA (حاضرة ملكهم) والتي تقدم ذكرها من قبل، وعندما التقى به الملوك المتقدم ذكرهم ومعهم جيش تألف من الفرس والميديين والآشوريين، حدثت معركة استمرت ثلاثة أيام، لأن كل فريق كان يؤثر الموت على الفرار، وألحق بريسترجون —ذلك أنهم يدعونه هكذا حسبما اعتادوا— بالفرس الهزيمة بعد اصابات بالغة، وأخيراً ظهر منتصراً، وحكى أنه بعدما نال بريسترجون هذا النصر قاد جيشه لتقديم المساعدة للكنيسة المسيحية في القدس، لكن عندما وصل إلى نهر الدجلة ووجد نفسه غير قادر على نقل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة، انعطف متجهاً نحو الشمال، لأنه قيل له إن النهر متجمد هناك بفعل برد الشتاء، وبعدما انتظر هناك لمدة عدة سنوات، دون أن تتحقق رغباته القلبية (لأن المناخ اللطيف المستمر منعه)، ونظراً لفقدانه كثيراً من جنوده بسبب المناخ الذي لم يعتادوا عليه، أرغم على العودة إلى وطنه، ولقد قيل إنه يمت بنسبه إلى المجوس، وينحدر منهم، وهم الذين ورد ذكرهم في الانجيل [متى: ٢/ ١]، ولقد تولى حكم الشعوب نفسها التي حكموها، وتمتع بشهرة عظيمة وثروة هائلة ومع ذلك لم يستخدم عصا صولجان سوى واحدة من الزمرد، وكان عظيم

(***)- سأورد عنه المزيد من التفاصيل في أول المجلدات التي ستبحث في العلاقات الصليبية المغولية وذلك قبل الشروع بتقديم مصادر تاريخ المغول.

الرغبـة في أن يحذو حذو آبائه الذيـن جاءوا لعبادة المسيح وهـو في مزوده، ولـذلك خطـط للذهـاب إلى القدس، لكـن السبب المذكـور آنفاً منعـه، فهكذا يروي الناس....

أعمال فردريك بربروسا

الكتاب الأول

(٣٤،٣٥) عندما كان يوجين (الثالث ١١٤٥-١١٥٣) بابا في روما، وكونراد [الثالث ١١٣٨-١١٥٢] يحكم هناك، ولويس [السابع ١١٣٧-١١٨٠] في فرنسا، ومانويل امبرطوراً في المدينة الملكية، وفولك [ت١١٤٤ وخلفه ابنه بلدوين الثاني] في القدس، أرغم لويس بوساطة رغبة داخلية على قرار الذهاب إلى القدس لأن أخاه فيليب كان قد ربط نفسه بالتعهد نفسه، لكنه منع بالموت، ولم يمتلك الرغبة في زيادة تأجيل هذا القرار، ولذلك استدعى بعضاً من أمرائه وأباح لهم ماكان يدور في خلده.

وكان في تلك الآونة في فرنسا راعياً لدير كليرفو اسمه برنارد، وكان محترماً في الحياة والأخلاق، عظيماً في طريقته الدينية، تمتع بالحكمة والمعرفة الأدبية، ومشهوراً في الشارات والكرامات العجيبة، وقرر الأمراء استدعاءه بغية سؤاله —وكأنه يملك الالهام الرباني— ماالذي ينبغي فعله بالنسبة لهذه المسألة، وتمّ استدعاء الراعي المتقدم الذكر، وطلب منه تقديم نصيحته بشأن رغبة الأمير التي ذكرتها، ورأى أنه لايجوز اعطاء الجواب لمثل هذه المسألة الكبيرة والحكم عليها انطلاقاً من موقفه ورأيه لوحده، ولهذا أجاب انه من الأفضل احالة المسألة إلى مسامع وتقدير الحبر الروماني، وبناءً عليه جرى إرسال سفارة إلى يوجين، ووضعت القضية بأكملها أمامه، وفكر يوجين فيها ملياً، وانطلق من قاعدة سلفه —أي اعتمد على حقيقة ماقام به أوربان في مثل هذه المناسبة، وكيف

أنه ربح بإعادة الوحدة والسلام إلى كنيسة ماوراء البحار مع بطريركتين (أي أنطاكية والقدس) كانتا قد قطعتا نفسيهما عن طاعة الكنيسة الرومانية— فأعطى موافقته على رغبات الملك السالف الذكر، وذلك في سبيل مد انتشار الايمان المسيحي ومراعاته، ومنح الراعي الذي ذكرنا اسمه من قبل —والذي نظر من قبل شعوب فرنسا وألمانيا كنبي وحواري— صلاحيات وسلطة التبشير وتحريك قلوب الذين كانوا هناك، وهاكم نص الرسالة التي وجهها إلى الملك مع أمرائه فيما يلي:

(٣٥)٣٦ «الأسقف يوجين عبد عبيد الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، لويس الملك المجد واللامع للفرنجة وإلى أبنائه الأحباء الأمراء، وإلى جميع الشعب المؤمن بالرب، الذي يسكن في أرجاء فرنسا، تحيات وتبريكات رسولية.

كم كان عظيماً، مابذله أسلافنا من البابوات الرومان، في سبيل تحرير الكنيسة الشرقية، فلقد عرفنا ذلك من روايات المسنين من الرجال، ووجدناه مدوناً في تواريخهم، ذلك أن سلفنا البابا أوربان صاحب الذكرى المباركة، أرسل النداء،وكأنه صوت من السماء، وتولى حشد أبناء الكنيسة الرومانية المقدسة من أقاصي الأرض للتداول حول هذا، واستجابة لندائه، قام الذين فيما وراء الجبال، وبشكل خاص أكثر المقاتلين شجاعة ونشاطاً لملكة الفرنجة وكذلك المقاتلين من ايطاليا الذين التهبوا حماساً واندفاعاً، فتدفقوا جميعاً واجتمعوا، وعندما اجتمع حشد عظيم منهم قاموا بتحرير تلك المدينة من دنس الكفار، تلك المدينة التي عانى فيها مخلصنا عن طواعية من أجلنا، وتركها لنا لتكون ذكرى لمعاناته ولضريحه المجد، ولقد فعلوا ذلك بدون أن يسفكوا كثيراً من دمائهم، فقد رافقتهم العناية الربانية والمساعدة، وحرر هذا الحشد أعداد كبيرة من مدن أخرى، تجنباً للاطالة لن أقوم بذكرها، فقد ناضل هؤلاء بنعمة من الرب وبفضل حماس آبائك وغيرتهم فيما تقدم من

السنين ، ناضلوا بقوة لحمايتهم ولينشروا في الخارج اسم المسيح، وفي تلك الأجزاء التي مازالت بأيدي المسيحيين حتى أيامنا هذه، وكذلك مدناً أخرى من مدن الكفار التي استولوا عليها بشجاعة، لكن الآن، بسبب من ذنوبنا وذنوب هؤلاء الناس، جرى الاستيلاء على مدينة إديسا من قبل أعداء صليب الرب، وإديسا هي المدينة التي لانستطيع ذكرها دون عظيم أسى ونحيب، إنها المدينة التي ندعوها بلساننا الرها، التي قيل إنها الوحيدة التي خدمت الرب وبقيت تحت الحكم المسيحي وذلك في وقت كانت فيه جميع بلدان الشرق مملوكة من قبل الكفار، نعم لقد استولى عليها أعداء صليب المسيح وعلى عدد كبير من الحصون المسيحية التي كانوا قد انتزعوها منهم، وحدث إثر هذا أن جرى هناك قتل رئيس أساقفة تلك المدينة مع رجال دينه وعدد كبير آخر من المسيحيين، كما أعطيت آثار القديسين إلى الكفار للدوس عليها وبعثرتها.

وعلى هذا كم هي عظيمة المخاطر التي تهدد كنيسة الرب وجميع المسيحيين، فهذا مانلاحظه نحن أنفسنا، ونعتقد أنه ليس خافياً على حكمتكم، وسيكون جلياً وأعظم برهان على نبلكم وتماسككم إذا ماتمّ الدفاع عما امتلكه الآباء بقدرتهم، بوساطة قدراتكم أنتم أبناؤهم، لكن إذا ماكان الأمر غير ذلك —الذي يحرمه الرب— فإن شجاعة الآباء التي ظهرت سوف تتلاشى في أبنائهم.

وبناءً عليه نحن ننذركم، ونرجوكم، ونأمر كل واحد منكم، وقد قضينا بغفران ذنوبكم، وهذا الذي قضيناه هو قضاء الرب، وخصصنا بالغفران الذين هم أكثر قوة ونبلاً، الذين حملوا أسلحتهم بكل شجاعة، ويناضلون بشدة لمواجهة حشود الكنيسة الشرقية التي جرى —كما قلنا— تحريرها من طغيانهم بسفك كثير من دماء آبائكم وسيتولون انقاذ الآلاف المؤلفة من الأسرى، وتخليصهم من أيديهم، فهم اخواننا، حتى يزداد شرف اسم المسيحية عظمة وانتشاراً في أيامكم، ومن أجل أن تبقى

شجاعتكم التي عمّ الثناء عليها في جميع أرجاء الدنيا سليمة غير مخدوشة.

وليكن ميثاثياس [المكابيون: ١/ ٢] مثلاً أعلى لكم، فهو لم يتردد أبداً في تعريض نفسه مع أولاده وأبويه للموت في سبيل الحفاظ على شريعة آبائه، كما لم يتردد مطلقاً في التخلي عن كل مايملكه، وأخيراً وبمعونة ربانية، وبعد جهد طويل، انتصر هو مع أبنائه برجولة على أعدائهم.

واعتماداً على صلاحياتنا الأبوية وعملنا من أجل سلام شعبكم، وإعادة بناء تلك الكنيسة، وبموجب السلطات المضفاة علينا من الرب إننا نمنح ونؤكد منح الغفران من الذنوب الذي أعطاه سلفنا البابا أوربان إلى الذين قرروا بموجب غيرتهم الدينية وحماسهم القيام بالواجب المقدس جداً، وتنفيذ الأعمال الضرورية كثيراً، ونرسم أن أزواجهم وأولادهم وبضائعهم ومقتنياتهم سوف تبقى تحت حماية الكنيسة المقدسة، وتحت حمايتنا، وتحت حماية رؤساء الأساقفة، وحماية الأساقفة ورجال الدين الآخرين في كنيسة الرب، زيادة على هذا إننا نحرم بموجب سلطاتنا الرسولية القيام بأي اجراءات قانونية تتعلق بأي من ممتلكاتهم القائمة في الآونة التي قبلوا فيها حمل الصليب، حتى تتوفر معلومات أكيدة تتعلق بعودتهم أو وفاتهم.

زد على هذا، بما أن هؤلاء الذين هم جنود الرب، سوف لن يهتموا بأي شكل من الأشكال، أو يلتفتوا نحو الملابس الثمينة أو الزينة الشخصية، أو الكلاب أو النسور، أو الأشياء الأخرى، التي تعبّر عن حياة الرفاهية إننا نتمنى على حكمتكم باسم الرب، في أن لايلتفت الذين وصلوا إلى قرار القيام بمثل هذا الواجب المقدس، نحو هذه الأشياء بل أن يكرسوا حماسهم وعنايتهم مع جميع طاقاتهم، على السلاح والخيول والأشياء الأخرى التي يمكن بها محق الكفار.

زيادة على هذا، إن جميع المثقلين بالدين، ممن قرروا بقلبٍ نقي القيام بهذه الرحلة العظيمة القداسة، لايحتاجون إلى دفع الفوائد المستحقة عليهم، وإذا ماكانوا هم أنفسهم قاموا ، أو أحد سواهم لصالحهم بقسم أو تعهد من أجل هذه الفوائد، إننا نقوم بموجب سلطاتنا الرسولية بتحليلهم من هذه العهود والأيمان، كما ونسمح لهم في حال أن أقربائهم أو مواليهم الاقطاعيين، كانوا بعدما سئلوا غير قادرين أو غير راغبين بتزويدهم بالمال، في أن يقوموا برهن أراضيهم أو ممتلكاتهم لدى الكنائس أو لدى الشخصيات اللاهوتية أو لدى المؤمنين الآخرين، حسبما يرغبون ودون أن يعترضهم معترض.

ونحن نمنح الغفران من الذنوب والتحليل، وفقاً للسابقة التي أسسها سلفنا، وكذلك بموجب سلطات الرب القادر ، وبطرس المقدس، رئيس الحواريين، وبموجب السلطات الممنوحة إلينا من قبل الرب، وبناءً عليه: كل من تولى عن طواعية وإيمان القيام بهذه الرحلة العالية القداسة، وأكملها أو توفي هناك، سيحصل على غفران تام لجميع ذنوبه التي تقدم له واعترف بها بقلبٍ ذليل، كما وسيحصل من بين جميع الجوائز، على ثمرة المثوبة السرمدية.

منح في فيترالا Vetralla في شهر كانون الأول [١١٤٥]».

٣٧(٣٦) ولنعدبعد هذا إلى سياق الرواية:

لم يسىء الراعي برنارد المبجل استخدام السلطات التي أضفاها عليه الكرسي الرسولي، فقد حزم نفسه وتمنطق بسيف كلمة الرب، وبعدما أيقظ قلوب العديدين من أجل القيام بالحملة إلى ماوراء البحار، قام أخيراً [١١٤٦] بعقد اجتماع عام في فيزلي، وهي بلدة فرنسية حفظت فيها عظام مريم المجدلية المباركة، وحضر الاجتماع عظماء وأعيان مقاطعات فرنسا، فقد تسلم هناك لويس ملك الفرنسيين، بنشاط عظيم

وروح عالية الصليب من الراعي الآنف الذكر، وتطوع للقيام بالعمل العسكري فيها وراء البحار، ومعه الكونتين: ثيري أوف فلاندرز، وهنري ابن ثيبود أوف بليوس، وبارونات آخرين ونبلاء من مملكته.

٣٨(٣٧) وفي الوقت نفسه كان هناك الراهب رالف، وكان بالحقيقة رجلاً متمسكاً بالتقاليد الدينية، وآخذاً بذكاء بصرامة الدين، مع أنه كان متوسط الثقافة، وقد دخل هذا الراهب إلى المناطق الفرنسية المتاخمة للراين، وألهب اثارة عدة آلاف من سكان: كولون، ومينز، وورمز، وسبير، وستراسبورغ، ومدن مجاورة أخرى، وبلدات وقرى، وجعلهم يقبلون بحمل الصليب، لكنه قام أثناء تبشيره بالدعوة بكل صراحة بأنه من المتوجب ذبح اليهود الذين تبعثرت مساكنهم خلال المدن والبلدات لأنهم أعداء الديانة المسيحية، وترسخت جذور هذه الدعوة وانتشرت وتنامت في عدد كبير من مدن فرنسا وألمانيا وقادت إلى قتل أعداد كبيرة من اليهود أثناء هذه الزوبعة الهائجة، في حين التجأ الكثيرون واحتموا تحت حماية أمير الرومان، وهكذا حدث أن الكثيرين منهم هربوا من هذه الأعمال الوحشية بهدف انقاذ حياتهم، وحملوا أنفسهم إلى بلدة الأمير التي اسمها نوركيوم أو نورنبيرغ وإلى مدن أخرى تابعة له.

٣٩(٣٨) وقام راعي كليرفو المتقدم الذكر باعطاء تعليمات حظر بها هذه الدعوة، وبعث برسل ورسائل إلى شعبي فرنسا وألمانيا أوضح فيها بشكل جلي أنه بموجب سلطات الكتابات المقدسة ليس لليهود أن يقتلوا بسبب جرائمهم الدائمة، بل ينبغي بعثرتهم، ولفت الانتباه بهذه المناسبة إلى ماكتبه صاحب المزامير الذي قال في المزمور السابع والخمسين:

«الرب يريني بأعدائي. لاتقتلهم» ويقول أيضاً: «تيّهم بقوتك» .

[المزامير: ٥٩/ ١٠-١١] .

٤٠ (٣٩) والآن بعدما استجابت حشود لاتحصى في غربي فرنسا للقيام بالحملة فيما وراء البحار، قرر برنارد الالتفات بنشاطاته نحو شرقي مملكة الفرنجة، ليحرك بقوة التبشير وليثير قلب أمير الرومان حتى يقبل بحمل الصليب، وكذلك ليقوم باسكات رالف، الذي يدفع الناس في المدن للثورة على أسيادهم وذلك أثناء تبشيره وحملته ضد اليهود، وإثر سماعه بهذا، قام الأمير بتوجيه الدعوة إلى اجتماع عام يعقد في مدينة سبير يوم ميلاد الرب [عيد ميلاد ١١٤٦]، وقدم الراعي المتقدم الذكر إلى هناك، فتمكن من اقناع الملك مع ابن أخيه فردريك، وأمراء آخرين وأعيان مشهورين بقبول حمل الصليب، كما أنه قام بعدد من الأعمال الاعجازية بشكل علني وبشكل خاص.

هذا وكان قد ذهب أيضاً إلى مينز [تشرين ثاني ١١٤٦ قبل عقد الاجتماع العام في سبير] حيث وجد رالف يعيش هناك وسط حظوة عظيمة من الناس، فاستدعاه إليه وحذره من توريط نفسه بموجب سلطات التبشير، وذلك بالتجوال في البلاد خارقاً بذلك أحكام الرهبنة، ثم ضغط عليه وشدد حتى أقنعه بالوعد بالطاعة والعودة إلى ديره، وكان الشعب غاضباً جداً لهذا ، وأراد الشروع بالثورة، لكنه تمنع وحبس نفسه بسبب قداسة برنارد.

٤١- في الوقت نفسه حمل الدوق فردريك العالي النبالة، في قلبه غضباً عظيماً ضد مولاه وأخيه الملك كونراد، لأنه سمح لابنه فردريك —الذي كان بكره والولد الوحيد الذي ولد له من زوجته النبيلة الأولى، وجعله الوريث لجميع البلاد وأوكل إليه المسؤولية عن زوجته الثانية وابنها الصغير— وذلك بغية قبوله بالصليب، وكان الدوق فردريك معوقاً في فرنسا بسبب مرض خطير ألمّ به، وقد جاء الراعي السالف الذكر لزيارته، وباركه وصلى من أجله، غير أن هذا الدوق لم يستطع تحمل آلام مرضه وأحزانه، فتوفي بعد أيام قليلة، ودفن في الدير الذي يحمل اسم

القديس ولبيرغ، والقائم على حدود الألزاس، وقد خلفه ابنه فردر دوقيته.

٤٢(٤٠) دخل بعد هذا الأمير إلى بافاريا، وعقد هناك اجتماعاً ؛ شهر شباط [١١٤٧]، واصطحب معه بدلاً من راعي كليرفو آدم إبراخ Ebrach وكان رجلاً مؤمناً ومثقفاً، وقد أقام هناك قداساً حسبما جرت العادة، وبعدما استمطر الرحمات من الروح القدس المنبر، وإثر قراءته لرسالتي الكرسي الرسولي وراعي كليرفو، اس بوساطة إثارة بسيطة أن يقنع الجميع تقريباً ممن كان للتعهد با بالخدمة العسكرية، ذلك أنه لم تكن هناك من حاجة لاستخدام ؛ الحكمة الانسانية للاقناع أو للاستعانة بوسائل الاثارة الاصطن اعتماداً على أساليب البلاغة الخطابية، بسبب أن جميع الذين حاضرين قد أثيروا من قبل وجاءوا مسرعين عن طواعية واختيا أنفسهم لاستلام الصليب، وتقبل في تلك الساعة نفسها ثلاثة الأساقفة الصليب وهم:

هنري أوف ريجنسبيرغ، وأوتو أوف فريزنغ ورينبيرت أوف بـ وكذلك دوق البافاريين، واسمه هنري، الذي هو أخو الملك، وجا بين سلك الكونتات والنبلاء والأعيان البارزين حشد لايمكن عدّه، الغريب الحديث عن إلتحاق حشد عظيم من قطاع الطرق واللص حيث قدموا مسرعين، إلى حد أن ما من انسان فيه عقل يخفق في إ أن هذا التحول المفاجيء وغير الاعتيادي قد جاء من أيدي الرب ا سمواً، وألا يأتي ادراكه من قلب أصيب بالدهشة، وتعهد ولف، الآخر لهنري، وهو الدوق المتقدم، والذي كان واحداً من أعلى ؛ المملكة مكانة، بالقيام بالمهمة العسكرية نفسها، وكان معه عدد آخر، وتمّ تعهدهم في مساء يوم ميلاد مولانا، وجرى ذلك في اقطاعي ستيريا Styria ولم يمض وقت طويل حتى أخذ الصليب أيـ

فـلاديسلاف دوق البـوهيميين (*)، وأوتـوكـار أمير تخوم ستيريا، وكـونـت برنارد الـلامع صاحب كـارينثيا Carinthia ، وتبعهم أعداد كبيرة مـن أتباعهـم وشعبهـم، غيرأن السكسون، رفضـوا التـوجه نحـو الشرق، لمجاورتهم لبعض القبـائل التي انصرفت عن قذارة الوثنيـة، ولذلك حين حمل السكسون الصليب مثـل سواهم قصدوا حرب هـذه الأجناس، ومن هذا الجانب اختلفت صلبانهم عن صلباننا، في أنها لم تكن مخاطة ببساطة إلى ثيابهم بل حملت عالية فوق عجلات.

٤٣(٤١)- وفيما يلي نسخـة الرسـالـة التـي بعث بها راعـي كليرفـو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة [١١٤٦]:

«إلى الأمراء الأعـزاء جداً والآباء، ورؤساء الأسـاقفة، والأساقفـة وجميع رجال الـدين والشعـب في شرقي فرنسـا وبافـاريا. من بـرنارد راعـي دير كليرفو، فيض من روح الشجاعة.

إنني متحدث إليكـم عن أشياء تتعلق بـالمسيح، خاصة حـول الأمور التي يـوجد فيهـا خلاصكـم، وأقول مـايمكن لسلطـات الرب أن تسـوغ عدم صلاح الشخص الذي يتحـدث، كما تعطي الاعتبار للكلمات المتفوه بها، إنني في الحقيقـة ضعيف، غيرأنني لسـت ضعيفاً في رغباتي نحـوكم في حب يسـوع المسيح، وهذا هـو السبب الـدافع لي للكتابـة إليكم، إنها مناسبـة اقدامي على التشـاور معكم جميعاً بـالمراسلة، ولدي رغبـة تفضل بحث هـذا معكم بـوساطة كلمات الفـم، إذا ماتـوفرت الارادة، وتـأمنت المناسبة.

(*)- فلاديسـلاف الثاني، زوج غيرترود أخت أوتـو، ونصف أخت كـونرادالثالث، وقـد أقيم دوقاً في بوهيميـا سنة ١١٤٢ بمساندة مـن كونراد، وكثيراً مايتـداخل اسمه مع اسـم فلاديسلاف الثاني صاحب بولاندا، الذي تزوج من أنجس أخت أوتو.

انتبهوا أيها الأخوة إن الوقت الآن هو وقت الاجابة. انتبهوا إن اليوم الآن هو يوم الخلاص في جميع المعايير، لأن الأرض تحركت وجاشت، لأن رب السموات سيخسر أرضه، أرضه التي ظهر فيها، وعاش فيها لمدة تزيد على الثلاثين سنة بمثابة رجل بين الرجال، أرضه التي تمجدت بمعجزاته والتي كرسها بدمه الذاتي، والتي ظهرت فيها أول زهور القيامة، والآن حدث بسبب ذنوبنا أن رفع أعداء الصليب رؤوسهم الملعونة، وعاثوا فساداً بحدّ السيف في تلك الأرض المباركة التي هي أرض الميعاد، الوقت بات قريباً، لابل إنه لن يمضي كثيراً قبل أن يندفعوا إلى داخل مدينة الرب الحي، ليدمروا الأعمال التي صنعها مخلصنا، وليلوثوا الأماكن المقدسة ويلطخوها بالدم القرمزي لحمل بلا عيب ولا دنس، لقد أطبقوا —وأسفي لذلك— بمقابض ملوثة على الحرم المقدس للديانة المسيحية، ويسعون إلى تدنيس، وإلى أن يضعوا تحت أقدامهم مكان الراحة الذي ترتاح فيه حياتنا بالموت، ماذا نحن أيها الرجال الشجعان؟ ماذا أنتم ياعبيد الصليب؟ هل ستعطون ماهو مقدس للكلاب ودرركم للخنازير؟ كم من مذنب اعترف هناك بذنبه وهو يبكي ونال العفو، وذلك منذ أن أزيلت قذارة الكفار بسيوف آبائنا! لقد رأى الشرير هذا، فكان جسوراً فالتهم بأسنانه ذلك كله وذهب به، وقد أثار عبيد طغيانه حتى لايبقى أدنى أثر أو شارة من التقوى أبداً —لاسمح الرب— ولذلك قواهم حتى ينتصروا، وحقيقة إن هذا مصدر آلام لجميع الأجيال المقبلة لأن الخسارة لايمكن تعويضها، لكن بالنسبة للجيل الشرير الحالي سيكون بشكل خاص مصدراً للعار وللانتقاد بلانهاية، ومع هذا ماالذي ترونه أيها الاخوان؟ هل بات ذراع الرب قصيراً أو ضعيفاً لايستطيع الانقاذ، لأنه حشد هذا القليل فقط للدفاع عنه، ولاسترداد ميراثه؟ ألا يستطيع هو ارسال أكثر من اثنتي عشرة فرقة من الملائكة، أو حتى أن يتفوه بالكلمة فقط، ستكون البلاد حرة؟ لاشك أن قوته موجودة حيثما أراد ومتى شاء.

لكنني أقـول لكم إن الرب مـولاكـم يقوم بـامتحانكم، إنـه يحدق ببني البشر ليرى بمجرد الصدفة واحداً يمكنـه أن يفهم وأن يبحث، وهو آسف مـن أجله، لأن لـدى الـرب الـرحمة لشعبه، ويـزود الـذيـن سقطوا نحـو الأسفل بعـلاج الخلاص، قدروا كـم هي بديعـة طرائقـه للانقـاذ ورائعة، تمعنوا أيها المذنبـون كم هـو عميق حبـه، وآمنوا، هـو لايريـد موتكـم، بل يريـدكم أن تتحولـوا وأن تعيشوا، لأنه ينشـد فرصـة لاتكون ضدكـم بل لصالحكم...».

بهذه الكلمات، وبالاشارة إلى الموضوع نفسه شغـل راعي كليرفو نفسه، وفق طـرائق الخطباء وأساليبهـم، وأكد أن اليهـود ينبغي ألا يقتلوا وبـرهن ذلك بالمنطق وباستخدام السلطة....

٤٤(٤٢) وهكذا تحركـت شعوب لاتحصى عـدداً وأمم ليس فقـط من داخل الامبراطـورية الرومـانية وإنما أيضـاً من الممالك المجـاورة، أي من فـرنسا وانكلترا وبـانـونيا، تحركـت جميعها لحمـل الصليـب، وفجأة غـدا الغرب كلـه تقريبـاً هادئاً ليس في عـدم إنشاب الحروب بـل في عدّه حمل السلاح بشكل علني خطأ........

٤٦(٤٤) وهكذا عنـدما انقشـع برد الشتاء، وبـدأت الورود والنبـاتات تخرج من بطن الأرض تحت زخات مطر الـربيع المباركة، وابتسمت المروج الخضراء للعالم، جاعلة وجه الأرض مسروراً، وقتها قـاد الملك كونراد قواته من نورمبرغ في تشكيل عسكري، وأخذ سفينة عند ريجينسبيرغ ليبحر نزولاً في الدانـوب، وفي يوم أحـد الصعود أقـام معسكره في الجهـة الشرقية مـن بلدة اسمها أرداكير Ardacher وانتظر هناك لمدة يـومين أو ثلاثة أيام رجـاله الـذين كـانوا قـادمين، وتابـع من هنـاك تقريبـاً حتى حـدود مملكتـه، وتوقـف ليـس بعيـداً عن نهر فيسكـا Fischa ، وبعدمـــــا احتفل هناك بأحد العنصرة عبر الليثا Leitha مع جميع قواتــه تقريباً،

حيث أبحر بعضهم نزولاً في الدانوب بينما تـابع آخرون السير براً، وقد أقام معسكره في بانـونيا، غير أنه جرّ من ورائه حشداً كـان عظيماً إلى حد بدت فيـه الأنهار وكأنها غير كـافيـة للملاحـة فـوقهـا أو أن امتدادات السهـول لاتكفي للسير عليها، وسار لـويس ملك الفرنسيين مع رجالـه خلفه لكن ليس بعيـداً عنه، وقـد جلب معـه من شعبنا أهـالي اللوريـن الذيـن كان أمراؤهم أو قادتهم من الأساقفـة: ستيفن أوف متز، وهنري أوف تول، ومن الكونتـات: رينالـد أوف موزون وهيـو أوف فودمـونت Vaudemont ومـن ايطاليـا أماديـوس أوف توريـن مـع أخيه وليـم مركيـز مونتفـرّات، وأعمامهما وعدد كبير آخر.........

(٤٥) وبعد بانـونيا جرى اجتياز بلغاريا لكـن على حساب الكثير من المتاعـب ومصاعـب الطريـق، وبعد عبـور تراقيـا العليا تـمّ تسلق جبـل هبروس، ثـم كان أن سرنـا لعـدة أيـام ونحن نشعـر بكثير مـن السرور في قلوبنـا في مناطق خصبـة في تراقيا الـدنيا، وذلـك في طريقنا نحـو المدينة الملكية [القسطنطينية]، وفي اليوم السابع قبـل الثالث عشر من أيلول، أي في اليـوم [٧-أيلول] الـذي تقـدم على الاحتفال بميـلاد مـريـم المباركـة وصلنا إلى أحـد الوديان على مقـربة مـن بلدة تدعـى شيرفاخ Chere-vach [كـاتالكـا إلى الغـرب من القسطنطينيـة]، وكان مكـانـاً جذابـاً بسبـب حقولـه الخضراء ولتميـزه بمجـرى نهر صغير يمر في وسطـه، ولقـد استولى علينا سحر المكان فقررنـا نصب خيمتنا هناك والاستراحة في ذلك المكان ذلك اليـوم، بهدف الاحتفال بسرور كبير وفرح بيوم ميـلاد أم الرب، العذراء دوما، وفقـط نصب الدوق فردريـك ومعه حاشيته وكـذلك عمه ولف —لأن عساكر اللورين لم تكـن قد التحقت بنا بعد— معسكراً على مقـربـة مـن طـرف أحـد الجبال المواجـه لنـا، وذلـك ليـس بعيـداً عـن البروبنطش الـذي يدعـى الآن باسـم ذراع القديـس جورج، فهنـاك على شاطئـه بلدتان صغيرتان هما: سلمبريـا وأثيرا، فمنهما كنا نتوقـع الحصول

على فرص للتجارة.

وقد عرف هذا البحر مرة باسم الهلسبونت، من خلال القصة المعروفة كثيراً حول فريكسوس وهيللي(*)، أو باسم البروبنطش (أي مطلع بنطش) لأنه يندفع نحو الأمام من البنطش بقوة نهرين عظيمين هما الدون والدانوب يتدفقان كما يقولون مثل سيل لطيف، ويصبان في البحر الأدرياتيكي أو البحر الطروادي قرب طروادة القديمة(**).وأعترف أننا لم نحصل خلال حملتنا على معسكر أجمل، ولم يكن معسكرنا قط مثل هذا (بحسب مايمكن للمرء أن يحكم من طريقة التعبير) مغطى باطار أوسع.

لكن حدث عند الصباح أن ظهرت غيمة صغيرة أخذت تنزل مطراً لطيفاً، وفجأة تغيرت الأحوال وقامت زوبعة تلاها ريح شديد اقتلع الخيم ومزقها، ودفعها بعنف نحو الأرض، وقد بعثنا ذلك من فرشنا التي أوينا إليها متأخرين، وقامت زوبعة ملأت الجو من حولنا، لأن النهر الصغير ازداد حجمه كثيراً —لعل ذلك كان بسبب تدفق مياه البحر المجاورة، أو نتيجة للأمطار المتساقطة، أو أن تساقط الأمطار بهذه الغزارة كان انتقاماً من قبل الرب في علاه، فهذا كله غير مؤكد— ونتيجة لازدياد الماء فيه فقد طافت زيادة عن عادتها إلى حد أنها غطت جميع البقعة، ماالذي كان من الممكن لنا فعله؟ فقد عددنا هذا عقوبة ربانية، وليس كارثة طبيعية، ومع ذلك امتلأنا جزعاً، ومهما يكن الحال أسرعنا نحو خيولنا القوية، وحاول كل منا عبور النهر بأفضل طريقة ممكنة له، وكان بإمكانك أن تشهد بعضنا يسبح، وبعض تمسك بظهور الخيل، وربط بعضهم أنفسهم بلا حياء بحبال بغية النجاة من الخطر، واندفع

(*)- هرب فريكسوس وأخته هيللي عبر المضائق على ظهر كبش صوفه ذهبي، غير أن هيللي وقعت وغرقت.

(**)- خطأ —يصبان في بحر ايجه.

بعضهم بشكل فوضوي إلى داخل النهر وأخذوا يغطسون لأنهم بدون انتباه تمازجوا واختلطوا، وكان هناك أعداداً كبيرة اعتقدت أن بإمكانها السير والعبور فجرفها بعيداً اندفاع النهر، فأصيبت بجراح بسبب الصخور، وغرقت بقوة تيار الدوامات، ففقدت حياتها في النهر، وقام بعض الذين لايعرفون السباحة بالامساك بهؤلاء الذين كانوا يسبحون، وكان هدفهم النجاة غير أنهم سببوا الانهاك لهم، ولذلك أعيقوا، حتى توقفت أذرعتهم عن الحركة فاستلقوا على ظهورهم، وغطسوا جميعاً وغرقوا.

واستطاع بعضنا الآن أن يحملوا أنفسهم إلى خيام الدوق فردريك التي بقيت لوحدها دون أن تصاب بأذى من هذا الفيضان المدمر، واستمعنا هناك إلى قداس مهيب وغنينا «دعونا نبتهج» ولكن بدون بهجة أو سرور لشعورنا بكثير من المرارة في القلب، ولهذا سمعنا أنين وبكاء رجالنا، وتمكن أخيراً بعضهم من جواز هذا الرعب بوساطة الكثير من الجهد والخوف، وقام بعضهم الآخر وهم في حالة من اليأس فربطوا معاً عدة عربات مع تجهيزات أخرى مما أمكن تأمينه، ووضعوا هذه المواد لتشكل حاجزاً ضد الماء المندفع منتظرين توقف الفيضان.

لكن كم كان عظيماً ماخسره جيشنا هناك في الرجال والبضائع والعتاد الضروري لمثل هذه الرحلة الطويلة، لاأحتاج أن أذكره، ففي اليوم التالي عندما تناقصت المياه وظهر وجه الأرض، كنا جميعاً مبعثرين هنا وهناك، ويمكنك حين ترانا أن ترى صورة محزنة لمعسكرنا على عكس الصورة المبهجة التي يمكنك رؤيتها في اليوم المتقدم، ولذلك ليس —كما يبدو— خطأ القول كم إن القوة الربانية أهم من النور، وكيف أن السعادة الانسانية غير مستقرة، وتزول بسرعة. لكن يكفي هذا......

(٥٨)٦٢ وبينما كانت هذه المسائل وقضايا أخرى من هذا النوع

تحدث في فرنسا، غطى جيشنا وجه البحر، وتوزع مستخدماً مختلف الوسائل والجهود من الابحار بالسفن أو طرائق أخرى في أماكن متعددة بغية الوصول إلى اليابسة في أسرع وقت ممكن، لأن لويس ملك الفرنجة رسا في حوالي منتصف أيام الصيام في مكان يدعى ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من أنطاكية، وهي البلاد التي كان أميرها عمّ زوجته(*)، ورست مجموعة أخرى من قواتنا في بطوليس التي تدعى أيضاً باسم عكا، ومجموعة في صور، وأخرى في الصرفند فيما بين صيدا وصور، والصرفند هي ساربتا Sarepta بلدة صيدونياس، ولم يأت رسوهم خلواً من الخوف من تحطم بعض السفن، وبالفعل عانى بعضهم من تحطم سفنهم فكان أن ابتلع اليم بعضهم ونجا بعضهم الآخر وهم نصف عراة.

ودخل الذين وصلوا إلى الشاطىء مبكرين إلى المدينة المقدسة في حوالي أحد سعف النخيل، واحتفلوا هناك باسبوع آلام الرب والقيامة المقدسة، بكثير من مشاعر التقوى في القلب، وداروا حول مختلف هذه الأماكن التي وقعت فيها هذه الأحداث ولمسوها ورأوها رأي العين كما يقول الناس.

ورسا كونراد أمير الرومان في عكا في أسبوع الفصح، وكان بصحبته الأمراء:

أورتليب Ortlieb أسقف بازل وأرنولد، مستشاره، وفردريك دوق سوابيا، وهنري دوق بافاريا، والدوق ولف مع عدد آخر من الكونتات والأعيان والنبلاء، وبعد مضي عدة أيام توجه إلى القدس وسط احتفال

(*)- كان ريموند أوف بواتيه صاحب أنطاكية، أصغر أولاد وليم التاسع دوق أكوتين، وكانت زوجة لويس هي إليانور ابنة وليم العاشر دوق أكوتين.

عظيم واحتفاء به، قام به رجال الـدين والشعب، حيث استقبل بتشريف كبير، وتوفي هنـاك في تلك الآونـة فردريـك [أوف بوغـن] الذي كـان من أتباع الملـك، وكان محاميـاً شهيراً عن كنيسـة ريجنسبيرغ، وحمل جثمانه إلى المدينة المقدسـة، ودفن في مقبرة فرسان الـداوية، ليس بعيداً عـن معبد الرب القديم.

وبقـي الملك هنـاك لبضعـة أيام، حيـث أقـام في قصر الـداوية، وهـو المكان الذي كان فيها مضى البيت الملكي، الذي هو أيضاً هيكل سليمان، فهناك بني، وبعـدما زار الأماكن المقـدسة في كل مكان عـاد إلى عكا من خلال السامرة وطبريـة، وعندما وصل الفرسان أقنعهـم جميعاً بالأعطيات المالية بـالبقاء، ذلك أنـه اتفق مع ملـك تلك البـلاد والبطريرك وفـرسان الداوية على أن يتولى قيادة جيش إلى سـورية في آب المقبل للاستيلاء على دمشـق، ولهذا شرع في حشد مـاتمكن مـن القـوات بوسـاطة انفـاق المال بسخاء.

٦٣- وتبع الملـك لويس الفرنسي المنحـى نفسه أيضاً، وذلك بقـدر ما أوتي من قـوة، فبعد عـودته من أنطـاكية مكث في صـور، وإثرهـذا التقى الملكان في شهـر حزيـران، في حوالي مـوعد عيـد ميلاد يـوحنا المعمـدان [٢٤حـزيـران ١١٤٨] في مكان يـدعـى بـالما (آخـذاً اسمه مـن شجـرة النخيل) فيها بين صور وعكـا، لوضع الخطط فيها يتعلق بالـوقت والمكان، والموعد الـذي ينبغي فيـه حشد الجيش، وعلى كـل حال، ومهما يكـن من أمـر، لم يتم ابتـلاع الإباء الملكـي وايداعـه جـانباً دونها مشـاق ومتاعـب عظيمة، وبما أن مانتـج وماحدث أثناء الحملة إلى دمشق قـد تمت المعاناة منه لذلك ينبغي حكايته في مكان آخر، وربما من قبل آخرين.

٦٤(٥٩) وبعـد إكمال هـذه الحملـة، أخـذ الأمـراء يعـدون خططهـم للعودة إلى الوطن:

الملك الروماني من خلال بلاد الاغريق [بيزنطة]، لكن الآخر عبر طريق كالبريا وأبوليا، وبناءً عليه أقلع كونراد أمير الرومان من عكا، وبعدما عبر البحر إلتقى بأخيه وصديقه مانويل، أمير المدينة الملكية في منطقة آخيا أوثيسلي، وقد مضى لرؤيته وكان مرهقاً بسبب طول الرحلة، وضعيفاً نتيجة لمشاقها، كما وكان يعاني من إعياء عظيم، ولقد ارتاح لديه لبعض الوقت(*)، وأعدّ هناك العدة للعودة، وأرسل أمامه ابن أخيه فردريك ليبحث، أو بالحري ليمتن أوضاع الامبراطورية، وأخذ فردريك الطريق خلال بلغاريا وبانونيا، وقد وصل بلاده في شهر شباط، وباشر ممارسة أعماله بمثابة قاض جيد، فلصالح السلام قام بشنق واحد من وزرائه، وبناءً عليه قام عمه الملك بعد ا نقضاء عدد من الأيام استراح فيها في بلاد الاغريق بالوصول إلى داخل مملكته إلى يولا، وهي مدينة في استريا، [النمسا] وذلك بعد ابحاره عبر بحر ايليريا ودالماشيا، وقد جلب معه أسقف بازل المتقدم الذكر، والمستشار أرنولد مع أخيه هنري دوق البافاريين، لأن الدوق ولف عاد عبر طريق كالبيريا وأبوليا، وفي أبوليا اتخذ كونراد لنفسه مطية امتطاها ورحل وهو على متنها خلال أكويليا Aquileia وقد احتفل بأحد العنصرة في يوفافيا التي تدعى الآن سالسبورغ، والمعروفة بأنها مقرّ مطرانية بافاريا، وكان قد مضى عامان على حضوره الاحتفال بهذا العيد نفسه في منطقة بانونيا، وأقام بعد هذا حفلة غذاء في ريجنسبيرغ، حضره حشد كبير من الأمراء.

(*)- رافق كونراد مانويل فذهب إلى القسطنطينية حيث مكث حتى ربيع١١٤٩، وخلال هذه المدة عقد الملكان تحالفاً ضد روجر صاحب صقلية.

المحتوى